

التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين

دكتور
عمري عيسى محمد
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

دار المعرفتة الجامعية
٤٠ منشور - الكنائس - ٢٨٣٠١٦٣
٣٨٧ منشور - الكنائس - ٥١٧٣١٢٦

To: www.al-mostafa.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وقل ربى زدنى علما »

صدق الله العظيم

إهداء

الى أمي ...

نبع الحب والعطاء الدائم ...

مقدمة

يتناول موضوع البحث تاريخ دولة المرابطين في عصر علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ / ١١٠٦ - ١١٤٣ م) • ودولة المرابطين دولة مجاهدة عظيمة لعبت دورا هاما وخطيرا في التاريخ الاسلامى بصفة عامة وتاريخ المغرب والاندلس بصفة خاصة ، فقد تمكنت من نشر رايات الاسلام في ربوع السودان الغربى ، ونشرت الثقافة الاسلامية بين تلك القبائل البربرية المتخلفة ، ثم لم تلبث أن توسعت صوب الشمال ، فاقترحت ميدان المغرب والاندلس وشاركت في معركة الجهاد ، فأنقذت الاسلام مما كان يوشك أن يتردى فيه ، وناصبت الممالك المسيحية في أسبانيا العداء وتصدت لعدوانهم وروت بدماء أهل المغرب أرض الاندلس ، وقد سجل التاريخ أسماء أبطال المرابطين وفرسانهم في سجل الخالدين ، وأصبح اسم يوسف بن تاشفين يقترن باسم صلاح الدين الايوبى وغيره من أبطال المعارك الصليبية ، وتبع ذلك عهد تألقت فيه دولة المرابطين وازدهرت ازدهارا أثبه ما يكون بشفق المغيب ، وأعنى به عهد الامير على بن يوسف الذى يعتبر عصر الصحوة التى تسبق السقوط والانهايار لدولة المرابطين •

وعندما عزمت على اختيار موضوع البحث لم تتيسر لى المصادر الكافية التى يمكن أن تعيننى على تسليط الاضواء على عصره ، ولكن احساسى بأهمية الموضوع ، وأن هذه الفترة من تاريخ المغرب والاندلس كانت فترة حاسمة خطيرة ، دفعنى بالحاح الى المثابرة على تحصيل المادة العلمية من مختلف المصادر والوثائق •

وأرجو أن أكون قد وفقت في ابراز المعالم الرئيسية لعصر هذا الامير وتوضيح الدور الذى لعبه في تاريخ المغرب والاندلس •

وقد واجهتنى في هذا البحث الكثير من الصعاب ، لعل أهمها ندرة

الوثائق والمصادر الاصلية المعاصرة لهذه الفترة موضوع البحث ، فقد تعرض المرابطون لعداء الموحدين الذين عملوا على اساءة اليهم ، فمحووا آثارهم وشوهوا تاريخهم ورموهم بكل نقيصة ، وقد عمد كثيرون منهم الى تجريح المرابطين وتشويه صورتهم ، كما تعرضت دولة المرابطين لكرهية أدباء الاندلس الذين دفعتهم عصبيتهم الاندلسية الى احتقار هؤلاء اللمتونيين البربر واعتبارهم أغرابا دخلاء استولوا على بلادهم باسم الجهاد ، متناسين بذلك العاطفة الدينية التي كانت توجب عايتهم أن يعترفوا للمرابطين بفضلهم الاكبر هو انقاذهم للاسلام في الاندلس بعد أن ضاق عليه الخناق منذ طليعة القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) • ولم يكن غريبا أن يتحامل على المرابطين أمثال هؤلاء الادباء ممن كانوا يجدون في حياة الترف والانحلال التي استغرق فيها ملوك الطوائف مرتعا خصبا ومعينا لا ينضب يروون منه أطماعهم وشهواتهم ، وقد كان من مظاهر ذلك ما كتبه الشقندى في رسالته التي تعصب فيها للصقلب وراح ينتقص من العرب ومن البربر على السواء ، وقد رمى الشقندى المرابطين بالجهل والتعصب • كذلك تعرض المرابطون لتحامل فريق من المؤرخين الاوربيين المحدثين يتزعمهم دوزى الذى شن حملة شعواء على المرابطين ، لتعاطفه مع ملوك الطوائف وعلى الاخص لبنى عباد أصحاب أشبيلية •

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد مضيت في سبيل البحث قدما ، واعتمدت على كل ما توفر لى من المصادر العربية تاريخية وجغرافية وأدبية كما اعتمدت على المراجع الحديثة سواء العربية منها والاوروبية التي تناولت تاريخ المرابطين من قريب وبعيد •

ولقد وضعت نصب عيني منذ البداية هدفين أساسيين ، حاولت من

خلال بحثى أن أصل اليهما ، أولهما ابراز الدور الذى لعبته الدولة المرابطية فى عصر على بن يوسف على الصعيد السياسى سواء فى المغرب أو فى الاندلس ، وثانيهما ايصاح الدور الحضارى للدولة ، متبعا فى كل ذلك المنهج العلمى القائم على المقابلة بين النصوص وتحليلها ، واستنباط الحقائق التى يمكن عن طريقها أن أسجل الافكار الجديدة وأصوعها الصياغة العلمية •

وقد قسمت بحثى الى مقدمة وتمهيد تاريخى وبابين أحدهما سياسى والآخر حضارى •

وقد اشتملت المقدمة على خطة البحث والدوافع التى دفعتنى لاختياره ، والمنهج الذى سلكته فى معالجة الموضوع ، اتبعتها بدراسة لاهم مصادر البحث •

فالتمهيد التاريخى أفردته للحديث عن قيام دولة المرابطين فى المغرب والاندلس ، فقد تتبعت بالدراسة أصل المرابطين ونشأتهم فى الصحراء والدور الذى لعبه الفقيه عبد الله بن ياسين والامراء المرابطين الاوائل فى قيام الدولة فى المغرب الاقصى ، ثم تعرضت بالتفصيل للدور الكبير الذى قدم به يوسف بن تاشفين فى تدعيم أركان دولته ، ثم عبوره الى الاندلس تنبية لنداء ملوك وأمراء وأهل الاندلس ، وانتصاره الساحق على نصارى الاندلس فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، ثم عبوره الثانى وحصاره لحصن لبيط هذا الحصار الذى أظهر للمعاهل المرابطى دويلات الطوائف على حقيقتها من الضعف والانحلال ، فأصدر أوامره لجيوشه اتى سارعت بالاستيلاء على الاندلس والقضاء على ملوك الطوائف واصبحت الاندلس ولاية مغربية تخضع لحكومة مراكش • وختمت هذا التمهيد التاريخى بعبور يوسف الى الاندلس عبوره الرابع والاخير وعقده لولاية العهد لولده على بن يوسف •

أما الباب الاول فقد خصصته لدراسة التاريخ السياسى ، ويتضمن هذا الباب فصلين ، أفردت أولهما لاهم الاحداث الداخلية فى الدولة ، تحدثت فيه عن الصراع بين المرابطين والموحدين وثورة مدينة فاس وثورة مدينة قرطبة •

أما عن الصراع بين المرابطين والموحدين ، فقد تحدثت عن نشأة محمد بن تومرت ورحلته الى المشرق لطلب العلم ، فعودته الى المغرب ونشره لدعوته الدينية القائمة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم لقاءه مع أمير المسلمين فى المسجد الجامع ومناظرته لفقهاء المرابطين وظهوره عليهم ، وما أعقبها من فراره الى جبل ايجليز حيث بايعه أصحابه بالمهدوية • ثم بداية الصراع بين المرابطين والموحدين هذا الصراع الذى انتهت مرحلته الاولى بانتصار المرابطين الحاسم فى معركة البحيرة وما أعقبها من وفاة المهدي بن تومرت وتولييه عبد المؤمن بن على الذى واصل الصراع المسلح ضد المرابطين ، هذا الصراع الذى انتهى بانتصار الموحدين وقيام دولتهم على أنقاض دولة المرابطين •

وفيما يتعلق بثورة مدينة فاس سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م تعرضت بالحديث عن دوافع تلك الثورة التى تزعمها الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين ، وتحدثت عن مدى خطورتها كأول بادرة من بوادر الانحلال التى بدأت تدب فى كيان الدولة عقب وفاة يوسف بن تاشفين •

وأما عن ثورة مدينة قرطبة سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) ، فقد أشرت الى مقدمات تلك الثورة المتمثلة فى احراق كتاب احياء علوم الدين للغزالي ، وتحدثت عن الدور الذى لعبه الفقهاء وعلى رأسهم ابن حمدين قاضى قضاة قرطبة فى احراق هذا الكتاب وألقيت الضوء على دور الفقهاء فى

هذا العصر ، ثم أوضحت الظروف والدوافع التي أدت الى اشعال ثورة قرطبة ، وكيف أنها كانت تعبيرا عن سخط أهل الاندلس من سوء الادارة المرابطية في الاندلس ، ثم أشرت الى مدى اهتمام أمير المسلمين باخماد هذه الثورة بحيث أنه عبر بنفسه الى الاندلس وأخمد الثورة سلميا .

وأفردت الفصل الثانى من الباب الاول لدراسة العلاقات الخارجية لندولة ، ويتضمن هذا الفصل علاقة الدولة مع القوى المسيحية فى الاندلس وهى قشتالة وأرغون والبرتغال وقطالونية ، فضلا عن علاقة الدولة مع دولتى بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيتين فى المغربين الادنى والاوسط وكذلك مع الخلافة العباسية فى بغداد .

فأما عن العلاقات مع قشتالة، فقد أشرت الى مدى اهتمام على بن يوسف بالاندلس باعتباره أرض جهاد ، وكيف أنه استفتح حكمه بزيارة خاطفة للاندلس لم يكن الغرض منها تنظيم أمور الاندلس وانما استهدف بوجه خاص الوقوف على أحوال المسلمين والاطلاع على التقارير الواردة من انقادة والولاة عن التفاصيل العسكرية لمواجهة الدفع المسيحى فى أملاك المسلمين ، وما أعقب ذلك من تقليد الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين القيادة العليا للجيش المرابطية فى الاندلس ، وكيف أن عليا بادر بغزو القشتاليين فى عقر دارهم وألحق بهم الهزيمة عند اقليش سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ومواصلة المرابطون توجيه حملاتهم السنوية ضد مملكة قشتالة ورغم أن هذه الحملات لم تكن تكال دائما بالنصر الا أن المرابطين كانوا يبلون فيها أحسن البلاء ، ثم تعرضت لدور الامير تاشفين بن على بن يوسف فى جهاد القشتاليين وكيف أن فترة ولايته على الاندلس كانت فترة انتصارات متلاحقة على جيوش قشتالة .

وأما عن العلاقات مع أرغون ، فقد أشرت الى العلاقات الودية التى

كانت قائمة بين المرابطين وبنى هود في سرقسطة ثم وفاة الامير أحمد المستعين بن هود وما أعقبها من تحالف ابنه عبد الملك عماد الدولة مع الفونسو المحارب ملك أرغون الذى تطلع الى السيطرة على سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى ، مما جعل المرابطون يسرعون الى استنقاذها ويسيطرون عليها سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ، غير أن محاولات الفونسو المحارب لم تنقطع طوال فترة حكمه لانتزاعها من أيدي المرابطين الى أن تحقق له ذلك سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، وما تلى ذلك من سقوط معظم قواعد الثغر الاعلى في أيدي الارغونيين مما شجع النصارى المعاهدين في غرناطة على التآمر على المسلمين وراسلوا الفونسو المحارب بهدف التخلص من السيادة الاسلامية على الاندلس ، مما دفع بالفونسو المحارب الى القيام بحملته الكبرى على الاندلس فيما بين عامى ٥١٩ / ٥٢٠ هـ (١١٢٥ - ١١٢٦ م) ، وما انتهت اليه هذه الحملة بالفشل التام ، غير أن هذا الفشل لم يمنع الفونسو المحارب من مواصلة نشاطه ضد المرابطين في الثغر الاعلى ، وتتويجه لهذا النشاط بانتصاره في معركة القلعة سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، غير أن الفونسو المحارب شغل بالحرب مع الفونسو ريمونديس ملك قشتالة ، وبحروب أخرى في جنوبى فرنسا ، مما شجع المسلمون على الاغارة على اراضى أرغون ، مما دفع الفونسو المحارب الى تصفية خصوماته مع الفونسو ريمونديس وأخذ يتأهب لتنفيذ مخططة القديم ضد المرابطين ، ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة الارغونيين ومقتل الفونسو المحارب وهى معركة الهراغة التى كانت من المواقف المشرفة لدولة المرابطين ، وصفحة مشرقة فى تاريخهم العسكرى .

وفىما يتعلق بالعلاقات مع البرتغال ، تحدثت عن الحملة التى وجهها على بن يوسف فى بداية عام ٥٠٤ هـ (١١١١ م) بقيادة سير بن أبى بكر اللمتونى صوب مملكة البرتغال وتمكنه من استرجاع مدن يابره

Evora وأشبونة Lisoba وشنتره Cintra وشنترين Santaren وكذلك خروج على بن يوسف في المحرم سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) لغزو مدينة قلمرية Coimbra عاصمة البرتغال واقتحامه لها بعد حصار استمر ما يقرب من عشرين يوما ، ثم انصرفه عنها .

أما فيما يختص بالعلاقات مع قطالونية ، فقد أشرت الى الحملة التي وجهها على بن يوسف في صفر سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) بقيادة محمد بن الحاج صوب أراضى برشلونه وفشلها في الاستيلاء عليها لحصانتها ، غير أن القطلانيين نصبوا فخا أوقعوا به ابن الحاج وتمكنوا من قتله ، فلما علم على بن يوسف بما حدث ، أرسل حملة أخرى لغزو برشلونه وحاصرها ما يقرب من عشرين يوما ، حيث دارت معركة عنيفة خسر فيها المسلمون سبعمئة قتيل واضطروا الى الانسحاب .

وفما يتعلق بالعلاقات مع بنى زيرى في المغرب الأدنى ، فقد أوضحت أن تلك العلاقات سادها روح الود والصداقة ، لان كل من المرابطين والزيريين ينتمون الى قبيلة واحدة هي قبيلة صنهاجة البربرية ، وقد انعكست هذه العلاقات الودية في الكتاب الذى وجهه يوسف بن تاشفين الى الامير تميم بن المعز بن باديس يصف له فتح بلاد المغرب وجوازه الى الاندلس وانتصاره على القشتاليين في معركة الزلاقة ، كما تتمثل هذه العلاقات الودية في استعانة الزيريين بأسطول المرابطين لمواجهة الخطر النورمندى الذى كان يتهدد سواحل الدولة الزيرية . أما عن العلاقات مع بنى حماد في المغرب الاوسط ، فقد أبرزت الظروف التي أدت الى قيام هذه الدولة ، وكيف أن العلاقات بينها وبين المرابطين لم تكن ودية تماما نتيجة لاصطدام الحماديين بسياسة المرابطين التوسعية في المغرب الاوسط ، وقد عبر الحماديون عن كراهيتهم للمرابطين ،

فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على القسم الغربى من المغرب
الوسط الخاضع للمرابطين ، كما احتضنوا جميع القوى المعارضة
للمرابطين وفتحوا أبواب بلادهم لهم .

وفيما يتعلق بدراستي للعلاقات مع العباسيين ، فقد أوضحت أن
المرابطين كانوا يعتقدون أن ملكهم لن يعتبر شرعيا الا اذا باركته الامامة
القرشية تلك الامامة التى لم يكن يعد يمثلها فى ذلك الوقت سوى خلافة
بغداد العباسية ، ومن هذا تطلع المرابطون الى العباسيين يستمدون منهم
التأييد والاعتراف الرسمى أو الشرعى ، وقد كانت هذه العلاقات بينهما
روحية فقط ، فلم يكن أمير المرابطين يلتزم تجاه الخلافة بأى التزامات الا
بمزيد من الجهاد والطاعة للخلافة فقط .

أما الباب الثانى فقد خصصته للدراسة الحضارية ، ويتضمن هذا
الباب فصلين ، أفردت أولهما لنظم الحكم والادارة فى عصر على بن
يوسف ، وثانيهما لبعض مظاهر الحضارة فى المغرب والاندلس فى عصر
على بن يوسف .

تحدثت فى الفصل الاول الخاص بنظم الحكم والادارة عن النظام
الادارى والنظام القضائى والنظام الحربى والنظام المالى . وفيما يخص
النظام الادارى ، فقد تحدثت عن نظام امارة المسلمين ، فأشرت الى أن
نظام الحكم فى بداية قيام دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين كان
يعتمد على نظام الشورى ، حيث كان المرابطون يختارون رئيسهم بعد
عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء ، الى أن جاء
يوسف بن تاشفين وخشى أن يعود الامر فوضى من بعده ، فرأى أن
بختار وليا للعهد يستخلفه من بعده ، فتحول نظام الشورى الى نظام

وراثى ، فقد وقع اختيار يوسف على ولده على ، وشاور من يهمه الامر
وبناقشهم فى المبررات التى دفعته لاختياره ، فلما وافقه الجميع على ما
اعتزم عليه ، أصدر مرسوم البيعة لابنه ، ثم جاز الى الاندلس حيث أخذ
ببعه أهل الاندلس وصدر كتاب التولية والبيعة فى مدينة قرطبة فى
ذى الحجة سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) ، وقد أعقب ذلك عودة يوسف الى
المغرب حيث مرض مرضه الاخير وتوفى فى غرة المحرم سنة ٥٠٠ هـ
(١١٠٦ م) ، وتولى ابنه على بن يوسف . وأشرت الى لقب أمير
المسلمين ، وذكرت أن المؤسسين الاول لدولة المرابطين اتخذوا لقب
« الامير » الى أن تولى يوسف بن تاشفين وظل يتلقب بلقب الامير حتى
توفى الامير أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، فأصبح الزعيم
الواحد بعد أن كان نائبا عن أبى بكر فى حكم المغرب ، ثم اتفق أن لى
آنذاك نداء أهل الاندلس وأحرز نصره البرائع فى الزلاقة، الامر الذى دعاه
الى أن يتخذ لنفسه لقباً جديداً هو لقب « أمير المسلمين وناصر الدين »
وأصبح هذا اللقب هو اللقب الذى تلقب به أمراء الدولة حتى سقوطها .
كما تحدثت عن نظام ولاية العهد ، فأشرت الى أن عليا بن يوسف سار
على نهج والده فى اختيار ولى عهده خوفاً على مستقبل الدولة من بعده ،
فبقي اختياره على ابنه سير واستدعى كبار رجال الدولة وأشهدهم على
عقد توليه العهد لابنه ، وأشرت الى اختصاصات ولى العهد ، وقد ظل
سير وليا للعهد حتى قتل فى عام ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، فخلفه الامير
تاشفين فى منصبه ، على الرغم من محاولات قمر زوج على بن يوسف
للتقديم الامير أبى اسحاق ابراهيم الابن الاصغر لعلى بن يوسف ، كما
أشرت الى عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد مما ترتب عليه قيام
النزاع بين أولاد على بن يوسف حول أحقية كل منهما فى ولاية عهد
أبيهم . كما تحدثت عن منصب نائب أمير المسلمين سواء فى المغرب أو
فى الاندلس ومهام هذا النائب . كما أشرت الى ولاية الاقاليم ومراقبة

أمير المسلمين لئولاء الولاية خوفاً أن يستبد أحدهم بأمر ولايته أو يسيء
معاملة رعيته ، كذلك أثرت الى نظام الوزارة ووجود نوعين من الوزراء ،
وزراء حرب ، ووزراء أدباء وفقهاء ، كذلك أثرت الى ديوان الرسائل
والمكتبات ، وكيف أنه كان يزخر بطبقة من كبار كتّاب وأدباء الاندلس •

أما عن النظام القضائي ، فقد أثرت الى اهتمام الدولة بخطة القضاة ،
وتمتع القضاة بمكانة كبيرة في المجتمع ، واختصاصات القضاة ، وأهم
خطط القضاء •

أما بالنسبة للنظام الحربي ، فقد أوضحت اهتمام الدولة بالجيش
وكيف أن القيادة العليا للجيش كانت تعقد لأمير المسلمين ، أما قيادة
الفرق العسكرية فكانت تعقد لامراء الدولة ، كما أثرت الى أهم عناصر
الجيش وفن الحرب والقتال وأسلحة الجيش • كما أثرت الى انشاء
البحرية المرابطية في عصر يوسف بن تاشفين والدور الكبير الذي لعبه
الاسطول المرابطي في الاستيلاء على طنجة وسبتة من يد سقوت
البرغواطى ، أو في جزر البليار ، أو ضد أطماع النورمانيين أو في الاغارة
على السواحل الجنوبية لأوروبا ، كما أثرت الى قواد الاسطول وقواعده
وعدد قطعه •

وأما النظام المالي ، فقد أثرت الى السياسة الضريبية للدولة في عهد
يوسف ابن تاشفين وولده على بن يوسف ، وكيف أن الدولة عهدت
للعنصرى بجباية هذه الضرائب ، كما تحدثت عن العملة المرابطية ودور
سك العملة •

وخصصت الفصل الثانى من الباب الحضارى لدراسة بعض مظاهر
الحضارة في المغرب والاندلس في عصر على بن يوسف ، فتحدثت عن

الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية وأمثلة عن الآثار المعمارية في المغرب
والاندلس ، والحياة الادبية والعلمية .

فأما عن الحياة الاجتماعية ، فقد تحدثت عن المجتمع المغربي
الاندلسي من حيث طبقات الامراء والقواد والفقهاء والقضاة، ومكانة المرأة في
المجتمع المرابطي ، وكذلك أوضاع أهل الذمة ، ومجتمع العامة ، كما
أشرت الى العادات والتقاليد وتأثر أمراء الدولة بكل مظاهر الحضارة
الاندلسية .

وأما عن الحياة الاقتصادية ، فقد تحدثت عن ازدهار التجارة
والصناعة وأهم المراكز التجارية والصناعية ، وكذلك الزراعة والنظام
الذي اتبعته الدولة في مجال ملكية الاراضي الراحية .

وبالنسبة للآثار المعمارية في المغرب والاندلس ، فقد أبرزت مدى
تأثر عمارة المرابطين بفن العمارة الاندلسي ، كما تحدثت عن أهم الآثار
المعمارية التي تبقت عن عصر علي بن يوسف كالأثار الدينية ، والمدنية
والمنشآت العامة ، وكذلك الآثار الحربية .

وأما عن الحياة الادبية والعلمية ، فقد أشرت الى الشعر والنثر ،
وأشهر الشعراء والنثرين ، وكذلك الموشحات والازجال وأشهر الوشاحين
والزجالين ، وعلوم الفقه والحديث ، وعلوم اللغة ، والتاريخ والجغرافية،
والتصوف والطب والفلك والتنجيم والفلسفة .

اختتمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي توصلت اليها من
خلال تلك الدراسة كما ذيلتها ببعض الخرائط وقائمة بالمصادر والمراجع
العربية والاجنبية .

أرجو أن أكون بهذا الجهد المتواضع ، قد أضفت شيئاً الى المكتبة
التاريخية انصافاً لدولة المرابطين في عصر علي بن يوسف •

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أقدم عظيم شكرى وامتنانى وتقديرى
لأستاذى الفاضل الجليل الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم استاذ
التاريخ الاسلامى والحضارة بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، فهو
صاحب الفضل فى توجيهى وارشادى فى اعداد هذا البحث ، فلقد أعطانى
من نفسه ومن وقته ومن توجيهاته ما لا يحتويه شكر أو يحيط به عرفان
بالجميل ، وهذا جزء ضئيل من جميل يطوق به عنقى ، فجزاه الله عن
العلم وعن خير الجزاء •

التعريف بأهم مصادر البحث

أولا : الوثائق المرابطية

تعتبر الوثائق المرابطية من مراسلات وكتابات وعقود وما الى ذلك من المصادر الرئيسية التي يعول عليها الباحثون أكثر من غيرها عند اقدمهم على دراسة فترة محددة في تاريخ دولة من الدول ، ولهذا فقد كان للوثائق المرابطية التي تم نشرها بفضل تحقيقات وجهود الاستاذ الدكتور حسين مؤنس^(١) والاستاذ الدكتور محمود على مكي^(٢) أعظم الاثر في توضيح بعض ما خفى من تاريخ دولة المرابطين سيما ما يتعلق بالرسائل التي أعقبت انتصارات المرابطين في وقعة اقلشس وافراغه ، كذلك تسلط هذه الوثائق أضواء كافية لتوضيح الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والادارية في الاندلس والمغرب في الفترة موضوع الدراسة •

(١) نشر الدكتور حسين مؤنس المجموعة الاولى من هذه الوثائق تحت عنوان « الشجر الاعلى الاندلسي في عصر المرابطين مع أربع وثائق جديده » في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٤٩ م ، ص ٩١ - ١٤٣ ، والمجموعة الثانية في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بهدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤ م ، تحت عنوان « سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الاندلس » •

(٢) نشر الدكتور محمود على مكي هذه الوثائق تحت عنوان « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ، في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ - ٢ ، ١٩٥٩ م •

ثانيا : المصادر التاريخية

ابن بلقين (الامير عبد الله الزيرى) ، « مذكرات الامير عبد الله
الزيرى المسماه بكتاب التبيان »

يرتفع نسب الامير عبد الله بن بلقين آخر ملوك غرناطة الى أسرة
بنى زيرى الصنهاجية ، فجدده هو باديس بن حبوس بن زيرى بن مزاد
الصنهاجى . ولد عبد الله سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٦ م) ، وفى سنة ٤٦٩ هـ
(١٠٧٧ م) اعتلى عرش غرناطة وظل يؤدي هذا الدور الى أن عزله
المرابطون عن ملكه ونفى الى مدينة أغمات الواقعة جنوبى المغرب الاقصى حيث
قضى بقية عمره . وفى أغمات دون مذكراته الخاصة التى تتضمن أخبارا
تاريخية عن عصر ملوك الطوائف ، وهذه المذكرات وثيقة هامة تسلط
الاضواء على فترة حاسمة من التاريخ الاندلسى وتسبق مباشرة تبعية
الاندلس لدولة المرابطين وقد كان لهذه المذكرات أعظم الاثر فى تصوير
حالة الانحلال الاجتماعى والتفكك السياسى الاندلسى قبيل وقعة الزلاقة
وفى أعقابها ، اذ أمدتنا بمعلومات مفصلة وواقعية فى آن واحد عن
الاضاع السياسية والاجتماعية التى كانت تسود الاندلس آنذاك .

البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى) ، كتاب « أخبار المهدي
بن تومرت وابتداء دولة الموحدين »

يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر المتعلقة بتاريخ الموحدين خاصة أن
أبا بكر الصنهاجى المكتى بالبيذق كان صديقا للمهدي بن تومرت صاحب

الدعوة الموحدية ومرافقا له ، فجاءت روايته عن الاحداث رواية شاهد
ءيان للوقائع والحوادث التى كان يعاصرها ولهذا اتسمت هذه الروايات
بالوضوح والواقعية وان كان يتعصب فى كثير من المواضع للموحدين ويقف
موقف المدافع عن المهدي وأتباعه •

ولقد أفدت كثيرا من روايات البيهقي عندما تعرضت للحديث عن قيام
دولة الموحدين وتتبع الخطوات التى مرت بها حركة المهدي بن تومرت
منذ عودته الى المغرب واصطدامه بالمرابطين ثم التقائه بعبد المؤمن بن
على سراج الموحدين ومبايعة أصحابه له بالمهدوية سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م) ،
وعندما تعرضت للحديث عن الصراع الحربى بين المرابطين والموحدين حتى
معركة البحيرة ، والحملات التى تولاهها عبد المؤمن بن على لاسيما الغزوة
الاخيرة التى انتهت باسقاطه للدولة المرابطية •

ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد الكتامي الفاسي) ، قطعة من كتاب « نظم الجمان فى أخبار الزمان »

يتألف كتاب نظم الجمان الذى ما يزال مخطوطا من سبعة أجزاء ،
نشر الاستاذ الجليل الدكتور محمود على مكي منه قطعة هى السفر رقم
١٣ من الكتاب ومن المحتمل أن تكون هذه القطعة هى نفس الجزء السادس
منه وتتناول أحداث الفترة من ٥٠٠ الى ٥٣٣ هـ •

ويعاب على ابن القطان تعصبه للموحدين وتحامله على المرابطين ومع
ذلك فقد اضطر لتمجيد هؤلاء فى بعض المواقف التى تتعلق بجهاد
المرابطين ضد النصرانية الاسبانية • وقد أفدت كثيرا من هذه القطعة
ومن تحقیقات العالم الكبير الاستاذ الدكتور محمود على مكي عندما

عالجت الفترة التي أعقبت ظهور المهدي بن تومرت وتصنيف أصحابه
وصراعه مع المرابطين ، بالإضافة الى رواياته عن أحداث الاندلس في هذا
العصر لاسيما تلك التفصيلات الرائعة عن موقعة افراغه وهي تفصيلات
لا نظير لها في أى مصدر تاريخي آخر .

ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) ، كان حيا
سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢م) كتاب «البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب»

يحتبر ما أورده المؤلف المراكشي عن فترة المرابطين من أهم المصادر
المتعلقة بحوادث تاريخهم في المغرب والاندلس . وقد انتفعت بالقطعة
الخاصة بالمرابطين التي نشرها احسان عباس في دراستي عن أصل
المرابطين وولاية يوسف بن تاشفين وفتوحه في المغرب ودخول المرابطين
بلنسية ، وتواليه على بن يوسف ، وقصة احراق كتّاب احياء عاوم الدين
الغزالي ، وغزوة الفونسو المحارب للاندلس واحداث الصراع بين
المرابطين والموحدين .

ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي)
ت ٧٢٦ هـ (١٣٢٨ م) ، كتاب « الانيس المطرب بروض القرطاس في
أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس »

على الرغم أن العنوان يشير الى أن الكتاب مخصص لدراسة تاريخ
مدينة فاس الا أن المؤلف لم يقف على تتبع مراحل تاريخ هذه المدينة وانما
تناول تاريخ المغرب الاقصى كله منذ سنة ١٤٥ هـ الى سنة ٧٢٦ هـ ، أى
أن الكتاب يتضمن تاريخ الدول الخمس التي تداولت حكم المغرب في هذه
الفترة وهي دولة الا دراسة ، ودولة زناتة ، ثم دولتي المرابطين
والموحدين ، وأخيرا دولة بني عبد الحق أو بني مرين . وقد أنهى المؤلف

كتابه هذا في عهد الدولة الاخيرة وأهداه الى السلطان الخامس بن بلوكها وهو أبو سعيد المريني ٧١٩ - ٧٣١ هـ (١٣٠٩ - ١٣٣٠ م) (٣) .

وقد انتفعت بهذا الكتاب في القاء الضوء على كثير من أحداث عصر المرابطين خاصة ما يتعاق بأصل المرابطين ونشأتهم ودعوة ابن ياسين ، وجهود الامراء المرابطين الاوائل في السيطرة على المغرب الاقصى ، ثم عبور المرابطين الى الاندلس وانتصارهم الرائع في الزلاقة ، وكذلك عند الاشارة الى أهم أحداث عصر علي بن يوسف سواء في المغرب في صراعه مع الموحدين ، أو في الاندلس في صراعه مع الممالك المسيحية ، كما أفدت منه كثيرا عند حديثي عن تأسيس المسجد الجامع للقرويين بفاس .

الحال الموشية في ذكر الاخبار المراكشية :

ظل مؤلف هذا الكتاب مجهولا لفترة طويلة حتى بعد صدور الطبعة الثانية منه في الرباط الى أن تمكن الاستاذ الدكتور محمود علي مكي من التوصل الى اسمه في دراسته القيمة الطويلة التي قدم بها لكتاب الزهرات المنثورة في نت الاخبار المأثورة ومن هذه الدراسة عرفنا أن المؤلف هو ابن سماك العاملي وهو نفس مؤلف كتاب الزهرات المنثورة (٤) .

ويضم كتاب الحال حقائق تاريخية هامة تتعلق بقيام دولة المرابطين

(٣) سالم (كتور السيد عبد العزيز) ، المغرب الكبير (العصر الاسلامي) ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ م ، ص ١١٤ .

(٤) راجع الدراسة القيمة التي أعدها الدكتور محمود علي مكي للكتاب في مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمديرد ، المجلد العشرون ، السنة ١٩٨٠/٧٩ م ص ٥ - ٧٦ ، والمجلد الحادي والعشرون السنة ١٩٨١ - ١٩٨٢ م ، ص ٥ - ٧٩ .

وجهادهم في المغرب والاندلس ، وبالنظام الحربى وأساليب القتال عند المرابطين ، وقد اعتمدت عليه كثيرا عند دراستى للنظام الحربى لدولة على بن يوسف ولاهم المواقع الحربية التى خاضها المرابطون في الاندلس زمن على بن يوسف •

ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد)
ت ٧٧٦ هـ (١٣٦٤ م)

يعتبر ابن الخطيب آخر كاتب عظيم أنجبته الاندلس ، فقد صنف عددا كبيرا من المصنفات ، نذكر منها ما اعتمدت عليه في دراستى وهى :
أ (كتاب أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام •
ب (كتاب الاحاطة في أخبار غرناطة •

أما عن كتاب أعمال الاعلام فهو من المصادر التاريخية العامة التى تناولت تاريخ الدول الاسلامية ، وقد صنفه في مدينة فاس حينما التجأ اليها ، بمناسبة توليه أبى زيان محمد السعيد بن عبد العزيز سلطنة المغرب رغبة في خطب ود السلطان الجديد • وقسمه ابن الخطيب الى ثلاثة أقسام :

الاول : يتناول تاريخ المشرق الاسلامى من السيرة النبوية حتى عصر المماليك وما يزال مخطوطا •

الثانى : يتناول تاريخ الاندلس منذ الفتح الاسلامى حتى عصر ائسلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل ، وقد نشره ليفى بروفنسال بانرباط سنة ١٩٣٤ م •

الثالث : يتناول تاريخ المغرب منذ قيام دولة الاغالبة حتى قيام دولة

الموحدين ، ويبدو أنه كان ينوى استكمال هذا القسم حتى عصره اذ نص
على ذلك في فهرسه ولكنه قتل قبل أن يستكمله ، وقد تولى نشر هذا
القسم الدكتور أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى بالدار
البيضاء ١٩٦٤ م .

والقسمان الثانى والثالث اللذين اعتمدت عليهما فى دراستى يسلطان
أضواء قوية على الكثير من الاحداث السياسية فى المغرب والاندلس ،
وكذلك فى أحداث الصراع بين المرابطين والممالك المسيحية فى الاندلس
سواء فى عصر يوسف بن تاشفين أو فى عصر ولده على بن يوسف ،
وكذلك أحداث ودقائق الصراع المرابطى الموحدى .

— أما عن كتاب الاحاطة فى أخبار غرناطة ، فتراجم الملوك وأمراء
وعلماء غرناطة وجميع من وفد اليها من المشرق والمغرب مرتبة أسماؤهم
على حروف المعجم . وقد ذكر ابن الخطيب أن الدافع الاساسى لتأليف
هذا الكتاب حبه لوطنه غرناطة ورغبته فى كتابة تاريخ بلده على نحو تاريخ
دمشق لابن عساكر وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي^(٥) .

وقد اعتمدت على الاحاطة عند معالجتي لغزوة الفونسو المحارب
للاندلس استجابة لدعوة النصارى المعاهدين له ، وكذلك أحداث الصراع
المرابطى القشتالى فى امارة تاشفين بن على بن يوسف للاندلس ، كما
استفدت منه عند عرضى للحياة العلمية والادبية .

(٥) العبادى (دكتور أحمد مختار) ، فى تاريخ المغرب والاندلس ،
طبعة الاسكندرية ، ١٩٧٤ م .

ثالثا : المصادر الجغرافية

البكرى (أبو عبد الله عبد الله عبد العزيز) ، ت ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م)
وكتاب « المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب »

يعتبر كتاب البكرى « المسالك والممالك » أعظم ما صنفه من تواليف
جغرافية الا أنه للأسف لم يصل إلينا منه سوى الجزء الخاص بوصف
المغرب الذى نشره دى سلان De Slane بالجزائر سنة ١٩١١ م
بعنوان :

Description de L'Afrique septentrionale

والقسم الخاص بجغرافية الاندلس وأوربا الذى نشره الدكتور
عبد الرحمن الحجى •

وقد اعتمدت بوجه خاص على القسم المغربى الذى يحتوى على
معلومات جغرافية وتاريخية هامة ، يحتتمل أن تكون مستقاة من وثائق
الدولة ، اذ يبدو أن البكرى كان فى موقف يسمح له بالاطلاع على وثائق
وسجلات ديوان قرطبة ، كما أفادنى كثيرا عندما تعرضت للحديث عن
أصل المرابطين ونشأتهم ، والدور الذى لعبه أمراء المرابطين الاوائل فى
تأسيس دولتهم وفى عرضى للحياة الاقتصادية وأهم المراكز التجارية فى
المغرب •

الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبيد الله بن ادريس) ،
ت ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ، وكتاب « وصف المغرب وأرض السودان ومصر
والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »

يعتبر كتاب نزهة المشتاق أعظم مصدر جغرافى لدراسة الجوانب

الحضارية للمغرب والاندلس في القرن السادس الهجري (١٢ م) ربما
مُ شك فيه أن مشاهدات الادريسي في أسفاره عبر الاندلس والمغرب
تركزت صداها في وصفه العمران المدني والمساجد والقصور والتحصينات
المختلفة بالإضافة الى ملاحظاته عن الاحوال الاقتصادية في كل ما مر من
بلدان . وقد أفدت منه كثيرا عند دراستي للاحوال الاقتصادية والمنشآت
العمارية التي أقيمت في الاندلس وفي المغرب في عصر المرابطين .

ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك
بن سعيد) ت ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) ، كتاب «المغرب في حلى المغرب»

بيت بنى سعيد من أعظم بيوت الاندلس وأشرفها في عصرى المرابطين
والموحدين ، اذ يرتفعون في نسبهم الى عمار بن ياسر الصحابي الجليل .
وقد تضافر أربعة من أفراد هذه الاسرة على كتابة تاريخ شامل للاندلس
في مدة استغرقت أكثر من مائة سنة ، أولهم عبد الملك بن سعيد صاحب
خنعة بنى سعيد في عهد علي بن يوسف ، ثم أتمه ابنه محمد بن عبد الملك ،
ثم أزااد فيه موسى بن محمد ، ثم أربى عليهم جميعا في اتمامه أبو الحسن
عنى بن موسى الذى يرجع اليه الفضل في إخراج الكتاب في صورته
النهائية^(٦) .

وكتاب المغرب في حلى المغرب ضاع معظمه ولم يبق منه سوى أجزاء
بسيطة تضمنت تراجم لبعض الشخصيات البارزة في الاندلس من العصر
الاموى حتى نهاية عصر الموحدين . وقد انتفعت بهذا الكتاب في دراستي
عن الحياة العلمية في الاندلس والمغرب زمن المرابطين .

(٦) سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٦٧م ،
ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

رابعاً : كتب الادب

ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد القيسي الاندلسي) ، ت ٥٣٥ هـ
(١١٤٠ م) كتاب « قلائد العقيان في محاسن الاعيان »

كان ابن خاقان من كبار أدباء عصره ، متمكنا من اللغة قديرا على
صياغة الكلام ، وقد تميز أسلوبه بالفنر المسجوع ، ومن أهم مؤلفاته
كتابين من المختارات الادبية التاريخية هما مطمح الانفس وقلائد
العقيان .

وقد انتفعت في دراستي بالتراجم التي أوردتها في القلائد عن أدباء
عصرى الطوائف والمرابطين ممن خدموا في بلاطات ملوك الطوائف ثم
انتقلوا الى بلاطات أمراء المرابطين ، كما أفدت منه كثيرا فيما يتعلق
بالنظام القضائي وأشهر القضاة في هذا العصر .

ابن خفاجة (أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح الاندلسي) ، ت ٥٣٨ هـ
(١١٤٣ م) « ديوان ابن خفاجة »

ولد ابن خفاجة في بلدة شقر وهي مدينة منعزلة في شرقي الاندلس
مشهورة بجمال طبيعتها ، وكان ابن خفاجة شاعر عصره ، استولت عليه
روح المرح والاستمتاع بالحياة ، ولقد كان لنشأته المترفة ولجمال بلدته
أثر في تغذية خياله الخصيب وتكوين تأملاته العميقة ، فأفاد من طبيعة
بلاده التي ترهب بطبيعتها الساحرة ، وقد أعانه ذلك على دقة التعبير
عن معانية ، وسمى لذلك بشاعر شرقي الاندلس ، كما سمي بالشاعر
البستاني ، ولقبه المقرئ بصنوبري الاندلس .

ويتضمن ديوانه الكثير من القصائد في وصف الطبيعة ، وفي مدح
الأمير أبي اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وقد ألقت قصائده
الضوء على الكثير من مظاهر الحياة الادبية والاجتماعية في العصر
الرابطى •

خامسا : كتب التراجم

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ، ت ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ،
وكتاب « الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم
وأدبائهم »

لابن بشكوال نحو خمسين كتابا ، الا أن الصلة أهم كتبه وقد أكمل
به كتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ، وضمنه سير طائفة من
الائمة والمحدثين والفقهاء وأهل الادب من الاندلسيين ، وقد أعننى
كثيرا في تقصى أسماء علماء الاندلس زمن المرابطين وتتبع سيرتهم •

ابن الابار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) ت ٦٥٨ هـ
(١٢٥٩ م)

ابن الابار يعتبر أكبر مصنف لمعجم الرجال أطلعة الاندلس ، فقد
صنف عددا كبيرا من المصنفات ، نذكر منها ما اعتمدت عليه في دراستي
وهي « التكملة لكتاب الصلة » و « الحلة السيرة » والمعجم في أصحاب
القاضي الامام أبو علي الصدي •

وكتابه التكملة هو تكملة لصلة ابن بشكوال ، وهو عبارة عن تراجم
لأسماء الملوك والعلماء الاندلسيين مرتبة حسب حروف الهجاء وفي آخر
الكتاب حرف يذكر المؤلف أسماء الغرباء الذين وفدوا على الاندلس من المشرق
والمغرب •

أما كتابه الحلة السيرة فيتناول أخبار المغرب والاندلس منذ الفتح

الاسلامى الى منتصف القرن السابع الهجرى ، وقسمه الى قرون
مستقلة تبدأ بالقرن الاول الهجرى ويستمر الى نهاية المئة السابعة •
ولا تخلو ترجمة من تراجمه من تفصيلات تاريخية وجغرافية واشارات
اقتصادية هامة ، أعانقنى كثيرا فى رسم صورة واضحة للحياة السياسية
والاقتصادية فى الاندلس فى العصر موضوع الدراسة •

أما كتابه المعجم فى أصحاب القاضى الامام أبو على الصدفى فيتضمن
تراجم لأصحاب وتلاميذ القاضى الامام أبو على الصدفى • وعلى وجه
العموم فان كتب التراجم من أهم المصادر فى اجلاء صورة بعض جوانب
الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية ، لان الباحث يستمد من هذه
التراجم أفكارا ويستنبط حقائق لها أهميتها فى التاريخ الحضارى •

دراسة تمهيدية
قيام دولة المرابطين في المغرب والاندلس

أ (قيام دولة المرابطين في المغرب :

ينتسب المثلثون الذين عرفوا فيما بعد بالمرابطين الى قبيلة لمتونة احدى بطون صنهاجة أعظم قبائل البربر واليهما ينتمى عدد كبير من القبائل البربرية أشهرها مسوغة ، ومسرارة ، ومداسة ، وجدالة ، ولطة وغيرها ، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر هذه القبائل ، ثم آلت الرئاسة الى قبيلة جدالة على عهد الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ، الذى تولى زعامة صنهاجة وقاتل أعداءها حتى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م ، وهو تاريخ ارتحاله الى المشرق لاداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد أن استخلف على رئاسة صنهاجة ولده ابراهيم بن يحيى الجدالي^(٧) ، ويعتقد الدكتور حسن أحمد محمود أن يحيى بن

(٧) البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، نشره دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ م ، ص ١٦٤ ، ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد الجزرى) ، الكامل فى التاريخ ، طبعة القاهرة ١٣٥٧ ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) ، البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ، الجزء الرابع الخاص بالمرابطين ، تحقيق احسان عباس ، الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٩٦٧ م ، ص ٧ ، ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله) ، الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نسخة حجرية طبعة تونس ، ١٣٠٥ هـ ، ص ٨٢ ، مؤلف مجهول ، الحل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ ، ص ٨ ، ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله) ، أعمال الاعلام فيهن بويج قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، نشره أحمد مختار العبادى ، وابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م ، ص ٢٢٦ ، ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٣ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٠٧ ، سالم ، =

ابراهيم لم يخرج للحج ، وانما طلبا للعلم . وأنه ارتاد مدارس المغرب
ارواء لروحه المتعطشة للاستزادة في أمور الدين ، أو بحثا عن فقيه يثق
به ويطمئن اليه ، فيعود به الى قومه مبشرا ونذيرا ، عله يخرجهم من
الظلمات الى النور ، فيوحد صفوفهم معتصمين بحبل الاسلام^(٨) .

وأيا ماكان الامر فقد عاد يحيى بن ابراهيم بعد رحلته المذكورة الى أرض
المغرب، فنزل بمدينة القيروان وكانت القيروان في ذلك الوقت بالذات الحاضرة
الثقافية للمغرب الاسلامي ، وكمبة القصاد من قاصية المغرب والاندلس ،
وكانت قد تحررت من السيطرة الاسماعيلية ، واستردت حريتها كاملة ،
وانتصر فقهاء المالكية في معركة الفاطميين والزيريين نصرا عظيما^(٩) .
وفي القيروان حضر يحيى بن ابراهيم مجلس الفقيه أبى عمران القاسي
شيخ المذهب المالكي آنذاك ، وأعجب الشيخ أبو عمران بالامير يحيى
لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعلم ، وتحدث اليه الامير عن
سوء الاحوال الاجتماعية في بلاده ، وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع
الشريعة ، وطلب من أبى عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه
أصول الفقه والشريعة الاسلامية فعرض الفقيه الامر على طلبته غير أنه

= المغرب الكبير ، الطبعة الاولى، الاسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ٦٩١، أحمد ، ختار
العبادي ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة
الاسكندرية ، العدد الحادي والعشرون ، ١٩٦٧ ، ص ٥٠ ، محمد عبد الهادي
شعيره ، المرابطون تاريخهم السياسي ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٣ .
Marcais (Georges), La Berberie Musulmane et l'orient au moyen age, Paris,
1946, p. 238., Terrasse (Henri), Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, vol.
II, p. 214.

(٨) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٩) حسن أحمد محمود ، نفسه ، ص ١٠٩ ، سالم ، المرجع السابق ،

ص ٦٩١ .

أم يجد من بين تلاميذه من استجاب الى دعوته لاستصعابهم دخول أرض الصحراء^(١٠) ، فلما لم يجد بغيته بين تلاميذه ، أرسل أبو عمران الفاسي الأمير يحيى الى الشيخ واجاج بن زللو اللمطي فقيه المالكية بالسوس الأقصى ، وكان فقهيا صالحا يقيم بمدينة نفيس^(١١) أو بلدة ملكوس^(١٢) ، وكان يحيى يحمل كتابا من الشيخ أبي عمران الى تلميذه الفقيه واجاج ، يتضمن رغبته في أن يرسل مع يحيى الى بلاده من طلبته من يثق بدينه وورعه ، وكثرة علمه وسياسته « ليعلم القرآن وشرائع الاسلام ويفقههم في دينهم^(١٣) » . فما كاد الفقيه واجاج يتسلم كتاب شيخه أبي عمران حتى جمع مريديه رواد رباطة وأطلعهم على رغبة امام القيروان ، وانتدب لذلك رجلا منهم جزولى النسب من أبرع طلبته وأزكاهم يدعى عبد الله بن ياسين ، والحق أن ياسين كان من الفقهاء النابغين المتأثرين بمبادئ فقهاء المالكية التي تستهدف الزهد والبعد عن السلطان والتقصيف والايواء الى الربط تقربا الى الله وقد وصفه ابن أبي زرع بأنه من أهل انفة والدين والتقوى والورع والادب والسياسة وأنه كن مشاركا في العلوم^(١٤) .

-
- (١٠) البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص ١٦٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، مجهود ، الحلل الموشية ، ص ٨ ، ص ٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٢ ، العبادي ، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطون ، ص ٥١ ، شعيره ، المرابطون ، ص ٣٤ .
Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa, London, 1962, p. 22.
(١١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ .
(١٢) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨ .
(١٣) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .
(١٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ .

دخل ابن ياسين بلاد صنهاجة في صحبة زعيمها يحيى بن ابراهيم ، فنزل على قبيلة لتونة ، التي بالغت في اكرامه والترحيب به ، فأخذ ييث تعاليم الدين بينهم ويصبرهم بأحكام الاسلام ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، واشتد في مؤاخذتهم ومطابقتهم بالاقلاع عن تقاليدهم المناقبة للإسلام كالزواج بأكثر من أربع ، والزنا والسرقة وغيرها ، وكان طبيعيا أن يضيقوا زرعاً بتشدده عليهم ، واسرافه في تقريعهم ، فأخذوا يجاقونه وينفرون منه^(١٥) ، وعندئذ رأى ابن ياسين أو يرحل الى بلاد السودان ، ولكن الامير يحيى تمسك به ، وأشار عليه بالانقطاع الى العبادة في جزيرة نائية^(١٦) بعيدا عن هؤلاء البدو الجهلة ، فوافقه ابن ياسين على ذلك ، خاصة أن هذا الرأي وجد هوى في نفسه المياله الى حياة الزهد والرياط لاسيما وأنه أخذ العلم وتفقه في رباط واجاج بن زللو اللمطي^(١٧) .

انقطع ابن ياسين وصحبه للعبادة في هذا الموضع النائي الذي اختاروه وابتنوا به رباطا للصلاة والعبادة ، ولم يكد يمضى عليه ثلاثة أشهر حتى تسامع الناس بأخباره وأخبار أهل الرباط ، فأقبلوا عليه وتوافدوا الى رباطه ، فأخذ يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين ، ويرغبهم في ثواب الله تعالى ، حتى تمكن حبه من قلوبهم ، كذلك أرسل ابن ياسين النبعوث الى القبائل ، لترغيب الناس في مذهب أهل الرباط ، حتى اجتمع

(١٥) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٦٤ ، ص ١٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، مجهول ، الحل الموشية ، ص ٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٣ .

Marcais, G., La Berberie Musulmane., p. 238.

(١٦) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ .

(١٧) ابن أبي زرع ، نفسه ، ص ٨٣ ، ص ٨٤ .

له نحو ألف رجل من اشراف صنهاجة سماهم بالمرابطين للازمتهم لذلك
الرباط (١٨) .

ثم أمر ابن ياسين أتباعه وتلاميذه بأن يذهب كل منهم الى قبيلاته أو
عشيرته ، يدعوهم الى العمل بأحكام الله وسنة نبيه ، فلما لم يجدوا
استجابة من أقوامهم ، خرج اليهم بنفسه ، فجمع أشياخ القبائل ووعظهم
وحذرهم عقاب الله ، واستمر في ذلك سبعة أيام ، فلم يزدادوا الا فسقا ،
فلما يئس منهم أعلن الجهاد والحرب عليهم (١٩) .

اتجهت جموع المرابطين أولا صوب قبيلة جدالة ، حيث خاضوا معهم
معركة شرسة وأوقعوا بهم الهزيمة ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسلم
الباقون اسلما جديدا . ثم سار المرابطون الى قبيلة لمتونة ، فقاتلهم
وانتصروا عليهم ، وأرغموهم على الدخول في طاعة ابن ياسين ومبايعته
على اقامة الكتاب والسنة ، ثم مضوا بعد ذلك الى قبيلة مسوفة الذين
انصوا تحت لوائه وبإيعونه على ما بايعته قبائل جدالة ولمتونة ، فلما
شهدت قبائل صنهاجة هذه الاحداث باديت الى مبايعة ابن ياسين على
بذل الطاعة له ، وحذت بقية القبائل حذوها ، فكان كل من أقبل اليه
تائبا منهم ، يتطهر بمائة سوط ثم يشرع في تعلم القرآن وشرائع الاسلام ،

(١٨) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٥ ، وراجع : محمد عبد الله
عنان ، دول الطوائف، نذقياما حتى الفتح المرابطي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ،
١٩٦٩ م ، ص ٣٠٢ .

Marcais, G., La Berborie Musulman., p. 238; Trimingham, A History of
Islam in West Africa, p. 23.

(١٩) ابن أبي زرع ، نفسه ، ص ٨٥ ، وراجع ، ابن خلدون ، العبر ،
ج ٦ ، ص ٣٧٥ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٦ .

فيؤمر بالصلاة والزكاة واخراج العشر ، هذا وقد أقام ابن ياسين بيتا
لامال للانفاق على الجيوش وشراء السلاح (٢٠) .

ولما توفي الامير يحيى بن ابراهيم الجدالى ، قدم ابن ياسين مكانه
الامير يحيى ابن عمر اللمتونى ، وكان من أهل الدين والفضل ، كما كان
منقادا في جميع أموره لامامه ابن ياسين (٢١) .

وفي سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعه وكتبوا
الى ابن ياسين ، يرغبونه في الوصول اليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه
من الحكام الطغاة الظلمة زناته المغراويين وأميرهم مسعود بن
وانودين (٢٢) ، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء
سجلماسة ، فأثاروا عليه بمد يد المعونة لهم ، وقالوا له « أيها الشيخ
الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله تعالى (٢٣) » فخرجت جموع
المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ الى بلاد درعة ، فتصدى لهم الامير
مسعود ابن وانودين بالقتل ، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع
مسعود وتشتت جيشه وأسرع ابن ياسين بدخول سجلماسة ، وقتل من

(٢٠) البكرى ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٦٧ ، ابن أبي
زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٦ ، ص ٨٧ ، مجهول الحل الموشية ، ص ١٠
ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٥ ، ابن أبي تيقار (أبو عبد الله الشيخ
محمد بن أبي القاسم الارعيني القيرواني) ، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ،
طبعة تونس ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ ، سالم ، المغرب الكبير ،
ص ٦٩٨ .

(٢١) مجهول ، المصدر السابق ، ص ١٠ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ،
ص ١٢ ، عنان دول الطوائف ، ص ٣٠٣ .
(٢٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٧ ، مجهول ، الحل الموشية ،
ص ١١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٥ .
(٢٣) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

وجده بها من مزاروه وأصلح أحوالها ، وقدم عليها عاملا من لمتونة وحامية
مرابطية ثم عاد الى الصحراء (٢٤) .

وفي سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) توفي الامير يحيى بن عمر اللمتوني ،
فحين عبد الله يسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة ، ثم تأهب أبو بكر
لغزو بلاد السوس ففى ربيع الثاني سنة ٤٤٨ هـ ، سار المرابطون صوب
بلاد السوس ، وأختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى
القيادة على مقدمة الجيش المرابطى ، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن
تاشفين مؤسس دولة المرابطين ، وفى هذه الحملة التى قادها يوسف ابن
تاشفين تمكن المرابطون من الاستيلاء على بلاد جزوله وبلدة ماسية
وتارودانت عاصمة بلاد السوس ، ثم عبروا جبال درن واستولوا على
بلاد وردة وشفشافة ونفيس واقليم جدميوه وبايعتهم قبائل تلك
الناحية (٢٥) ، ثم سار المرابطون الى مدينة أغمات ، وكان أميرها يومئذ
لقوط بن يوسف بن على المغراوى ، فضربوا حولها الحصار ، ودافع
لقوط عن مدينته أشد دفاع ولكنه اضطر الى الفرار عندما أيقن عبث
المقاومة ، فخرج يلتمس النجاة فى أهله وحشمه تحت جنح الظلام ،
والتجأ الى حماية بنى يفرن أمراء تادلا ، فدخل المرابطون أغمات فى عام
٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) (٢٦) ، وأقاموا فيها ما يقرب من الشهرين ، ثم

(٢٤) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٨٧ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص
١١ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٧٥ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص
٦٩٧ ، عنان ، حول الطوائف ، ص ٣٠٤ .

(٢٥) ابن أبى زرع روض القرطاس ، ص ٨٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج
٦ ، ص ٣٧٥ ، ص ٣٧٦ .

(٢٦) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٨ ، ابن خلدون ، المصدر
السابق ، ص ٣٧٦ .

واصلوا السير بعدهما لغزو تادلا ، غاستولوا عليها ، وقتلوا من بها من بنى يفرن ، وقتلوا كذلك لقوط المخراوى أمير اغمات^(٢٧) ، وتزوج أبو بكر بن عمر من السيدة زينب النفزاوية زوج لقوط المخراوى ، ثم سار ابن ياسين الى بلاد تامسنا فافتتحها ، وكان ينزل بسواحلها بعض قبائل برغواطة ، وكانت برغواطة تدين بمذهب تتنافى تعاليمه الاباحية مع أحكام الاسلام أسسه رجل يهودى الاصل يدعى صالح بن طريف البرغواطى ، فكان من الطبيعى أن يتجه المرابطون الى قتال هؤلاء القوم ، فسار ابن ياسين وقائده أبو بكر بن عمر فى جموع المرابطين الى أرض برغواطة ، وكان أميرهم يومئذ أبو حفص ابن عبد الله ابن أبى غنير بن محمد بن معاذ ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطين وقائع شديدة ، أصيب فيها ابن ياسين بجراح بالغة ، حمل على أثرها الى معسكره ، فجمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثم على الثبات فى القتال ، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرياسة ، ولم يلبث أن فارق الحياة^(٢٨) .

(٢٧) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٨٨ ، ابن خلدون ، نفسه ، ص ٣٧٦ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٦ ، عنان دول الطوائف ، ص ٣٠٥ ، ص ٣٠٦ ، شعيرة ، المرابطون ، ص ٦٢ .

(٢٨) اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ وفاة ابن ياسين وانقسموا الى فريقين ، فريق يرى أن الوفاة كانت فى عام ٤٥١ هـ ومن هؤلاء البكرى ، وابن أبى زرع ، وابن عذارى ، وابن الخطيب ، وفريق آخر يرى أن الوفاة حدثت فى عام ٤٥٠ هـ ومنهم القاضى عياض ، وصاحب الحل الموشية ، وابن خلدون ، والقلقشندى . والراى عندى أن الوفاة حدثت فى أوائل عام ٤٥١ هـ ، ولاسيما أن ابن عذارى قد حدد تاريخ خروج ابن ياسين لقتال برغواطة فى أول ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وابن أبى زرع يحدد تاريخ الوفاة بشهر جهادى الاولى سنة ٤٥١ هـ ، ومن المعروف أن المعركة استمرت فترة طويلة بين الفريقين ولذا فمن المرجح أن الوفاة قد حدثت فى الشهور الاولى من سنة ٤٥١ هـ .

اتفق رأى المرابطين على اختيار أبى بكر بن عمر للرياسة مكان ابن ياسين ، واجتمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر ، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية ، بينما يؤكد كل من القاضى عياض وابن خلدون أن المرابطين اتفقوا فيما بينهم على تقديم الشيخ سليمان بن حدو ، ليرجعوا اليه فى مشاكلهم وقضايا دينهم (٢٩) .

وما ان فرغ أبو بكر بن عمر من دفن ابن ياسين، حتى أمر بتعبئة عساكره وخرج لقتال برغواطة ، فأستأصلهم بالقتل ، وفرق جموعهم ، ثم لم ينبثوا أن اعلنوا الطاعة والولاء له ، وأسلموا سلاما جديدا ، ثم قصد أبو بكر الى مدينة أغمات فمكث بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ثم تابع سيره الى بلاد المغرب ، ففتح بلاد فازاز وجبالها وسائر أراضى زنانه ، كما افتتح بلاد مكناسة ، ثم حاصر مدينة لواته ودخلها عنوة فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٥٢ هـ ، وخربها (٣٠) ، ثم عاد الى أغمات التى اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقرا للامير واخوته ، وعندما اكتظت بمجموعة ، اتجه أبو بكر الى اختيار حاضرة جديدة ،

= نظر : البكرى ، المغرب ، ص ١٦٨ ، القاضى عياض ، ترتب المذارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ٤ ، ص ٧٨٢ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٦ ، مجهول الحل الموشية ، ص ١٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٦ ، القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، تحقيق احسان عباس ، طبعة بيروت ، بطون تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

(٢٩) القاضى عياض ، ترتب المذارك ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ٤ ، ص ٧٨٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٦ .

(٣٠) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩١ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٧٦ سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٨ .

فوقع اختياره على موضع مدينة مراكش الحالية ، فشرع في تأسيسها ، وبينما كان يشرف على بناء حاضرتة الجديدة ، أتاه رسول من الصحراء يخبره باغارة قبيلة جدالة على قبيلة لتونة ، واشتداد القتال بين الفريقين^(٣١) ، فرأى أبو بكر أن يرحل الى الصحراء ليصلح بين القبائل المتنازعة ، وقام قبل رحيله بتطبيق زوجته زينب النفزاوية ، وطلب منها الزواج من ابن عمه يوسف بن تاشفين^(٣٢) ، كما قدم يوسف لينوب عنه في رئاسة المرابطين ، وأقره شيوخ المرابطين على هذا الاختيار ، لما عرف عن يوسف من الفضل والورع ، وسداد الرأي والشجاعة ، وبعد النظر وهي أخص صفات الزعامة^(٣٣) ، وقد قسمت القوات المرابطية عندئذ الى جيشين ، تولى يوسف أمرة أحدهما ليقيم به اخضاع المغرب ، وتولى أبو بكر أمرة الآخر ، وبدأ يوسف على الفور في تأديب القبائل المغربية من مغراوه وزناته وبنى يفرن وغيرهم ، فوقع اختياره على أربعة من انقوادهم : محمد بن تميم الجدالي ، وعمر بن سليمان المسوفي ، ومدر ك التلكاتي وسير بن أبي بكر اللمتوني ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة ، وسار هو في أثرهم ، فغزا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة ، وبلدا بعد بلد ، وكان بعضهم يفرون ، وبعضهم يقتتلونه ، والبعض الآخر يدخاون في طاعته ثم رجع الى أغمات حيث تزوج من زينب النفزاوية^(٣٤) .

وفي عام ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، خرج يوسف بن تاشفين في جيش كثيف

-
- (٣١) مجهول ، الحل ، ص ١٢ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٩ .
(٣٢) ابن أبي زرع ، نفسه ، ص ٩٢ ، ابن عذاري ، نفسه ، ص ٢١ .
(٣٣) أشباح ، تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ترجمة عنان ،
الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٦ .
(٣٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ .

بتجاوز عدته مائة ألف فارس ، قاصدا مدينة فاس . وتمكن من دخولها
صلحا سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) وهو الفتح الاول لها ، واستخلف عليها
عاملا من لمتونه (٢٥) ، ثم مضى لمحاربة غمارة ، وفتح كيرا من حصونها
وقلاعها ، فانتهز الامير تميم بن معتمر المغراوي أمير فاس وكان قد
فر عنها قبل دخول المرابطين لها ، افتتت قرصة انشغل يوسف بن
تاشفين بمحاصرة قلاع بلاد فازاز ، ودخل مدينة فاس ، وقتل عامل
المرابطين عليها ، ولما بلغ يوسف ذلك سير المهدي بن يوسف الجزنائي
أمير مكناسة ، وكان قد بايع يوسف بن تاشفين بالامارة ، ودخل فسي
طاعته فابقاه يوسف على مكناسة ، فسيره يوسف الى فاس ، حيث دار
القتال بين المهدي وتميم المغراوي ، وانتهى بمصرع المهدي سنة ٤٥٦ هـ
(١٠٦٣ م) فأرسل أهل مكناسة الى يوسف بن تاشفين يخبرونه بموت
أميرهم ، وطلبوا منه أن يؤمر عليهم من يراه جديرا بامارتهم (٢٦) ، فوجه
بوسف حملات متتالية على فاس ، تمكنت احداها من قتل تميم بن معتمر،
الذي خلفه على فاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبي
انعافية الزناتى المكناسى ، الذى تمكن من الانتصار على جيوش
المرابطين المحاصرة لفاس ، والحاق الهزيمة بها ، فوصلت أخبار تلك
الهزيمة الى يوسف بن تاشفين ، وكان محاصرا لقلعة مهدي من بلاد فازاز
فترك بعض قواته لمواصلة الحصار ، بينما تحرك هو بقواته نحو فاس
فلما رحل عن قلعة مهدي سار الى بنى مراسن وذلك سنة ٤٥٦ هـ

(٢٥) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ابن خلدون ، العبر ،
ج ٦ ، ص ٣٧٨ ، سام ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٩ ، العبادى ، الصفحات
الاولى من تاريخ المرابطين ، ص ٧٣ ، شعيرة ، المرابطون ، ص ٩٠ .
(٢٦) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ ، ابن خلدون ، نفسه ،
ج ٦ ، ص ٣٧٩ ، سام ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٩ ، ص ٧٠٠ .

(١٠٦٣ م) : وفتح بلادهم ، ثم فتح بلاد ورغه كلها سنة ٤٥٨ هـ
(١٠٦٥ م) ، ثم فتح جميع بلاد غمارة سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) ثم أقبل
نحو فاس سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) ، فشدد عليها الحصار ، حتى دخلها
عنوة في ٢ جمادى الآخرة سنة ٤٦٢ هـ ، وقتل بها خلقا كثيرا من قبائل
مغراوه وبنى يفرن ومكناسة وزناتة^(٣٧) ، وقام بتحسين فاس ، وهدم
الاسوار الفاصلة بين عدوه القرويين وعدوه الاندلسيين وجعلها مدينة
واحدة ، وأمر ببناء المساجد في شوارعها وأزقتها ، كما بنى الحمامات
والفنادق وأصلح الأسواق^(٣٨) وأقام يوسف بفاس الى شهر صفر سنة
٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، فخرج منها الى بلاد ملوية فاقتتها ، كما افتتح
حصون وطاق من نواحيها ، وفي سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) ، غزا يوسف
بن تاشفين مدينة الدمنة من أعمال طنجة ، فدخلها عنوة ، وفي سنة ٤٦٧ هـ
(١٠٧٤ م) فتح غياثة وبنى مكود وبنى رهينة من أحواز تازا ، وفي سنة
٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) رأى يوسف ضرورة الاستيلاء على طنجة وسبته ،
ذبح قائد صالح بن عمران في اثني عشر ألف فارس من المرابطيين
وعشرين ألفا من سائر القبائل المغربية ، فالتقوا مع قوات الحاجب سكوت
ابن رغواطي بأحواز وادي منى من أحواز طنجة ، وفي هذه الموقعة لقي
سكوت مصرعه وانهزم جيشه ، ودخل المرابطون طنجة^(٣٩) ، أما سبته

(٣٧) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٧ ، ابن الخطيب ، أعمال
الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٩ ، سالم ،
انغرب الكبير ، ص ٧٠٠ ، العبادي ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ،
ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، شعيرة ، المرابطون ، ص ٩٢ .

(٣٨) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ابن الخطيب ، المصدر
السابق ، ص ٢٣٦ .

(٣٩) ابن أبي زرع ، نفسه ، ص ٩٨ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ،
ص ٣٨٠ .

فقد صمد فيها الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطى ، الى أن تمكن يوسف بمساعدة المعتمد بن عباد الذى أمدّه بسفينة حربية ضخمة ، من اقتحامها برا وبحرا فى سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨١ م) (٤٠) . كذلك سير يوسف قائده مزدلى لغزو مدينة تلمسان ، فتمكن هذا من الاستيلاء عليها فى الوقت الذى افتتح فيه يوسف مدينة آجر سيف ومليلة ، وجميع بلاد الريف ووهران وجبال وانشریشن الى الجزائر الحالية (٤١) . وهكذا تمكن يوسف بن تاشفين من فرض سيطرته على المغرب الاقصى ، ولكنه لم يدخل فى صراع مع اخوانهم الصنهاجيين فى المغربين الادنى والاوسط ، ففى المغرب الادنى كان هناك بنو زيرى وفى المغرب الاوسط كان بنو حماد ، وهكذا انقسم المغرب الاسلامى الى قسمين شرقى يحكمه بنو زيرى وبنو حماد الصنهاجيين ، وغربى يحكمه المرابطون .

وفى هذه الاثناء كان أبو بكر بن عمر قد وطد الامن فى الصحراء ، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة ، ثم عاد مرة أخرى الى المغرب الاقصى ، ونزل محله خارج مدينة أغمات ، وقد تسابق أصحابه الى مراكز لرؤيتها والسلام على يوسف ، واستقبلهم يوسف بالترحاب وأغدق عليهم الهدايا والصلوات . وقد أدرك أبو بكر بن عمر منذ الوهلة الاولى أن الامر قد خرج من يده ، وأن يوسف بن تاشفين قد استبد بكل الامور ، وكان يوسف قد شعر عند مقدم أبى بكر بدقة الموقف وما يتهدد سلطانه ، فاستشار زوجه زينب النفزاوية فى الامر ، فأشارت

(٤٠) مجهول ، هفاخر البربر ، نشر وتصحيح يفى برونفسال ، طبعة الرباط ، ١٩٣٤ ، ص ٥٦ ، ص ٥٧ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨ .
(٤١) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ .

عنه بأن يستقبل أبا بكر بالجفاء والغلظة ، ويشعره بقوة السلطان والاستبداد ، ويلطفه بعد ذلك بالهدايا والطعام والخلع بما يصلح للصحراء . وسار يوسف للقائه أبي بكر فالتقيا بموضع بين أغصان ومراكش ، حيث أقبل يوسف على أبي بكر وهو راكب فرسه ، ولم تكن تلك عادته مع أبي بكر من قبل ، كما نظر أبو بكر الى كثرة جيوش يوسف ، فسأله ما تصنع بهذه الجيوش كلها ، فرد عليه بأنه يستعين بها على من خالفه ، وهنا أدرك أبو بكر أن يوسف قد وطد العزم على فرض نفوذه وسلطانه على المغرب الأقصى ، وأنه على استعداد لأن يفعل أى شئ من أجل تحقيق هذا الهدف ، فأوصاه أبو بكر بالعدل والرفق بالمسلمين واختاره نائبا عنه على حكم المغرب الأقصى ، ثم ودعه وعاد الى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، من المال والخيول والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب ، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدواب ، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل في إحدى غزواته في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) (٤٢) .

ب (الوضع في الاندلس قبل تدخل المرابطين عسكريا :

في الوقت الذى نجح فيه يوسف بن تاشفين في تأسيس دولة كبيرة في المغرب الأقصى ، كانت الاحداث تتطور تطورا سريعا في الاندلس فقد كانت وحدة الاندلس قد تمزقت الى دويلات صغيرة صقلبية وعربية وبربرية وتبع ذلك انهيار قوة الاسلام العسكرية تبعا لهذا التمزق السياسى ، الامر الذى يسر أمام دول النصرانية وعلى الاخص قشتالة مهمة التهام هذه الدويلات واخضاعها الواحدة تلو الاخرى في نفس

(٤٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٣ ، مجهول ، الحل الموية ، ص ١٣ ، ١٤ ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

الوقت الذى استغرق ملوك الطوائف على الترف واللهو يدرعون ملوك النصرانية عنهم بالجزيات ويوادعوهم بالاتّوات الى أن تنبھوا بسقوط طليطلة فى عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)^(٤٣) فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، فقد جاء سقوطها نذيرا بما يترصد الاسلام فى الاندلس من خطر جسام ، وارتج الاندلس كله لهذه الحادثة رجّة غيفة وشعر الاندلسيون أن أمر الاندلس كله ائى ضياع ، وقد عبر الشاعر الاندلسى عبد الله بن فرج اليحصبى المشهور بابن العسال عن الآثار المتوقعة لمصير الاسلام فى الاندلس بعد سقوط طليطلة بالابيات الثلاثة التالية :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها الا من الغلط
الثواب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سفظ^(٤٤)

وقد كان من الضرورى فى تلك الظروف العصيبة أن تتحد القوى الاسلامية فى الاندلس لمواجهة هذا الخطر المسيحى ولكن ما حدث كان نقىض ذلك فقد بادر ملوك الطوائف الى استرضاء الفونسو السادس ، ورضوا على أنفسهم دفع الجزية له وارسال الهدايا المختلفة تقربا اليه .

(٤٣) عن أحداث سقوط طليطلة فى أيدي النصارى أنظر : ابن بسام (أبو الحسن الشنترينى) الخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع المجلد الاول ، طبعة القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ١٢٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٣٨ ، ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) ، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج ٥ ، ص ٢٧ ، مجهول ، الحلال الموشية ، ص ٢٧ ، المقرئ (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى) ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ج ٦ ، ص ٨٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧١٨ ، ص ٧١٩ .
Dozy, R., Historire des Musulmans d'Espagne, Leyde, 1932, vol., III.,p.121.
(٤٤) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٨٤ .

ويصف ابن الكردبوس أحوال ملوك الطوائف وقتئذ فيقول : « وذل
الرئيس والمرءوس ، واغتقرت الرعية ، وفسدت أحوال الجميع بالكلية ،
وزالت عن النفوس الانفة الاسلامية ، وأذعن من بقى منهم خارج الذمة
الى أداء الجزية ، وصاروا للفنش عمالا يجيبون له الاموال لا يخالف أمره
أحد ولا يتجاوز له أحد^(٤٥) » ، وعلى الرغم من هذا الاستذلال ، الا أن
الفونسو السادس لم يقنع بذلك ، بل تطلع الى الاستيلاء على مدن
الاندلس الاسلامية مدينة مدينة من أيدي المسلمين •

وكان المعتمد بن عباد أمير اشبيلية وقرطبة يؤدي الجزية لالفونسو
السادس ، الى أن استولى الأخير على طليطلة ، توطئة لان يسيطر على
بلاد ابن عباد وأخذ يتحين الفرصة لتحقيق حلمه هذا ، وقد اختلفت
الروايات حول السبب المباشر للعداء بين ألفونسو السادس والمعتمد ،
رواية تقول أن المعتمد قد انشغل عن أداء الاتاوة لالفونسو بغزو المرية
فغضب ألفونسو وأرسل الى المعتمد يطلب اليه تسليم بعض حصونه الى
عماله زيادة على الاتاوة وذلك من قبيل العقاب ، بل أضمن في التجنى على
المعتمد وطلب منه أن يسمح لزوجته القمطيبة بدخول جامع قرطبة لتلج
فيه ، وزعم أن الاطباء والقساوسة أشاروا عليه بذلك ، وأرسل سفارة
الى المعتمد على رأسها ابن شاليب اليهودي ، فرفض المعتمد كل ما تقدم
به ابن شاليب من طلبات ، فأغلظ له اليهودي في القول ، فغضب المعتمد
وأخذ محبرة كبيرة كانت بين يديه ، فأنزلها بقوة على رأس اليهودي ،
فألقى دماغه في حلقة ، ثم أمر به فصاب بقرطبة^(٤٦) • وهناك رواية

(٤٥) ابن الكردبوس ، الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، الجزء الخاص بالاندلس ،
نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في
مريد ، المجلد الثالث عشر ، مدريد ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م ، ص ٧٧ •
(٤٦) الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ، صفة =

أخرى تشير الى أن ألفونسو أرسل سفارته السنوية لقبض الاتاوة من المعتمد ، وكان على رأس السفارة ابن شاليب اليهودي ، ونزلت السفارة خارج باب اشبيلية ، فأرسل المعتمد اليهم المال مع بعض وزرائه ، فرفض ابن شاليب أن يتسلم المال ، وصمم على أن يأخذ الاتاوة ذهباً ، فضلاً عن بعض السفن التي تقوم البلاد بصناعتها ، فغضب المعتمد ، وأمر بقتل اليهودي ، ورفض أن يعفو عنه في مقابل أن يفدى نفسه بما يعادل وزنه ذهباً (٤٧) .

ولما بلغ ألفونسو السادس ما فعله ابن عباد ، أقسم بآلهته ليغزونه باشبيلية وليحاصرته في قصره ، فجرد جيشين ، جعل على الاول أحد قواده وأمره أن يسير الى كوره باجه من غرب الاندلس ، ثم يغير على تلك التخوم والجهات الى أن يصل الى اشبيلية ، في نفس الوقت الذي بزحف فيه ألفونسو السادس بالجيش الآخر ، سالكا طريقاً غير الطريق الذي يساكنه الجيش الاول ، وبالفعل عاث الجيشان في البلاد وخربا ودمرا الى أن اجتمعا لموعدهما على ضفة نهر الوادي الكبير قبالة قصر ابن عباد (٤٨) ، كنوع من المظاهرة العسكرية التي تستهدف بث الذعر في نفوس المسلمين . وكان ابن عباد في هذه الاثناء قد أدرك أن العلاقات بينه وبين ألفونسو السادس قد وصلت الى طريق مسدود ، وأن النوايا

= جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ٨٤ ، المقرئ . نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

(٤٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ابن الخطيب ، الجزء الثاني الخاص بتاريخ أسبانيا ، نشره ليفي بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ م ، ص ١٨٥ ، ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، نشر وتحقيق محمد عبد الله عنان ، الجزء الثاني ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ١١٠ . (٤٨) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٥ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

التوسعية لآلفونسو السادس قد أضحت تماما ، وأن هذه النوايا لن تقتصر على ما يملكه ابن عباد ، بل ستشمل كل أرجاء الأندلس تحقيقا لحلم النصارى في طرد العرب نهائيا من الأندلس ، ولذا فقد رأى المعتمد ضرورة الاستعانة بأقرب وأكبر قوة اسلامية مجاهدة وهى القوة المرابطية الفتية التى تمكنت من الظهور حديثا فى المغرب الاقصى ، فشاور ابن عباد خاصته ووجوه دولته فى الاستتجاد بيوسف ابن تاشفين، ولكنهم حذروه وأثاروا عليه بمداراة آلفونسو السادس وعقد السلم معه على ما يشتهي من شروط ، وقالوا له « الملك عقيم والسيوفان لا يجتمعان فى غمد واحد ، فأجابهم ابن عباد بكلمته المشهورة التى عدت من الأمثال « رعى الجمال خير من رعى الخنازير »^(٤٩) ، ثم اختلى بابنه اثرشيد وذكر له المبررات التى حملته على أن يقدم على هذه الخطوة الجريئة ، وهى ضعف دول الطوائف الى حد استحالة صمودهم وتهديد آلفونسو السادس بعد أن ضم طليطلة وزحف الى اشبيلية ، غير أن ابنه اثرشيد اعترض على رأى والده وقال له : « يا أبت أتدخل علينا فى اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » ، فقال : « أى ابنى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ، فتقوم على « اللعنة فى منابر الاسلام مثل ما قامت على غيرى » ، فقال الرشيد « يا أبت أفعل ما أمرك الله » ، فقال « ان الله لم يلهمنى لهذا الا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة المسلمين »^(٥٠) ، ثم ان المعتمد عقد اجتماعا مع

(٤٩) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٢٧ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ .

Dozy; R., Histoire des Musulmane d'Espagne, vol., III., p. 124; Miranda (Ambrosio Huici), La invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaka, Hesperis 1-2 Trimestres, T, XI, 1958, p. 26.

(٥٠) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

Turk (Afif), El Reino de Zaragoza en el Siglo XI de Cristo (V de la Hagiografía), Madrid, 1978, p. 148. Dozy, Histoire., vol., III, p. 123.

أشياخ قرطبة وفقهائها لدراسة الموقف في الاندلس ، عرض عليهم فيه اقتراحه باستدعاء المرابطين ، فرأى هؤلاء الشيوخ استدعاء عرب افريقية من بنى هلال ، ولكن عبد الله ابن أدهم قاضى الجماعة بقرطبة رفض هذه الفكرة ، وقال لهم : « اذا وصلوا الينا يخربون بلادنا كما فعلوا بأفريقية ، ويتركون الفرنج ، ويبدعون بكم ، والمرابطون أصلح منهم وأقرب الينا » ، فوافقتوا ابن أدهم على رأيه وطلبوا منه أن يكتب يوسف بن تاشفين في العبور الى الاندلس (٥١) .

وهكذا اجتمعت رغبة المعتمد مع رغبة فقهاء قرطبة في استدعاء المرابطين لنصرة الاسلام في الاندلس ، ولكن المعتمد لم يكتف بذلك بل أراد أن تتم الرغبة باجماع فقهاء الاندلس جميعا ، فخطب المعتمد جاريه المتوكل بن الافطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، في أن يرسل كل منهما قاضى حضرته للاجتماع مع قاضى الجماعة بقرطبة ، فوصل من بطليوس قاضيهما أبو اسحاق بن مقانا ، ومن غرناطة قاضيهما أبو جعفر القليعى ، واجتمعوا في اشبيلية بابن أدهم قاضى الجماعة بقرطبة وانضم اليهم الوزير أبو بكر بن زيدون ، وتقرر أن يرحل هؤلاء في وفد يمثل أهل الاندلس وملوكها الى مراكش لمقابلة يوسف بن تاشفين، لينقلوا اليه رغبة ملوك وفقهاء الاندلس في دعوته الى العبور الى الاندلس لتخليص الاسلام والمسلمين من الخطر المسيحى المحدث بشبه انجزيرة (٥٢) . وعندما وصل هذا الوفد الى مراكش لمقابلة ابن تاشفين

(٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤١ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٢٨ .

(٥٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ابن البار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعى) ، الحلة السيرة ، جزآن ، نشر وتعليق حسين مؤنس ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ .

Miranda, La invasion de los Almoravdes, p. 27.

ودعوته الى نصره الاندلس ، رأى يوسف ضرورة استشارة قومه وفقتهاء وكبار رجال دولته في ذلك، فوافقوا على تلبية هذه الدعوة ، وقالوا له ان الواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله اغاثه أخيه المسلم ، كذلك استشار يوسف كاتبه عبد الرحمن بن اسباط وكان أندلسيا من مدينة المرية ، فذكر ابن اسباط ليوسف ما يعترض الحرب في الاندلس من اخطار ، وأشار عليه أن يطلب من المعتمد التنازل عن الجزيرة الخضراء ، ليضع فيها يوسف أثقاله وجنوده ، وليضمن سلامة خطوط مواصلاته^(٥٣) ، فأبلغ يوسف على الفور المعتمد بموافقته على العبور الى الاندلس على هذا الشرط ، فلما ورد كتاب يوسف على ابن عباد ، لم يتردد في الاستجابة لمطلب ابن تاشفين ، وأمر ولده الراضى يزيد الوالى على الجزيرة الخضراء ، باخلاؤها والانتقال عنها^(٥٤) .

وعندئذ بدأ يوسف يتأهب للعبور الى الاندلس ، فأرسل الى سائر مدن المغرب يطلب سرعة موافاته بالامدادات ، كما انتقل الى مدينة سبته للإشراف على نقل قواته الى الاندلس ، فلما تكاملت حشوده ، أمرها بالعبور انى الاندلس في شهر جمادى الاولى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، ثم عبر هو في أثرهم ، فنزل بالجزيرة الخضراء ، وحرص على تحصينها ، فأمر ببناء الاسوار حولها ، وأصلح ما تصدع من أبراجها وشحنها بالاطعمة والاسلحة ، وأبقى فيها فرقة عسكرية من خيرة جنوده لتأمين ظهره في

(٥٣) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٣١ ، ص ٣٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

Dozy, Histoire., Vol., III, pp. 124-5.

(٥٤) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٣٣ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

Dosy, Ibid., p. 127.

حالة انسحابه ، ثم رحل عن الجزيرة الخضراء متجها صوب اشبيلية ، ولما اقترب منها خرج المعتمد الى لقاءه في وجوه أصحابه وقواده ، وعند اللقاء تعانق الرجلان ، وقدم المعتمد له الكثير من الهدايا والتحف ، ثم رحلت الجيوش الى اشبيلية ، حيث أقاموا ثلاثة أيام (٥٥) .

ثم كتب يوسف الى سائر ملوك الطوائف ، يدعوهم الى اللحاق به ، والمشاركة في الجهاد ، فلبى دعوته منهم كل من عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، وأخوه تميم صاحب مالقة ، بينما اعتذر المعتصم بن صمادح صاحب المرية بكبر السن مع الضعف ، أو لخوفه من نتيجة المعركة ، واكتفى بارسال ابنه معز الدولة في فرقة من الجند (٥٦) ، ثم تقدم يوسف بصحبة المعتمد الى بطليوس ، وهناك التقيا مع المتوكل بن الافطس ، فقدم لجيوشهما كل ما احتاجت اليه من المؤن والعتاد (٥٧) ، ورأى يوسف ابن تاشفين تقسيم الجيوش الاسلامية الى معسكرين ، معسكر أندلسي يضم جيوش الاندلس ، ومعسكر مرابطي يضم الجيوش المرابطية ، وجعل المعتمد على قيادة المعسكر الاول ، ولم تلبث الجيوش الاسلامية أن اتجهت الى شمالي بطليوس ، حيث أقامت معسكراتها بين بطليوس

(٥٥) المراكشي (عبد الواحد) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، نشر سعيد العريان ، محمد العربي العلمي ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٣١ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٣٣ ، ص ٣٤ ، الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢١ .

(٥٦) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠ ، ص ١٠١ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ٣٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٤ .

Dozy, Histooire., vol., III, p. 126; Miranda, La invasion de los Almoravides, p. 40.

(٥٧) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ص ٣٥ .

وقوريه ، أى بين ضفتى وادى آنه ووادى تاجة وتسمية الرواية العربية بالزلاقة بينما يعرف بالاسبانية باسم Sagrazos (٥٨) .

وصلت أنباء جواز المرابطين الى شبه الجزيرة، الى ألفونسو السادس وهو محاصر لسرقسطة ، وكان قد أقسم ألا يبرحها حتى يدخلها ، ولكنه اضطر الى فك الحصار وعاد الى طليطلة (٥٩) ، ومن هناك كتب الى ماوك وأمراء النصارى يستمدهم لوقف الزحف المرابطى ، فوفدت اليه سرىات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك ، وجويانة ، وبرجونية ، وبروفانس ، كما تحالف مع سانشوراميرث Sancha Ramirez ملك أرغون وصاحب بنبلونة ، والكونت برنجار ريموند ، وكان سانشو مشغولا بمحاصرة طرطوشة ، بينما كان برنجار يتأهب لغزو بلنسية ، وسار ألفونسو على رأس تلك القوات النصرانية الى الجنوب للقاء المسلمين (٦٠) .

تقدمت جيوش النصرانية حتى أصبحت على مبعدة ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين ، وكان يفصل بينهم نهر بطليوس ، ولبت الجيشان الخصيمان ، كل منهما تجاه الآخر مدى أيام ثلاثة ، ثم نشب القتال العنيف بينهما ، الذى انتهى بنصر رائع مؤزر أحرزه المرابطون على القوى النصرانية (٦١) .

(٥٨) عن موقع الزلاقة أنظر : مجهول ، الحل المرشحة ، ص ٣٣ ، ص ٣٤ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧ - ٩٠ .

(٥٩) Dozy, Histoire., III, p. 126; Tcrrasse, Histoire du Maroc, vol., II, p. 234; Turk; El Reino de Zaragoza, p. 150
(٦٠) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٤ ، عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٢ ، Pidal, R.M., La Espana del Cid, Cuarto edicion, Madrid, 1947, Vol., I, pp. 331-2.

(٦١) تختاف الروايات الاسلامية فى تحديد تاريخ معركة الزلاقة : فيقول ابن الاثير أنها كانت فى أوائل رمضان سنة ٤٧٩ هـ ، ويقول المراكشى أنها =

ويبدو أن يوسف بن تاشفين كان ينوي تعقب الفونسو السادس في
بازده^(٦٢) ، لولا أن وافقته الانباء بوفاة ابنه الاكبر أبى بكر^(٦٣) ، فأضطّر
أنى العودة الى المغرب ، وترك تحت امرة المعتمد فرقة عسكرية قوامها
ثلاثة آلاف من المقاتلين المرابطين وقدم عليهم سير بن أبى بكر
اللمتوني^(٦٤) .

ولقد كان لانتصار الزلاقة عدة نتائج هي :

١ — أنقذ الاسلام والمسلمين في الاندلس من أيدي النصارى ،
الذين كانوا يتطلعون الى القضاء على الاسلام وطرد المسلمين من شسبه
الجزيرة .

٢ — تألق نجم يوسف بن تاشفين ، وذبوع صيته في المغرب
والاندلس بل أنه أصبح في نظر الفقهاء هو مبعوث العناية الالهية^(٦٥) .

= كانت في رمضان سنة ٤٨٠ هـ ، ويقول ابن الابار أنها كانت في ١٢ رجب
سنة ٤٧٩ هـ ويتفق معه ابن أبى زرع ، وصاحب الحلال الموشية . وهذا هو
التاريخ الصحيح ، وهو الذى يذكره يوسف بن تاشفين في خطابه بالفتح الى
عدوة المغرب ، كما أن الرواية المسيحية تحدد تاريخ المعركة بالثالث والعشرين
من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م وهو يتفق مع الثانى عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ .
أنظر : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٢ ، المراكشى ، المعجب ، ص
١٣٥ ، ابن الابار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٠١ ، ابن أبى زرع ، روض
القرطاس ، ص ١٠٥ ، مجهول ، الحلال الموشية ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .
Dozy, Histoire., vol., III, p. 129; Miranda, Histoia Musulmans De Valencia
y su Regon, Valencia 1960 - 70, vol., H, p. 16.

(٦٢) ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ٩٥ .

(٦٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥ ، مجهول ، الحلال
الموشية ، ص ٤٧ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ٩٥ ، ساله ، المغرب الكبير ،
ص ٧٢٦ .

(٦٤) أشباح ، تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٩ .
Dozy, Histoire., vol., III, p. 131.

(٦٥)

٣ — حرر سرقسطة وحماها من الوقوع في أيدي القشتاليين ، وكانوا يحاصرونها عندما نزلت قوات المرابطين بالاندلس ، كما أنقذ طرطوشة من حصار سانشو راميرث لها ، وكذلك بلنسية التي كان برنجار ريموند بتأهب لغزوها (٦٦) .

٤ — حمى غرب الاندلس من خطر القشتاليين بعد أن تولى المرابطون اندفاع عنها وحمايتها (٦٧) .

٥ — كان مبررا كافيا لانعقاد الصلح بين الفونسو السادس وقائده النسيذ الكنبيطور (٦٨) .

٦ — أسقط من قدر ملوك الطوائف في نظر رعييتهم ، ومهد السبيل إلى اسقاط دويلات الطوائف وسيطرة المرابطين على الاندلس (٦٩) .

ج (الاندلس في أعقاب الزلافة :

تولى الامير سير بن أبي بكر قيادة الجيش المرابطى فى الاندلس ومن الجدير بالذكر أن المتوكل على الله بن الافطس أمير بطليوس لم يتردد فى المشاركة فى الاغارة على أواسط البرتغال الحالية مما يلى نهر تاجة وقد أثخنت قواته مع قوات المرابطين فى تلك الانحاء ، كما زحف المعتمد بن عباد فى قوة كبيرة من الفرسان على طليطلة ، واستولى على عدة مدن منها اقليش وقونكة ووبدة ، ثم اتجه ابن عباد الى أرض مرسية ، حيث استقرت جموع كبيرة من الفرسان النصرى بقيادة الكنبيطور فى أحد

(٦٦) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٦ .

(٦٧)

Dozy, Ibid., p. 131.

(٦٨) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٧ .

(٦٩) سالم ، نفسه ، ص ٧٢٧ .

الحصون القريبة وأخذت من هناك في الاغارة على المدن الاسلامية وخاصة عنى مدينة المرية ، فاشتبك ابن عباد مع الكنبيطور ولكنه انهزم واضطر الى الفرار ، ولم ينقذه من مطاردة النصارى له سوى التجائه الى قلعة لورقة في كنف واليها محمد بن لبون ، ثم تركها متجها نحو قرطبة تاركا مرسية لمصيرها ، حدث ذلك في الوقت الذي بدأت فيه جموع النصارى — بعد ما وصلتهم قوة من القشتاليين أرسلها الفونسو السادس — تهدد مدن شرق الاندلس من حصن لبيط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة ، فكثروا يخرجون منه للغزو والاغارة على الاراضى الاسلامية المجاورة لهم^(٧٠) .

وهكذا لم يمض عام واحد على هزيمة الفونسو السادس ، حتى بدأ يستعيد قوته التى فقدوها ، فنقل ميدان نشاطه هذه المرة الى شرق الاندلس ، الذى كان ممزقا من الناحية السياسية بعكس الغرب الذى كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما مملكتا اشبيلية وبطليوس ، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على رأسها القائد العظيم سير بن أبى بكر^(٧١) .

وبدا للناس كأن معركة الزلاقة لم تكن خاسمة في تاريخ الجهاد في الاندلس ، وأن الامر يتطلب ضرورة عودة يوسف بن تاشفين مرة أخرى الى مسرح الاحداث في الاندلس ، فوفدت على المغرب من جديد وفود

(٧٠) أشباج ، تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٩ ، ص ٩٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٨ ، ص ٧٢٩ .
Cadera (Francisco), Decadencia y Desaparición de Los Al Morvices on Espana, Zaragoza, 1899, p. 3.

(٧١) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٨ .
Pidal, Espana del Cid, vol., I, p. 350.

أهل الاندلس لاسيما أهل بلنسية ومرسية ولورقة ، يشكون الى الامير يوسف ، ما حل بهم على أيدي النصارى الذين يتحكمون من حصن لبيط عنى قواعد شرق الاندلس ، فوعدهم يوسف بالجواز اليهم ، كما عبر المعتمد ابن عباد المجاز الى المغرب حيث استقبله الامير يوسف فى موضع عنى وادى سبو وأطلعه المعتمد على أحوال أهل الاندلس ، وما يعانونه من غارات النصارى عليهم ، وعرض على يوسف العبور الى الاندلس ، فاستجاب يوسف لرغبته (٧٢) .

تم جواز يوسف الى الجزيرة الخضراء فى ربيع الاول سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) ، ومن هناك كتب جميع أمراء الاندلس ، يدعوهم للجهاد ، واتفق معهم أن يكون اللقاء عند حصن لبيط ، ثم تحرك يوسف من الجزيرة الخضراء الى مالقة فى صحبة أميرها تميم بن بلقين ، كما لحق به الامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح ، فضلا عن المعتمد بن عباد ، بالاضافة الى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان ، ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوى ابن الافطس صاحب بطليوس ، واتجهت تلك الحشود الى حصن لبيط ، الذى تحتشد فيه حامية قشتالية قوامها ألف فارس واثنتى عشر ألفا من المشاة ، ثم ضرب المسلمون الحصار حول

(٧٢) ابن بلقين (الامير عبد الله الزيرى) : مذكرات الامير عبد الله انزيرى المسماه بكتاب التبيان ، نشره وحققه ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، يقول ابن بلقين أن جواز المعتمد الى المغرب كان لغرضين أولهما رغبته فى الاستيلاء على مرسية من يد ابن رشيق وتسليمها لابنه الراضى بالله عوضا عن الجزيرة الخضراء ، وثانيهما الاستصراخ بيوسف بن تاشفين ضد النصارى لحماية أملاكه فى شرق الاندلس . المذكرات ص ١٠٨ ، أنظر أيضا مجهول ، الحل الموشية ، ص ٧ ، ص ٤٨ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣ .

Dozy, Histoire., vol., III, p. 133.

الحصن ما يقرب من أربعة أشهر^(٧٣) ، واستبسل النصاري في الدفاع عنه ، كما كانوا يخرجون ليلاً لانتقاض على المسلمين والحاق الخسائر بهم^(٧٤) .

وفي أثناء الحصار وقعت بعض الاحداث المؤسفة في المعسكر الاسلامي ، فقد بدأ أمراء الاندلس يحكمون يوسف في خلافتهم ، فالمعتمد شكا اليه خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه لالفونسو السادس تقربا اليه ، فأمر يوسف — بعد استشارة الفقهاء — بالقبض على ابن رشيق وسجنه ، فافترق شمل شيعته ، وانسحب جنده من المعركة ، وقطعوا الميرة عن القوم ، ف وقعت المجاعة وغلت الاقوات^(٧٥) ، وبينما المسلمون مختلفون أشد الاختلاف ، وردت الانباء بتقدم الفونسو صوب لييط لانتقاذ المدافعين عن الحصن ، وهنا قرر يوسف بن تاشفين ترك الحصار واتجه بحشوده نحو لورقة ، فالمرية ومنها ركب البحر الى مراكش ، وهنا أقبل الفونسو بحشوده ونزل على حصن لييط ، ورأى أنه نظرا لموقع الحصن في قلب بلاد المسلمين ، فإنه لا يمكن الدفاع عنه دون حامية كبيرة ، فأمر بتقويض أسواره ، وإخلائه ممن بقي فيه من النصاري ، وكانوا مائة فارس وألف راجل هم البقية الباقية من ثلاثة عشر ألف

(٧٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٤٨ ، ص ٤٩ .

Dozy, Ibid, vol., III, p. 140; Terrasse, Histoire du Maroc, vol., II, p. 234; Turk, El Reino de Zaragoza, p. 158.

(٧٤) أشباج ، تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ص ٩١ .
(٧٥) عبد الله بن بلقين الزيرى ، التبيان ، ص ١٠٦ ، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٠ .

Terrase, Histoire du Maroc, vol., II, p. 236.

مقاتل ، ثم عاد الى حاضرتة طليطلة^(٧٦) ، ثم تحرك ابن عبيد بعد ذلك واستولى على الحصن بعد تخريب النصارى له^(٧٧) .

عاد يوسف بن تاشفين الى المغرب ، وقد عزم على التخلص من ملوك الطوائف بعد ما استبان له خيانتهم باتصالهم بنصارى أسبانيا، وتقااسهم عن الدفاع عن أراضيهم ، كما استبان له أن بعضهم كان يلوذ بالجزيات للاستتصار بالفونسو السادس لاسيما صاحب غرناطة الذى اتفق مع البرهانس Alvar Hanez وكيل الفونسو السادس فى جهات غرناطة والمرية ، وتعاهد معه على نصرته نظير ٣٠ ألف دينار^(٧٨) ، كما أن المعتمد بن عباد استغل حركة الجهاد المرابطى فى الاندلس لتحقيق مصلحته الشخصية ، فهو لم يستعن بالمرابطين فى المرة الثانية الا ليتخلص من خطرين أولهما خطر حصن لبيط على ممتلكاته فى شرق الاندلس ، وثانيهما كى يتخلص من ابن رشيق الذى انتزع مرسية التى كانت من أملاك ابن عباد ، ولذا بات واضحا ليوسف بن تاشفين أن حركة الجهاد فى الاندلس تستلزم القضاء أولا وقبل كل شىء على ملوك الطوائف ، وقاية لنفسه ولقواته من التعرض للطعن من الخلف أثناء جهاده ضد النصارى ، ومما شجع يوسف على المضى فى مشروعه هذا الفتاوى التى وصلت اليه من فقهاء المشرق والمغرب على السواء وعلى رأسهم الامام الغزالى والطرطوشى وغيرهما وكلها تجيز له التخلص من ملوك

(٧٦) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ٥٠ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٩٥ ، سالم ، المرجع السابق ، ص ٧٣٠ .

Cadera, Decadencia y Desaparicion, p. 3; Dozy, Histoire., vol., III, p. 140.

(٧٧) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ١٠٦ .

(٧٨) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٠ ، ص ٧٣١ .

Miranda, Historia Musulmana De Valencia, vol., II, p. 22.

الطوائف^(٧٩) ، كما أن الاستيلاء على الاندلس كان يعتبر ضرورة عسكرية واستراتيجية تتطلبها الظروف المستجدة بالنسبة لدولة المرابطين الناشئة باعتبار أن الاندلس خط الدفاع الأول عن المغرب الاسلامي .

جاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس للمرة الثالثة في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) وهو ينوي هذه المرة عزل الامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة بعد أن وضع تواطؤه مع الفونسو السادس ، فحاصر يوسف غرناطة ، وتمكن من دخولها ، واستولى على قصر ابن بلقين ، كما أرسل نفس الوقت فرقة من جيشه الى مدينة مالقة ، حيث ألقى القبض على الأمير تميم بن بلقين ، ولما تم له ذلك أمر بنفيهما الى مدينة أغمات بأرض المغرب ، فأرسل اليها وأقاما بها الى أن توفيا^(٨٠) .

وفي العام التالي ، تحرك يوسف بن تاشفين من مراکش الى سبتة ليشرف على عبور الجيوش المرابطية الاربعة التي قرر ارسالها الى الاندلس للقضاء على ملوك الطوائف منفردين ، وتولى سير بن أبي بكر قيادة الجيش المرابطي الأول وأصدر اليه الامير يوسف أمره بمحاصرة المعتمد بن عباد في اشبيلية ، فان تمكن من الاستيلاء عليها ، زحف الى بطليوس للقضاء على المتوكل بن الافطس ، أما الجيش المرابطي الثاني فأسند قيادته الى عبد الله بن الحاج ، وعهد اليه بمنازلة الفتح الملقب بالمأمون ولد المعتمد بن عباد في قرطبة ، أما الجيش الثالث فقد جعل على قيادته أبا زكرياء بن واسنو وأمره بمحاصرة المعتصم بن صمادح بالمرية ، أما الجيش الرابع فقد تولى قيادته جرور الحشمي وأمره يوسف بمنازلة

(٧٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .

Dozy, Histoire., vol., III, p. 141.

(٨٠) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥١ .

Dozy, Ibid, p. 145.

يزيد الراضى ولد المعتمد برنده ، أما يوسف بن تاشفين فقد أقام بمدينة
سبتة على رأس الجيش الاحتياطي ، مترقبا لما يحدث ، متأهبا لنجدة هذه
الجيش التي أرسلها الى الاندلس (٨١) .

سار الامير سير بن أبى بكر الى اشبيلية ، وكانت العلاقات قد ساءت
بين يوسف والمعتد ، لاسيما بعد أن لجأ الأخير الى طلب مساعدة الفونسو
السادس فقد وقعت في يد يوسف بعض المراسلات السرية بين المعتد
والفونسو. السادس مما أغضب يوسف ، فشاور الفقهاء في أمره ، فأشاروا
عليه بالاستيلاء على بلاده (٨٢) ، ولذا مضى سير الى أشبيلية ، وهاجم
أسوارها وأحكم عليها الحصار ، وفي نفس الوقت أرسل سير قائده يطى
ابن اسماعيل الى مدينة جيان ، فتمكن من دخولها صلحا ومنها ارتحل
الى قرطبة ، حيث تمكن من افتتاحها يوم الاربعاء الثالث من صفر سنة
٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، ثم فتح يطى أيضا بياسة وأبده ، وحصن البلاط ،
وحصن المدور والصخيرة وشقورة ، ثم ارتحل سير عن أشبيلية ، وسار
الى قرمونة ودخلها يوم السبت ١٧ ربيع الاول سنة ٤٨٤ هـ ، ثم عاد مرة
أخرى وشدّد حصاره على أشبيلية ، مما جعل المعتد يستغيث بالفونسو
السادس ويستصرّخه ، ويعدّه باعطاءه بلاده ، أن أنقذه من الحصار المرابطى
فأرسل اليه الفونسو قائده البرهانس في جيش من عشرين ألف فارس ،
وأربعين ألف رجل ، فلما علم سير بقدوم الجيش القشتالى ، اختار عشرة
آلاف رجل من فرسانه وقدم عليهم القائد ابراهيم بن اسحاق اللمتونى ،
فالتقى ابراهيم بالقشتاليين بالقرب من حصن المدور (٨٣) ، وقيل في بلمه

(٨١) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٥٢ ، وانظر أيضا : أشباح ، تاريخ

الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ .

(٨٢) عبد الله بن بلقين للزيرى ، التبيان ، ص ١٦٩ .

(٨٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .

من أحواز أشبيلية^(٨٤) ، حيث دارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة
 النقشاليين^(٨٥) ، وفي نفس الوقت شدد سير حصاره على أشبيلية ، ودافع
 المعتمد عن حاضرتة أشد دفاع ، وصمدت المدينة لهجمات المرابطين ،
 حتى أنه ينسب الى سير أنه قال « لو أنى أقصد مدينة الشرك لم تمتنع
 هذا الامتناع »^(٨٦) ، وأخيرا تمكن سير بمساعدة أهالي أشبيلية من دخول
 المدينة من ناحية نهر الوادي الكبير يوم الاحد ٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ^(٨٧) ،
 وقبض على المعتمد وأهله وانتهت قصوره وأمواله وذخائره ، وأبرغم هو
 وزوجته على الكتابة لولديهما المعتد بالله الى على مارتلة ، والراضى
 بالله الوالى على رنده ، وكانتا من المعقل الحصينة فى الاندلس ، وقد
 طلب المعتمد وزوجته من ولديهما الاستسلام للمرابطين^(٨٨) ، وكان جرور
 الحشمى محاصرا لرنده ، بعد أن فشل فى فتحها، فلما وصل للراضى خطاب
 والديه ، سارع بفتح أبواب مدينته لجرور بعد أن تعهد له الاخير بالحفاظ
 على أرواح أهلها ، ولكنه نكث بوعده ، وقبض على الراضى وقتله ، كما
 قتل كل من وجده بها من الجند والفرسان^(٨٩) ، أما المعتد ، فإن القائد
 المرابطى الذى أرسل اليه ، اكتفى بالاستيلاء على كل ما كان يملكه
 المعتد^(٩٠) ، وخرج المعتمد بن عباد وأهله من أشبيلية ، حيث استقر به

-
- (٨٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام الجزء الثانى الخاص بتاريخ الاندلس ،
 نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ م ، ص ١٨٩ .
 (٨٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، ابن الخطيب ، أعمال
 الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .
 (٨٦) عبد الله بن بلقين ، التبيين ، ص ١٧٠ .
 (٨٧) عبد الله بن بلقين ، نفسه ، ص ١٧٠ ، ابن الاثير ، ج ٨ ، ص
 ١٥٥ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣١ .
 (٨٨) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ .
 (٨٩) عبد الله بن بلقين ، نفسه ، ص ١٧١ ، المراكشى ، نفسه ، ص
 ١٤٣ .
 (٩٠) المراكشى ، نفسه ، ص ١٤٣ .

المقام بمدينة أغمات ، ومكث بها الى أن توفي في عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) (٩١) .

ولما فرغ سير من أشبيلية ، سير الى المرية ، القائد داود بن عائشة (٩٢) ، وقيل يحيى بن واسنو (٩٣) ، وكان صاحب المرية المعتصم بن حماد مريضا ، فلم علم بقدوم المرابطين وحصارهم لمدينته ، اشتد عليه المرض ولم يلبث أن توفي ، وكان المعتصم حينما حضرته الوفاة ، قد أوصى ونده وولى عهد معز الدولة أحمد بن المعتصم ، بالهروب الى بنى حماد أصحاب بجاية والقلعة بالمغرب الاوسط ، واشترط عليه ألا يفعل ذلك الا بعد سقوط اشبيلية وخلع أميرها المعتمد ، فلما سقطت اشبيلية بدأ معز الدولة تنفيذ وصية والده ، فخرج في أهله وذخائره وأمواله في إحدى السفن ، بعد أن لجأ الى الحيلة والدهاء ، فقد أخبر أهل مدينته أنه ذاهب للقاء أمير المسلمين وعلان ولائه وطاعته له ، ولكن بمجرد أن توسطت سفينته البحر ، تحول صوب الجزائر ، حيث نزل على المنصور بن الناصر بن علناس صاحب قلعة بنى حماد الذى أكرمه وخيره في أقطار بلاده التى يحب سكناها ، فأختار أن يقيم في مدينة تدلس الواقعة على البحر (٩٤) .

تحرك سير بن أبى بكر نحو بطليوس ، وكانت بطليوس قاعدة ملك

(٩١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٥ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٢٣ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٥ .

(٩٢) ابن أبى زع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ .

(٩٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

(٩٤) حول سقوط المرية فى أيدي المرابطين أنظر : عبد الله بن بلقين ، البيان ص ١٦٧ ، ص ١٦٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٤ ، سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الاندلس ، الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٦٩ م ، ص ٨٢ .

دولة بنى الاغطس ، وكان يحكمها وقتئذ المتوكل بن الاغطس ، وكان قد تحالف مع الفونسو السادس ، وبذل له ثلاث مدن هامة من أملاكه هى أثبونة وشنترين ثمننا لتدلفه معه ، فكان لهذا أثره فى زيادة هوة الخلاف بين المرابطين وابن الاغطس، فغزم سير على معاقبة ابن الاغطس فاندفع بفواته صوب بطليوس ، فاضطر المتوكل الى الامتناع بقصبة بطايوس المنيعه ، ولكن القوات المرابطية اقتحمتها ليلا ، وألقت القبض على المتوكل وولديه ، ثم قتل هو وابناه (٩٥) .

وفى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، أمر يوسف بن تاشفين قائده داود بن عائشة بالسير الى مرسية قاعدة شرق الاندلس ، وتمكن من هزيمة فرقة عسكرية للنصارى ، وخلق صاحب مرسية ، ثم زحف الى دانيية ، ففر صاحبها ابن مجاهد فى البحر الى الدولة الحمادية الصنهاجية ، حيث استقباه ملكها المنصور بن علناس ، فأحسن اليه وأكرمه ، كما استولى ابن عائشة على شاطبة وشقورة (٩٦) .

وفى ذلك الوقت اشتد الاضطراب فى بلنسية ، وتطلع أهلها الى التخلص من حكم القادر بن ذى النون ، الذى كانت تسانده قشتالة وملكها الفونسو السادس وقائده السيد الكتبيطور ، وكان الكتبيطور يعتبر بلنسية ملكا له ، يأخذ منها اتاوة قدرها مائة ألف مثقال من الذهب كل عام نظير حمايته للقادر بن ذى النون ، ولذا فقد تطلع أهل بلنسية الى

(٩٥) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٧٥ ، ابن البار ، الحلة الاسيراء ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .
Dozy, Histoire, vol. III, p. 152.

(٩٦) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، ابن الكردبوس ، الأكتفا ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

التخلص من السيطرة القشتالية ، ورنوا بأبصارهم الى المرابطين ، فلما تسامع البلنسيون بوجود القائد المرابطى ابن عائشة فى مرسية ، انتهزوا خروج الكنبيطور الى سرقسطة ، فأرسلوا قاضى مدينتهم ابن جحاف على رأس وفد من أهل المدينة للقاء ابن عائشة ، وطلبوا منه العون والمساعدة فى مقابل دخول بلنسية فى طاعة المرابطين ، فاستجاب ابن عائشة لطلبهم وأرسل قائده أبا نصر على رأس فرقة عسكرية ، تمكن بها من شق طريقه الى بلنسية ، فانهارت أمامه القوة القشتالية المكلفة بالدفاع عن المدينة ، وفتح ابن جحاف أبواب بلنسية أمام المرابطين ، كما قبض ابن جحاف على القادر بن ذى النون وقتله فى رمضان سنة ٤٨٥ هـ ، وبويع لابن جحاف بالرئاسة (٩٧) .

كان من الطبيعى أن يغضب الكنبيطور لما حدث فى بلنسية ، الا أنه كان رجلا سياسيا محنكا ، فقد كتب لابن جحاف يهنة بالرئاسة ويطلب منه أزوادا له كانت مختزنة فى بلنسية ، فرغض ابن جحاف وقال له أن البلاد أصبحت ليويسف بن تاشفين وأن تلك الاطعمة انتهبها رجاله ، فغضب الكنبيطور وأقبل يحاصر المدينة ، وأقسم أن لا يبرحها حتى يظفر بابن جحاف ، ويثأر لابن ذى النون ، وقد لجأ الكنبيطور خلال الحصار الى النحيلة والدهاء ، فراسل ابن جحاف سرا ، بعد أن عرف برغبة الاخير فى

(٩٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٣١ ، ص ٣٢ ، ابن أبى زرع روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، مؤنس ، السيد الكنبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث العدد الاول ، مايو ١٩٥٠ ، ص ٧٤ ، ليفى جروغسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمى القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص ٢١٦ ، أشباح ، تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠٠ .

Pidal, La España del Cid, vol., I, p. 389; Miranda, Historia Musulmana de Valencia, vol., II, pp. 52 - 3.

التخلص من المرابطين ، واتفق مع ابن جحاف على اخراج المرابطين من بلنسية ، وأن يحل الكنبيطور محلهم^(٩٨) ، فلما أحس أهل بلنسية بهذه الاتصالات السرية ، راجعوا قاضيهم في هذا الامر ، وأرسلوا الى يوسف بن تاشفين يطلبون منه سرعة ارسال النجدة اليهم ، فأمر يوسف عماله على مختلف مدن الاندلس بالتوجه الى بلنسية ، فاجتمعت جموعهم في شاطبة ، وتولى قيادتها الامير أبو بكر بن ابراهيم ، واتجهت هذه الحشود حتى وصلت الى مشارف بلنسية ، ولكن فجأة انسحب الجيش الاسلامي الى شاطبة^(٩٩) ، وقد اختلفت الآراء حول أسباب هذا الانسحاب ، الا أنا نرجح الرواية المسيحية التي أشارت الى هطول الامطار بغزارة في أمسية المعركة ، فخشى القائد المرابطى على تحركات جيشه ، فأثر الانسحاب^(١٠٠) ، وكان لهذا الانسحاب أثره في اضعاف الروح المعنوية لاهل بلنسية ، فانقطع أملهم في الغوث من المرابطين ، فاتفقوا على التسليم للكنبيطور ، على شرط أن يؤمن الكنبيطور ابن جحاف وأسرته وكل سكان المدينة وفي جمادى الاولى سنة ٤٨٧ هـ (يونيه سنة ١٠٩٤ م) ، دخل الكنبيطور بلنسية بعد حصار دام ما يقرب من عشرين شهرا^(١٠١) ، ولما استقرت الامور في بلنسية للكنبيطور استولى على أموال ابن جحاف ،

(٩٨) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٣٢ ، ص ٣٣ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠٣ ، بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢١٧ .
Miranda, Historia Musulmana de Valencia, vol. II, p. 55.

(٩٩) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .
Miranda, Los Luchos del Cid Campeador con los Almoravides, (١٠٠) Hesperis, Temuda, 1965, p. 82.
(١٠١) ابن الجبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٣٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠٣ ، بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢١٩ .

كما صادر أموال أسرته وطالبه بأموال القادر بن ذى النون وذخائره ، وبعد أن استقصى جميع أمواله وأموال ابن ذى النون أمر بالقبض عليه وإعدامه حرقا ، ثم استولى على أموال أهل بلنسية ، وفرض عليهم الضرائب والمغرم (١٠٢) .

كان لسقوط بلنسية في أيدي النصاري ، أسوأ الأثر على أهل الأندلس ، فقد توالى صرخاتهم على يوسف بن تاشفين ، لاسترجاعها من النصاري ، فأرسل يوسف إلى عماله على مدن المغرب لإمداده بالرجال والعتاد ، ثم عبرت حشود المرابطين بقيادة الأمير محمد بن تاشفين إلى الأندلس في شعبان سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، وقد سارت هذه القوات حتى عسكرت على مقربة من بلنسية ، فلما وصلت أنباء وصول هذا الجيش شاع الذعر بين النصاري ، وعرضوا على الكتبيطور الفرار عن بلنسية ، غير أنه رفض وأرسل إلى الفونسو السادس يطلب سرعة دوافقه بالامدادات ، كما لجأ إلى المكر والدهاء ، فقد خرج ليلا وباغت المعسكر الإسلامي ، فاضطرت القوات المرابطية إلى الانسحاب إلى دانية ومنها إلى شاطبة (١٠٣) ، فشجع الكتبيطور وسار نحو مربيطر Murpiedro فحاصرها واستولى عليها (١٠٤) .

وفي عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، أرسل يوسف بن تاشفين قائده محمد

(١٠٢) حول مصير ابن جحاف أنظر : ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، جزءان ، عني بنشره وصححه وطبعه ، السيد عزت العطار الحسيني ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ص ٢٤٠ ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ص ٣٨ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ، ص ٢٣٦ ، مؤنس ، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، ص ٧٤ ، بروفنسال ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ ، ص ٢٢٢ .

Miranda, Historia Musulmana de' Valencia, vol., II pp. 138-140.

(١٠٣) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٣٤ - ٣٧ .

(١٠٤) مؤنس ، السيد القمبيطور ، ص ٧٦ .

أبن الحاج على رأس جيش كثيف التقى مع قوات الفونسو السادس عند دسويجرا Consuegra ، حيث أحرز المرابطون انتصارا حاسما على حموع النصاري ، وقتلوا الابن الوحيد للكنبيطور واسمه ديجو Diego ، كما أرسل يوسف بن تاشفين فرقة عسكرية مرابطية على رأسها محمد بن عائشة الى قونكة أو قونكة Cuenca حيث ألحقوا الهزيمة بفرقة قشتالية على رأسها البرهانس ، ثم مضى ابن عائشة الى جزيرة شقر Alcira ، واصطدم بفرقة تابعة لجيش الكنبيطور ، ولم ينج منهم الا القليل فروا عائدين الى بلنسية (١٠٥) .

أتم المرابطون الاستعداد لاسترداد بلنسية ، وأصدر يوسف بن تاشفين أوامره الى الامير محمد بن مزدي بقيادة الجيوش المرابطية الى بلنسية ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) (١٠٦) ، وكان الكنبيطور قبل ذلك بقليل قد اشتد غايه المرض وغلب عليه الحزن بعد وفاة ولده الوحيد ، فمات غما عليه في عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) (١٠٧) ، وقد تولت زوجة خمينا أمر بلنسية بعد وفاته ، وحاولت الدفاع عن المدينة أمام الحصار المرابطي ، الا أنها فشلت ، فبعثت تستجد بالفونسو السادس ، الذي سارع الى نجدها ، فلما قدم الفونسو بقواته الى بلنسية ، بادر محمد بن مزدي بالانسحاب الى مدينة قليرة الواقعة على البحر بين بلنسية وشاطبة وقد حاول الفونسو اختبار مدى قوة الجيش المرابطي ، فخرج بقواته صوب قليرة ، فدارت رحى معركة

(١٠٥) ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

Pidal La Espana del Cid, vol., I, pp. 534-537.

(١٠٦) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .

Dozy, Histoire., vol., III, p. 153; Pidal, La Espana del Cid, vol., (١٠٧)

I, pp. 577-580; Terrasse, Histoire du Maroc, Vol., II, P. 238; Miranda, Historia Musulmana de Valencia, vol., II, p. 164.

عنيقة بين الفريقيين ، اضطر بعدها الفونسو الى الانسحاب ، بعد أن تأكد من قوة وصلابة الجيش المرابطي وتصميمه على استرداد بانسية ، فأمر الفونسو باخلاء بانسية من النصاري ، وأشعل النيران في المسجد الجامع والقصر والدور ، فدخل محمد بن مزدلي المدينة في شهر رجب سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) (١٠٨) .

د () الاندلس في ظل يوسف بن تاشفين :

قضى المرابطون على ملوك الطوائف ، باستثناء المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، الذي سارع بالاتصال بيوسف بن تاشفين ، ووجه اليه ابنه عماد الدولة ووزيره أبا الاصبع وأبا عامر ، تأكيداً لولائه له وإخلاءه لقضية الاسلام في الاندلس ، وكتب اليه يقول : « نحن بينكم وبين العدو سد ، لا يصل اليه ضرر ، ومطاعين قطوف ، وقد قنعنا بمسالمتكم ، فاقنعوا منابها الى ما نعينكم بها من نفيس الذخر » (١٠٩) وقد تفهم ابن تاشفين حرج موقف المستعين لقرب حدود بلاده من بلاد النظاري ، فرد عليه يوسف برسالة تأييد أورد صاحب الحال الموشية وابن الخطيب نصها الكامل (١١٠) ، وكان هدف المستعين من مهادة ابن تاشفين وملاطفته اقامة حلف هودي مرابطي من أهم غاياته استرجاع أراضي طرطوشة ولاردة من المنذر التجيبي وضمها الى مملكة بنى هود في سرقسطة ، لتكوين جبهة قوية مع المرابطين تتصدى لطامع قطلونية وأرغون (١١١) .

(١٠٨) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٤١ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ .

Dozy, Ibid, p. 153; Pidal, Ibid, pp. 579-581; Miranda, Ibid, p. 165.

(١٠٩) مجهول ، الحال الموشية ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ .

Turk, A., Reino de Zaragoza, p. 160.

(١١٠) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ابن الخطيب ،

أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(١١١) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٣ .

وهكذا قامت علاقات ودية بين بنى هود والمرابطين ، وكان المستعين يهادى يوسف بن تاشفين بالذخائر والتحف واليواقيت والجواهر ، ومن جملة هذه الهدايا ، الهدية التى حملها عبد الملك بن المستعين بن هود الى يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ، من جملتها أربعة عشر ربعا من آنية الفضة مطرزة باسم جده المقتدر والد جده المؤتمن بن هود ، فقبلها ابن تاشفين وأمر بضربها قراريط فرقت ليلة عيد الاضحى فى أطباق على رؤساء المرابطين^(١١٢) ، وقد أوصى يوسف بن تاشفين ولده وولى عهده الامير على ، بترك التعرض لبلاد بنى هود وقال له : « اتركهم بينك وبين العدو فانهم شجعان »^(١١٣) ، وهكذا ظلت العلاقات ودية بين المرابطين وبنى هود ، حتى سقطت سرقسطة فى أيدي المرابطين سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) .

وعلى هذا النحو أمكن ليوسف بن تاشفين التخلص من ملوك الطوائف فى الاندلس ، وتأسيس امبراطورية مترامية الاطراف تشتمل على القسم الغربى من المغرب والاندلس ، ثم عبر يوسف عبوره الرابع والاخير الى الاندلس فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ليضع أسسا ثابتة للدولة الجديدة التى ألفت بين المغرب والاندلس ، فقد أحس يوسف بأنه قام بواجبه ، وأرضى ضميره ، وعفر جبهته بتراب الجهاد ، وأجج الحرب المقدسة التى أحييت موات الآمال ، وثبتت أقدام الاسلام فى شبه الجزيرة بعد أن كادت تعصف به الخطوب ، فرأى أن يبائع لولده على بن يوسف بولاية العهد ، احساسا منه بقرب الخاتمة ، وقد تمت البيعة فى مدينة قرطبة

(١١٢) ابن الابار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ص ٢٤٩ .

Turk, A., Ibid. pp. 162-3.

(١١٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٧ ، مجهول ، الحل الموشية ،

ص ٥٦ ، ص ٥٧ .

Cadera, Decadencia y Desaparacion de los Almoravides, p. 3.

في نفس العام ، ثم عاد يوسف الى المغرب ، حيث أعتل في أواخر سنة
٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ، واستمر عليلاً زهاء عام وشهرين حتى توفي في
مستهل المحرم سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) (١١٤) وخلفه واده وولى عهده
الامير على صاحب موضوع الدراسة .

(١١٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ ، مجهول ، الحلل
النوشية ، ص ٥٦ ، ص ٥٧ ، ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ٢ ،
ص ٥١٨ - ٥٢٢ ، بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٤٠ .

الباب الأول

الدراسة السياسية

- الفصل الاول : أهم الاحداث الداخلية في المغرب والاندلس
- الفصل الثاني : العلاقات الخارجية

الفصل الأول

أهم الأحداث الداخلية في المغرب والاندلس

١ — الصراع بين المرابطين والموحدين •

- أ (المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين •
- ب (المرحلة الاولى من الصراع بين المرابطين والموحدين (مرحلة المناظرات الفقهية) •
- ج (المرحلة الثانية من الصراع بين المرابطين والموحدين (بداية الصدام المسلح) •
- د (المرحلة الثالثة من الصراع بين المرابطين والموحدين (حصار المرابطين لمراكش وهزيمتهم في وقعة البحيرة) •
- هـ (المرحلة الرابعة من الصراع بين المرابطين والموحدين (في بداية عهد عبد المؤمن بن علي) •
- و (المرحلة الخامسة من الصراع بين المرابطين والموحدين (حتى سنة ٥٣٥ هـ) •
- ز (المرحلة قبل الاخيرة من الصراع بين المرابطين والموحدين (حتى وفاة علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ) •

٢ — ثورة مدينة فاس سنة ٥٠٠ هـ •

٣ — ثورة مدينة قرطبة سنة ٥١٤ هـ •

١ - الصراع بين المرابطين والموحدين

١ (المهدي محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين :

هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغى المصمودى السوسى ،
الملقب بمهدي الموحدين ، صاحب الحركة الدينية الاصلاحية التى تمخض
عنها قيام دولة الموحدين •

ولد فى قرية ايجلى أن وارغن^(١) ، الواقعة على سفح جبل ايجليز ،
وقد اختلف المؤرخون فى تحديد العام الذى ولد فيه محمد بن تومرت^(٢) ،
وينتسب ابن تومرت الى قبيلة هرغة ، احدى بطون قبيلة مصمودة
انبربرية^(٣) ، وهو من قوم من الاشراف يعرفون ببايسرغينين (الشرفاء
بلسان المصاعدة)^(٤) فقد كان أبوه امغار (شيخ) القبيلة^(٥) • ولا نعرف

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٨ •

(٢) فابن الاثير يقول لنا أن ابن تومرت توفى فى عام ٥٢٤ هـ عن
احدى وخمسين عاما أو خمسة وخمسين عاما ، مما يجعل تاريخ مولده فى
عام ٤٦٩ هـ ، أو ٤٧٣ هـ ، ويضع ابن خلكان تاريخ مولده فى العاشر من المحرم
عام ٤٨٥ هـ ، كما أشار ابن عذارى نقلا عن ابن القطان أنه توفى فى عام ٥٢٤ هـ
عن خمسين سنة مما يجعل تاريخ مولده فى عام ٤٧٤ هـ ، بينما يجعل ابن
الخطيب مولده فى عام ٤٨٦ هـ ، وابن سعيث المغربى فى عام ٤٩١ هـ ،
والغرناطى فى عام ٤٧١ هـ •

راجع (ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ ، ابن خلكان ، وفيات
الاعيان ، ج ٥ ، ص ٥٣ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، الزركشى
(أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤى) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية
الطبعة الثانية ، تونس ، بدون تاريخ ، ص ٤٣ •

(٣) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ،

ص ٤٦٤ •

(٤) المراكشى ، نفسه •

(٥) ابن خلدون ، نفسه •

الكثير عن حياته الاولى فالمصادر العربية المغربية لم تزودنا بمعلومات شافية عن الفترة الاولى من حياته ، وكل ما يمكن أن يقال في ذلك لا يعدو م ذكره ابن خلدون في قوله : « وكان أهل بيته أهل نسل ورياط وثب محمد هذا قارئاً محباً للعلم ، وكان يسمى اسافو ومعناه الضياء لكثرة ما كن يسرج من القناديل بالمسجد للزمتمتها »^(٦) . ولعل في هذا ما يشير إلى تلك البيئة الدينية التي نشأ فيها ابن تومرت ، فقد شب قارئاً للقرآن ، ملماً بالعلوم الدينية والفقهية ، ملازماً للمساجد التي كانت تمثل آنذاك المركز التعليمي في الاسلام ، ولذا أطلق عليه لقب اسافو تأكيداً على ترده على المساجد واقامته فيها .

وأيا ما كان أمر نشأته الاولى فان ما يعنينا في الموضوع أن تعطشه لطلب العلم وتحصيله قد دفعه شأن طالبى الاستزادة في العلم الى التفكير جدياً في الرحلة الى المشرق الاسلامى منبع المعارف والعلوم حيث تتعدد مراكز الثقافة الاسلامية في أقطاره المختلفة وحيث يمكنه أن يجد خصالته ممثلة في مشاهير نسيوخ العصر المشاركة ممن تجاوزت شهرتهم المشرق ، وهكذا يتحرك ابن تومرت من بلده ويعمل الرحلة الى المشرق الاسلامى في طلب العلم وذلك في عام ٥٠٠ هـ وقيل ٥٠١ هـ^(٧) . جاز ابن

(٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٥ .

(٧) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ بدء رحلة ابن تومرت الى المشرق ، فابن عذارى ويتفق معه صاحب الحل الموشية يجعلان بداية الرحلة في عام ٥٠٠ هـ ، أما ابن خلدون ويتفق معه القلقشندي فيجعلان بداية الرحلة في رأس المائة الساسة ، فيما يتفق صاحب المعجب وابن القطان على أن الرحلة بدأت في عام ٥٠١ هـ .

راجع (ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٣٠٣ ، مجهول ، الحل الموشية ، ص ٧ ، ص ٧٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٥ ، القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشبا ، ج ٥ ، ص ١٣٦ ، المراكشي ، المعجب ، ص ١٧٨) .

توالت الزقاق الى الاندلس ، فوصل الى قرطبة^(٨) مركز العلوم فى
الاندلس ومنها تحرك الى المرية ، ومن هناك أبحر الى المهديّة بالمغرب
الادنى ، فتوقف بها فترة حيث أخذ العلم خلالها عن الامام الفقيه
الانزرى^(٩) ، ثم أبحر من المهديّة الى الاسكندرية ، حيث التقى بالفقيه
أبى بكر الطرطوشى ودرس عليه^(١٠) ، ثم رحل الى الحجاز ، لاداء
فريضة الحج ومن هناك اتخذ طريقه الى بغداد حاضرة الخلافة العباسية
وأعظم مراكز الثقافة الاسلامية فى المشرق الاسلامى آنذاك ، فتلقى العلم
فيها على كبار علمائها ، فدرس الفقه وأصول الدين على أبى بكر

-
- (٨) ابن عذارى ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، مجهول ، المصدر
السابق ، ص ٧٦ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- (٩) الزركشى ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ٤ .
- (١٠) هو الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن
أيوب الفهرى الطرطوشى الاندلسى ، المعروف بابن أبى رندقة ، ولد فى بلدة
طرطوشة بالاندلس فى سنة ٤٥١ هـ وتلقى العلم فى طرطوشة وسرقسطة ،
حيث أخذ على أبى الوليد الباجى وصحبه وأخذ عنه ، وسمع منه ، ثم رحل الى
المشرق فى سنة ٤٧٦ هـ فحج ودخل بغداد والبصرة ففتقه عند أبى بكر الشاشى
وأبى أحمد الجرجانى وسمع بالبصرة من أبى على التستبرى ، وسكن الشام
فترة درس خلالها بدمشق ، ثم استقر به المقام فى الاسكندرية حيث تزوج بها
بأبنة خاله أبى الطاهر بن عوف ، وألف كتابه سراج الملوك وانتهى من تصنيفه
سنة ٥١٦ هـ ، فرحل الى القاهرة فى شوال ٥١٦ هـ وأهداه الى الوزير المأمون
البنطائى الذى أكرمه بعد أن تعرض الطرطوشى وخادمه لاضطهاد الوزير
الافضل . وكان الطرطوشى عالما زاهدا ورعا متقشفا وكانت وفاته فى شعبان
سنة ٥٢٠ هـ .
- سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الطبعة الثانية ،
الاسكندرية ١٩٦٩ م ، هامش ٤ ، ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٣ ، وأنظر أيضا الشيال ،
أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦٥ م ص ٥٠ - ١٠٠ ،
أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، سلسلة أعلام العرب ، ع ٧٤ ،
القاهرة ١٩٦٨ م .

الشاشي^(١١) وأخذ الحديث على المبارك بن عبد الجبار ، وقيل أنه درس على أبي حامد الغزالي^(١٢) .

فلما استوفى ابن تومرت دراسته في بغداد ولم يعد هناك ما يدعوه الى مواصلة الإقامة بهذه الحاضرة ، عزم على العودة الى وطنه ، فميم وجهه شطر الحجاز حيث أدى فريضة الحج للمرة الثانية ، ومن الجدير بالذكر أن بوادر دعوته الاصلاحية القائمة على مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بدأت في الظهور خلال زيارته تلك للحجاز ، اذ تعرض في مكة للاذى نتيجة اعتراضه على بعض الافكار والعادات التي رأى فيها

(١١) هو الفقيه الشافعي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي المعروف بالمستظهري ، الملقب فخر الاسلام ، ولد في المحرم سنة ٤٢٩ هـ بميفارقين وتفقّه بها ، ثم رحل الى بغداد ولازم الشيخ أبا اسحاق الشيرازي ، ثم دخل نيسابور ثم عاد الى بغداد مرة أخرى حيث آلت اليه رئاسة الطائفة الشافعية بعد وفاة أستاذه الشيرازي ، وقد تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٥٠٤ هـ حتى وفاته في شوال سنة ٥٠٧ هـ .

ابن خلكان (أبو العباس حمد بن ابراهيم) : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان نشره الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٢١٩ - ٢٢١ .

(١٢) هو الفقيه الشافعي أبو حامد محمد بن محمد بن حمد الغزالي ، الملقب حجة الاسلام ، ولد في طوس سنة ٤٥٠ هـ واشتغل في مبدأ أمره بها ثم قدم نيسابور واختلف الى دروس امام الحرمين أبي المعالي الجويني وظل ملازماً لاستاذة الى أن توفي ، فخرج من نيسابور حيث لقي الوزير نظام الملك فأكرمه وعظمه ، وفواض اليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد في جمادى الاولى سنة ٤٨٤ هـ واستمر يقوم بالتدريس بها الى سنة ٤٨٨ هـ حيث سلك طريق الزهد والانقطاع وقصد الى الحجاز حيث أدى فريضة الحج ، ثم عاد من الحجاز الى الشام ، فأقام بدمشق مدة ثم انتقل منها الى بيت المقدس ومنها الى مصر ثم عاد الى وطنه بطوس ، الا أنه أجبر على العودة للتدريس بالمدرسة النظامية ولكنه لم يلبث أن تركها وعاد الى وطنه طوس الى أن توفي سنة ٥٠٥ هـ .

أنظر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٢١٦ - ٢١٩ .

وقد اختلف المؤرخون حول حقيقة اللقاء بين الغزالي وابن تومرت ، فريق يؤكد حدوث هذا اللقاء منهم ابن خلكان، وابن بى زرع ، وصاحب الحلل المؤشبة، وابن الخطيب والزركشى ؛ وابن ابى دينار . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، =

خروجاً عن تعاليم الدين الحنيف ، فترك مكة الى الاسكندرية^(١٣) ، حيث كان يختلف الى مجلس الفقيه أبى بكر الطرطوشى ، ويبدو أنه كن ساخفا على مظاهر الترف التى أقبل عليها أهل الاسكندرية ولا تتفق مع روح الاسلام ، فأخذته الغيرة على الاسلام وثارت ثائرتة فمضى يهاجم هذه الاوضاع السائدة بكل شدة وعنف وأفضت به تعاليمه وأفكاره الاصلاحية التى بدأ ينشرها فى الاسكندرية الى نفيه من المدينة^(١٤) ، ويروى ابن القطان فى هذا الصدد : « ونزل المهدي مدينة الاسكندرية فرأى بها منكر فغيرها ، وأغلظ فى أمرها ، فقامت عليه العامة والغوغاء ، وصاروا يقطعون عليه طريقة الى مجلس أبى بكر الطرطوشى ، فلما فقده الطرطوشى بحث عنه حتى أعلم بمكانه ، فقصده اليه وهو فى مسجد الاخضر^(١٥) على ساحل البحر ، فترامى عليه وصافحه ، وسأله عن سبب غييبته عن مجلسه ، فعرفه بشأن أولئك الغوغاء ، وأنه يريد الذهاب الى المغرب ، فودعه وانصرف »^(١٦) ويبدو أن دعوة ابن تومرت قد أحرزت بعض النجاح فى مصر ، ووجدت قبولا لدى بعض المصريين ، يؤكد ذلك الفصل الذى أفردده البيهقى فى كتابه عن المهدي بن تومرت ، عن أصحاب

= ج ٥ ، ص ٤٥ ، روض القرطاس ، ص ١٢٠ ، الحل الموشية ، ص ٧٥ ، ص ٧٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٤ ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٠١ . ومنهم من يشك فى حدوث هذا اللقاء . ومنهم المراكشى ، وابن خلدون ، المعجب ، ص ١٧٧ ، ص ١٧٩ ، العبر ، ج ٥٦ ص ٤٦٦ .

بينما ينفى ابن الاثير ، حدوث هذا اللقاء ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ .
 (١٣) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٥ .
 (١٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٩ ، بروفنسا ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٦٧ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧١ .
 (١٥) يقع المسجد الاخضر باقرب من الباب الاخضر الغربى الملاصق لصريح الطرطوشى . انظر سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، ص ٢٢٩ .
 (١٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٣٨ ، ص ٣٩ .

المهدي المقيمين في مصر ، وقد بلغ عددهم واحدا وخمسين رجلا ، ذكر المؤلف أسماءهم واحدا واحدا ثم أضاف مؤكدا : « بأنهم كانوا للمهدي بمثابة أعضائه وجسده ، سامعين لقوله مجيبين لأوامره مؤمنين بدعوته » (١٧) .

وهكذا لم يتمكن ابن تومرت من البقاء في الاسكندرية ، فغادرها على احدى السفن المتجهة الى المغرب ، ومن الطريف أنه استمر يدعو الى أفكاره الاصلاحية أثناء رحلته البحرية ، فضاق به الركاب والمسافرون فآلقوه في البحر ، غلبت أكثر من نصف يوم يسبح الى جانبها دون أن يصيبه شيء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا اليه من رفعة من الماء ، وقد عظم في نفوسهم ، وبالغوا في اكرامه (١٨) . نزل ابن تومرت بمدينة المهدية ، وكانت ادارتها آنذاك تابعة للامير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس صاحب افريقية ، فنزل ابن تومرت بمسجد من مساجدها ، وليس معه سوى ركة ماء وعصا فتسامع به الناس ، وقصدوه يقرأون عليه أنواع العلوم والمعارف ، وكان اذا رأى منكرا حاول تغييره بالقوة ، فلما شاهد الخمر تباع في الاسواق ، قام بكسر دنانها وأراقها (١٩) ، فوصل خبره الى الامير يحيى ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رآه وسمع حديثه، أكرمه وسأله الدعاء، فقال له ابن تومرت «أصلحك الله

(١٧) البيهقي (أبو بكر الصنهاجي) : أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٨ م ، ص ٣٠ ، ص ٣١ ، أنظر أيضا أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس، الاسكندرية ، ١٩٦٨ م ، ص ١١٣ .

(١٨) المراكشي ، المعجب ، ص ١٧٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧١ .

(١٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٤٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ،

ص ٢٩٤ .

لرعيثك» (٢٠) ثم رحل ابن تومرت الى المنستير (٢١) ، فأقام بها بضعة أيام ثم رحل الى تونس ، ثم انتقل منها الى قسنطينة (٢٢) ، فنزل بها عند انفقيه عبد الرحمن الميلي ، ويحيى بن القاسم ، عبد العزيز بن محمد ، وكان يليها في ذلك الوقت سبع بن العزيز (٢٣) ، فأقام بها عدة أيام (٢٤) ثم رحل الى بجاية حاضرة أمراء بني حماد وكان واليها يؤمئذ الأمير العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس من أمراء بني حماد الصنهاجيين ، فنزل ابن تومرت بمسجد الريحانة (٢٥) ، فكان ينهى الرجل عن الترتين بزى النساء ، ولكنه أباح الطيب للرجال والنساء أسوة بما كن يفعله الرسول

(٢٠) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٤٧ .

(٢١) المنستير كانت ميناء يقع بين سوسة والمهدية ، وكانت في الاصل رباطا أو قصرا يربط فيه المسلمون لحماية ثغور افريقية من الغارات البحرية التي كان يقوم بها الروم . بناء هرثمة بن أعين والي افريقية من قبل الرشيد في سنة ١٨٠ هـ وقد وصف البكري هذا الرباط أو القصر بقوله : وبالمنستير البيوت والحجر الطواحين ومواجل الماء وهو حصن عالي البناء ، متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلوا من شيخ خير فاضل يكون مدار تقوم عليه ، وفيه جملة من الصالحين والرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الاهل والعشائر .

راجع : البكري ، المغرب ، ص ٣٦ ، الادريس ، صفة المغرب ، ص ١٨ ، مجهول الاستبصار ، ص ١٢٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٤٥٢ .

(٢٢) قسنطينة مدينة كبيرة قديمة في افريقية ، وقد وصف صاحب الاستبصار قسنطينة بقوله : « ومدينة قسنطينة حصينة في نهاية من المنعة والحصانة لا يعرف بافريقية أمنع منها ، ليس لها في المنعة نظير غير مدينة رندة بالاندلس .

راجع : الاستبصار ، ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ ، الادريس ، صفة المغرب ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ .

(٢٣) هو سبع بن العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجي أحد أمراء بني حماد الصنهاجيين .

(٢٤) البيهقي ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٥١ ، ص ٥٢ .

(٢٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٧ .

غنيه الصلاة والسلام ، وكان الفقهاء يقبلون أفواجا لسماعه في شهر رمضان ، فلما انتهى هذا الشهر وأقبل العيد ، خرج الرجال والنساء لصلاة العيد واختلط بعضهم ببعض ، فلما رآهم ابن تومرت أنكر عليهم ذلك ، ودخل غيهم بعصاة وفرقهم بها يمينا وشمالا^(٢٦) ، فوقع الهرج ، وعقب هذه الحادثة عمد الامير العزيز الى مواجهة الطلبة فأمر بجمعهم لنظراته ، فاجتمعوا في دار أحدهم ، واستدعى ابن تومرت للحضور وسألوهم فأجابهم عن كل ما سألوا ، وسألهم فما استطاعوا الاجابة عن شيء ، عندئذ تضرع اليه الكاتب عمر بن فلفول بأن يترك ما هو بسبيله من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢٧) . خرج ابن تومرت من بجاية الى ناحية قريبة منها تسمى ملالة ، ونزل في حماية أصحابها وهم من أعيان صنهاجة فأووه وأكرووه ، ورفضوا تسليمه لصاحب بجاية ، فأقام بينهم يدرس العلم ، وكان اذا فرغ من دروسه جالس على صخرة بقارعة الطريق قريبا من ملالة^(٢٨) ، وذات يوم سمعه الطلبة يقول : « الحمد لله ، قد بلغ وقت النصر وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره »^(٢٩) وقد صح ما تنبأ به ، وجاءه بالفعل شاب تعرف عليه من بين طلبته وكان هذا الشاب هو عبد المؤمن بن علي الى اختاره المهدي خليفته من بعده وأطلق عليه اسم سراج الموحدين .

(٢٦) البيهقي ، نفسه ، ص ٥٢ ، بروقنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٧١ ، سال ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٣ ، سعد زغلول عبد الحميد ص ١٩ .

(٢٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٤١ ، ص ٤٢ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٦٥ .

(٢٨) المراكشي ، المعجب ، ص ١٨٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٧ ، بروقنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٧٢ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٣ .

(٢٩) البيهقي ، ص ٥٣ .

ولد عبد المؤمن بن علي في قرية تاجرا من أعمال تلمسان في عام ٤٨٧ هـ (أوائل سنة ١٠٩٥ م)^(٣٠) ، وينتسب الى قبيلة كومية النبربرية^(٣١) ، وقيل أن والده كان قاضيا^(٣٢) وذكر بعضهم أنه كان فخارا^(٣٣) . وفي قرية تاجرا قضى عبد المؤمن طفولته وشبابه وفيها تلقى بعض العلوم الدينية وقد دفعه تعطشه لتحصيل العلوم الى التفكير جديا في الرحيل الى المشرق واستبدت به الرغبة في الرحلة في طلب العلم ، وقرر عمه أن يصحبه فيها ، فخرجا معا الى بجاية أحد ثغور المغرب الاوسط لبيستقلا مركبا الى المشرق ، وهناك نزلا بمسجد الريحانة ، فلما صليا الصبح ، سمعا الناس يتحدثون عن ابن تومرت ذلك الفقيه السوسي ، ولما سمعهم عبد المؤمن يذكرون صلاح دينه ويثنون على علمه وفهمه لكتاب الله وسنة نبيه ، تآقت نفسه للقائه ، وسأل عمه أن يأذن له برؤيته وسماعه فأذن له بالسير اليه ولكنه أوصاه بسرعة العودة لارتباطهم بالسفر^(٣٤) ، ويصف البيهقي المهدي ابن تومرت اللقاء الذي تم بين المهدي وعبد المؤمن بقوله : « أنه لما جد السير نحو الامام ، اجتمع مع الطلبة في طريقه ، فأصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد ، فرفع المعصوم رأسه ، فواقفه امامه ، فقال له المعصوم رضى : أدخل يا شاب ، فدخل ، فأراد أن يقعد في جملة الناس ، فقال له المعصوم : ادن يا شاب ، فلم يزل يدنو من الامام ، والمعصوم يقربه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما

(٣٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٥ ، المراكشي ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٣١) هي قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان .

انظر ، المعجب ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

بروفنسال ، ارجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٣٢) البيهقي ، نفسه ، ص ٢٧ .

(٣٣) ابن أبي زرع ، روض القرطس ، ص ١٢٩ .

(٣٤) البيهقي ، نفسه ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ .

اسمك يا فتى ؟ فقال : عبد المؤمن ، فقال له المعصوم : وأبوك على ؟
فقال نعم ، فتعجب الناس من ذلك ، فقال له : يا شاب من أين اقبالك ؟
قال له من نظر تلمسان من ساحل كومية ، فقال له المعصوم من تاجرا أم
لا ؟ فقال له نعم ، فزاد الناس تعجبا ، فقال له المعصوم رضى : أين تريد
يا فتى ، فقال يا سيدى نحو المشرق التمس فيه العلم . فقال له
المعصوم رضى : العلم الذى تريد اقتباسه بالشرق وجدته بالمغرب (٣٥)
ثم عرض ابن تومرت على عبد المؤمن أن يبيت عنده ، فوافقه ثم يسجل
البيذق فى مذكراته أحداث هذه الليلة فيقول : « غلما جن الليل أخذ الامام
المعصوم بيد الخليفة رضىهما ، وسارا ، فلما كان نصف الليل نادانى
المعصوم : يا أبا بكر ، ادفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر ، فدفعته
له ، وقال : اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأ على الخليفة من بعده وأنا يومئذ
ماسك السراج اسمعه يقول : لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد
المؤمن بن على سراج الموحدين ، فبكى الخليفة عند سماع هذا القول ،
وقال : يا فقيه ، ما كنت فى شىء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى
من ذنوبى ، فقال له : انما تطهيرك الدنيا على يدك . ثم دفع له الكتاب
وقال : يا فقيه ، ما كنت فى شىء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى
وآخرهم ، أكثر من ذكر الله بيارك الله لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما
تخاف وتحذر » (٣٦) ومنذ هذا التاريخ أقام عبد المؤمن ملازما لابن
تومرت ، يؤازره فى دعوته ، ويشاطره مصيره اينما حل .

(٣٥) البيذق ، ص ٥٥ .

(٣٦) البيذق ، ص ٥٥ ، ص ٥٦ .

ب (المرحلة الاولى من الصراع بين الرابطين والموحدين (مرحلة المناظرات الفقهية)

غادر ابن تومرت وصحبه ملالة ، متجها الى واتشريس ومنها الى
نمسمان ، حيث نزل بمسجد بظاهرها يعرف بالعباد (٣٧) ، ثم خرج مع
صحبه الى فاس (٣٨) ، فنزل بعدة مساجد منها مسجد ابن الغنام ومسجد
ابن اللجوم ومسجد بطريانة ، فكان طلبه فاس يهرعون اليه لينهلوا من
علمه . وفي فاس أمر طلبته بمهاجمة حوانيت آلات الطرب بزقاق بزقالة
وتحطيم كل ما كان بها من آلات (٣٩) ، ولما بلغ والى المدينة أمره ، جمعه
مع نفر من فقهاء فاس للمناظرة ، فظهر عليهم وفاقهم ، فأشار الفقهاء
على الوالى باخراجه عن المدينة حتى لا يفسد عقول العامة فأخرجهم
منها (٤٠) ، فمضى هو وأتباعه الى مكناسة (٤١) ، وهناك واصل دعوته في

(٣٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٣ .

(٣٨) فاس من أعظم مدن المغرب ، ومدينة فاس مدينتان كبيرتان
مقتزقتان ، يشق بينهما نهر كبير يسمى بواى فاس ، وهما عدوة الاندلسيين
وقد أسست فى سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م ، وعدوة القرويين وقد أسست فى سنة
١٩٣ / ٨٠٩ م ، فى ولاية ادريس العلوى ، وفى فاس يعيش أكثر يهود المغرب ،
راجع : ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٩٠ ، البكرى ،
المغرب ، ١١٥ ، الادريسي ، ص ٧٥ - ٧٦ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ،
ص ٨٤٢ - ٨٤٤ ، مجهول ، الاستبصار ، ص ١٨٠ .

(٣٩) البيزق ، نفسه ، ص ٦٣ - ٦٥ ، عنان ، عصر الرابطين ، ص ١٦٧ ،
سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٦ ، سعد زغلول عبد الحميد ، محمد بن تومرت ،
ص ١٧ .

(٤٠) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٦ ،
ص ٧٧٧ .

(٤١) مكناسة مدينة بالمغرب على مقربة من مدينة فاس ، وهى عبارة عن
مدينتين صغيرتين ، اختط احدهما يوسف بن تاشفين والاخرى قديمة
= وأكثر اشجارها الزيتون ولذا عرفت بمكناسة الزيتون

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والاذى ، فاضطر الى السير الى مراكش^(٤٦) ، فوصلها هو وأصحابه في منتصف ربيع الاول سنة ٥١٥ هـ (١١٢٠ م)^(٤٧) ، حيث نزل بمسجد صومعة الطوب^(٤٨) ، وهناك واصل دعوته القائمة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واراقة الخمر وتكسير آلات الطرب^(٤٩) . وفي الجمعة الاولى لوصوله مراكش توجه الى المسجد الجامع وهو نفس الجامع الذي اعتاد على بن يوسف أمير المرابطين أداء صلاة الجمعة به ، فركع في الصف

راجع :

الادريسي ، صفة المغرب ، ص ٧٦ ، مجهل ، الاستبصار ، ص ١٨٧ ، باقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦١٥ ، ص ٦١٦ .

(٤٢) مراكش هي حاضرة المرابطين الكبرى ، وقد اختلف المؤرخون في السنة التي بدأ فيها الشروع في بناء المدينة وفي اسم مؤسسها فقد أجمع بعض المؤرخين منهم ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ ، وابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ ، وابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٨ على أنها انشئت سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) وان الذي أسسها هو يوسف بن تاشفين ، ولكن الادريسي (صفة المغرب ، ص ٦٧) ذكر أن يوسف بن تاشفين شرع في بنائها في صدر عام ٤٧٠ هـ ، كذلك صاحب الاستبصار (ص ٢٠٨) ذكر أن يوسف بن تاشفين أسسها سنة ٤٥٩ هـ .

بينما اتفق كل من ابن عذاري (البيان ، ج ٤ ، ص ١٩ ، ص ٢٠) وصاحب الطل الموشية (ص ٥) على أنها انشئت سنة ٤٦٢ هـ وأن الذي أسسها هو الامير أبو بكر بن عمر ، وحول هذا الرأي الاخير أنظر : العبادي ، دراسة حول كتاب الحل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، تطوان ، ١٩٦٠ م .

وأتفق مع استاذي الدكتور عبد العزيز سالم أن مراكش أسست على يد يوسف بن تاشفين في سنة ٤٥٤ هـ أي في الفترة التي غادر فيها الامير أبو بكر بن عمر أرض المغرب الى الصحراء . أنظر المغرب الكبير ، ص ٧٠٣ .

(٤٣) الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٧٧٧ .

(٤٤) البيهقي ، ص ٦٧ ، سالم ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ابن عمر رضى المغرب الى الصحراء . أنظر المغرب الكبير ، ص ٧٠٣ .

(٤٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٥ ، ابن أبي زرع ، روض

الاول على مقربة من المذير ، وحاول سدنه الجامع اقتناعه بضرورة ترك هذا الموضع المخصص لأمير المسلمين ، فأبى أن يتركه وتلا عليهم الآية « ان المساجد لله » فلما وصل الأمير قام اليه الحاضرون ، فيما عدا ابن تومرت ، الذي بقى بمكانه ، فلما قضيت الصلاة سارع ابن تومرت بمصافحة الأمير ، ثم أمره بأن يغير المنكر ببلاذه لانه المسئول عن رعيته ، فلم يجبه أمير المسلمين ، ولكنه لم يكذب يدخل قصره حتى أرسل الى ابن تومرت من يسأله أن كانت له حاجة خاصة يقضيها له ، فأبدي ابن تومرت زهده في طلب أى شئ . نفسه وأنه لا هدف له سوى تغيير المنكرات (٤٦) ، وحدث أن قابل ذات يوم الأميرة الصورة ، أخت أمير المسلمين ، في موكبها ومعها جواريتها الحسان سافرات على عادة المرابطين من سفور النساء وقصر اللثام على الرجال ، أنكر عليهن سفورهن وأمرهن بستروجوهن وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها (٤٧) ، ووقع الاضطراب والهرج ، ورفع الأمر الى أمير المسلمين على بن يوسف ، فجمع الفقهاء وتباحث معهم في شأن ابن تومرت ، فأغروا الأمير باستدعائه للمناظرة معهم (٤٨) ، فاستقدمه كما استقدم فقهاء مراکش وطلبته وأشياخ لتونة والمرابطين وجمعهم في مجلسه ، فلما غص المجلس بالحاضرين ، وقف الأمير وقال لهم : « انما بعثت لكم لتختبروا أمره ، فان كان علما اتبعناه وان كان جاهلا أدبناه » ، وعندئذ طلب ابن تومرت الى مناظرة أن يختاروا من ينوب عنهم لمناظرته ، فقدموا من اختاروه ، فسأله ابن تومرت عن طرق العلم وهل هى منحصرة أم لا ، فأجابته

(٤٦) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٧٣ .

(٤٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ،

ص ٤٦٨ .

(٤٨) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٢ .

مقدمهم : « نعم هـى منحصرة فى الكتاب والسنة والمعانى التى نبهت عليها » ، فقال ابن تومرت : « انما سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا ، فلم تذكر الا واحدا منها ومن شروط الجواب أن يكون مطابقا للسؤال » ، فلم يفهم قوله وعجز عن الرد ، ثم سأله ابن تومرت عن أصول الحق والباطل ما هـى ، فعاد الى جوابه الاول ، فلما رأى ابن تومرت عجزه وعجز أصحابه عن فهم السؤال ، ومعرفة الجواب ، أخذ يوضح لهم طرق العلم فبهرهم بعميق معارفه واتساع ثقافته ، وقضح جهلهم وعجزهم^(٤٩) . وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء من علماء الفروع ممن يجهلون علم الاصول القائم على دراسة الشريعة واشتقاقها من الكتاب والسنة ، ودراسة النصوص الشرعية والادلة العقلية ، وتفاصيل العقائد وأصول الفقه أى مصادر الشريعة ، ومعرفة النبوة والرسالة ، وكل ما يتعلق بذلك . فى حين تقتصر معارفهم على علم الفروع الذى يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها ، والحدود والاقضية ، أو بعبارة أخرى على دراسة الجانب العلمى والدينوى من الشريعة . وقد كانت الدراسات المفضلة فى ظل المرابطين هـى علم الفروع ، وفى هذا الصدد يقول المراكشى : « ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده ، الا من علم علم الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله ﷺ ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء »^(٥٠) . وقد كان أخص ما تميزت به هذه المناظرة الدينية ، ان

(٤٩) ابن أبى زرع ، نفسه ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٧ .
(٥٠) المعجب ، ص ١٧٢ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والانتطس ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، سعد زغلول عبد الحميد ، محمد بن تومرت ، ص ١٧ .

ابن تومرت أبدى في مناقشته تمسكه بأصول الشريعة ازاء الفقهاء المرابطين وهم أقطاب علم الفروع ، وأراد أن يبين جهلهم بمنهاج الشريعة الحقيقية ، فجعل المناقشة تجرى على الاصول لا الفروع وأبدى في عرضه لاصول الشريعة أنه يرجع خاصة الى القرآن والحديث ، ولا يرجع قط الى قول مستخرج ولا يعتبر الاجتهاد مرجعا من مراجع الشريعة (٥١) .

ولم يكن بين فقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت وتبحره في علم الدين ، سوى فقيه أندلسي هو مالك بن وهيب الاشبيلي، كان من كبار العلماء والادباء متمكنا من علوم الدين والفلسفة والتاريخ فذبه أمير المسلمين الى خطورة هذا الرجل ، وخطورة دعوته وتعاليمه وقال له في جملة ما قاله « هذا رجل ، لا ينبغي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنه ينبغي تضليل العامة ، وإثارة الفتنة والوصول الى السلطان . وأشار عليه بقتله ، ولكن أمير المسلمين رفض قتله ، فأشار عليه مالك بسجنه حتى يموت ، فقال أمير المسلمين « علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن الا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء » (٥٢) وهكذا خرج ابن تومرت وصحبه من مراکش ، حيث أقام بخيمة بالجبانة القريية من المدينة ، فكان ينهال عليه الناس والطلاب ، فكثرت مريدوه وأتباعه وعندئذ أخذ يتهم المرابطين بالكفر والتجسيم ويحثهم على قتالهم لان غزوهم واجب على كل مؤمن ، فبلغ ذلك على بن يوسف وصح له ما قاله فيه الفقيه

(٥١) Goldzihor, le livre de Mohamed ibn Toumart, Mehdi des Almohades, Alger 1803, pp. 39 - 40.

(٥٢) المراكشي ، المعجب ، ص ١٨٥ ، ص ١٨٦ .

الاندلسي ، فعزم على قتله وبث من يأتيه برأسه ، فسمع بذلك أحد تلاميذه غائاه مسرعا ، حتى وقف بالقرب من خيمته ، ونادى بأعلى صوته : «با موسى ان الملا يأتهمرون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك هن الناصحين» ، وكرر النداء ثلاث مرات ، ثم سكت ، ففطن ابن تومرت لندائه ، فبادر بانخروج متخفيا^(٥٣) الى أغمات^(٥٤) ، فنزل ضيفا على الفقيه المصمودي عبد الحق ابراهيم ، فلما أخبره ابن تومرت بمقصده وما جرى له مع أمير المسلمين وفقهاء المرابطين ، نصحه عبد الحق بترك أغمات والاتجاه انى تينمل ، لأنها أكثر حصانة ومنعة ، فلما سمع ابن تومرت بهذا الاسم ، تذكر أسم هذا الموضع في كتاب الجفر الذى كان قد طالعه ويتعلق بطوم أهل البيت ، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكن يسمى السوس من ذرية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يدعو الى الله ، يكون

-
- (٥٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٢ ، ص ١٢٣ .
 (٥٤) أغمات مدينة صغيرة فى جنوبى مراكش ، تبعد عن مدينة مراكش الى جنوبها حوالى ٢٥ ميلا ، وأغمات مدينتان احدهما تسمى اغمات وريكة والاخرى أغمات هيلانه وبينهما نحو ٨ أميال ، وكانت أغمات قبل تأسيس مراكش من أهم المراكز الحضارية والثقافية فى المغرب الاقصى . ويصف ياقوت الحموى أغمات بقوله « وليس فى المغرب بلدا أجمع لاصناف من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظا ولا أخصب منها » .
 عن أغمات نظر : البكرى ، المغرب ، ص ١٥٣ ، الادريسي ، صفة المغرب ، ص ٦٦ ، ص ٦٧ ، ص ٦٩ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .
 (٥٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٤٧ ، ص ٤٨ . وتينمل كلمة بربرية هؤلفة من شقين : تين بمعنى ذات ، ومال بمعنى الحواجز التى توضع فى سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى وقد اختير هذا الموضع الجبلى الحصين قاعدة لحركة الموحدين وبها بنى المهدي بن تومرت داره ومسجده ثم دفن بها بعد وفاته .
 عن تينمل راجع : الادريسي ، المغرب ، ص ٦٤ ، مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠٨ ، المراكشي ، المعجب ، ص ١٨١ ، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والانطلس ، هامش (٤) ، ص ٣٤٥ .

مقامه ومدفنه بموضع من المغرب اسم هجاء حروفه (ت ي ن م ل)^(٥٥)، فعزم ابن تومرت على قصد باده ، وهكذا واصل مسيرته الى بلاد السوس فوصل الى جبل ايجليز من بلاد هرغة بلدة وموطن قومه وعشيرته ، فلما استوثق من قبيلته ومنعه موضعه ، لانه مكان لا يصل اليه أحد الا عن طريق لا يمشيها الا راكب بعد راكب ، فيسد خللها أقل من عصابة من الناس ، اعتزم أن يعطي امامته ، وفي اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، قام ابن تومرت خطيبا في أصحابه ، وأعلن أنه المهدي المنتظر الذي بشر به الرسول عليه الصلاة والسلام^(٥٦) ، فلما فرغ ابن تومرت من خطبته ، جلس في ظل شجرة خروب ليتلقى بيعة أصحابه ، مرع اليه عشرة من أخلص أصحابه ، وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والمعصوم ، أولهم : عبد المؤمن بن علي ومنهم أبو محمد البشير ، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي ، وقد أطلق على هؤلاء العشرة اسم أهل الجماعة^(٥٧) ، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلا فسموا أهل خمسين وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدي ، ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين ، وهم الطبقة الثالثة ، وكانت هذه الطبقات الثلاث تمثل النواة الاولى لنظام الحكم والادارة لدولة الموحدين^(٥٨) . أما بقية أصحاب المهدي فقد انقسموا الى عشر طبقات تضم طلاب العلم ، والحفاظ وهم صغار الطلبة ، وأهل الدار وهم أقارب المهدي وعشيرته ، وقبيلته وأهل تينمل ، وأهل جدميوه ، وأهل جنفيسة ، وأهل هنتاتة ،

-
- (٥٦) أورد ابن القطان نص خطبة المهدي الى أصحابه ص ٧٥ ، ص ٧٦ .
(٥٧) حول أصحاب المهدي العشرة أنظر : البيهقي ، ص ٧٣ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٧٧ - ٨٠ ، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٣ ، مجهول الطل الموشية ، ص ٧٩ عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٧١ ، ص ١٧٢ .
(٥٨) ابن القطان ، نفسه ، ص ٨١ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .

وأهل القبائل ، والجند ، وأخيرا الغرات وهم الاحداث الصغار الاميون ،
ثم وضع المهدي نظاما خاصا لمهام هذه الطبقات ورتبها ، وجعل لكل منها
مهمة تختص بها ، ورتبه لا تتعدها ، سواء في السفر أو الحضر (٥٩) ،
وسمى المهدي اصحابه وأهل دعوته بالموحدين ويفسر ابن خلدون اتخاذ
هذا الاسم تعريضا بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم الى
التجسيم (٦٠) ، كما أطلق المهدي على المرابطين الزراجنة ، فشبهم بطائر
أسود البطن ، أبيض الريش يقال له الزرجان ، لانهم بيض الثياب سود
القلوب (٦١) ، وقد بلغت طاعة الموحدين للمهدي الى حد أنه اذا أمر أحدهم
بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر الى ذلك من غير إبطاء (٦٢) .

-
- (٧٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٨ ، ص ٢٩ ، ابن أبي زرع ،
روض القرطاس ، ص ١٢٣ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧٩ .
(٦٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٠ .
(٦١) ابن القطان ، نفسه ، ص ٨٥ .
(٦٢) المراكشي ، المعجب ، ص ١٩١ .

ج (المرحلة الثانية من الصراع بين المرابطين والموحدين (بداية الصدام المسلح)

عندما بلغ على بن يوسف أنباء ابن تومرت أدرك مدى الخطأ الذي وقع فيه بتركه طليقا ينشر دعوته ويثير المغرب الأقصى بآرائه المتطرفة وعزم على أن يبدأ بضرب الحركة الموحدية قبل استفحالها ، وعلى هذا النحو سير لقتال ابن تومرت أبا بكر ابن محمد الممتونى والى السوس (٦٣) . وقيل ابراهيم بن تاعيش (٦٤) ، فنزل الجيش المرابطى بمكان وعز على انجانب الشرقى من جبل ايجليز ، فلما علم ابن تومرت بذلك ، عقد مجلسا لأصحابه ووعظهم بقوله : « أنظروا الى أعدائكم ، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة ، انما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم ، فأعطاكم وأغناكم » ، ثم نزل بأصحابه من أعلى الجبل ، وخطوا على قوات المرابطين كالبواشق فأوقعوا بهم الهزيمة واستولوا على خيلهم وأسلحتهم ومتاعهم وأموالهم (٦٥) ، ثم جهز المهدي جيشا من أنصاره من أهل هرغة وهنتاتة وتينمل زوده بالاعلام البيض ، وندب لقيادته أبا محمد البشير فخرج البشير بقواته متجها صوب مدينة أغمات ، فاتصل خبرهم بأمير المسلمين ، فبعث لقتالهم جيشا من الحشم والاجناد ، واشتبك فى موقعة انتهت بهزيمة جيش المرابطين فطاردهم البشير بقواته حتى أرغمهم على اللوذ بمراكش فأقاموا عليها محاصرين عدة أيام ، ثم عادوا الى الجبل بعد أن تكاثرت عليهم جموع المرابطين فى السادس من

(٦٣) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧٤ .

(٦٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٨٢ .

(٦٥) ابن القطان ، نفسه ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، مجهول ، المصدر السابق ،

ص ٧٤ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٧٨ .

شعبان سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) (٦٦) • ولم تفت هذه الهزيمة الاولى في عضد على بن يوسف ، غبار بتجهيز جيش آخر ، سيره تحت امره الامير أبى اسحاق ابراهيم (٦٧) ، وقيل ولده أبى بكر بن على (٦٨) ، ولكن ثقة الموحدين بقوتهم وما كانوا يستشعرونه من قوة معنوية من خلال تعاليم زعيمهم المهدي هيأت لهم المجال لمواجهة جيوش المرابطين النظامية التي كانت تفتقد هذه القوة المعنوية ، وانتهى الامر بانهياء قوة المرابطين قبل اللقاء ، فقد سرى الرعب في نفوسهم ولم يلبثوا أن انهزموا أمام الموحدين دون قتال (٦٩) • وكان لهذه الهزيمة الثانية التي تطلقتها قوات المرابطين على أيدي الموحدين أسوأ وقع في نفس على بن يوسف ، فجهز جيشاً ثالثاً عهد بقيادته الى الامير سير ابن القائد المرابطي العظيم مزدلي الممتونى ولكن هذا الجيش الثالث لم يلبث هو الآخر أن منى بهزيمة نكراء (٧٠) •

وكانت لتلك الانتصارات المتوالية التي حققها الموحدين أثرها الكبير في ذبوع أسطورة المهدي وانتشار أمره ، وكثرة أتباعه ، وعظم ثقته بنفسه وقوته ، فأرسل الى على ابن يوسف رسالة كلها تهديد ووعيد ، فيما يلى نصها : « من القائم بدين الله العامل بسنة رسول الله محمد بن عبد الله وفقه الله ، الى المغرور بدنياه على بن يوسف ، أما بعد ، فانا ما وجدنا لاكثركم من عهد ، وان وجدنا أكثركم لفاسقين ، لم تخشوا عقوبة

(٦٦) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٤ •

(٦٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٠ •

(٦٨) أشباخ ، تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٩٢ •

(٦٩) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨١ ، أشباخ ، المرجع السابق ، ص

١٩٢ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٧٨ ، ص ١٧٩ •

(٧٠) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٨١ •

رب العالمين ، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين ، الذين غووا فأصبحوا نادمين ، فتبعمهم الناس أجمعين ، فاذا هم أخسر الخاسرين ، وقد أمرني الله بإدحاض حجة الظالمين ، ودعاء الناس الى اليقين ، ونسأل من الله أجر المحسنين لا تغتروا فان المسلمين اليكم قادمون ، لقتال من زاع وجنف وكفر بنعمة الله ، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولا تؤمنون بلا اله الا الله ، وانها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها ، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال ومالككم فيء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمن » (٧١) . وكانت هذه الرسالة بمثابة اعلان حرب بين الموحدين والمرابطين .

غادر المهدي جبل ايجليز في عام ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) بعد أن أقام فيه ثلاثة أعوام وسار في أصحابه وأجناده الى تينملل ، حيث ابتنى حصنا ودارا ومسجدا . كما أدار حولها سورا ، وأخذ يتأهب للمرحلة الثانية والحاسمة ضد المرابطين ، ورأى استعدادا لتلك المرحلة من الصراع أن يستوثق من ولاء أنصاره واخلصهم له ، كما رأى ضمانا لذلك أن يتخلص من العناصر المعارضة لدعوته ، خاصة وقد نما الى علمه أن أعيان أهل تينملل قد اجتمعوا واقترحوا اصلاح علاقاتهم مع أمير المسلمين وعندئذ ابتكر فكرة التمييز وانتدب أبا محمد البشير المعروف بالونشريشي لتمييز الناس بهدف التخلص من معارضيهِ (٧٢) .

(٧١) البيهقي ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١١ .
(٧٢) حول التمييز أنظر : البيهقي ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٧٨ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٧ ، ص ٢٩٨ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦٨ ، ص ٦٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٠ ، عفان ، عصر المرابطين ، ص ١٨٣ ، ص ١٨٤ .

د (المرحلة الثالثة من الصراع بين الرابطين والموحدين (حصار الموحدبن لراكش وهزيمتهم فى وقعة البحيرة)

ثم بدأ المهدي ينضم صفوفه ، ويحشد حشوده لمهاجمة الرابطين فى عقر دارهم ، وخاطب أتباعه وأنصاره يستدعيهم للوصول اليه ، فاجتمع لديه فى تينملل ما يقرب من أربعين راجل ونحو أربعمائة فارس قدم عليهم أبا محمد البشير^(٧٣) ، كما جعل عبد المؤمن اماما للصلاة^(٧٤) ، ولم يصحب المهدي جيشه فى هذه الغزوة لرضه^(٧٥) ، ولكنه أوصى قواته وهو يودعهم بقوله : « أقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالرابطين ، فادعوهم الى امانة المنكر ، واحياء المعروف ، وازالة البدع ، والاقرار بالامام المهدي المعصوم ، فان أجابوكم فهم أخوانكم ، لكم ما اهتم وعليهم ما عليكم ، وان لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتلهم »^(٧٦) . ووقعت قبل المعركة الاولى الحاسمة عدة اشتباكات تمهيدية بين الرابطين والموحدين وقعت المعركة الاولى فى موضع يقال له « كيك » وفيها انهزمت قوات الرابطين بقيادة أبى بكر بن يندوج^(٧٧) ، ثم وقعت المعركة الثانية فى موضع يسمى « بالجروبة » وكان على قيادة الرابطين الامير أبو بكر ابن على بن يوسف ، ومعه القائد يطى بن اسماعيل وانتهت هذه المعركة أيضا بهزيمة نكراء منى بها الرابطون واستيلاء الموحدين على محلاتهم ودوابهم وأمتعتهم وأسلحتهم ، ومطاردتهم لفلولهم الى مكان يسمى

(٧٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٤ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٧٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٥ .

(٧٥) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٩٤ .

(٧٦) المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٧٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٤ .

« بامجدار » حيث اصطدموا بفرقة عسكرية مرابطية يقودها نفس القائد الم رابط يطى بن اسماعيل ، الذى كان قد ولى الادبار فى معركة انجروية ، وتمكن الموحدون من ايقاع الهزيمة بعسكر الم رابطين فى هذه المرة أيضا وسقط يطى بن اسماعيل قتيلا^(٧٨) . وعلى أثر هذا الانتصار الكبير واصل الموحدون زحفهم صوب أغمات ، وكان الم رابطون قد جمعوا شتات قواتهم وضموا اليها حشودا هائلة من أهل أغمات واستعدوا للقاء الموحدين من جديد ، أما الموحدون فقد تناوب على قيادة عسكرهم ثلاث من أصحاب المهدي هم : عبد المؤمن بن على ، وأبو حفص عمر بن على أصناج ، وأبو عمران موسى بن تمار الجدميوى ، فنشبت بين الفريقين معركة ضارية انتهت بهزيمة نكراء منى بها الم رابطون ، وقتل منهم ومن أهل أغمات أعداد ضخمة^(٧٩) . وبهذا الانتصار انفتح المجال أمام قوات الموحدين لمحاصرة مراكنس ، وهكذا تقدمت قواتهم الظافرة الى مراكنس ورابطت تجاه باب الشريعة ، وكان على بن يوسف قد حشد قواته فى تلك الاثناء ، واستعد للقاء الموحدين أعظم استعداد ، وبلغت عدة جيوش الم رابطين آنذاك زهاء مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل^(٨٠) . فلما تراءى الجمعان أرسل الموحدون الى الم رابطين يدعونهم الى ما أمرهم به ابن تومرت ، من قمع البدع ، واحياء السنة ، والمبادرة الى بيعة المهدي ، فرد على بن يوسف على عبد المؤمن بن على يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكره الله فى سفك الدماء ، واثارة الفتنة ، فلم يرتدع غبد المؤمن

(٧٨) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١١٥ ، ص ١١٦ .

(٧٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٦ ، عنان ، عصر الم رابطين ،

ص ١٨٦ .

(٨٠) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٤ ، عنان ، المرجع السابق ، نفس

الصفحة .

لتحذيره^(٨١) ، ونشبت بين الجانبين معركة عنيفة ، دارت فيها الدائرة على المرابطين وقتل منهم جموع غفيرة ، وهرعت فلولهم الى داخل المدينة ، وأخذوا يتدافعون بهدف التحصن داخل أسوارها فهلك منهم في الزحام خلق كثير . أصيب على بن يوسف بالمرارة وخيبة الامل واستغرق في التفكير فيما آل اليه مصير دولته على أيدي الموحدين ، ولم يفق الا على صوت بعض من كان معه وهو يقول : « يا مرابط ، سر من هنا الى أحد الابواب حيث لا زحام » ، ولم يرد أن يسميه لئلا يعلم به أحد ، ففر ودخل من باب المخزن^(٨٢) ، فأحاط الموحدون بالمدينة وأحكموا حولها الإحصار ، واستمر حصار الموحدين لمراكش زهاء أربعين يوما^(٨٣) لم ينوقف أثناءها القتال بين الفريقين ، فكان المرابطون يخرجون بين الحين والحين لقتال الموحدين ، فنشبت بين الفريقين تحت أسوار المدينة معارك طاحنة^(٨٤) . وكان على بن يوسف قد سير ابان فترة الحصار رساله الى سائر أمراء ملتونة وولاتها وقاداتها ليوافوه بحشودهم ، فقدمت اليه جموع كثيفة من مختلف النواحي ، وقدم اليه على الاخص جيش ضخيم من سجالماسة أرسله واليها وانودين بن سير لنصرته^(٨٥) . وبفضل هذه الامدادات الجديدة أمكن لعلی بن يوسف أن يعيد تنظيم صفوفه ويتأهب

(٨١) المراكشي ، المعجب ، ص ١٩٢ ، ص ١٩٣ .

(٨٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٧ ، ص ١١٨ .

(٨٣) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١١٨ ، ابن عذاري ، البيان ،

ج ٤ ، ص ٧٥ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ،

ص ٤٧١ ، الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ٧ ، أما ابن

الاثير فيحدد مدة الحصار بعشرين يوما ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ ، في حين

يجعلها ابن خلكان قرابة الشهر ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

(٨٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٨ ، مجهول ، الحلل الموشية ،

ص ٨٤ .

(٨٥) ابن القطان ، نفسه ، نفس الصفحة .

للمعركة الفاصلة التي دارت في بستان كبير ، والبستان في اللغة المحلية يسمى بالبحيرة ، ومن ثم فقد سميت المعركة بموقعة البحيرة وبيوم البحيرة^(٨٦) . بدأت المعركة بمناوشات على نطاق محدود دارت بين الحرس الاميرى الخاص بعلى بن يوسف بقيادة عبد الله بن همشك^(٨٧) أحد رؤساء ثغور الاندلس وبين قوة من الموحدين ، فانهمزم الموحدون ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل فلما دخل ابن همشك حاملا تلك الرؤس الى مراكش ، سادت الفرحة والبهجة نفوس الاهالى وحل الامل محل اليأس وأيقنوا بالنصر ، فقد كان هذا الانتصار رغم ضآلته كافيا لاسقاط أسطورة الموحدين ورفع معنوية المرابطين ، اذ جاء بعد هزائم متتالية وهكذا أمر على بن يوسف بخروج العسكر المرابطى بقيادة أبو محمد وانودين بن سير^(٨٨) ، ثم نشبت معركة عنيفة بين العسكرين ، فقاتل المرابطون قتال من يطلب الشهادة ، فرجحت كفتهم ، وأوقعوا الهزيمة في صفوف الموحدين ، وقتلوا منهم ما يزيد على أربعين ألفا ولم ينج من جيوش الموحدين الا نحو أربعمائة ما بين فارس وراجل^(٨٩) ، وكان من بين القتلى القائد الموحدى أبو محمد البشير وأربعة من أصحاب المهدي

(٨٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ .

(٨٧) كان جده همشك نصرانى أسلم على يد بنى هود فى سرقسطة ، وقد اتصل ابن همشك بالامير محمد بن سعد بن مردنيش واشتغل فى شرق الاندلس لحسابه ، وتزوج من ابنة ابن مردنيش ثم فسد ما بينهما بسبب للصهر فتعاديا ، فدخل فى طاعة الموحدين ، فاقطعوه بمكناسة أملاك كثيرة ، وأقام بها الى أن مات .

أنظر : المراكشى ، المعجب ، هامش (٢) ص ٢١١ .

(٨٨) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ ، عنان ، عصر المرابطين ،

ص ١٨٨ .

(٨٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٩ ، ص ١٢٠ ، مجهول ، نفسه ،

ص ٨٥ ، عنان ، المرجع السابق ، نفس الصفحة . والحقيقة أن هذه الأرقام واضح فيها عنصر المبالغة .

العشرة هم سليمان بن مخلوف الحضرمي ، وأبو عمران موسى بن تمار
الجدميوي ، وأبو يحيى بن يجيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان (٩٠) ،
ولم ينفذ البقية اليسيرة الباقية من جيش الموحدين سوى سواد الليل
وهطول الامطار ، وأمكن لقائدهم عبد المؤمن بن علي وهو جريح قد
أصيب في فخذه أن ينسحب في فلوله تحت جناح الظلام متجها صوب
أغمات ، فطارده المرابطون ، حتى أرض هيلانة ، وهناك وقعت بينهما
معركة ثانية ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة اليأس ، ولكنهم انهزموا مرة
أخرى ، وتطأيرت فلولهم الى تينمل (٩١) . وكان عبد المؤمن قد أرسل أبا
بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق ليلينغ المهدي بحقيقة ما حدث في معركة
البحيرة ، فلما تأكد المهدي من نجاة عبد المؤمن خف لديه المصاب ، ولم
يتردد في أن يحمد الله على نجاة عبد المؤمن ويقول : « الحمد لله رب
العالمين ، قد بقي أمركم » (٩٢) .

وهكذا أحرز المرابطون نصرهم الحاسم على الموحدين في معركة
البحيرة (٩٣) ، وترتب على ذلك انسحاب الموحدين مرة أخرى الى الجبال

(٩٠) البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٧٩ ، عنان ، المرجع السابق ،
ص ١٨٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٨٠ .

(٩١) البيذق ، نفسه ، نفس الصفحة ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص
١٢٠ ، مجهول الحل الموشية ، ص ٨٦ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٨٩ .

(٩٢) البيذق ، نفسه ، ص ٧٩ .

(٩٣) اختلف المؤرخون حول تحديد تاريخ معركة البحيرة ، فالبيذق يضع
تاريخ المعركة في عام ٥٢٤ هـ ، ويتفق معه كل من ابن القطان وابن الاثير ،
وابن أبي زرع ، والزركشي ، أما ابن خلدون فيجعل تاريخها في عام ٥٢٢ هـ ،
ويجعلها عبد الواحد المراكشي في عام ٥١٧ هـ ، ولكن المتفق عليه بين ثقات
المؤرخين وعلى الاخص البيذق هو عام ٥٢٤ هـ .

انظر : البيذق ، ص ٢٨ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٩ ، ابن
الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ ، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، =

مما أخرج سقوط الدولة ما يقرب من عشرين عاماً ، كما كان له أكبر الأثر في عودة كثير من القبائل التي كانت قد خرجت على طاعة المرابطين تبذل اطاعة لهم ، كما هيا للمرابطين المجال من جديد لمتابعة جهادهم في الاندلس ضد قوى النصرانية ، والتمكن من احراز الانتصار الثانى العظيم في الاندلس بعد الزلافة وأعنى به انتصار افراغه •

= ص ١٢٥ ، الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٧ ، ابن خلدون ، العبر ، انراكشى ، المعجب ص ١٩٢ •

هـ (المرحلة الرابعة من الصراع بين المرابطين والموحدين (في بداية عهد عبد المؤمن بن علي)

اعتل المهدي بن تومرت قبل وقوع معركة البحيرة ثم اشتدت عليه غلته بعد وقوع الهزيمة، فلم يطل به العمر بعد ذلك سوى أياما معدودات، فلم يلبث أن توفي في رمضان سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) (٩٤) ، فخلفه عبد المؤمن بن علي على زعامة الموحدين . وتختلف الروايات الاسلامية حول الظروف التي تولى فيها عبد المؤمن خلافة الموحدين ، ولكن يمكن التوفيق بين هذه الروايات المختلفة بأن المهدي كان قد أختار عبد المؤمن بن علي خليفة للموحدين ضمانا لاستقرار الدعوة من بعده ولهذا فقد اكتفى المهدي قبيل وفاته بدعوة أهل الحل والعقد من شيوخ الموحدين الى مبايعة عبد المؤمن ، فلما توفي المهدي تمت البيعة الخاصة ، واضطر عبد المؤمن وأصحابه الى اخفاء خبر وفاة المهدي ، حتى يحين الوقت المناسب تجنباً لتفرق كلمة الموحدين أو انقسامهم الى شيع وأحزاب فتذهب ريحهم وتزول حركتهم ، وقد ظل خبر وفاة المهدي وتولية عبد المؤمن سرا لا يعلمه سوى أصحاب المهدي العشرة وأهل بيته قرابة ثلاث سنوات ، حتى تمكنت الدعوة الموحدية في نفوس الموحدين ،

(٩٤) حول وفاة المهدي أنظر : البيهقي ، ص ٥١ ، ص ٨١ ، ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٩٨ ، المراكشي ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٥٣ ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ص ١٢٧ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، مجهول ، الحل الموشية ، ص ٨٦ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٤٧٢ ، ابن أبي دينار المؤنس ، ص ١٠٣ ، الزركشي ، المصدر السابق ، ص ٧ . وقد اتفقت هذه الروايات حول تاريخ وفاة المهدي بعام ٥٢٤ هـ فيما عدا ابن خلدون الذي يجعل عام ٥٢٢ هـ تاريخا لوفاة المهدي .

وعندئذ فقط أعلن أصحاب المهدي خبر وفاته واستخلاف عبد المؤمن^(٩٥) .

كانت مهمة عبد المؤمن بن علي عسيرة صعبة ، فقد كان عليه أن يعيد الثقة الى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيدا للمعركة المقبلة الفاصلة ، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الاولى من خلافته في رأب الصدع ، وتأليف القلوب وتعبئتها لمداغة المرابطين ، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين ، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ما رواه ابن أبي زرع موجهة الى مدينة مراكش فقد هاجمها أياما ثم ارتحل عنها^(٩٦) ، غير أن ابن القطان^(٩٧) وابن خلدون^(٩٨) يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة ، وفيها خرج عبد المؤمن من تينمل في شهر ربيع الاول سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) في جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل^(٩٩) ، فسار أولا نحو حصن تازاجورت ، وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بقيادة يدر بن ولكوط^(١٠٠) وقيل يحيى بن مريم الزرجاني^(١٠١) ، فتمكن عبد المؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل

(٩٥) حول ظروف تولية عبد المؤمن بن علي وبيعته أنظر : البيهقي ، ص ٨٣ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣٠ ، عبد الواحد المراكشي ، ص ١٩٤ - ١٩٦ ، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٩ - ١٣٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٣ ، غنان ، عصر المرابطين ، ص ٢١٩ - ٢٢١ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٨٠ ، ٧٨١ .

(٩٦) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٣٢ .

(٩٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٥ .

(٩٨) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٣ .

(٩٩) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(١٠٠) البيهقي ، ص ٨٤ .

(١٠١) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين^(١٠٢) ، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل ، وهذا الرقم من الصعب تصديقه إذا أخذنا في الاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الأندلس . رحل عبد المؤمن عن تازجورت بعد أن سبى ميمونه بنت ينفان بن عمر أرملة وإلى الحصن المذكور وصحبها معه إلى تينمال ، حيث ظلت أسيرة لديه حتى اقتديت فيما بعد ، بمن كان في تلمسان من أسرى الموحدين^(١٠٣) ، ثم سار عبد المؤمن إلى درعة واستولى عليها^(١٠٤) ، كما استولى في نفس العام — ٥٢٦ هـ — على حصن هزرجة ، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته ، ومنها سار إلى بلدة جشجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها ، ثم سار إلى بلدة أجلاحال ، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب المهدي وأمرأته في يوم العيد ، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل^(١٠٥) ، وفي نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب المهدي العشرة ومعه بعض

(١٠٢) ابن القطان ، نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٠٣) ابن القطان ، نفس المصدر والصفحة ، غان ، عصر المرابطين ،

ص ٢٢٥ .

(١٠٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٣١ ، ابن خلدون ، العبر ،

ج ٦ ، ص ٤٧٣ ، غان ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٦ .

ومدينة درعة تعرف بواديها فانه نهر كبير يجري من المشرق إلى المغرب

ومنبعه من جبل درن ، وفيها أسواق كثيرة تنتشر في أنحاء البلاد وتشتهر درعة

بجميع أنواع الفواكه من النخل والزيتون وغيرها ، كما تشتهر أيضاً بالحناء .

عن درعة أنظر : البكري ، المغرب ، ص ٦١ ، الاستبصار ، ص ٢٠٦ ،

ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٦٧ .

(١٠٥) ابن القطان ، نفسه ، ص ١٩٦ ، غان ، عصر المرابطين ، ص

٢٢٦ .

وجوه الموحدين ، وكان أهل الحصن قد جرحوا المهدي في إحدى غزواته ، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه (١٠٦) ، وفي هذا العام أيضا افتتح الموحدون حصن تاسغيموت أمنع حصون المرابطين وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين ، كما كانت تقوم على حراسته حامية من هزرجة قوامها مائتي وخمسمائة راجل ، فلما يئس الموحدون من فتحة لمناعته لجأوا إلى الحيلة فدخلوا بعض أفراد من حامية الحصن وتواطؤوا مهم على فتحه ، فأقتحموه ليلا ، وقتلوا أبو بكر بن وارصول اللمطي واليه المرابطى ومن معه من المرابطين ، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينملل حيث ركبت على باب الفخارين (١٠٧) .

عاد عبد المؤمن إلى تينملل ، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة ، ان دلت على شيء فانما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم في نفوس بعض منافقبي عبد المؤمن وأن الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لا تزال تلح في نفوس أقرب المقربين إلى عبد المؤمن وأعنى بهم أصحاب المهدي العشرة وتتلخص هذه الحادثة في اقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب المهدي العشرة ، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن علي أثناء غيابه عن تينملل غازيا، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين على بن يوسف ، الذي لم يتردد في إعلان رضاه عن ابن ملوية ، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينملل ، فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة

(١٠٦) ابن القطان ، نفسه ، ص ١٩٦ ، عنان ، نفسه ، ص ٢٣٦ .
(١٠٧) البيهقي ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٢٨ ، ابن القطان ، نفسه ، ص ١٩٤ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٦ ، نسالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٦٥ ، ص ٧٦٦ .

بهدف استمالتها الى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعمة الى تينمل ، غير أن عبد الله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينمل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه للمهدى ، ونعوا على ابن ملوية تلك الخيانة ، وفي الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكى أحد أهل خمسين ومعه غلامه ، وسارا الى محله ابن ملوية ، وقتلاه ، وحملوا جثته الى تينمل حيث صلبت ، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة اخلاصها وقسم الغنائم عليهم (١٠٨) .

ويشير ابن القطان في حوادث عام ٥٢٦ هـ الى انضمام أحد قادة المرابطين وهو الفلاكي الى طاعة الموحدين ، وكان الفلاكي من أهل أشبيلية ، وكان في بداية أمره شقيا وقاطع طريق ، ثم تاب ، فعفا عنه والى أشبيلية ، وقدمه على الرماة والرجالة ، ثم انتقل الى خدمة أمير المسلمين على بن يوسف ، الذي قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه الى السوس لمداغة الموحدين ، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرين ، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم الى الموحدين ، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس ، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدية من قبل ، وظل في خدمة الموحدين الى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة وعاد الى طاعة المرابطين (١٠٩) .

ويمضي الصراع بين المرابطين والموحدين ، فيشير ابن القطان في حوادث عام ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) الى غزوة قام بها ابراهيم بن يوسف بن

(١٠٨) البيهقي ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ ، غنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٢٦ .

(١٠٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٢ ، ص ١٩٣ ، غنان ، نفسه ، ص ٢٢٧ .

تأشفين المعروف بابن تاعيشت ضد الموحيدين ، غاشتبتك ابراهيم في معركة مع الموحيدين لقي فيها مصرعه (١١٠) وانتهت المعركة بهزيمة المرابطين ثم افتتح الموحدون مدينة تارودنت (١١١) أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس وفي وصف فتح الموحيدين لمدينة تارودنت يذكر ابن القطان أنه لما استولى الموحدون على سائر بلاد السوس ، فرت البقية الباقية من المرابطين وعدتها نحو أربعمئة فارس بقيادة القائد المعروف « بالعرج الاعرج » ، والغالب أنه القائد المعروف باسم الروبرتيير (١١٢) الى تيونوين ، وعلم بمقدمة من كان قد فر الى الاطراف من أهل السوس ، هبادروا بالالتفاف حوله ، وهنا قسم عبد المؤمن جيشه الى قسمين ، قسم وجهه الى أدنى السوس ، فقتلوا من وجدوه من المرابطين وغنموا

(١١٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٦ ، وأنظر أيضا عنان ، ص ٢٢٨ ، ويذكر ابن القطان أن فارس ابراهيم بن تاعيشت كباية وقتل على الفور . (١١١) تارودنت مدينة عظيمة تقع على وادي ماسة ، وهي غنية بزرعة قصب السكر ، كما أنها أخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات ، ومنها يجلب السكر الى جميع بلاد المغرب والاندلس وافريقية وهو المشهور بالطبرزد . أنظر : مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١١ ، ص ٢١٢ ، الادريسي ، صفة المغرب ، ص ٧٤ .

(١١٢) الروبرتيير كان قائدا مسيحيا اندلسيا من قواد أمير برشلونة ، ثم وقع في أسر قائد البحر الرابطي على بن ميمون ، فوجهه الى مراكش حيث دخل في خدمة الامير على بن يوسف ، فوله قيادة فرقة الجند المسيحي المرتزق التي كانت تعمل في صفوف المرابطين ، وقد أبلى الروبرتيير بلاء حسنا في الدفاع عن دولة المرابطين أمام الموحيدين ، وقتل في إحدى المعارك التي خاضها ضد الموحيدين عند تلمسان قبل مقتل تأشفين بن على بن يوسف بقليل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ - ١١٤٥ م) ، وقد كان للروبرتيير هذا ولد اسمه على اعتنق الاسلام ودخل في طاعة الموحيدين وأصبح من أكابر رجال دولتهم ، واليه يرجع الفضل في انتزاع جزيرة ميورقة من أيدي بني غانية ، وقد قتل على هذا في إحدى المعارك سنة ٥٨٣ هـ .

عن الروبرتيير أنظر : ابن الأبار ، الحلة السيرة ، تحقيق مؤنس ، هامش

أموالهم ودوابهم وعبيدهم ، وقسم سيره صوب مدينة تارودنت ،
فاقتحموها ، وأطلقوا النار في القصب ، وقتلوا من وجدوه بها ، كل ذلك
والمرابطون في تينونين يشهدون النيران تشتعل في ديارهم
وأراضيهم (١١٣) .

وفي عام ٥٢٩ هـ (١١٣٤ - ١١٣٥ م) ، سار عبد المؤمن لغزو بني
بيغز ، انتقاما منهم لاقدامهم على قتل أبي محمد عبد العزيز الغيغائي أحد
أصحاب المهدي وداعيته اليهم ، فلما نزل عليهم عبد المؤمن ، انتهزوا حاول
الظلام ووضعوا الاحطاب على ظهور جمالهم وأشعلوا فيها النيران ،
ودفعوها نحو محلة الموحدين ، وانطلقوا في أثر جمالهم وهاجموا محلة
الموحدين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة تبادل فيها الطرفان الكر
والفر ولكن رجحت كفة بني بيغز ووصل جماعة منهم الى خيمة عبد المؤمن
وأطلقوا عليها وابلا من السهام ، والظاهر أنه كان يتوقع هذا الهجوم ،
بحيث ترك مخيمه خاليا أثناء الليل قبيل قيام بني بيغز بهجومهم عليه
وظل عبد المؤمن يحاصر بني بيغز نحو أربعين يوما ، فلما يئس من
اختصاصهم رفع الحصار وعاد الى تينمال (١١٤) . وفي العام التالي
— ٥٣٠ هـ — سار عبد المؤمن الى أجز فرجان ومسكر وطن ، فخرج
اليه الامير سير بن علي يوسف ولي عهد المرابطين ، واشتبك الفريقان في
قتال انتهى بهزيمة المرابطين واستولى الموحدون على أموالهم
وأسلحتهم (١١٥) .

(٢) ص ١٩٣ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق مكى ، هامش (١) ص ٩٦ .
عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٢ .
(١٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٢ - ٢١٤ ، عنان ، عصر
المرابطين ، ص ٢٢٩ .
(١١٥) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ ، عنان ، المرجع السابق ،
نفس الصفحة .

وفي عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ - ١١٣٨ م)، تحرك عبد المؤمن من تينملل الى جبل غياثة ، فعسكر بجريدة على مقربة من المقرمدة عند وادي أبي حنوا ، كما انضمت اليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبد الله بن يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت ، فعسكرت بالقرب من محلة سير ، وفي نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيى بن فانو ، غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه الى الموحيدين ، وراسل عبد المؤمن وطلب منه عسكرا لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبد الله بن يحيى بن أبي بكر ، فأمدّه بقوة موحدية ، أغار بها على محلات عسكر المغرب ، وألحق بهم خسائر فادحة . وفي نفس الوقت توفي القائد يحيى بن فانو قائد العسكر الزناتى الموالى للمرابطين ، فأسند الأمير سير القيادة على القوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفى ، الذى واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجده . وكانت الانباء قد وصلت الى سير بن على بأن عبد المؤمن يريد بلاد غمارة ، فوضع له سير ألفى فارس فى طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه ، واستمرت هذه القوة المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق ومراقبة تحركات عبد المؤمن . وفى أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ ذوبه من زناتة ، واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين فى المعركة المقبلة بين المرابطين والموحيدين فأرسل عبد المؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ ، خرجت من جبل غياثة الى محلة زناتة ، وهاجمتها ، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة (١١٦) .

(١١٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٩ - ٢٣١ .

و (المرحلة الخامسة من الصراع بين المرابطين والموحدين (حتى سنة ٥٣٥ هـ)

تحرك عبد المؤمن بن علي من تينملل في سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ - ١١٣٩ م) ، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضى حاحة ، فزحف اليه الأمير تاشفين بن علي بن يوسف ولى عهد المرابطين من مراكنس ومعه الروبرتر قائد فرقة الجند المرتقة في جيش علي بن يوسف ، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط من حاحة ، وكان علي بن يوسف قد قتل عددا من أعيان قبيلة منانة ، وكان ذلك سببا في دخولها في طاعة الموحدين ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات ، فأقم عبد المؤمن في بنى ملول شهرا وثلاثة أيام ، وهو يشن عليهم الغارات ، ثم تركهم وسار بعد ذلك الى قبيلة بنى وجدزان ثم الى بنى سوار من منانة الجبل ، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ثم سار عبد المؤمن الى أجر فرجان ، فقتل تاشفين بن علي في قواته وسد عليه الطريق ، فتنسبت في أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين ، هزم فيها تاشفين ، وتكررت هزيمته ثلاث مرات الى أن فر بنفسه الى جهة الميزتانوت ، فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد وفي هذه اللحظات وصلت قوة مرابطية من مراكنس مددا لتاشفين ولكنها أصلت بعد فوات الاوان أى بعد هزيمة تاشفين ، فطمعوا في انتزاع الغنائم من الموحدين ، فلما علم عبد المؤمن بذلك اجأ الى الحيلة فأمر برصد الكمائن في مضائق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذبا للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة جزولة ، وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم اذا ما سمعوا قرع الطبول . نجحت خطة عبد المؤمن بن علي نجاحا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، فقد هاجمت جزولة ساقطة الغنيمة وقتلت بعض حراسها ، فلما توسطوا مواضع الكمائن ، دقت

الطبول فجأة ، فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم ، واستولوا على أسلحتهم ودوابهم ، وما أن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة (١١٧) .

وفي عام ٥٣٤ هـ (١١٣٩ - ١١٤٠ م) ، خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لتونة وزناتة لقتال الموحيدين وانضمت اليه فرقة من النصارى المرتقة بقيادة الروبرتير ، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزعور ما يقرب من شهرين ، وشددوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم الميرة حتى اضطر الموحدون الى أكل حيواناتهم ، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين الى مراکش حاملا معه الروبرتير جريحا (١١٨) . وفي عام ٥٣٥ هـ (١١٤٠ - ١١٤١ م) ، خرج الجيش المرابطى من مراکش بقيادة الروبرتير ، فاشتبك مع الموحيدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن على في مكان يسمى أمسيمى (١١٩) يقع في أرض كدميوه شمال تينمل ، وقيل أن اللقاء حدث بجبل جذمير (١٢٠) ، ولا يذكر البيهقي نشوب معركة بين الجانبين وإنما يؤكد أن كل فريق عاد الى بلاده (١٢١) ، بينما يؤكد ابن عذارى حدوث قتال بين قوتى المرابطين والموحيدين ، وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحا الى مراکش (١٢٢) . ثم عاد

(١١٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٦ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٠ .

(١١٨) البيهقي ، ص ٨٦ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٨ .

(١١٩) البيهقي ، ص ٨٧ .

(١٢٠) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(١٢١) البيهقي ، ص ٨٧ .

(١٢٢) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٩٨ .

الروبرثير الى الخروج بقوات لمتونة ، واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمى اكظورور ، فهزم المرابطون ، وارتد الروبرثير في قلوله جريحا الى مراكش ، وعاد عبد المؤمن الى تينملل (١٢٣) .

واصل عبد المؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين ، فخرج في قواته نفس العام - ٥٣٥ هـ - وحاصر حصن تينلين ، وكان يدافع عنه واليه المرابطى يركين ابن ويدرن ، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام ، اضطر بعدها الى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس ، وذلك عندما علم بتحريك قوات المرابطين بقيادة الروبرثير صوب تينلين ، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها ايرمناد ، وتاسلولت وتيونوين وايجلي وغيرهم (١٢٤) . وفي نفس الوقت هاجم الروبرثير محلة تيغيايين الموحدية ، وسبى نساءها وأخذهن معه الى مراكش . أما عبد المؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس وكان من جملة سباياها فيها « تماكونت » ابنة يفتان بن عمر أحد وزراء علي بن يوسف ، التي رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها ، وذكرته بشفاة أبيها يفتان بن عمر في المهدي ، عندما كان مارا بمراكش ، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التتكيل به ، فلم يتردد عبد المؤمن في قبول رجائها وأمر على الفور باطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن الى مراكش معززات مكرمات ، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبد المؤمن وأمر بدوره باطلاق سراح سبايا تيغيايين وأرسلهن آمنات مكرمات الى تينملل (١٢٥) .

(١٢٣) البيهقي ، ٨٧ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٣ .
(١٢٤) البيهقي ، نفسه ، عنان ، نفسه :
(١٢٥) البيهقي ، ص ٨٧ ، ص ٨٨ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

ز (المرحلة قبل الاخيرة من الصراع (حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ)

رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدين على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع الى قلب دولة المرابطين مستهدفا القضاء عليها واسقاطها ، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية عام ٥٣٥ هـ ، ويورد البيهقي وكان شاهدا عيانا لاحداث هذه الفترة وصفا دقيقا لحملة عبد المؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينمل في حشود ضخمة متجها نحو الشمال الشرقي ، فنزل بموضع يسمى وانزال ثم زحف الى أشبار وتقع جنوب شرقي مراكش ، ثم غادرها الى تاساوت فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين بن على في أثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مرورا ببلدة يمللو القريبة منها ، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو « واويزغت » دون أن يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت في تيزي ودارت فيها الدائرة على المرابطين . ثم تقدم الموحدون الى « داي » ، فولى حاكمها المرابطي على بن ساقطر الادبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدين ، وواصل الموحدون زحفهم صوب « تازاكار » ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعتها قلعة واوما ، ثم آزرو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها ، فدخلها الموحدون ، واتخذها عبد المؤمن قاعدة لقيادته ، وجه منها عددا من الحملات لاختضاع المناطق المجاورة ، وفي نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدين الى تينمل يبشرون أهلها بانتصارات عبد المؤمن . وهكذا دخل أهل فازاز جميعا في طاعة الموحدين وأقام عبد المؤمن فترة في آزرو حيث تزوج من إحدى نسائها (١٢٦) .

(١٢٦) البيهقي ، ص ٨٨ - ٩٠ ، غنان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ،
ص ٢٣٥ ،

واصل عبد المؤمن زحفه ، فخرج من أزرو حيث اعترضته قوة
مرابطية على طريق مكناسة ، ففتك بها وأباد معظمها ، واستولى على
كميات كبيرة من المؤن والعتاد ، ثم هاجم قواعد المرابطين في غريس
الواقعة جنوبى أزرو ، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة
جنوبى أزرو ، وعندئذ اتجه نحو سجلماسة ، فبادر إليها أبو بكر بن
صارة بالدخول في طاعة الموحدين . وفى أوائل عام ٥٣٦ هـ (١١٤١ م)
قامت سرية موحدية على رأسها عبد الرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة
صفروى واقتحمتها ، وتابع ابن زكو زحفه الى الشمال الشرقى نحو
الفلاج الواقعة شمال شرقى صفروى . وفى هذه الاثناء غادر تاشفين بن
على مدينة فاس الى جبل العرض فعسكر به ، ثم بعث الروبرتير فى قوة
الى الفلاج لاستنقاذها ، فخرج اليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال ،
فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم يحيى ،
واحتر رأسه وأرسل الى فاس (١٢٧) . ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة
الواقعة شرقى فاس ، وضربوا محلثهم على سفح جبل عفرا ، بينما عسكر
المرابطون فى موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفرا . ولم
يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء ، وكان شتاءا قاسيا تعرضت
فيه المنطقة خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسحت
السهول والقرى والوديان وقاسى بسببها العسكران أيما عناء وشدة ،
الا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكى ، حيث تساقطت الخيام ،
وعامت أوتادها لرخاوة الارض ، وغرقت الدور وهلك عدد كبير من عسكر
المرابطين بسبب البرد القارس وقلّة الاقوات والوقود فى كل من
المعسكرين وبلغ سعر الشعير فى معسكر الموحدين وفقا لقول البيذق

(١٢٧) البيذق ، ص ٩٠٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٥ ، ص ٢٣٦ .

ثلاثة دنائير للسطل ، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل^(١٢٨) . ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم فكان أول موضع قصده عبد المؤمن هو قلعة الولجة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاي وتقع إلى الشمال الشرقي من فاس . وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتير في أثر الموحيدين ، فاضطر الموحدون إلى ترك أرض لكاي إلى أرض بنى غمارة من بطون صنهاجة ، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحيدين ودخلوا في طاعتهم . وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى أرض بنى تاودا ونزلوا بها ، وأصبح العسكران كفرسي رهان ، كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون ، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحيدين في معركة عنيفة في موضع يقال له « تازغدرا » أسفرت عن قتل عدد من القوتين ، ارتد الروبرتير على أثرها إلى بنى تاودا ، بينما سار الموحدون إلى « تاغزوت » ومنها إلى بنى مزكلدة ، ثم إلى ايلانة ثم إلى أيجن . وفي أيجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن علي أزناج أحد جماعة العشرة ، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشباخ الموحيدين ونصحهم بالتزام الصبر والتماسك والاختلاص لمبادئ المهدي ، وطاعة عبد المؤمن ، ثم توفي في مساء نفس اليوم ودفن في موضع يسمى « بجدار نمض » ، ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف ، مروا بتامقريت ووادي لو أرض بنى سعيد . ومن وراءهم الروبرتير يتعقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان ، في الوقت الذي وصلت قوات الموحيدين إلى قلعة باديس المطلة على البحر المتوسط ، ومكنت نفوذها في تلك النواحي ، وواصلت من هناك تقدمها إلى ثغر المزمه ومنها إلى جبل تمسامان^(١٢٩)، حيث وجه عبد المؤمن

(١٢٨) البيهقي ، ص ٩١ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .

(١٢٩) البيهقي ، ص ٩٢ ، ص ٩٣ ، غنان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

قائده عبد الرحمن بن زكو في قوة من الموحدين لغزو مليلة ، فاقترحمه وظفر بغنائم وفيرة (١٣٠) . ثم رحل الموحدون الى ندرومه من بلاد كوميه ، قبييلة عبد المؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقا الى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن . وفي هذه البلدة وجه عبد المؤمن ثلاث حملات الاولى بقيادة عبد الرحمن بن زكو ، وجهتها ثغر وهران ، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه ، والثانية بقيادة الشيخ أبى ابراهيم اسماعيل ، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان ، والثالثة بقيادة يوسف بن وانودين وسارت الى جبل مديونة من أجواز تلمسان ، فخرج اليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبى بكر بن الجوهري ، ومحمد بن يحيى بن فانو ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزيتون ، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهري وابن فانو (١٣١) .

وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم على قوى المرابطين ، وان كانت كلفتهم كثيرا طوال حياة أمير المسلمين على بن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيئته في نفوس المرابطين ، ثم جاءت وفاته في سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٣ م) بداية لنهاية دولة المرابطين ، فلم يمض عامان حتى كان بنيانها قد انهار من أساسه ، فعلى الرغم من المحاولات اليائسة التي كان يبذلها تاشفين بن على بن يوسف الذي خلف أباه في رئاسة المرابطين ، يبذلها تاشفين بن على بن يوسف الذي خلف أباه في رئاسة المرابطين ، وعلى الرغم من ضروب الشجاعة والاقدام التي اتصف بها في معاركه التي خاضها ضد قوى الموحدين طوال الفترة القصيرة التي قضاه في الامارة ، وجملتها سنتان ، فان الصدع كان من العمق بحيث لم ينفع فيه علاج

(١٣٠) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٠ ، غنان ، نفسه ، ص ٢٤٠ .
(١٣١) البنيق ، ص ٩٣ ، غنان ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، ص ٢٤١ .

وكان من الممكن أن يمتد أمر المرابطين لو أن العمر طال به أكثر من ذلك ،
ولكنه لسوء طالع المرابطين خر صريعا في عام ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) ،
وبوفاته انهارت مقاومة المرابطين في بداية عهد ولده الامير أبى أسحاق
ابراهيم آخر أمراء دولة المرابطين اذ تمكن الموحدون من افتتاح مراكش
الحاضرة وقتل أمير المرابطين ، وبمصرعه زال سلطان المرابطين نهائيا
وبدأت صفحة جديدة من تاريخ المغرب في ظل دولة الموحدين •

وعلى هذا النحو نجحت دعوة محمد بن تومرت في إسقاط الدولة
المرابطية وإقامة أسس دولة جديدة ، وان كان العمر لم يمتد بالمهدى
صاحب هذه الدعوة ليشهد ثمرة حركته •

ب (ثورة مدينة فاس سنة ٥٠٠ هـ

بدأت بوادر الضعف والوهن تسرى في كيان دولة المرابطين في أعقاب وفاة مؤسسها وصاحب الفضل في قيامها يوسف بن تاشفين فقد كان يمثل رجل الدولة القوي الذي يرهب الرعية ويعملون له حساباً كبيراً شأن كل مؤسس الدول ، فلما توفي واختفت صورته زالت من النفوس مشاعر الخوف والرهبة ، واستضعف الناس من خلفه فاستهانوا بأذى ذي بدء بشأنه . وهكذا قامت في مدينة فاس العاصمة الدينية للمغرب ثورة محلية محدودة النطاق ولكنها في الحقيقة كانت أول مظاهر التصدع الذي أصاب دعائم دولة المرابطين .

بدأت هذه الثورة عقب وفاة يوسف بن تاشفين وتوليه ولده وولي عهده الأمير أبي الحسن على طبقاً للنظام الوراثي الذي استنته يوسف قبيل وفاته ، عندما أخذ البيعة بولاية العهد لولده على في مدينة قرطبة سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ، فلما تولى على بن يوسف إمارة المرابطين كتب إلى مختلف قواد المغرب والاندلس يبلغها بوفاة والده ويطلب من ولائها أخذ البيعة له ، فأنته البيعة من سائر البلاد باستثناء مدينة فاس وكان يليها عند وفاة يوسف بن تاشفين حفيده يحيى بن أبي بكر أخى أمير المسلمين على ، وكان أبو بكر هذا قد توفي في حياة والده ، فرغض الأمير يحيى أداء البيعة لعمه على ، وأعلن عصيانه وتمرده وخروجه عن طاعة عمه ، ووافقه على ذلك جماعة من قواد لتونة (١٣٢) .

اضطر على بن يوسف إلى التعجيل باخماد هذه الحركة وتأديب ابن

(١٣٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٠ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ الخاص بالمغرب ، ص ٢٥٣ ، السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ص ٥٩ .
Terrasse, Histoire du Maroc, vol. , 11, P. 242.

أخيه ، وبادر بالتحرك فى قوة من عسكره الى فاس ، فلما علم يحيى بخروج عمه اليه قبل أن يتخذ أهبطه ، فت ذلك فى عضده وأثر أن يولى الادبار وعلى هذا النحو تمكن على بن يوسف من دخول فاس فى يوم الاربعاء الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) (١٣٣) .

وقيل أن على بن يوسف لما قرب من فاس ، نزل بمدينة مغيلة الواقعة على الطريق المؤدية الى فاس ، ثم كتب لابن أخيه يعاتبه على ما بدر منه ويدعوه للدخول فى طاعته وأداء البيعة له ، كما كتب فى نفس الوقت الى شيوخ فاس وفقهائها يدعوهم الى بيعته ويحذرهم من مغبة الخروج عن طاعته ، ولكن كتاب الامير الى شيوخ فاس وقع فى يد يحيى فخشى أن هو سلمه اليهم أن يستجيبوا الى نداء عمه ، فبيادروا ببذل الطاعة له فيخرج الامر من يده ، وعلى هذا فقد أثر أن يجمع فقهاء مدينته ويستشيرهم فى أمر الدفاع عن المدينة والتصدى لقوات عمه ، وعندما اجتمع بهم وعرض عليهم الامر لم يوافقوه على رأيه هذا ، ونصحوه بأن يبادر على الفور بمبايعة عمه لاسيما أن الظروف الداخلية فى فاس لم تكن مواتية لمثل هذا العصيان ، فأكثر أهل فاس كانوا غير راضين عن هذه الحركة ، بل كانوا يؤيدون الامير على بن يوسف ويبذلون له الولاء والطاعة ، فلما أدرك يحيى استحالة وقوف أهل فاس معه ، قرر ترك المدينة ولاذ بمزدلى والى تلمسان ، فلقية عند وادى ملوية فى طريقه الى المغرب الاقصى لتقديم بيعته الى أمير المسلمين ، فطلب منه أن يتوسط له عند عمه ، ليعفو عنه ، فوعده مزدلى بالسعى فى ذلك ، ولم يلبث مزدلى

(١٣٣) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١١٠ ، السلاوى ، المصدر

السابق ، ص ١٢٣ .

Codera, Dec. y Des de los Almoravides on España, P. 6.

أن تابع طريقه الى فاس للقاء أمير المسلمين وبصحبه يحيى ، ولم يكن على بن يوسف قد ترك فاس بعد ، فاتفق مزدلى مع يحيى على أن يشفع له عند الأمير ، وفي أثناء ذلك يختفى عن الانظار في أحواز فاس ، وتم الأمر على ذلك ، فعندما قابل مزدلى الأمير وبايعه بالامارة تشفع اديه في ابن أخيه ، فعفا عنه الأمير ، وعندئذ بادر يحيى بمبايعة عمه وأعلن ولاءه له . ومع أن الأمير قبل شفاعته مزدلى في يحيى ، وتقبلبيعة ابن أخيه فقد خيره بين الإقامة في جزيرة ميورقة أو الصحراء فاختر يحيى الصحراء ، ومن هناك مضى مشرقا نحو الحجاز ففوض فريضة الحج ثم عاد الى المغرب ، واستأذن الأمير في الإقامة بمراكش فأذن له ، فأقام فيها فترة من الزمن ، والظاهر أنه واصل خلالها مؤامراته ضد الأمير على بن يوسف ، أو بدرت منه بعض الأمور المريبة تجاه عمه بحيث أمر هذا الأخير بالقبض عليه وإبعاده من المغرب وإقامته بالجزيرة الخضراء الى أن توفي (١٣٤) .

وهكذا تمكن على بن يوسف من القضاء على حركة ابن أخيه في مهدها وذلك منذ بداية توليه الامارة . وأعتقد أن الاسباب الحقيقية لهذه الحركة تتلخص فيما يلي :

أولا : حسد الأمير يحيى بن أبي بكر لعلى بن يوسف لتوليه الامارة بعد وفاة أبيه يوسف بن تاشفين ، ومصدر هذا الحسد يرجع الى الأمير أبا بكر والد الثائر يحيى فقد كان الابن الأكبر ليوسف بن تاشفين، كما أنه

(١٣٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٠ ، ص ١١١ ، السلاوي، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، ص ١٢٤ .
Tarrasse, His toire du Maroc, vol 11, PP. 242-3.

عنان عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ص ٥٩ .

كان ينوب عنه في ادارة الدولة المرابطية في المغرب وذلك أثناء جهاده في الاندلس واشتراكه مع ملوك الطوائف في محاربة نصارى أسبانيا في وقعة الزلاقة ، وما دام أبو بكر قد توفي في حياة أبيه ، فان ابنه يحيى كان أحق بامارة المسلمين من عمه على بن يوسف •

ثانيا : أيد ثورة يحيى بن أبي بكر نفر من أمراء أسرة ابن تاشفين تعبيرا عن عدم رضائهم عن ولاية على بن يوسف الامارة بعد وفاة أبيه يوسف ، فلم يكن على الابن الاكبر ليوسف بن تاشفين ، اذ كان من بينهم من كان يكبره سنا ويفوقه قدرة وكفاية ، زد على ذلك أن عليا لم يكن يمثل بصدق الامير المرابطي القح اذ كانت أمه أسبانية مسيحية^(١٣٥) ولهذا النسب يمكننا القول بأن ثورة فاس جاءت تعبيرا عن عدم قبول بعض أفراد الاسرة الحاكمة لعلي بن يوسف ، جاء هذا التعبير بعد وفاة يوسف ابن تاشفين •

وأعتقد استنتاجا من سياق الاحداث ونتابعها أن ثورة يحيى بن أبي بكر على امارة على بن يوسف وان كانت فردية الا أنها كانت مدعومة بتأييد يكاد يكون اجماعيا من شيوخ أمراء المرابطين ولكن يبدو أنهم لم يملنوا انضواءهم اليها انتظارا لما تسفر عنه نتائجها ، فلما تمكّن على من القضاء عليها فت ذلك في عضدهم ، وقضى على آمالهم ، ولعل على بن يوسف قد أدرك حقيقة الموقف بعد أن وفق في اخمادها وقد يكون ذلك من العوامل التي دفعتة الى تغيير عماله في الولايات بين الحين والحين ، وانتهاجه لسياسة المدد القصيرة ، يؤكد ذلك الحركة المستمرة بين الولاة التي نلاحظها عند تتبعنا لنظام الولاية في عصر على بن يوسف ، والظاهر

(١٣٥) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ •

استنتجا من كل ما سبق أن ثورة فاس زعزت ثقة علي بن يوسف فسي
أقرب أقربائه وعلى رأسهم أخيه الأمير أبو الطاهر تميم الذي لم يكن
بمكث طويلا في أى منصب من المناصب التي كان تولاها سواء في المغرب
أم في الأندلس •

ج (ثورة مدينة قرطبة

احتفظت قرطبة في بداية عصر المرابطين بمكانة سامية بين مدن الاندلس وقواعدها الهامة ، على الرغم من أن غرناطة كانت الحاضرة الأثيرة لدى المرابطين ، ففيها دعا يوسف ناشفين شيوخ لتونة وأمرائها وفقهاء المرابطين وقادتهم ، وتلا عليهم عقد البيعة لابنه على ، وانتهى الأمر بتوقيعهم على عقد البيعة وتعهد على بن يوسف أمام الحاضرين بالترام شروط العقد (١٣٦) . وأصبحت قرطبة منذ ذلك الحين مركز الثقل لدولة المرابطين في الاندلس ، وكان يقيم فيها ولي عهد دولة المرابطين . وظلت تتمتع بهذه المكانة المرموقة حتى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) ، عندما وقعت فيها حادثة لها مغزاها وأعنى بها احراق كتاب احياء علوم الدين للامام أبى حامد الغزالي ، فمن المعروف أن المذهب المالكي كان المذهب الرسمي لدولة المرابطين ، فلم يكن أحد يحظى عند الامير على بن يوسف الا من علم فروع مذهب مالك ، فراجت كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وبولغ في ذلك حتى أغفل الناس النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره الى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت الى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه « (١٣٧) . فلما وصل كتاب الأحياء الى المغرب

(١٣٦) سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ .

(١٣٧) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٧٢ ، ص ١٧٣ ، انظر أيضا سعد زغلول عبد الحميد ، محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والاندلس ، ص ١٧ .

والاندلس نظر فيه رجال الفقه والدين ، فأروه محشوا بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين ، كما أن هذا الكتاب يفضح فيه الغزالي نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة (١٣٨) ، وكان من الطبيعي أن يسخط فقهاء المرابطين على آراء الغزالي وينكروا كثيرا من المسائل التي وردت فيه بحجة أنها مخالفة للدين . وكان أبو القاسم بن حمدين قاضى قضاة قرطبة من أشد الفقهاء اسرافا في ذلك ، حتى أنه قال بتكفير من قرأ الاحياء ، ورفع ابن حمدين ومعه فقهاء قرطبة الامر الى أمير المسلمين على بن يوسف ، وأجمعوا على ضرورة جمعه واحرقه ، وقد تم احراق عدة نسخ من كتاب احياء علوم الدين للإمام الغزالي بقرطبة في الميدان الصغير الممتد أمام الباب الغربى من أبواب الجامع في محضر من الفقهاء (١٣٩) استجابة لطلب ابن حمدين دون مراعاة ما كان قائما بين الغزالي وبين يوسف بن تاشفين من عوامل المودة والمكاتبات التي جرت بينهما ، ولائناء الذي كان يثنيه الغزالي على يوسف ، حتى لقد هم بزيارته ، ووصل الى مدينة الاسكندرية في طريقه الى المغرب الا أنه علم بوفاة يوسف فعاد الى بلاده (١٤٠) .

(١٣٨) ليفى بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٥٢ ، سالم ، قرطبة ج ١ ، ص ١٤٥ .

(١٣٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٤ ، ص ١٥ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٥٩ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ليفى بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٥٢ ، ص ٢٥٣ ، سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ١٤٥ و ص ١٤٦ .

(١٤٠) ابن أبى دينار ، المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، ص ١٠٦ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٢٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ص ٧٨ .

وكان على بن يوسف ، لا يقطع في أمر من أمور دولته دون مشاورة
الفقهاء ، ومن هنا ازداد نفوذ الفقهاء في عهده وعظمت منزلتهم وسمت
مكانتهم . والواقع أن هذا النفوذ الزائد الذي تمتع به الفقهاء في زمنه
انما هو نتيجة طبيعية ترجع الى طبيعة دولة المرابطين منذ نشأتها
الاولى ، فالى الفقهاء يرجع الفضل في قيام هذه الدولة ، وكان عبد الله
بن ياسين ورفاقه أول من اختط سياسة هذه الدولة ، وقد سموا في نفوس
المغاربة وارتفعوا في نظرهم الى مرتبة الزعماء الذين يدافعون عن
الضعفاء المغلوبين^(١٤١) . وهكذا جمع عدد كبير من نسخ الاحياء في
مراكش وتم احراقها على النحو الذي حدث في قرطبة ، كما أحرقت
في سائر بلاد المغرب^(١٤٢) ويقال أن احراق المرابطين لكتاب الاحياء ، كان
سببا في زوال ملكهم وانتثار سلك دولتهم^(١٤٣) .

ومن الواضح أن المسئول الاول عن احراق كتاب الاحياء هو الفقيه
ابن حمدين قاضى الجماعة بقرطبة فهو الذى أثار القضية وهو الذى تبنى
فكرة احراق الكتاب وأقنع بها بقية فقهاء الاندلس ، وهو الذى وضع
أمر المسلمين أمام الامر الواقع ، وغرض عليه فتيا الفقهاء بتجريم
الكتاب ، فلم يكن أمام على بن يوسف الا أن ينزل على رغبة فقهاء بلاده
فيأمر بتنفيذ توصيتهم بحرقه .

وعلى الرغم من أن قرار الاحراق كان شبة اجماعى في المغرب

(١٤١) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(١٤٢) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١٤ ، ص ١٥ ، ابن عذارى ،

المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٩ ، ص ٦٠ السلاوى ، المصدر السابق ،
نفس الجزء ، ص ١٢٩ .

(١٤٣) ابن القطان ، نفسه ، ص ١٥ ، السلاوى ، نفسه ، ص ١٢٩ .

والاندلس ، الا أن نفرا من الفقهاء المغاربة عارض ذلك ، نذكر منهم أبا الفضل بن النحوي أحد علماء المغرب الاوسط ، فقد عارض فتوى ابن حمدين وأبدى انتصاره للغزالي ، وكان قد انتسخ كتاب الاحياء في ثلاثين جزءا، فكان اذا ما دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءا، وكان يقول « وددت أنى لم أنظر في عمرى سوى هذا الكتاب » (١٤٤) ومنهم كذلك أبو الحسن البرجى من فقهاء المرية ، الذى عارض القرار وطالب بتأديب من تولى احراق نسخ الاحياء وتغريمه بقيمتها لانها مال مسلم ، ولما قيل له « أتكتب بما قلته خط يدك ؟ أجاب بقوله : « سبحان الله » كبر متنا عند الله أن تولوا ما لا تفعلون » وكتب فتياه بعقبة ، ودفع الى أبى بكر عمر بن أحمد بن الفصيح ، وأبى القاسم بن ورد ، وغيرهما من فقهاء المرية ومشايخها ، فكتب كل واحد منهم فيه بخطه ، وبه يقول فسلان مسلمين لعلمه وزهده . فغضب ابن حمدين عندما بلغه ذلك ولكن تصرف الفقيه المرى كسر من حدته واكتفى بالانتقام منه بفصله من الخطة التى كان يتولاها ، فكتب الى قاضى المرية يومئذ وهو عبد الملك مروان ابن عبد الملك بعزله ، وقد أثر ذلك على نفسية الفقيه المرى الشجاع فأتجه الى الزهد وانصرف عن الدنيا (١٤٥) .

وظلت الدولة المرابطية طوال عهد على بن يوسف وولده تاشفين توجه اهتمامها الى مطاردة كتب الامام الغزالي ، وتتضمن الرسالة التى وجهها أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف الى فقهاء بلنسية

(١٤٤) السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(١٤٥) ابن الابار ، المعجم لاصحاب القاضى الامام أبى على الصدفى ، بيروت ، ١٩٦٧م ، ص ٢٨٣ ، ص ٢٨٤ ، السلاوى ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

وأعيانها وأهلها ، حثا على مطاردة كتب البدعة ولا سيما كتب الغزالي وفي هذه الرسالة يقول تاشفين : « واعلموا رحمكم الله ، أن مدار الفتيا ومجرى الاحكام والشورى ، في الحضر والبدا ، على ما أتفق عليه السلف الصالح ، رحمهم الله ، من الاقتصار على مذهب امام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس ، رضى الله عنه ، فلا عدول لقاضى ولا مفت عن مذهبه ولا يأخذ في تحايل ولا تحريم الا به ، ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال من الائمة الى سواه ، فقد ركب رأسه واتبع هواه ، ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، أو صاحب بدعة ، فاياكم واياه ، وخاصة كتب أبي حامد الغزالي ، فليتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها ، وتغلظ الايمان من يتهم بكتمانها (١٤٦) » .

والظاهر أن احراق كتاب الاحياء في قرطبة قد تسبب في سخط أهل المدينة على واليهم المرابطى ، ولعل هذا السخط كان قائما منذ بداية دخول قوات المرابطين قرطبة ، عندما استشهد المأمون بن المعتمد بن عباد ووزيراه ابن زيدون وأبو بكر (١٤٧) ، ولكنهم حملوا هذا السخط في جوانحهم ، فترة طويلة الى أن فاض بهم الامر فكشفوا عنه بطريقة غير مباشرة في معاملاتهم لعمال المرابطين وذلك منذ السنوات الاولى لامارة على بن يوسف ونستدل على ذلك من رسالة وجهها على ابن يوسف الى أهل قرطبة جاء فيها « فاسمعوا وأطيعوه ولا تخالفوه ، فلن يعدو وجه

(١٤٦) أنظر نص الرسالة التى أرسلها تاشفين بن على بن يوسف الى الفقهاء والوزراء والاختيار والكافة من أهل بلنسية ، فى باب الوثائق من كتاب عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس للاستاذ عنان ، ص ٥٤٨ - ص ٥٥٠ .

(١٤٧) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٠ .

المقصد ولا تعصوه ولا تألوه انقيادا وطاعة ، ولا تدخروا عنه فيما يستعملكم فيه جهدا ولا استطاعة ، وإياكم والخوض في أمر جعلناه اليه ، واحذروا من تعقب ما صغر أو كبر عليه ، وأضربوا عنه ، ودعوا ما لا يعنیکم منه ، وليرشد خیارکم شرارکم ، وليبصر کبارکم صغارکم ، وحسبنا هذا انذارا لکم واعذارا اليکم ، ولا عذر بعد ، ولا یلم من تعدی الا نفسه » (١٤٨) .

والظاهر أن الامير كان يستشعر وجود وميض نار تحت الرماد ، ولهذا كان لا يكف عن توجيه النصح الى أهل قرطبة بالتزام الطاعة وعدم الخوض في أى شأن من شئون بلدهم ، الى أن انفجرت الثورة في أواخر عام ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) ، وياخص لنا صاحب الحلل الموشية الثورة في « أن أهل قرطبة كان قد قدم عليها الامير أبى يحيى بن رواده فحدث بينه وبين أهلها ما أوجب قيامهم عليه وحدثت بين أهلها وبين من كان فيها من المرابطين فتنة كبيرة ونهبوا ديارهم وقصورهم » (١٤٩) ، ولكن ابن عذارى يقدم لنا رواية أخرى يقول فيها : أنه في سنة ٥١٤ هـ « نفذ أمر أمير المسلمين الى البلاد الاندلسية ، باحياء المجانيق والآلات الحربية ، فلما كمل منه المختص بأغرناطة ، خرج لمشاهدة التجربة لها والرمى بها أجد آى بن سير اللمتونى صاحب الاعنة ، فتزاحم هناك الجم الغفير ، فرام الفسحة ، وأثار برسيخ كان في يده فأصاب صبيا في مقتل ففقد لوقته ، وانفض اللقيف ، وتهرجت البلدة ، فاسترضى ولى الدم بدفع الدية فسكنت الثورة ، وأمهل الله القاتل ثم أخذه . ولما كمل ما أنشئ

(١٤٨) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمريد ، المجلد السابع ، العدد ١ - ٢ ، ١٩٥٩ م ، ص ١٧٧ .
(١٤٩) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٣ .

منها بقرطبة ، وقد جاء عيد النحر ، فخرج ثانية عامل البلدة لمشاهدة
النجربة ، وقد أقبل السواد الاعظم الذي لا يطاق ، بمجمع حضور العيد ،
وحضور كل زاعر وناق من كل حدب وشاهق ، فكثرت التدافع والتراحم ،
ودهم الحشم ، فكثرت بينهم التراحم ، وأقبل لفيف الربض الغربي ،
فالتقى بأسهم على القصر ، ورام صاحبه المدافعة بحشمه وخدمة فغلبوا ،
واقترحم القصر عليه وانتهب جمع ما فيه ، وخرج هو غارا بنفسه ، وركب
القاضي أبو الوليد بن رشد في اعلام الفقهاء ، فردع العامة ، وقمع
السفلة » (١٥٠) . ولكن ابن الاثير يقدم الينا عن هذه الثورة تفاصيل أوفى
فيقول أنه لما أقبل عيد الاضحى خرج أهل قرطبة للاحتفال بتلك المناسبة
الدينية ، فانتبهز أحد عبيد أبي بكر بن يحيى بن رواده والى المدينة
فرصه خروج الرجال والنساء الى ظاهر المدينة للنزهة فمد يده الى امرأة
وأمسكها فاستغاثت فأغثها الناس ، فوقع الفتنة بين الحامية المرابطية
بقرطبة وبين الاهالى ، ونشب القتال بينهما حتى حل الظلام ، فتفرق كل
فريق وهو يتربص بالآخر . وتهذئة لغضب الاهالى طلب الفقهاء الامير
أبى بكر بن يحيى بن رواده والى المدينة بالقصاص من العبد المتسبب في
هذه الفتنة وذلك بقتله ، ولكنه أنكر عليهم ذلك وغضب وأبدى رغبته في
تأديب أهل قرطبة الذين خضوا الفتنة ، فامر باخراج السلاح ولكن أهل
قرطبة يتقدمهم الفقهاء يادروا بمقتلته وأوقعوا به وبقواته الهزيمة ،
فتحصن بقصره ، فحاصروه به ، وتسلق بعضهم اليه الا أنه تمكن من
الفرار فاشعلوا النار في القصر بعد أن نهبوا كل تحفة ومحتوياته ، كما
أحرقوا دور المرابطين ، ونهبوا أموالهم ، وأخرجوهم من قرطبة على
أقبح صورة (١٥١) .

(١٥٠) ابن عذارى ، البيان المغرب وهى أوراق مخطوطة عثر عليها
الاستاذ محمد عبد الله عنان فى مكتبة القرويين ، أنظر عنان ، عصر المرابطين
والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٨٧ .
(١٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٠ ، وأنظر أيضا سالم ، قرطبة ،
ج ١ ، ص ١٤٣ ، ص ١٤٤ .

والظاهر أن الثورة كانت من الخطورة على مركز المرابطين في
الاندلس كله الى الحد الذي يدعو الامير على بن يوسف الى توجيه
انذارا الى أهل قرطبة (١٥٢) في نفس الوقت الذي كان يتأهب للعبور الى
الاندلس ، فبادر بحشد الحشود من صنهاجة وزناتة والمصامدة والبربر
على نحو لم يجتمع مثله للمرابطين من قبل ، وعبر الى الاندلس وهو
العبور الرابع والاخير له (١٥٣) .

وصل على بن يوسف بحشوده نحو قرطبة ، وعسكر بقواته بظاهرها
في شهر ربيع الآخر سنة ٥١٥ هـ ، فبادر أهل قرطبة باغلاق أبواب
مدينتهم في وجه أمير المسلمين واستعدوا في نفس الوقت لمقاتلته ذبا عن
أنفسهم وحريمهم وأموالهم (١٥٤) . ويؤكد ابن الاثير أن أهل قرطبة قاتلوا
المرابطين قتال من يدافع عن دمه وحريمه ، وأنه لما رأى شدة قتالهم ،
قبل وساطة الوسطاء في الصلح حقنا للدماء (١٥٥) . وحقيقة الامر أنه لم
يحدث قتال على الاطلاق وكل ما في الامر أن أهل قرطبة بحكم طبيعتهم
وما تميزوا به من اباء وشمم لم يقبلوا تهديد المرابطين لهم وآثروا أن
يمنتعوا داخل أسوار مدينتهم ، كما تأهبوا للاقتال اذا اضطر الامر ذبا عن
الحريم والدماء والاموال . كذلك لم يشأ على بن يوسف أن يقتحم المدينة
عنوة وكان بإمكانه أن يفعل لا سيما وأنه كانت لديه الامكانيات لتحقيق
هدفه ، ولكنه جنح الى السلم حقنا للدماء وآثر أن ينهي الموضوع سلميا

(١٥٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ .

(١٥٣) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠ ، مجهول ، الحل الموشية ،
ص ٦٣ ، أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٦ ، سالم ، المرجع السابق ، ص
١١٤ .

(١٥٤) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

(١٥٥) ابن الاثير ، نفسه .

تجنبنا لما قد يترتب على تأديب أهل قرطبة بقوة السلاح من نتائج قد تثير العصبية الاندلسية على البربرية وتفضى بالتالى الى كارثة محققة • وهكذا تقبل وساطة الفقهاء وشفاعتهم •

ودارت مفاوضات الصلح بين الجانبين ، وعمد فقهاء قرطبة وأعيانها الى تذكير الامير بوصية أبيه فى أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عن أساء منهم • وانتهت هذه المفاوضات بالاتفاق على أن يلتزم أهل قرطبة برد ما نهبوه من ديار المرابطين وحاميتهم^(١٥٦) وارضى أمير المسلمين هذا الحل أملا فى أن يحل الوفاق محل العداوة والبغضاء ، ليتفرغ المرابطون فى الاندلس لمهمتهم فى الجهاد •

والواقع أن ثورة قرطبة لم تكن مجرد حادث عادى أو حركة شعبية وانما كانت أول ثورة مسلحة علنية يقوم بها أهل الاندلس ضد المرابطين فلم تكن أساليب المرابطين فى الحكم سهلة تتسم بالرفق واللين ، وانما كانت تتميز بالخشونة والعنف والتسلط ، كما أن المرابطين لم يوفقوا منذ أن امتد سلطانهم على الاندلس فى أعقاب الزلافة فى أن يقيموا فى الاندلس حكما مدنيا ، فظل أهل الاندلس فى أيامهم يعانون تسلطهم البربرى الغاشم وغلظتهم فكانت حاميات المرابطين تعامل المدنيين من الاهالى بجفاء وغلظة الامر الذى أثار نقمة هؤلاء المدنيين وحقدتهم عليهم ، ولم تكن قد غابت عن أذهانهم بعد ذكرى الفتنة البربرية الغاشمة التى طحنت الاندلس طحنا فى أعقاب سقوط الخلافة الاموية بقرطبة ، ولهذا

(١٥٦) ابن الاثير ، ع الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٠ ، مجهول ، الحل النوشية ، ص ٦٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، المغرب والاندلس ، ص ٨٤ ، محمد عبد الهادى شعيرة ، المرابطون ، ص ١٥٠ ، قرطبة ، ج ١ ، ص ١٤٤ •

فقد حملوا في نفوسهم البغضاء للسادة الجدد ، الذين عبروا الى الاندلس للذب عن الاسلام ، ثم انتهى بهم الامر الى السيطرة على الاندلس والاطاحة بملوك الاندلس ، وبالإضافة الى هذه العوامل كان تزلزلت المراتبين الدينى ، وحجرهم على الافكار والعقائد من العوامل المساعدة على تأجيج روح التذمر لدى أولى العلم والمفكرين • وقد أجمل دوزى الاسباب التى ساعدت على قيام الثورة بقرطبة بضعف الحكومة فى الاندلس وفسادها وغلظ وجفوة أجناد الحامية المراتبية وسوء معاملتهم لاهل البلاد وانتشار اللصوص وقطاع الطرق فى القرى والمدن ، وسوء الاحوال الاقتصادية بوجه عام نتيجة لكساد التجارة ، وكثرة الحملات العسكرية ضد النصارى ومساهمة أهل الاندلس فى الانفاق عليها (١٥٧) •

ولم تكن هذه الثورة خاتمة الثورات على حكم المراتبين فى قرطبة ، فقد تبعها ثورة أخرى قبل ماضى عشرين سنة على الثورة القرطبية الاولى فى سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) ثار العامة بقرطبة بسبب ضعف قاضيا أبى الوليد بن رشد لموالاته للمراتبين وخضوعه فى كثير من الاحيان لمشىئة أميرهم ، وليلهم الى الفقيه أبى جعفر أحمد بن حمدى الذى كان يسعى سعيا حثيثا نحو الاستقلال بقرطبة مع أنه كان المحرك الرئيسى قبل ذلك بما يزيد على ثلاثين سنة لاحتراق نسخ كتاب احياء علوم الدين للامام الغزالى (١٥٨) ومن المعروف أنه هو نفسه الذى تزعم الثورة على المراتبين فى قرطبة سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ونودى به أميرا عليها وتلقب بالقاضى الخليفة (١٥٩) ، كما تسمى بأمر المسلمين وناصر الدين المنصور بالله •

(١٥٧)

Dozy, Histoire de Musulmans d, Espagne, vol, 111 P. 165, 166.

(١٥٨) سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ١٤٦ •

(١٥٩) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، الجزء الثانى ، ص ٢٥١ •

وهكذا استغل ابن حمدين مشاعر أهل قرطبة العدائية ضد المرابطين لمصلحته الخاصة ، ولكنه لم يظهر عداؤه سافرا للمرابطين قبل سنة ٥٣٩ هـ وآثر أن يظهر في صورة الرجل العاقل الذي يعمل على تسكين ثائرة الاهالى ، عن طريق نقل رغباتهم الى أبى عمر المتونى والى قرطبة الذى اضطر الى استجابة طلبهم فى اعفاء ابن رشد من منصبه القضائى ولكنه فى مقابل ذلك عمل على تعطيل الاحكام بها ما يزيد على عام تأديبا لهم ، ثم اذن لهم فى النهاية فى اختيار قاض لهم ، فأجمعوا على اختيار الفقيه ابن حمدين سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) (١٦٠) .

(١٦٠) سالم ، نفسه ، ص ١٤٥ .

الفصل الثاني

العلاقات الخارجية

أ (العلاقات بين دولة المرابطين وبين الممالك المسيحية في الاندلس •

- أولا : مع مملكة قشتالة •
- ثانيا : مع مملكة أرغون •
- ثالثا : مع مملكة البرتغال •
- رابعا : مع قطالونية •

ب (العلاقات بين دولة المرابطين وبين الصنهاجيين في المغربين الادنى والاوسط •

- أولا : مع بنى زيرى في المغرب الادنى •
- ثانيا : مع بنى حماد في المغرب الاوسط •

ج (العلاقات بين دولة المرابطين وبين الخلافة العباسية في بغداد •

أ (العلاقات بين دولة المرابطين وبين الممالك المسيحية في الاندلس

(١)

مع مملكة قشتالة

١ (وقصة أقليمش :

خص على بن يوسف الاندلسى باهتمامه الشخصى ، واعتبرها أرض جهاد ذلك أن موقعة الزلاقة التى خاضها أبوه من قبل ضد النصرانية فى أسبانيا لم تضع حدا لحركة الاسترداد الأسباني بل على الضد من ذلك كانت عاملا رئيسيا فى إفاقة دول النصرانية وتوحيدها للعمل يدا واحدة ضد المرابطين ، ومن المؤسف أن تجد هذه القوى النصرانية داخل أسبانيا الإسلامية من المعاهدة من كان يزودها بالمعلومات الضرورية كما حدث فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) عندما استثار المعاهدة الغرباطيون القونسو المحارب ملك أرغون لغزو بلاد المسلمين فى غزوة مدمرة مخربة اخترقت فيها قواته دولة الاسلام فى الاندلس حتى وصل الى غرناطة ، وكان ذلك من عوامل تغريب أهل الذمة واجلائهم عن أوطانهم^(١) . والواقع أن الصراع الإسلامى المسيحى فى الاندلس بلغ ذروته فى عهد على بن يوسف ، وتحول الى حروب ضارية اقتضت من المرابطين التصدى لقوى النصرانية وحشد جميع قواتهم لاييقاف المد النصراني الأمر الذى ترتب عليه اضعاف قواهم فى المغرب وسهل على الموحدين مهمتهم فى الاجهاز على دولة المرابطين المجاهدة . ومن الجدير بالذكر أن عليا بن يوسف كان شخصية مستتيرة تقدر الابعاد الحقيقية لنوايا النصرانية الأسبانية ، وقد أهله لذلك نشأته الاندلسية وتأثره العميق بحضارة الاسلام فى الاندلس^(٢) .

(١) راجع التفاصيل فى سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، ص ١٤٥ .
(٢) كانت أمة نصرانية من سبايا النصارى ، وقد ولد فى سبته وقضى فترة كبيرة من حياته فى قرطبة الى أن توفى أبوه فاستدعى الى مراكش حيث بويج بامارة المسلمين .
راجع ابن زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ .

وهكذا كانت الاندلس مركز اهتمامه وشاغله الشاغل فلم يكدر يفرغ من حركة ابن أخيه الأمير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين فى فاس، حتى عزم على الجواز الى الاندلس لتفقد أحوالها وتنظيم شئونها فأعد لذلك عدته وحشد حشودا ضخمة من المرابطين ومصمودة، ثم عبر بهم البحر من سبته الى الجزيرة الخضراء فى منتصف عام ٥٠٠ هـ (أوائل ١١٠٧ م) ^(٣) حيث بادر اليه زعماء الاندلس ورؤساؤها، وقضااتها، وفقهاؤها وأدباؤها وشعراءها، فقدموا اليه ببيعتهم وطاعتهم، وأنشده الشعراء قصائدهم، وقد استغل الأمير فرصة وجوده فى الجزيرة الخضراء للنظر فى شئون الاندلس والوقوف على أحوالها وتحقيق مطالب أهلها وقضاء حاجاتهم وتلبية رغباتهم ^(٤)، ويتمثل ذلك فى التغييرات الادارية التى أجراها آنذاك وأهمها قيامه بعزل أخيه أبى الطاهر تميم عن ولاية المغرب، وإسناده أمر غرناطة اليه، كما قلده القيادة العليا لجيوش المرابطين فى الاندلس، كذلك أسند الى أبى عبد الله محمد بن أبى بكر اللمتونى ولاية قريطبة ^(٥). وما أن تم للامير على كل ذلك حتى عاد الى سبته ومنها الى مراكش ^(٦).

(٣) ابن عذارى، للبيان، ج ٤، ص ٤٨، مجهول، الحل الموشية، ص ٦٢، ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ج ٢، ص ٢٨٣، عنان، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس، ص ٥٩.

(٤) ابن عذارى، للبيان، ج ٤، ص ٤٨، مجهول، الحل الموشية، ص ٦٢، ويثى ميراندا، عى بن يوسف وأعماله فى الاندلس، مجلة تطوان، العددان ٣ - ٤، ٥٨ - ١٩٥٩م، ص ١٥٦.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، نفس الصفحة.

Codera, Decadencia y De saparioin., P. 8.

Terrasso, Histoire du Maroc, vol. 2, P. 243

(٦) أشباح، تاريخ الاندلس، ص ١١٧، عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ٥٩.

وفي اعتقادي أن الأمير على لم يكن يستهدف من وراء رحلته الى الجزيرة الخضراء في مستهل امارته ، مجرد تنظيم أمور الاندلس وتفقد أحوالها والحصول على البيعة لنفسه فحسب ، وإنما استهدف بوجه خاص الوقوف على أحوال المسلمين والاطلاع على التقارير الواردة من القادة والولاة عن التفاصيل العسكرية سواء ما يتعلق بقوى المسلمين أو ما له علاقة بقوى النصرانية تمهيدا لتدبير الاجراءات التي تكفل للمرابطين التفوق العسكرى ومن تدعيم قواتهم وتعزيزها لمواجهة الدفع المسيحي في أملاك المسلمين ، ولعل في تقليد الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين القيادة العليا للجيش المرابطية في الاندلس ينهض في حد ذاته دليلا على هذا الرأي ويعبر في نفس الوقت عن صدق نوايا على بن يوسف في مواصلة الجهاد في أرض الاندلس .

وكانت أحوال الممالك المسيحية في أسبانيا آنذاك قد تغيرت كثيرا خلال السنوات الاخيرة من القرن الخامس الهجري (١١ م) ، كما أن ظروفها كانت متفاوتة تفاوتاً واضحاً من حيث القوة الحربية ، ففي ليون وقشتالة كان آخر العهد بالفونسو السادس ، اذ قدر له أن يموت في العام التالي وخلفته ابنته دونيا أراكه Urraca وبوغاته ضعفت الجبهة القشتالية نوعاً ما ، وكان يتولى كونتية البرتغال الفتية الاميرة دونيا تيزيزا ابنة هنري دي بورجونى الذى كان يشغل أعظم خطر على الاندلس من جانب الغرب ، أما الشمال الشرقى فكان يتولى أمرها ملكان قويا الجانب مرهوبان لدى رعيتهما طالما ضيقا على المسلمين في الاندلس هما الفونسو المحارب ملك أرغون ، ورامون بيرنجير الثالث صاحب قطلونية^(٧) ، وقد

(٧)

Codera, Decadencia. , P. 7.

مؤنس ، الثغر الأعلى الاندلس في عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١١ ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ م ، ص ١٠٦ ، ص ١٠٧ .

تميز كلاهما بتدينه العميق وعدائه للسافر للإسلام في الاندلس ورغبته
الشديدة في الاجهاز عليه .

في أوائل عام ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) أصدر علي بن يوسف أمره الى أخيه
أبى الطاهر تميم بأن يستأنف الجهاد ، فيبادر بغزو أراضي قشتالة ، ولم
يتم صدور هذا الامر عفويا ، فقد كان ثمة ما يبرره ويستدعيه ، ذلك أنه
لما مرض أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين في سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ،
وشاع أمر مرضه في الاندلس ، ظن الفونسو السادس ملك قشتالة ،
أن الفرصة مواتية لاستئناف غزواته في أراضي المسلمين واقتطاع قسم
من أملاكهم فأعد حملة من نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، توغلت في
أحواز اشبيلية ، وعاثت فيها ، فخرج الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى
والى اشبيلية لردهم ، ولحقت به عساكر غرناطة بقيادة عبد الله بن
الحاج ، وقد تمكنت قوات اشبيلية وغرناطة من مطاردة القشتاليين وقتلوا
منهم نحو ألف وخمسمائة مقاتل (٨) . ولما ارتقى علي بن يوسف دست
الامارة في أعقاب هذه الغزوة عمد بادىء ذى بدء الى التعرف على أحوال
الانصارى عن طريق التقارير التى قدمت اليه أثناء زيارته المفاجئة للجزيرة
الخصراء حيث وقف على تفاصيل الموقف العسكرى في اسبانيا ، وقرر أن
يبادرهم بالغزو ويهاجمهم في عقر دارهم .

وتنفيذا لأوامر علي بن يوسف خرج أبو الطاهر تميم من مدينة
غرناطة في العشر الاخيرة من رمضان سنة ٥٠١ هـ (أوائل مايو
١١٠٨ م) (٩) وكان يحدوه الامل في التغلب على قوات النصارى واثبات

(٨) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٤ ، ص ٤٥ ، عنان ، عصر المرابطين
والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٦٠ .
(٩) ميراندا ، وقعة أقيش ، ومصرع الأمير دون شابحة ، مجلة تطوان ، =

تدبرته وكفائته ، ويشير أشباخ أنه كان يضطرم رغبة في أن يدلل في الحرب على أنه لم يكن أقل صلاحية لولاية العرش المرابطي من أخيه لو شاء أبوه (١٠) . وبهذه الروح والمشاعر تقدم تميم في قواته الى مدينة جيان ، حيث أقام أياما أنتظارا للحشود الوافدة من قرطبة ، فلما واغته قوات قرطبة بقيادة واليها أبي عبد الله محمد بن أبي رنق ، زحف من جيان الى بياصة ، ومنها اتجه شمالا صوب أراضى قشتالة ، وأنضمت اليه في الطريق قوة مرابطية وفدت من مرسية يقودها واليها أبو عبد الله محمد بن عائشة (١١) كما واغته حشود بلنسية بقيادة واليها محمد بن فاطمة (١٢) ، ثم

= العدد الثاني ، ١٩٥٧ م ، ص ١٢٥ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ص ٦١ .

(١٠) أشباخ ، تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ص ١١٧ .
(١١) هو الامير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين ويعرف بابن عائشة ، وكان من كبار قواد المرابطين : عينه أبوه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قائدا على شرق الاندلس بعد أن عاث السيد القبيطور فيه فسادا ، فولى عمل مرسية واضطلع باقرار الاحوال في تلك المنطقة الشرقية . وفي عهد أخيه أمير المسلمين على قام ابن عائشة بعمليات حربية واسعة النطاق ، فشارك في وقعة اقلش Ucles ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م كما أسرع من مرسية لتجدة محمد بن الحاج عامل سرقسطة حينما حاصره الفونسو المحارب ملك أراجون سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) وقد انتهت هذه العملية بفك هذا الحصار وعودة ملك أرغون الى بلاده . كذلك اشترك ابن عائشة مع ابن الحاج في عرو برشلونة سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) وهي الحملة التي انتهت بهزيمة البورت وقد نجا منها ابن عائشة الا أن بصره اعتل بعدها ثم لم يلبث أن عمى فاستدعاه أخوه أمير المسلمين على ، وعين بدلا منه على مرسية أخاه ابراهيم بن يوسف . راجع (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٨ ، حاشية (١) نشر الدكتور محمود على مكي ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ٢ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ ، حاشية ٤ نشر الدكتور أحمد مختار العبادي) .

(١٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة وحيانا يسمى أبو عبد الله محمد بن فاطمة وهو أحد مشاهير القواد المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين وابنه على . اشترك مع القائد مزدلي بن سلكان في استنفاذ بلنسية من أيدي =

واصلت قوات المرابطين تقدمهما في أراضي قشتالة ، الى أن اعترضتهم قلعة اقليش (أقليش) الحصينة^(١٣) الواقعة شرقي طليطلة على طريق

المسيحيين سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، ثم اشترك بعد ذلك مع أبي الحسن على بن الحاج قائد جيوش المرابطين في منطقة شرق الاندلس في مهاجمة جيوش ملك قشتالة الفونسو السادس حينما حاول هذا الاخير حصار مدينة سالم Medinaceli ، فقام القائدان معا بغزو طليطلة وطلبيرة سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) ولقد استشهد في هذه الغزوة القائد أبو الحسن على بن الحاج فعهد يوسف بن تاشفين الى ابن فاطمة بأن يخلف ابن الحاج في منصبه العسكري ، ثم لم يلبث أن ولاه في نفس السنة على بلنسية بدلا من الامير مزدلي الذي نقل الى تلمسان . وعندما تولى امير المسلمين على بن يوسف الحكم بعد وفاة بيه سنة ٥٠٠ هـ ، أقر ابن فاطمة على منصبه . وفي رمضان سنة ٥٠١ هـ (مايو ١١٠٨ م) اشترك ابن فاطمة بصفته عاملا على بلنسية مع القائد ابن عائشة عامل مرسية في هذه الغزوة التي قادها تميم بن يوسف بن تاشفين ضد جيوش قشتالة ، وهي المعروفة بوقعة اقليش التي هزم فيها المسيحيون وقتل قوادهم السبعة بما فيهم الامير سانجو Sancho الابن الوحيد لملك قشتالة الفونسو السادس واستمر ابن فاطمة واليا على بلنسية الى سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) التي عين فيها عاملا على غرناطة ، الا أنه لم يبق في هذه الولاية أكثر من سنة ، عين بعدها عاملا على مدينة فاس بالمغرب سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) وبعد عدة سنوات عاد ابن فاطمة الى الاندلس كعامل على اشبيلية. بعد عزل واليها يحيى بن سير بن أبي بكر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) ويظل على حكم هذه المدينة الى أن مات في رمضان سنة ٥١١ هـ (يناير ١١١٨ م) .

راجع (ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٨ حاشية ٢ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٢ حاشية ٢) .

(١٣) اقليش مدينة حصينة محدثة هي قاعدة كورة شنتبرية تقع شرقي طليطلة ، وقد بناها الفتح بن موسى بن ذي النون وفيها كانت ثورته في سنة ١٦٠ هـ ، وكانت قاعدة ومعقلا لبني ذي النون قبل انتقالهم الى طليطلة ، ولما سقطت طليطلة في ايدي القشتاليين سنة ٤٧٨ هـ وانتهى حكم بني ذي النون ، استولى القشتاليون على اقليش التي أصبحت من أمنع معاقل القشتاليين . عن أفليش انظر : الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٨ ،

12 - pp. 10 Codera ، ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٩٥٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦١ ، شعيرة ، المرابطون تاريخهم السياسي ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٩ .

المسلمين الى بلنسية وسرقسطة^(١٤) ، وكن وصول قوات تميم يوم الاربعاء الرابع عشر من شوال سنة ٥٠١ هـ (مايو ١١٠٨ م) ، فبادرت على الفور باحكام الحصار حولها ثم شنت هجوما واسع النطاق عليها في اليوم التالي ، وتمكنت من اقتحامها ، ولم تتمكن حاميتها النصرانية الثابت طويلا أمام شدة هجمات المرابطين ، فتحصنوا بقصبة الحصن ، فبلغ خبرهم الى الفونسو السادس فاستعد للخروج الى اغاثة بلده ، وسارع المرابطون بعد دخولهم المدينة بهدم صروحها وانضم اليهم جماعة المسلمين أهل اقليش ، فأفصوا اليهم بأحوال المدينة وأسرار دفاعاتها وأسوارها وحصونها^(١٥) .

وفي هذه الاثناء كان الفونسو السادس يتأهب لاستنقاذ اقليش ، فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده شانجه^(١٦) عوضا عنه قائدا للجيش القشتالي ، على الرغم من كونه يومئذ صبيا في الحادية عشرة من عمره ، لرفع الروح المعنوية في عسكر قشتالة لاسيما أن الجيش الاسلامي كان يقوده الامير تميم ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فكان ضروريا أن يتقدم الجيش القشتالي الامير شانجه ابن الفونسو السادس ملك قشتالة^(١٧) ، فاستجاب الملك لرأيها وسير ولده شانجه في جيوش كثيفة

(١٤) مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسي ، ص ١٠٨ .

(١٥) من رسالة الامير تميم الى أخيه علي بن يوسف عن معركة اقليش ، وقد أوردتها ميراندا في مقاله عن وقعة اقليش ، ص ١٢٧ .

(١٦) عن شانجه راجع مقال ليفي بروفنسال في الاسلام في المغرب والاندلسي ، ص ١٥١ - ١٦٤ .

(١٧) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ ، السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، اشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٧ ، مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١٠٨ ، وفي مغزى ارسال الامير شانجه بن الفونسو السادس على رأس قوات قشتالة لنجدة حصن اقليش يقول ابن أبي زرع « فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضا منه فيكون مقابلا لتميم ابن ملك المسلمين وشانجه ابن ملك الروم » . انظر ابن أبي زرع ، ص ١١١ .

من زعماء قشتالة وأنجادهم ، يتراوح عدده طبقا للروايات الاسلامية فيما بين سبعة آلاف فارس^(١٨) وعشرة آلاف فارس^(١٩) ، فيهم بعض كبار القادة والكونتات نذكر منهم البرهانس^(٢٠) ، والقومس غرسية أردونيث مؤدب شانجة ولى العهد ، ومعهما قائد قلعة النصور ، وقائد قلعة عبد السلام ، وغيرهم من كبار القادة القشتاليين . ثم وردت أنباء تقدم الجيش القشتالى نحو اقليش الى معسكر المسلمين ، فأخبر به تميم ، وفكر فى رفع الحصار عن الحصن حتى لا يعرض قواته لمعركة قد تنتهى بالهزيمة سيما وقد بولغ فى تقدير كثافة جيش القشتاليين ، فأشار اليه قائداه عبد الله بن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهما من قواد لمتونة بالمقام ومواصلة الحصار وشجعوه على الصمود وهونوا عليه أمرهم ، ويذكر صاحب روض القرطاس أنهم قالوا له : « لا تخف فانما قدموا فى ثلاثة آلاف فارس وبيننا وبينهم مسافة »^(٢١) . وبينما يؤكد صاحب روض القرطاس أن تميم عندما تبين عظم عسكر القشتالين أراد الفرار وأحجم عن قتالهم ، فلم يجد سبيلا للفرار ولا للردع مخلصا ، وأنه اضطر الى خوض المعركة عندما صمم قواد لمتونة على لقاء العدو ومناجزته ، جاء فى رسالة تميم الى أخيه على أن فتى مسلما من بين قوات قشتالة كانوا قد اسروه فى احدى المعارك ، فر من المعسكر القشتالى ، وأفضى الى الامير

(١٨) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

(١٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦ .

(٢٠) هو القائد الاسباني المعروف Alvar Hanez ابن أخى السيد

القنبيطور وكان من كبار قواد الملك الفونسو السادس ملك قشتالة وليون .

راجع (ابن القطان ، نظم الجمان ، حاشية ٢ ، ص ٦ ، ص ٧ ، ابن

الكردبوس ، الاكتفا ، حاشية ٣ ، ص ٨٦) .

(٢١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ .

تميم بتفاصيل دقيقة عن القشتاليين ونقاط الضعف والقوة فيهم وأن تميم نتيجة لذلك صمم على خوض المعركة (٢٣) .

وأيا ما كان الامر فقد ائتبك العسكران فجر يوم الجمعة السادس عشر من شوال سنة ٥٠١ هـ (٢٩ مايو ١١٠٨ م) ، وكان تنظيم الجيش الاسلامي على النحو التالي : أهل قرطبة بقيادة ابن أبي الرنق في المقدمة ، وأهل شرق الاندلس في الجناحين ، وأهل غرناطة بقيادة تميم في انقلب (٢٣) . . تلقت قوات قرطبة الصدمة الاولى ، فتراجع قائدهم ابن أبي الرنق ، وعلى أثر ذلك بادرت قوات مرسية وبلنسية بالهجوم كما تقدم تميم في قواته الى قلب المعركة ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ذكر صاحب روض القرطاس أنه لم يسمع بمثلها ، انتهت بهزيمة الجيش القشتالي ومصرع الامير شانجة (٢٤) ، وقتل في المعركة من القشتاليين وفقا لرواية صاحب روض القرطاس ثلاثة وعشرون ألفا ونيف (٢٥) .

ولدينا روايتان حول مقتل الامير شانجة الاولى رواية ابن القطان يؤكد فيها أن شانجة أقلت من قلب المعركة في ثمانية من النصارى منهم غوسية أردونيث ، ولجأ معهم الى حصن باشون وكان فيه رغبة لهم من المسلمين ، فاخترأ عندهم رجاء أن يسلموا من القتل ، فلحق بهم المسلمون وقتلهم وقتل معهم شانجة ابن الفونسو السادس (٢٦) . أما الرواية

(٢٢) رسالة الامير تميم الى أخيه على بن يوسف ، أنظر ميراندا ، وقعة اقليش ، ص ١٢٨ .

(٢٣) ميراندا ، وقعة اقليش ، ص ١٢٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٤ .

(٢٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٧ ، ص ٨ .

(٢٥) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ .

(٢٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٩ ، وأنظر أيضا عنان ، عصر المرابطين ، ص ٦٥ .

الثانية فتعتمد على الروايات النصرانية ، وتؤكد أن شانجة عندما أشتد القتال ازدلف الى قلب المعركة الى جانب مؤدبه القمط أردونش ، فلمحه بعض الجند المسلمين ، فأحاطوا به بغية قتله ، فبادر القمط أردونش بالدفاع عنه ، فلم يغن دفاعه شيئا فقد أصيب شنجة بطعنة قاتلة ، فسقط من فوق جواده ، ثم تلقى أردونش طعنة فسقط الى جانبه قتيلا (٢٧) .

كذلك قتل في هذه الواقعة وفقا للروايات النصرانية عدد كبير من النصارى أبرزهم سبعة أقماط (كونتات) عرفت بهم الموقعة فسميت أيضا بوقعة الاقماط السبعة (٢٨) . وتقدر الرواية الاسلامية خسائر القشتاليين بثلاث وعشرين ألف قتيل (٢٩) ، وتقاربها الرواية النصرانية فتقدر هذه الخسائر بعشرين ألفا (٣٠) . وأعتقد أن هذا الرقم لا يمثل العدد الحقيقي لخسائر الجانب القشتالي استنادا الى رسالة تميم الى أخيه على بن يوسف ، وفيها يحدد عدد قتلى النصارى بنيف وثلاثة آلاف رجل (٣١) . أما عن خسائر المسلمين في اقليش فغير معروفة على وجه الدقة الا أننا نستنتج أنها كانت فادحة استنادا الى ما أورده صاحب روض القرطاس الذي يقول : « واستشهد فيها (اقليش) جماعة من المسلمين رحمهم الله » (٣٢) ،

(٢٧) أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٨ .

(٢٨)

Codera, Decadencia. , PP, 8-9; Terrasse, Histoire.,du Maroc vol. , 11, P. 243.

(٢٩) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ .

(٣٠) Lafuente (M) : Historia genral de Espana,

Lafuente (M) : Historia general de Espana, vol , 111 . , P. 249.

أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٨ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٦٥ .

(٣١) رسالة الامير تميم الى أخيه على بن يوسف ، أنظر ويثي ميراندا ،

وقعة اقليش ، ص ١٣٠ .

(٣٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ .

ولعل ذلك كان سببا حمل تميم على أن يحجم عن مطاردة فلول الجيش
القشتالي والتوغل في أراضي النصارى •

غادر الأمير أبو الطاهر تميم اقليش الى غرناطة ، وكتب الى أخيه
على بن يوسف بتفاصيل انتصاره وترك لابن عائشة وابن فاطمة مهمة
مواصلة حصار قلعة اقليش ، فلبثا على حصارها فترة ، ولما رأيا مناعتها
تظاهر بالانسحاب ، وتراجعا في قواتهما قليلا ورتبا الكمائن ، فظن
القشتاليون أن المرابطين قد يئسوا من الحصار ، فخرجوا من القلعة
مطمئنين ، فانقض عليهم المسلمون ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسرا ، وتمكنوا
من الاستيلاء على القلعة (٣٣) •

وعلى الرغم من أن اقليش لا تصل في حجمها الى حجم الزلافة الا
أنه ترتب عليها ثلاث نتائج هامة نجملها فيما يلي :

١ — أنها دعمت سلطان المرابطين على الاندلس بعد أن تعرض
للاحتراز منذ أواخر عصر يوسف بن تاشفين •

٢ — أنها أوقفت حركة الاسترداد المسيحي لفترة قصيرة لاسيما
أن نتيجة المعركة لصالح المسلمين ومصرع الأمير شانجة كانا سببا في
وفاة الفونسو السادس بعدها بنحو عام (٢٩ ثوال ٥٠٢ هـ / ٣ يونيو
١١٠٩ م) ، ويذكر صاحب روض القرطاس أنه « اغتم لقتل ولده ودخول
باده وهلاك عسكره فمرض بالفقعة ومات لعشرين يوما من الكائنة (٣٤) •

(٣٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٩ ، ميراندا ، وقعة اقليش ، ص
١٢٤ ، غنان ، عصر المرابطين ، ص ٦٦ •
(٣٤) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ١١١ •

٣ — ترتب على هزيمة القشتاليين في اقليش سقوط كثير من الحصون والقلاع القشتالية في أيدي المرابطين وأهم هذه الحصون والمدن مدينتا قـونكة ووبذه في نفس السنة ، كما تمكن المرابطون في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) على أثر جواز على بن يوسف الى الاندلس من تخريب منطقة طليطلة ، والاستيلاء على مدينتي مجريط ووادي الحجاره (٣٤) .

ب) استرجاع مجريط ووادي الحجاره سنة ٥٠٣ هـ :

كانت حملة اقليش فاتحة لسلسلة من الحملات وجهها المرابطون لغزو أراضي قشتالة ، فلم يكد يمضى عام وشهرين على موقعة اقليش ، حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف الزقاق من سبته الى الاندلس برسم الجهاد في الخامس عشر من المحرم سنة ٥٠٣ هـ (أغسطس ١١٠٩ م) (٣٦) ، في جيوش كثيفة تريد على مائة ألف فارس (٣٧) ، واتجه أمير المسلمين الى غرناطة قاعدة الحكم المرابطي في الاندلس ، فمكث بها أياما ريثما تلاحقت حشوده ومتطوعته وجنوده من مختلف أنحاء الاندلس (٣٨) ، فلما تكاملت حشوده تقدم الى قرطبة ، فأقام بها بضعة أيام (٣٩) وقيل شهرا (٤٠) ، يضع خططه ويستكمل تعبئة قواته ، ثم غادرها

(٣٥) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٢ .

(٣٦) ابن عذارى ، الابيان ، ج ٤ ، ص ٥٢ ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، مجهول ، الطل الموشية ، ص ٦٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٨٧ ، ابن الكردبوس الاكتفاء ، ص ١١٦ ، ويذكر ويثي ميراندا أن خروج على بن يوسف من مراكش كان في النصف الثاني من سنة ٥٠٢ هـ ، أنظر ميراندا ، على بن يوسف وأعماله في الاندلس ، مجلة تطوان ، العددان ٤٠٣ ، ١٩٥٩/٥٨ ، ص ١٥٨ .

(٣٧) ابن أبي زرع ، نفسه .

(٣٨) ابن عذارى ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣٩) ابن عذارى ، نفسه .

(٤٠) ابن أبي زرع ، نفسه .

الى طلبيرة^(٤١) الواقعة على نهر التاجة غربى طليطلة ، لتضييق الحصار على طليطلة من الغرب^(٤٢) قضى المسلمون الليل فى مراقبة أسوار المدينة، وفى الصباح دارت معركة عنيفة بين المرابطين والقشتاليين وقد دافع القشتاليون عن مدينتهم دفاعا مستميتا ، وقد حاول المسلمون الوصول الى أسوارها ، غير أن مجرى وادى تاجه المحيط بأسوارها ويشكل خندقا طبيعيا يحميها حال دون وصول المسلمين الى الاسوار ومع طول الحصار وتعدد الاشتباكات تمكن المسلمون من اقتحام المدينة عنوة ، وقتلوا معظم سكانها النصرارى واستنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، ولجأت جماعة من النصرارى الى قصبة المدينة ، ثم تسربوا منها ليلا ، فألقوا بأنفسهم فى النهر ناجين بأنفسهم^(٤٣) ، فاستولى المسلمون على القصبة ، وانتهبوا سائر ما فى المدينة من الثياب والمائشية والسلاح، وعلى أثر ذلك بادر على بن يوسف بتطهير المسجد الجامع بطلبيرة ، وندب للمدينة واليا من قبله ، وترك عليها حامية مرابطية قوية^(٤٤) وما أن تم لعلى بن يوسف انجاز هذه الاعمال حتى زحف نحو مدينة طليطلة ، فعسكر بجوارها ثلاثة أيام^(٤٥) وقيل شهرا^(٤٦) ، ثم اقتحمت قواته منيتها

(٤١) طلبيرة مدينة حصينة تقع على نهر تاجة وقد وصفها الحميرى بقوله : « وهى مدينة كبيرة وقلعتها أرفع للقلاع حصنا ومدينتها أشرف البلاد حسنا ، وهو بلد واسع الساحة ، كثير المنافع ، به أسواق وديار حسنة ، ودينها وبين طليطلة سبعون ميلا » .

أنظر الحميرى ، ص ١٢٧ ، ص ١٢٨ .

(٤٢) ميراندا ، على بن يوسف وأعماله فى الانحلال ، ص ١٥٧ .

(٤٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ ، ص ١٤ ، ميراندا ، على بن

يوسف ، ص ١٥٨ .

(٤٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

(٤٥) ابن عذارى ، نفسه .

(٤٦) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٢ .

الخضراء الواقعة على نهر التاجه فاستولوا على بعض القلاع والحصون الصغيرة المتناثرة ، ثم استولوا على مجريط ووادي الحجارة^(٤٧) ، ومن الجدير بالذكر أن الحصار الذي أحكمه المرابطون على طليطلة أخفق لحصانتها ومنعتها وقوة الحامية القشتالية التي تولت الدفاع عنها وقد حمل ذلك الأمير على رفع الحصار ومغادرة أرض طليطلة إلى قرطبة ومنها إلى مراكش^(٤٨) .

ج (حملة الأمير مزدلى على طليطلة ووادي الحجارة عامي ٥٠٧ ، ٥٠٨ هـ
واصل المرابطون توجيه حملاتهم سنويا ضد مملكة قشتالة ورغم أن هذه الحملات لم تكن تكفل دائما بالنصر ، إلا أن المرابطين كانوا يملكون فيها أحسن بلاء . ومن هذه الحملات ، الحملة التي قادها الأمير أبي محمد مزدلى^(٤٩) في عام ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) لغزو طليطلة

(٤٧) ابن أبي زرع ، نفسه ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٦ ،
غان ، عصر المرابطين ، ص ٦٨ .

(٤٨) ابن عذارى ، نفسه ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ ، ابن
الكردبوس المصدر السابق ، ص ١١٦ ، غان ، المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٤٩) هو الأمير أبو محمد مزدلى بن سلنكان أو نيلكان ترجوت ابن عم
يوسف بن تاشفين وأحد كبار قواده . وقد جرت العادة أن يلقب أفراد الأسرة
الحاكمة على أيام المرابطين بالأمراء . وقد ظهر اسم مزدلى أول الامر بالمغرب
عندما استولى على إقليم ملوية في صفر سنة ٤٦٥ هـ (أكتوبر سنة ١٠٧٣ م)
ثم تلمسان في المحرم سنة ٤٦٨ هـ (أغسطس ١٠٧٥ م) أما في الاندلس فهو
الذي استرجع للإسلام مدينة بلنسية في رجب سنة ٤٩٥ هـ (أغسطس
١١٠٢ م) من أيدي جنود السيد القنبيطور بعد وفاته . وقد تقلب مزدلى بعد
ذلك في مختلف مناصب القيادة والولاية في الاندلس مثل ولايات غرناطة
وقرطبة والمرية سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ - ١١١٢ م) ، كذلك قاد حملات عديدة
ضد المسيحيين الاسبان مثل حملته على برشلونة سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ،
وحملته على طليطلة سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) التي استولى فيها على بعض
حصونها وضرب نواحيها . غير أن الأمير مزدلى لم يلبث أن استشهد في
السنة التالية في معركة أخرى مع القشتاليين بالقرب من حصن مستقا =

ووادى الحجاره ، وكان على بن يوسف قد أسند الى مزدلى ولاية قرطبة
وغرناطة والمرية خلفا لاختيه أبى الطاهر تميم الذى أسندت اليه ولاية
مدينة تلمسان بالمغرب^(٥٠) . فخرج مزدلى من مراكش الى مقر ولايته
بالاندلس فوصل الى مدينة اشبيلية ، حيث أمده الامير سير بن أبى بكر
والى المدينة بعسكر ضخم من أجناد المرابطين والحشم وغيرهم ، كما
انضم اليه عسكر آخر قادم من قرطبة وآخر من غرناطة فضلا عن كثير
من المتطوعة^(٥١) ، فاتجه مزدلى بحشوده صوب أراضى قشتالة وأخذ
يشن الغارات فى أراضيتها ، وتمكن من افتتاح حصن أرجنة أو أرلبة
oreja وقتل حاميته وسبى الكثير من النساء والاطفال^(٥٢) ،
ثم قصد المسلمون الى مدينة طليطلة عاصمة قشتالة ، وأحكموا حولها
الحصار ، فلما ترامت أنباء الغزوة الرابطية الى البارهمسانس
Alvar Hzone القائد القشتالى الكبير ، أسرع فى عشرة آلاف
فارس لدافعة المرابطين فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة تحت أسوار
طليطلة ، ولكنه لم يستطع أن يصمد طويلا أمام المرابطين ، فاضطر الى
الفرار ليلا بعد أن فقد نحو سبعمئة فارس من فرسانه وان كان قد
وفق فى حمل المرابطين على رفع الحصار عن طليطلة ، ثم عاد مزدلى
ظافرا الى قرطبة^(٥٣) . ثم قام مزدلى بحملة حربية جديدة فى منطقة

== Mastana . بنراحي طليطلة سنة ٥٠٨ هـ (فبراير ١١١٥ م) وقد خلفه

ولداه عبد الله ومحمد على حكم غرناطة وقرطبة .

• راجع (ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ حاشية ٤) .

(٥٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٦ ، ميراندا ، على بن يوسف ،

ص ١٦٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧١ .

(٥١) ابن عذارى ، المصنوع السابق ، ص ٥٧ .

(٥٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ ، عنان ، المرجع

السابق ، ص ٧١ .

(٥٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٨ ، ابن أبى زرع ، روض

القرطاس ، ص ١١٣ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٢١ ، عنان ، عصر

المرابطين ، ص ٧١ .

وادي الحجارة ، عندما بلغه أن ابن الزند غرسييس حسب تسمية ابن أبي زرع هو الكونت رودريجو نوينيث Rodrigo Nunez صاحب وادي الحجارة قام بحصار مدينة سالم ، فاتجه مزدلى اليه ، فلما علم ابن الزند غرسييس بتحرك مزدلى صوبه ، ولى هاربا ، فاستولى مزدلى على محلته وأمتعته^(٥٤) . وفي العام التالي ٥٠٨ هـ (١١١٥ م) توفي الامير مزدلى أثناء غزوة قام بها ضد القشتاليين^(٥٥) . وبذلك انتهت قصد حياة قائدان من أعظم قادة المرابطين وكان الامير سير بن أبي بكر والى اشبيلية وأحد قادة المرابطين العظام قد توفي هو الآخر قبل ذلك بعهد قصير في جمادى الاولى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) ، ويكفي الاول فخرا وهو الامير مزدلى أنه استرجع مدينة بلنسية في عام ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) من أيدي قوات السيد الكنيطور ، وأما الثاني فقد أظهر براعته العسكرية في وقعة الزلافة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) كما استرد قواعد الغرب الكبرى من أيدي البرتغاليين في سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) . وقد خلف مزدلى في ولاية قرطبة ولده محمد وولده عبد الله في ولاية غرناطة ، أما محمد فقد استشهد في معركة مع القوات القشتالية حدثت بالقرب من قرطبة بعد ثلاثة أشهر من توليه امارة قرطبة .

وتفصيل ذلك أن الامير محمد بن مزدلى والى قرطبة خرج في طليعة عام ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) في عسكره لرد قوات قشتالة التي أغارت على أحواز قرطبة واشتبكت قواته معها في قتال عنيف انتهى بمصرع محمد بن مزدلى الذي سقط شهيدا في ميدان المعركة واستشهد معه فيها

(٥٤) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، عنان ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٥٥) ابن أبي زرع ، نفسه .

شخصيات مرابطة بارزة نذكر من بينها الامير أبا اسحق ابن دانيية ، والامير أبا بكر بن واسينو^(٥٦) . ولم يسكت الامير على بن يوسف على هذه الهزيمة ، فقد أزعجه نبأ الهزيمة النكراء التي منيت بها جيوشه كما أسف لاستشهاد قاداته الكبار ، وكان عليه أن يتحرك سريعا فبادر بندب ابن عمه الامير أبى بكر يحيى بن تاشفين لولاية قرطبة ، وعهد اليه بمهاجمة قوات قشتالة ، وهكذا لم يكذب يحيى يصل الى قرطبة ويستقر بها حتى شرع فى حشد قواته واعداد العدة للغزو ، ولما تحقق له ذلك خرج من قرطبة على رأس قوة كبيرة من عسكر المرابطين صوب مدينة بياسة وانضم اليه عبد الله بن مزدلى والى غرناطة فى قواته ، وبالقرب من بياسة تم الاشتباك بين المرابطين والقشتاليين يوم ٢٨ جمادى الثانية سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) وانتهى هذا الاشتباك بهزيمة أخرى منى بها المرابطون^(٥٧) .

د (دور تاشفين بن على فى الصراع المرابطى القشتالى :

بادر الامير تاشفين بن على بن يوسف بالجواز الى الاندلس بمجرد أن صدر اليه أمر أبيه بتقلد قيادة الجيوش فى الاندلس عقب وفاة الامير تميم بن يوسف سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، فعبر الزقاق فى قوة قوامها خمسة آلاف فارس ، ومنذ أن أسندت اليه قيادة جيوش المرابطين وهو يبدى نشاطا عسكريا ضد مملكة قشتالة لم تشهد الاندلس فى عهد سلفه ، ففى هذه السنة يذكر صاحب روض القرطاس أنه خرج غازيا الى

(٥٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦١ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٢ .
(٥٧) ابن عذارى ، نفسه ، ميراندا ، على بن يوسف واعماله فى الاندلس ، ص ١٦٦ ، ص ١٦٧ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

أراضي طليطلة ، فعث في نواحيها ، واقتحم حصنين من حصونها ، ثم واصل سيره غربا فاشتبك مع القشتاليين في موضع يعرف بفحص الضباب ، فهزمهم هزيمة شديدة ، وافتتح ثلاثين حصنا من حصون هذه المنطقة وكتب الى أبيه بالفتح^(٥٨) وفي عام ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) قام القشتاليون بغزوة واسعة النطاق في بلاد الاندلس وتوغلوا حتى وصلوا الى حصن الكرس على مقربة من قلعة رباح Calatrava فتصدى لهم تاشفين وتمكن من ردهم على أعقابهم^(٥٩) . ولكن عندما سير تاشفين جيش اشبيلية سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) بقيادة واليها واجدى بن عمر بن سير اللمتونى لغزو طليطلة ، فاكتسحها وعاد محملا بالغنائم ، فتبعه زهاء خمسين فارسا قشتاليا وقد حاول جنوده اقناعه بارسال بعضهم للتخلص من هؤلاء القشتاليين ، الا أنه استهان بهم ، فلحق به عدد آخر من القشتاليين فقتل له بددهم قبل تجمعهم ولكنه أعرض عن ذلك ، فتكامل للعدو زهاء ثلاثمائة فارس ، حملوا على الجيش المرابطى وألحقوا به الهزيمة ، وقتلوا وأسروا الكثير منه ، فلما علم الامير على بن يوسف بخبر هذه الواقعة ، ألزم واجدى بن عمر المسئول عن تلك الهزيمة ، بدفع فدية الاسرى ، وأمر بعزله عن ولاية اشبيلية وولى مكانه الامير أبا زكريا يحيى بن على ابن الحاج^(٦٠) وفي عام ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ، خرج الامير تاشفين في شهر رمضان بجيش غرناطة ومطوعتها وانضم اليه عسكر قردلبة ، فاتجه بهذه القوات الى حصن السكة Azoca من عمل طليطلة وكان القشتاليون قد جعلوا هذا الحصن مركزا للاغارة على المسلمين ،

(٥٨) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ .

٢ (٥٩) عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٣ .

(٦٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٠ ، عنان ، عصر المرابطين ،

ص ١٣٣ .

ووضعوها على قيادته أحد كبار قادتهم ويعرف باسم تليو فرند
 Telio Firnande فحاصر تاشفين الحصن وتمكن من افتتاحه
 عنوة ، وقتل من كان به ، وأسر قائده فرند ومن كان برفقته من الفرسان
 ثم عاد تاشفين ظافرا الى غرناطة^(٦١) . وفي نفس العام خرج القشتاليون
 في غزوة صوب قرطبة ، فاستغاثوا إليها عبد الله بن تينغمر بالأمير
 تاشفين ، فبادر إليه بقواته ، فلما علم القشتاليون بمقدم تاشفين
 انسحبوا دون أن يشتبكوا معه في قتال^(٦٢) . وفي أوائل هذه السنة غزا
 ينتان بن علي بن يوسف بن تاشفين والي بلنسية بعد محمد بن يوسف بن
 يدر أراضى قشتالة فتصدى له القشتاليون بقيادة القومس جاستون دي
 بيارن المعروف في الرواية العربية باسم غشتون ولكن ينتان تمكن من
 التغلب على القشتالين وسقط قائدهم حريعا وسيق رأسه الى غرناطة
 وطيف بها على رمح ، ثم حملت الى أمير المسلمين بمراكش ، فطيف بها
 هنالك أيضا^(٦٣) .

وفي ربيع الأول عام ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) ، بلغ تاشفين أن القشتاليين
 قد خرجوا من طليطلة في حملة موجهة نحو قرطبة ، فاستنفر تاشفين
 جيوشه وبادر بالسير نحو قرطبة ، ثم انه نهض الى لقاء العدو في قواته
 الخفيفة ، وترك أثقاله بحصن أرجونة . وكان القشتاليون قد اكتسحوا
 حصن شنت اشيتيين Son Esteban الواقع بالقرب من مدينة
 جيان ، واستولوا عليه ، كما اجتاحوا الوادي الأحمر ، فبادر للقائهم

(٦١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٨٢ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ،
 ص ٤٥١ .

(٦٢) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٨٠ ، ص ٨١ .

(٦٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٨١ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ،
 ص ٨١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٤ .

وملاحقتهم الى أن أدركهم في قرية براءة واشتبك معهم في قتال عنيف انتهى بهزيمة القشتاليين وأتى القتل على آخرهم^(٦٤) ، واستولى المسلمون على أمتعتهم وأسلحتهم ، وسار تاشفين بالاسرى والغنائم الى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة ، فأصلح أحوالها وحصن أسوارها ، وترك الاسرى لدى أهلها ليفقدوا بهم من أرادوا من أسراهم ، ثم عاد ظافرا الى غرناطة^(٦٥) .

وفي أواخر عام ٥٢٦ هـ ، خرج جيش من القشتاليين بقيادة القومس ردريجو جونثالث Don, Rodrigo Gonzalez do Lara - أغار على أراضي اشبيلية من جهة حصن القليعة Alcalea وعاثوا فيها ، ثم اتجهوا الى الشرف Aljarafe وهو السهل المحيط باشبيلية من جهتها الغربية ، وقتلوا من سكانه أعدادا كبيرة ، فخرج عمر بن الحاج اللمتونى والى اشبيلية على غير أهبة للقاء القشتاليين وعسكر على ضفة نهر الوادى الكبير ، ثم بعث بعض خياله الى الضفة الاخرى ، فتمكنوا من أسر عدد من القشتاليين ، فأقبلوا بهم الى ابن الحاج ، فأصدر هذا أمره بضرب أعناقهم في مشهد من اخوانهم فى الضفة الاخرى ، فاستنار بذلك مشاعرهم ودفعهم الى عبور النهر لمقاتلة المسلمين ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة ، استشهد فيها عمر بن الحاج والى اشبيلية ومعظم عساكره ، وعندئذ تحصن الاهالى داخل أسوار مدينتهم ، واستغل القشتاليون فرصة انتصارهم على عسكر المرابطين وعاثوا فسادا فى نواحي اشبيلية ، فخرج تاشفين بقواته الى اشبيلية ومعه ابن قنونة والى قرطبة ، فلما

(٦٤) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج ١ ، ص ٤٥١ .
(٦٥) ابن عذارى . المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ ، ابن الخطيب ،
المصدر السابق ، ص ٤٥١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٤ ، ص ١٣٥ .

أدركهم فروا أمامه ، فأخذ يطاردهم وظهر وادى اشبيلية منهم ، واتفق أن التقى بقوة من النصارى كانوا قد أغاروا على بطليوس وباجة ويابرة ، وأوقع بهم الززيمة وظفر بغنائم هائلة^(٦٦) ، وبينما هو فى طريق العودة اذ أقبلت طلائعه منذرة بقدوم القشتاليين ومعهم غنائم اشبيلية قد ملأت الارض لكثرتها ، فاشتبك مهم فى قتال عنيف انتهى بهزيمة العدو واستئصال شأفته^(٦٧) .

وتروى مدونة الفونسو السابع أنه فى عام ١١٣٣ م (٥٢٧ هـ) سار الفونسو ريمونديس ملك قشتالة المعروف بالسليطين ومعه حليفه أبو جعفر أحمد سيف الدولة المستنصر بالله بن هود^(٦٨) فى جيشين فى آن واحد لغزو أراضى المسلمين ، وعبر الجيشان جبال الشارات (سيرامورينا) واجتمعا بعد ١٥ يوما فى موضع يقع بالقرب من قرطبة ، وكان الفصل فصل الحصاد ، فأمر الفونسو ريمونديس باحراق الزروع وانتسافها ومضوا يخربون القرى والضياع ويهدمون المساجد ويحرقون المصاحف ويقتلون الرجال ويسبون النساء ، وواصل القشتاليون عيثهم فى المناطق الممتدة ما بين قرطبة واشبيلية ومن هنالك اتجه الفونسو ريمونديس الى شريش فبث الخراب فى عمرانها ثم قفل عائدا الى طليطلة^(٦٩) .

(٦٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥١ ، أشباج ، تاريخ الاندلس ص ١٧٢ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ .
(٦٧) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٣ ، وراجع أيضا ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ ، ص ١٩٩ .
(٦٨) هو ابن عماد الدولة عبد الملك بن هود أمير سرقسطة ، وكان المستنصر هذا قد تنازل عن حصن روضة الحصين ملك قشتالة .

(٦٩)

Lafuente, (M) : Historia general do Espana, vol , 111. , P. 249 .

ولم يكف القشتاليون عن توجيه حملاتهم على الأندلس ، ففي العام التالي جهز الفونسو ريمونديس ملك قشتالة جيشا كثيفا قوامه ألف من كمامة النصارى وأنجدهم ووجهة ناحية بطليوس وهناك شن الغارة على أراضيها ودمر نواحيها ، فأسرع تاشفين بالخروج من اشبيلية في جيشه كما أرسل العيون لمراقبة تحركات العدو ، ثم سار الى موضع قريب من الزلاقة يقع في شرقي بطليوس وفي هذا الموضع الذي شهد أول انتصار للمرابطين على القشتاليين في سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) اشتبك الجانبان في قتال عنيف حدث في جمادى الاولى سنة ٥٢٨ هـ (مارس ١١٣٤ م) ، انصرفت عن هزيمة القشتاليين وأنهيار صفوفهم ولم ينقذهم من سيوف المرابطين سوى سواد الليل فولوا الأدبار وعاد تاشفين بعد هذا الانتصار المؤزر ظافرا الى قرطبة ومنها الى غرناطة (٧٠) .

وفي شهر ذي الحجة من نفس العام (٥٢٨ هـ) ، وفي أعقاب معركة أفراغة التي دارت في شهر رمضان من نفس العام ، خرج تاشفين بجيش غرناطة وقرطبة ولفيف من المجاهدين من الفرسان والمشاة لغزو أراضي قشتالة في غرب الأندلس واجتمعت اليه قوات اشبيلية بقيادة الأمير أبي يعقوب ينتان بن علي في فحص الريحانة وهو موضع قريب من اشبيلية ، وفي موضع البكار فاجأت فرقة قشتالية قوامها ألفي مقاتل قوات المرابطين بالهجوم بعد حلول الظلام واخترقت صفوفهم وأثارت الرعب والهلع في قلوبهم ، فعلا صياحهم ، وفي أثناء هذه اللحظات المملوءة بالاضطراب هاجمت جماعة من القشتاليين خيمة الأمير تاشفين ، فأشار عليه خاصته بالفرار ، فرفض ، فأحرق به بعض فرسان الأندلس وأبطال المرابطين

(٧٠) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٩ ، مجهول ، الحلل الموسية ، ص ٩٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٣ ، أشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ١٧٣ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٨ ، ص ١٣٩ .

وحالوا بينه وبين القشتاليين ، ودارت بين الفريقين معركة عنيفة والامير تاشفين : « في درعه متشحاً بسيفه ودرقته بيده ، يشد حملته ، ويبدى صفحته ، فلم يراً ربط جأشاً ولا أشهم نفساً منه » ، وتمكن أحد عبيده من طعن القائد القشتالى طعنة نجلاء تسببت فى اختلال صفوف النصارى فولوا الادبار ، أما تاشفين فقد رحل فى اليوم التالى الى حصن قشرش أو قاصرش (٧١) Caceres من حصون المسلمين ومن هناك قفل عائدا الى قرطبة (٧٢) .

وعندما بلغ تاشفين فى أوائل عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) أن القشتاليين أغاروا فى حشود كثيفة وجيوش وافرة أراضى المسلمين وأنهم قتلوا أعدادا كبيرة من المسلمين واكتسحوا البلاد ، استقدم كبار رجال المرابطين واستفتاهم فى الامر فقالوا له : « الدولة لنا فاما تركها أو حمايتها ، لا يتقدمنا أحد الى لقاء عشونا ، فاذا استشهدنا فالامر لمن شن الله بعدنا » ، ثم استدعى زعماء زبائنة وأعاد عليهم سؤاله فقالوا له « لا جواب الا الفل وشرطنا أن تعول أيتامنا » ، ثم استدعى العرب ، فقالوا له « أرم العدو بنا ولا تشرك أحد معنا وسيرى الله عملنا ، فطابت نفسه وشكرهم على تلك الروح الطيبة ، فخرج فى شعبان من نفس العام — ٥٣٠ هـ — فجات اليه عيونه وأخبروه بأن العدو تحصن فى جبل القصر ، ففرض تاشفين الحصار على جبل القصر وبدأ فى قتال النصارى المتحصنين به ، وتمكن من ايقاع الهزيمة بهم وقتل أكثرهم ولم ينج منهم سوى انقليل ، وامتلات أيدي المسلمين بدوابهم وأسلحتهم وأطلق تاشفين سراح

(٧١) عن قاصرش أنظر أ . د . السيد عبد العزيز سالم ، كتاب الشعب ، ع ٦١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٦٢ - ٦٤ .

(٧٢) عن معركة البكار أنظر : ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، ص ٩١ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٥ ، ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٨ ، ص ١٣٩ .

الاسرى من المسلمين ممن كانوا في معسكر العدو ، وقام بتوزيع الغنائم على البلدان والمدن القريبة من ميدان المعركة ثم عاد منتصرا ظافرا الى قرطبة (٧٣) .

وفي نفس العام — ٥٣٠ هـ — التقى تاشفين بالقشتاليين في موضع يعرف باسم فحس عطية ، فأوقع بهم الهزيمة ، وقتل منهم جموعا غفيرة ، واستولى على أسلابهم (٧٤) . وفي العام التالي — ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) — غزا تاشفين أرض قشتالة واقتحم مدينة كركى الواقعة قريبا من قلعة رباح ، فألفاها خالية (٧٥) . وفي العام التالي ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) دخل تاشفين مدينة أشكونية أو أشكلونة (٧٦) Escalna عنوة ، وقتل من وجده فيها ، واستولى على أسلابها ، ومنها عدة من التواقيس العظيمة ، ثم قفل عائدا الى قرطبة (٧٧) ، ومن هناك جاز الى العدو وحمل من سعى هذه الغزوة ٦ آلاف سبية (٧٨) . كان تاشفين قبل عبوره قد بلغه خروج الجيش القشتالى لغزو أراضي المسلمين في منطقة جيان ، فتأهب تاشفين للتصدي لهم ، وكان القشتاليون قد هجموا نحو بيلاسة وأبدت وعاثوا في تلك المنطقة واتخذوا عدتهم لعبور الوادى ، ولكن تعذر على خيل العدو عبور النهر بسبب استمرار هطول المطر لمدة عشرين يوما ، فحاول

(٧٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ ، مجهول ، الحل

الموشية ، ص ٩١ ، ص ٩٢ .

(٧٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٧ ، ابن أبى زرع ، روض

القرطاس ، ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

(٧٥) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ١١٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص

١٤٢ .

(٧٦) أشكونية أو أشكلونة من أعمال كورة تدمير راجع الحميري ، صفة

جزيرة الانطلس ، ص ٢٢ ، ص ١٧٢ .

(٧٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٧ ، ص ٢٢٨ ، ابن أبى زرع ،

روض القرطاس ص ١١٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ .

(٧٨) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ١١٥ .

النصارى العبور على المعادى ، فتكسرت بعضها وغرق من كان فيها
وانتهز قائد حامية جيان هذه الفرصة وطاردهم فأوقع بهم الهزيمة ،
رولت فلوليم الى حصن نسيبوة من عمل أبدء ولكنهم عجزوا عن اقتحامه
وعادوا الى طليطة . وكان الامير تاشفين يراقب الموقف عن كتب ولكن
الامطار الغزيرة حالت بينه وبين مطاردة القشتاليين فلما بلغه هزيمة
النصارى وعودتهم الى بلادهم ، ولى وجهه شطر المغرب بعد أن
استدعاه والده أمير المسلمين على بن يوسف ، فدخل مراكش في رجب
سنة ٥٣٢ هـ (أوائل ١١٣٨ م) (٧٩) .

استمرت العلاقات متوترة بين مملكة قشتالة ودولة المرابطين في
الاندلس ، على الرغم من اشتغال الملك الفونسو السابع ريمونديس
المعروف بالسليطين في الفترة التي تبعت وفاة الفونسو الاول المحارب
بإقرار الاوضاع في أرغون ونابره (٨٠) ، وتمكين نفوذه على القسم الاعظم
من مملكة الفونسو المحارب ، وعقد عهود التحالف والصداقة مع أمير
برشلونة وعدد من قوامس ولايات البرتات الفرنسية ، ولم يلبث ملك
قشتالة أعظم ملوك أسبانيا المسيحية أن استأنف نشاطه العسكرى ضد
المسلمين منذ سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) وفيها خرج لغزو أراضى الاسلام ،
ومع أن هذه الغزوة لم تكلل بالنجاح وأخفق القشتاليون في الاستيلاء
على قلعة قورية المنيعة (٨١) ، الا أن حركته تسجل بداية لمرحلة جديدة
للهجوم ، وفي العام التالى ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) تمكن من انتزاع قلعة
« أوربة » من المسلمين ، وكانت أوربة قاعدة المسلمين في غاراتهم على

(٧٩) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ، عنان ، عصر المرابطين ،

ص ١٤٣ .

(٨٠) راجع تفاصيل ذلك فى عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٩٣ وما يليها .

(٨١) قورية من أحصن المعاقل الاندلسية ولها سور منيع وتقع بالقرب من
مدينة ماردة وتشتهر بأرضها الخصبة وفواكهها الكثيرة وأشهرها العنب والتين .
أنظر : الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٦٤ .

تشتالة ، كما كانت تعتبر مفتاح ولاية طليطلة واعتبر افتتاحها ظفرا عظيما . غير أن المسلمين سرعان ما ردوا على القشتاليين عسكريا ، ففى نفس العام وفق المرابطون بقيادة الزبير بن على والى قرطبة فى الاستيلاء على قلعة « مرره » المنيعه ، الامر الذى دعا ملك قشتالة الى العمل على استرداد قلعة قورية ، ونجح بالفعل فى استردادها سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١م) بعد حصار دام ما يقرب من شهرين^(٨٢)، وفى العام التالى قام القشتاليون بقيادة مونيو ألفونسيز حاكم مورة السابق بغزو قرطبة كرد فعل لتفريطه فى الدفاع عن قلعة مورة التى انتزعها المرابطون منه ، فاننتسف المروج الخصبة الواقعة على ضفاف نهر الوادى الكبير فى نواحي قرطبة وتمكن من ايقاع الهزيمة بقوة من المرابطين يقودها واليا قرطبة واشبيلية اللذين استشهدا فى ساحة المعركة واستشهد معهما عدة آلاف من المسلمين . وقد أثارت هذه الهزيمة مشاعر الغضب والاستياء فى نفوس المسلمين ، فأمر أمير المسلمين بتقليد يحيى بن غانية بطل افراغه واليا عاما على جميع أراضى الاندلس التابعة للمرابطين ، وأمره أن يعمل على الانتقام لقتلى المسلمين ، فهاجم يحيى بن غانية قلعة رباح وعاث فى نواحيها وعندما اعترض القائد القشتالى مونيو ألفونسيز طريقة أوقع به هزيمة نكراء وسقط القائد القشتالى صريعا ، وفصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده ، وأرسلت الى قرطبة واشبيلية لكى تعرض على زوجى الوالين القتيلين عزاء لهما ، ثم حملت بعد ذلك الى مراكش ، ثم أرسلت بقية جثة مونيو الى القشتاليين مقابل ارسالهم لرأسى الوالين المسلمين^(٨٣) . وعلى الرغم من وفاة على ابن يوسف فى عام ٥٣٧ هـ (١١٤٣ م) فقد ظل القشتاليون يمارسون ضغوطهم على دار الاسلام ، بل أنهم انتهزوا فرصة انشغال

(٨٢) أشبناخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٣ .

(٨٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٤ ، أشبناخ ، تاريخ الاندلس ،

ص ١٨٣ ، ص ١٨٤ .

المرابطين في المغرب وصراعهم مع الموحدين وأغاروا في سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٤ م) على بسائط قرطبة واشبيلية وقرمونة وغرناطة حتى المرية وعادت قواتهم مثقلة بالغنائم (٨٤) •

وهكذا استمرت الحروب بين المرابطين والنصارى حتى بعد وفاة على بن يوسف ، وبوفاته بدأت النهاية بالنسبة لدولة المرابطين ، وعلى الرغم من الدور العظيم الذي قام به ابنه وخليفته تاشفين في مدافعة نصارى الاندلس ، الا أنه لم يستطع أن يصمد أمام ضربات الموحدين في المغرب،وقدر له أن يموت عندما حاول أن يلتمس النجاة من أحد الحصون القريبة من وهران بعد أن أشعل فيه الموحدون النيران ، فبينما كان يسعى للفرار تردت به فرسه تحت جناح الظلام فسقط به في هوة سحيقه • ويسجل مصرعه النهاية الحقيقية لدولة المرابطين •

(٨٤) أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٨٥ •

(٢)

مع مملكة أرغون

ظلت العلاقات الودية قائمة بين المرابطون وبنو هود في سرقسطة الى أن توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وتولى ولده علي بن يوسف، وكان يوسف قد نصح ولده وولى عهده أن يهادن أمراء سرقسطة وأن يتركهم سدا بينه وبين النصارى^(٨٥) . وهكذا ترك المرابطون إمارة سرقسطة وشأنها وشغلوا باطاحة بدويلات الطوائف الأخرى ، فاستغل ذلك أرغون شأنه راميرث هذه الفرصة وأخذ يهاجم مملكة سرقسطة وتمكن في سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) من انتزاع بلدة منشون Monoson ، ثم أحكم حصاره حول وشقة ولكنه توفي خلال الحصار ، فواصل ابنه بدور الأول حصاره لها الى أن سقطت في يده سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) على الرغم من استبسال أحمد المستعين بالله بن هود في اندفاع عنها^(٨٦) .

ولم تلبث الأوضاع في سرقسطة أن تغيرت تماما بعد استشهاد الأمير أحمد المستعين بن هود في معركة فالتيرة Valtierra التي دارت بينه

(٨٥) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٦٠ ، وأنظر أيضا مؤنس ، الثغر الأعلى الاندلس ، ص ١٠٤ .

(٨٦) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥٤ ، ص ١٦٣ ، أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٠٤ ، ص ١٠٥ ، غان ، دول الطوائف ، ص ٢٨٨ ، ص ٢٨٩ .
Antonio Preito R vives : Los reyes de Taifas, Madrid, 1926, p. 49.

وبين الارغونيين في أول رجب سنة ٥٠٣ هـ (أوائل ١١١٠ م) (٨٧) ، وبوفاته فقدت سرقسطة آخر ملوكها العظام الذين استطاعوا حمايتها من الاخطار التي تهددتها ، فخلفه ولده عبد الملك الملقب بعماد الدولة ، كان حليفا للنصارى يميل اليهم ويعتمد عليهم في عسكره ، فبادر بعقد حلف مع ملك أرغون خوفا من المرابطين على بلاده بعد أن استشعر من أهل سرقسطة ميلهم اليهم (٨٨) ، وقد أدى تحالفه مع أرغون الى افدام المرابطين على الاستيلاء على سرقسطة ، ولا يجب أن ينيب عن أذهننا في هذه المناسبة أن ملك أرغون الجديد وهو الفونسو الاول الذي تولى العرش في سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٥ م) كان ملكا على الهمة بعيد الآمال شديد الطموح ، وقد دفعه طموحه وحماسه المسيحي الى حد التعصب الاعمى ضد الاسلام في أسبانيا سيما بعد زواجه من دونيا أراكه ابنة الفونسو السادس ووريثته ، وتوحيد مملكة أرغون مع مملكة قشتالة وليون ، دفعه ذلك الى التطلع لتحرير الاندلس من سيطرة الاسلام ، وكان همه الاول السيطرة على سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى وأعظم مدن الاندلس الشمالى ، وجاءت وفاة المستعين بالله واستخلاف ابنه الضعيف عماد الدولة حافزا له على تحقيق هدفه (٨٩) . وهكذا كان طبيعيا أن

(٨٧) عن معركة فالتيرة انظر : ابن الابار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، ص ١٠٦ ، كليلىا سارنللى ، مجاهد العامرى قائد الاسطول العربى فى غربى البحر المتوسط فى للقرن الخامس الهجرى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٩ .
D. R. vives, Los Reyes de Taifas, p. 49; Afif Turk, El Reino de Zaragoza, p. 188.

(٨٨) ابن الابار ، المصدر السابق ، ص ٢٤٨ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
(٨٩) مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، ص ١١١ .

يقدم المرابطون على استنقاذ سرقسطة من السقوط الوشيك بين مخالِب
الفونسو الاول المحارب * وتختلف الروايات العربية حول كيفية دخول
المرابطين المدينة :

وتتلخص رواية كل من ابن عذارى وابن الخطيب في أن وفاة الامير
أحمد المستعين بالله بن هود قد أطمعت محمد بن فاطمة والى غرناطة في
الاستيلاء على سرقسطة ، فبادر بالتحرك اليها ولما يمضى شهر واحد
على وفاة المستعين ، فلما اقترب من المدينة طلب منه أهلها الانصراف
عنهم ، كى لا يكون ذلك سببا في استدعاء عماد الدولة بن هود للنصارى
فلما تبين لاهل سرقسطة أن عماد الدولة تحالف مع النصارى بسبب
خوفه من المرابطين بادروا باستدعاء محمد بن الحاج والى بلنسية ،
بأقبل اليهم وفتحوا له أبواب مدينتهم (٩٠) *

أما رواية ابن سعيد المغربى وصاحب الحلال الموشية فتتلخص في أن
أهل سرقسطة عندما أيقنوا من تحالف عماد الدولة مع النصارى ، كتبوا
الى أمير المسلمين في مراكش يناشدونه ضم سرقسطة الى دولته وخُـع
بنى هود ، كما أن فقهاء على أفتوه بوجوب خلع بنى هود ، فأصدر
على بن يوسف أمره الى محمد بن الحاج والى بلنسية بأن يزحف الى
سرقسطة ويستولى عليها ، فلما علم عماد الدولة بقدرم هذا الجيش
المرابطى ، بادر بالكتابة الى على بن يوسف يسترضيه ، ويذكره بما كان
بين والديهما من صلات الود والصدافة ، وأنه يحمل للامير منزلة سامية
ويقدره قدره وأنه من الانسب والافق لصالح المسلمين أن يترك

(٩٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ابن الخطيب .
أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

سرقسطة على وضعها حاجزا بين دولة الاسلام في الاندلس وبين
النصارى وتشير الرواية الى أن الامير رىق لهذا الملك وكتب الى
قائده بأن يكف عنه (٩١) . وأن كانت الحوادث التالية أثبتت أن مثل هذا
العفو لم يحدث ، وأن ابن الحاج دخل سرقسطة ، وإذا كان دوزى يبرر
ذلك بأن ابن الحاج تسلم أمر على بن يوسف بالكف عن عماد الدولة بعد
فوات الاوان (٩٢) فان المنطق يؤكد أن مثل ذلك لا يجوز قبوله فليس من
المنطقى أن يخالف القائد ابن الحاج أمرا أصدره اليه أمير المسلمين
فيفتح مدينة أمره الامير بالكف عن منازلها . وأيا ما كان الامر فقد
وصلت قوات المرابطين الى سرقسطة في صباح العاشر من ذى القعدة
سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ففتحت لهم أبواب المدينة ، ودخل ابن الحاج
قصر الجعفرية الشهير ، وفي رواية أخرى لابن عذارى وابن الخطيب أن
عماد الدولة استدعى الفونسو المحارب ملك أرغون الذى سارع الى
نجدة حليفه ، فقسم جيشه الى قسمين ، قسم صدم به ابن الحاج ،
والقسم الآخر صدم به أبا يحيى بن محمد بن الحاج ، ففرق الناس عن
أبى يحيى واستشهد ، كما فقد معه جملة من المسلمين وذلك عشية يوم
الاحد منتصف ذى الحجة سنة ٥٠٣ هـ (٩٣) ولكن أهل سرقسطة أقدموا
على طرد عماد الدولة فاتجه الى حصن روضة (٩٤) فى الشمال تحت حماية

(٩١) ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى الغرب ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ ،
مجهول الطل الموشية ، ص ٧٢ .

(٩٢) Dozy, Histoire de Musulmans d'Espagne vol, III, p. 154.

(٩٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، ابن الخطيب ، أعمال
الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٩٤) روضة Rueda حصن من أعمال سرقسطة واحد المعامل الحصينة فى
منطقة الثغر الاعلى ، وكان المستعين بن هود قد أعده وبناء وشحنه بالأسلحة
والاقوات ليكون ملاذا لبنى هود فى أوقات الخطر . انظر ابن الابار ، الحلة
السفراء ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، وابن الكردبوس ،
الاكتفاء ، ص ١١٩ ، ص ١٢٠ ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى .

الفونسو المحارب ، وظل مقيما في هذا الحصن مترقبا الاحداث آملا في أن يسترجع ملكه في الفرصة المواتية وفي ظل هذا الامل وضع نفسه في خدمة الفونسو المحارب .

وعلى الرغم من أن المرابطين قد فوتوا باستيلائهم على سرقسطة الفرصة على ألفونسو المحارب ، فقد ظل يتحين الفرصة لانتزاعها من أيدي المرابطين ، ففي عام ٥٠٤هـ (١١١١م) خرج الفونسو المحارب في مقدمة قوة من عساكره لمهاجمة سرقسطة وصحبه في هذه الغزوة حليفه عماد الدولة ، وعندما اقترب من سرقسطة عسكر على بعد فرسخ من المدينة ، استعدادا لمحاصرتها ، فتصدت له قوات المرابطين بقيادة محمد ابن الحاج والى المدينة ، وظل ابن الحاج يناوش الفونسو وقواته ، حتى لحقت به قوات مرسية بقيادة واليها ابن عائشة ، فاضطر الفونسو المحارب الى الانسحاب الى بلاده^(٩٥) . وفي العام التالى ٥٠٥هـ (١١٢م) خرج عماد الدولة بن هود من حصن روضة لمحاربة سرقسطة ، فتصدى له ابن الحاج وأرغمه على العودة الى روضة^(٩٦) .

وظل ابن الحاج واليا على سرقسطة يتولى حمايتها من الاخطار المحيطة بها الى أن استشهد أثناء عودته اليها من غزوة قام بها في برشلونة في عام ٥٠٨هـ (١١١٤م) ، فخلفه في ولاية سرقسطة الامير أبو بكر بن ابراهيم بن تافلويت والى مرسية وبلنسية وطرطوشة الذى تابع خلال العامين اللذين قضاهما في ولايتها نفس سياسة سلفه ، ففي عام ٥١٠هـ

(٩٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٥ ، وأنظر أيضا ، عنان ،

عصر المرابطين ص ٨٨ .

(٩٦) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(١١١٦م) قاد حملة الى حصن روطه ، كما غزا برجة وبها عماد الدولة بن هود^(٩٧) . وكان ابن تافلويت في الحق آخر حماة سرقسطة وشرق الاندلس .

كان الفونسو المحارب أثناء ذلك لا يكف عن مراقبة الموقف عن كثب حتى يتمكن من ضرب ضربته في الوقت المناسب ، ويحقق أهم وأعلى أمانيه في السيطرة على سرقسطة فبعد وفاة ابن تافلويت تلكأ على بن يوسف في اسناد ولايتها الى أحد قواده الكبار الذين لم يتخطفهم الموت بعد وترك أمر حمايتها الى أخيه ابراهيم بن يوسف والى مرسية الذي لم يتردد في السير اليها للنظر في أحوالها وأحوال أهلها ، فلما تم له ذلك عاد الى مرسية مقر ولايته^(٩٨) . على أن الامير على بن يوسف لم يلبث أن أدرك خطورة الاوضاع في سرقسطة بعد وفاة ابن تافلويت وعز عليه أن يترك هذه المدينة الهامة فريسة لاطماع الفونسو المحارب فجاز جوازه الثالث الى الاندلس في صفر سنة ٥١١هـ (١١١٧م) ، وأسند ولايتها الى القائد عبد الله بن مزدلي والى غرناطة الذي أقام يقارع الفونسو المحارب عاما كاملا ويحبط عليه خططه في السيطرة على سرقسطة الى أن توفي بدوره^(٩٩) فانتهز الفونسو المحارب فرصة وفاة ابن مزدلي وعدم وجود وال يحميها ، وبادر بالتحرك وأقبل في جيوش كثيفة من الفرنج والقشتالين لحصارها ، فعندما بلغ على بن يوسف ذلك كتب الى أمراء

(٩٧) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ، ابن الخطيب ،
الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٠٨ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٨٩ .
(٩٨) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٤٠٨ ، عنان ، عصر
المرابطين ، ص ٨٩ .
(٩٩) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ .

الاندلس يأمرهم باللاحاق بأخيه تميم والى شرق الاندلس ، ليخرجوا من هناك الى سرقسطة لاستنقاذها واستنقاذ لاردة التى تعرضت هى الأخرى لخطر النصارى ، وهكذا توافدت الى تميم حشود كبيرة من بلاد الاندلس ، فخرج تميم مع هذه الحشود نحو لاردة ، وكان الفونسو قد فرض عليها الحصار ، ونشبت بين الجانبين معركة عنيفة ، هزم فيها الفونسو المحارب ، بعد أن فقد فيها ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، واضطر الى رفع الحصار عن لاردة ، وعلى أثر ذلك عاد تميم الى مقرر ولايته فى بانسية ثم رحل منها الى مراكش^(١٠٠) عندما بلغه اضطراب الامور فى المغرب^(١٠١) .

انتهاز الفونسو المحارب عودة الامير تميم الى المغرب ، وبعث الى طوائف الافرنج يستنصر بهم على قتال سرقسطة ، ويذكر صاحب روض القـرطاس أنهم أتوه فى أمم كالنمل والجراد فنزلوا معه بها وشرعوا فى قتالها^(١٠٢) ، ويعبر الامتاذ عبد الله عنان عن الروح الصليبية التى غلبت على هذه الغزوة فيذكر أنه شارك فيها الى جانب الفونسو المحارب الكونت جاستون دى بيارن وأخوه سانتولو ، وكلاهما كان قد شارك فى الحملة الصليبية الأولى التى انتهت بقيام الامارات الصليبية فى الشام ، كما شارك فيها قبط دى تولوز وحشود كثيفة من البشكنس ومن قطلونية فضلا عن كثير من الاساقفة وكبار رجال الدين^(١٠٣) ويقدر

(١٠٠) ابن ابى زرع ، المصدر السابق ، ص ١١٣ ، مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلس ، ص ١١٥ ، أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٤ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٩٢ ، ص ٩٣ .

(١٠١) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(١٠٢) ابن ابى زرع ، نفسه .

(١٠٣) عنان ، عصر المرابطين ، ص ٩٠ .

صاحب الروض المعطار عددهم بخمسين ألف فارس (١٠٤) . اتجهت هذه الحشود صوب سرقسطة وفرضت عليها الحصار ، ويصف ابن أبي زرع حصار النصارى للمدينة بقوله : « صنعوا أبراجا خشب تجر على بكرات وقربوه منها ، ونصبوا فيه الرعدات ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ووقع طمعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فנית الاقوات ، وفنى أكثر الناس جوعا » (١٠٥) ، وعندما اشتد الحصار على أهل سرقسطة راسلوا الفونسو المحارب على أن « يدفع عنهم القتال الى أجبل فان لم يأتهم من ينصرهم أدخلوا له البلد وأسلموها له » (١٠٦) ، فعاهدهم على ذلك . وفي هذه الاثناء كتب ثابت بن عبد الله قاضي سرقسطة وجمهورها رسالة مؤثرة الى الامير أبى الطاهر تميم يستتصرون به باسم الدين ، في عبارات مؤثرة ولكنها ضارعة ، أن يتقدم لانقاذ سرقسطة واستنقاذها ، وألا ينكص على عقبيه أمام النصارى (١٠٧) . ولكن الامير تميم تقاعس عن نجدة سرقسطة وتركها لمصيرها التعس ، وانتهت المهلة المعطاة من النصارى دون أن يتلقى المحصورون أية معونة ، فاضطرت المدينة الى التسليم بعد أن عصف بها الحصار وضربها بأهلها وانقطع عنها الوارد والصادر واشتد الجوع وفנית الاقوات ، وتم دخول النصارى في سرقسطة صلحا في الرابع من رمضان سنة ٥١٢هـ الموافق للتاسع عشر من ديسمبر سنة ١١١٨م (١٠٨) .

(١٠٤) الحميرى ، ص ٩٨ .

(١٠٥) روض القرطاس ، ص ١١٣ .

(١٠٦) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ .

(١٠٧) ورد كل من أود حسين مؤنس ، والاستاذ عبد الله غنان نص

رسالة أهل سرقسطة الى الامير تميم ، أنظر مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١٣٢ -

١٣٥ ، غنان ، عصر المرابطين ، ص ٥٣٨ - ٥٤١ .

(١٠٨) عن أحداث سقوط سرقسطة في أيدي النصارى أنظر : ابن =

وقد أورد ابن الكردبوس الشروط التي وضعت لتسليم المدينة على النحو التالي : « أن يسلموا البلد اليه (أى الى ابن ردمير) ، ويجعلوه في يديه ، فمن أحب منهم الإقامة على أداء الجزية خاصة أقام ، ومن أحب أن يرحل بما عنده الى حيث شاء من البلاد فله الأمان التام ، الى أن يصل الى بلاد الاسلام ، وعلى أن يسكن الروم المدينة والمسلمون ربض الدباغين ، وعلى أن كل أسير يقات للروم من المدينة ويحصل عند الاسلام ، فلا سبيل للملكه اليه ، ولا اعتراض له عليه » (١٠٩) وهكذا تم توقيع الاتفاق وانعقدت العقود بالعهد والميثاق ، فلما استقر المقام بابن ردمير في سرقسطة لم يتحمل الاهالى نير التبعية ولم يقبلوا أن يعتبرهم اخوانهم المسلمون أهل دجن ، فأثروا الرحيل عنها ، فخرجوا من المدينة في أعداد هائلة يرغبون في هجرتها الى دار الاسلام وفي ذلك يقول ابن الكردبوس ، « فبلغ عددهم نحو من خمسين ألف نسمة ما بين صغير وكبير ونساء وذكور ، فلما ساروا من المدينة على مرحلة ، ركب بنفسه مع من استصحبه واحتمله ، فوقف عليهم وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم من القليل والكثير ، فرأى أموالا لا تحصى كثرة ، ولا كان راجيا أن يرى جزءا منها دهره . فقال لهم : لو لم أقف على ما عندكم من هذه الاموال ، لقلتم لو رأى بعضها لم يسمح لنا بالترحال ، فسيروا الآن

= الابار ، الحلة السيرة ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ١١٤ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، فى صناعة الانشاء ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٨ ، مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١١٥ ، أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٤ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٠ .
 Codera, Dec. Y Des. de Los Almoravides en Espanna p. 12, 13; Terrassa, Histoire du Morac, vol, II p. 244; Miranda, Historia Musulmona de Valencia R su region movedad, vol, III Valencia 1970, pp. 45-46.

(١٠٩) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٨ .

حيث شئت في أمان • ووجه معهم من رجاله ، من يشييعهم الى آخر أعماله ، ولم يأخذ منهم سوى غير مثقال ، على الرجال والنساء والاطفال فتملكها — لعنه الله — من ذلك التاريخ » (١١٠) • وتشير بعض المصادر العربية الى أن جيشا للمرابطين قوامه عشرة آلاف فارس ، قدم الى سرقسطة لاستنقاذها ولكن بعد فوات الأوان (١١١) •

وجاء سقوط سرقسطة في يد ألفونسو المحارب نذيرا بسقوط ما تبقى من قواعد المسلمين في الثغر الأعلى ، كما كان ضربة عنيفة أصابت الجبهة الدفاعية في الشمال الشرقي من الاندلس ، وأسقطت هبة المرابطين العسكرية ، كما فتح الطريق أمام مملكة أرغون للسيطرة على عدد من قواعد المسلمين وحصونهم ، فقد استولى ألفونسو المحارب في سنة ٥١٣ هـ (١١٢٠ م) على طرسونة Tarrazona وأعاد بها مركز الاسقفية القديمة ثم تقدم من هناك الى برجة Berja واستولى عليها ، كما افتتح بعض الحصون والبلاد الواقعة في تلك المنطقة ومنها ألاجون ومالن ومجايون وآبله وغيرها (١١٢) ، ثم زحف على قلعة أيوب وكانت من أمنع الحصون الباقية للمسلمين في الثغر الأعلى ولم يكن في بلاد شرق الاندلس أمنع منها (١١٣) ، ثم واصل زحفه الى قلعة دروكة • واتصلت هذه الانباء المزعجة بأمير المسلمين على بن يوسف ، فاهتم لها وكتب الى أخيه الأمير أبي اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين والي اشبيلية

(١١٠) ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص ١١٩ •

(١١١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ ، السلاوي ، ج ١ ، ص ١٢٦ •

(١١٢) أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٢ •

(١١٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ •

يأمره بتسيير حملة لقتال الفونسو المحارب ، كما كتب في نفس الوقت الى القادة والرؤساء بلاندلس يستحثهم ويستنفرهم بأن يسيروا بقواتهم انجسادا لأخيه ، وأن يكونوا تحت امرته . فاستنفر ابراهيم قواته ، وانضمت اليه قوات قرطبة وغرناطة ومرسية بقيادة ولاتها ، وشارك في الحشود طائفة من علماء الاندلس وقضاتها بالاضافة الى جموع كبيرة من المتطوعة ، وبهذه الحشود تقدم ابراهيم نحو قلعة دروكة المنيعة لاستنقاذها ، وتم الاشتباك مع قوى النصارى في ظاهر بلدة كتندة في الرابع والعشرين من ربيع الأول وقيل في ربيع الآخر سنة ٥١٤هـ (يونية أو يولية سنة ١١٢٠م) . وقد انتهت المعركة بهزيمة فاحشة رزىء بها المسلمون وكانت كارثة لا مثيل لها فيما سبق من هزائم ، وقد بلغ عدد القتلى المتطوعة المسلمين وفقا للرواية الاسلامية نحو عشرين ألفا بخلاف من استشهد من كبار العلماء والفقهاء ، أما قائد المسلمين الامير ابراهيم بن يوسف فقد انسحب في فلول جيشه الى بلنسية^(١١٤) ، وترتب على هزيمة المسلمين سقوط مدينة دروكة في أيدي الارغونيين^(١١٥) ، كما ترتب عليها أمر آخر أعظم خطرا هو توثب طائفة المعاهدة الاسبان في الاندلس وتحفزهم في الداخل ضد السلطة المركزية واتصالهم السرى

(١١٤) عن معركة كتندة أنظر : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٠٢ ، ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٣١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ ، مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلس ، ص ١١٦ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٦ .

Codera, Dec. R Des. de Los Almoravides, p. 12; Miranda, Historia Musulmana de Valencia, vol, III, P. 46.

(١١٥) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٣٠٢ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٠٨ ، المقرئ ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

بمملكة أرغون بهدف تحريضها على مهاجمة دار الاسلام في الوقت الذي يقدمون لها العون اللازم للقضاء على الاسلام في الاندلس . ومن الواضح أن الانتصارات المتلاحقة التي أحرزها الفونسو المحارب على قوات المرابطين كانت الحافز على هذا التآمر بين المعاهدة وبين أرغون بهدف التخلص من السيادة الاسلامية على الاندلس ، ومن الجدير بالذكر أن نصارى غرناطة على وجه الخصوص كانوا أكثر عناصر المعاهدة رغبة في الاطاحة بدولة الاسلام والتآمر على سلامة المسلمين وهم الذين حملوا لواء حركة التمرد ضد المسلمين ، ولما كان من الاستحالة عليهم أن ينشطوا وحدهم لتحقيق هذا الهدف باعتبار أن القلاع والحصون كلها كانت في أيدي المسلمين ، بالإضافة الى تفرق النصارى المعاهدين في مختلف أنحاء الاندلس فقد كان لزاما عليهم التعاون مع الفونسو المحارب الذي أثبت بانتصاراته أنه أعظم ملوك النصارى وأكثرهم نشاطا في حركة الاسترداد الاسبانى سيما بعد أن استولى على سرقسطة وقلعة أيوب وتطيلة ودروقة فكتبوا اليه بأحوال الاندلس وأحوال قلاعها كتابة مستفيضة ، والتمسوا منه غزو الاندلس ، وتعهدوا له ببذل العون الصادق والعمل كمرشدين ومحاربين ، ووجهوا اليه زماما يشتمل على اثني عشر ألف مقاتل ، كما وعدوه عند وصوله الى حضرتهم بأن ينضم الى جيشه جميع المعاهدين في بلادهم ، ورغبة منهم في استئثار طمعه وشراسته أسرفوا في امتداح غرناطة ووصف محاسنها وفضائلها وما تتميز به من ثروات وخيرات ، كما أطنبوا في ذكر رخائها وعظم ثروات أهلها (١١٦) .

(١١٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، ص ٧٠ ، مجهول ،
الحلل الموشية ، ص ٦٧ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ ،
أشباح ، تاريخ الاندلس ص ١٤٨ ، عنان ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٦ ،
ص ١٠٧ .

وقد نجح معاهدة غرناطة في اسالة لعاب الفونسو واستنهاضه للقيام بهذه المغامرة يدفعه الطمع في الظفر بكل ما وعدوه به ، فخرج من سرقسطة في أول شعبان سنة ٥١٩ هـ (٢ سبتمبر سنة ١٢٥ م) في قوة قوامها أربعة آلاف فارس^(١١٧) ، وقيل خمسة آلاف^(١١٨) بالاضافة الى خمسة عشر ألفا من المشاة^(١١٩) ، وقد رافقه في حملته القمط جاستون دي بيارون ، كما صاحبه عدد من رجال الدين في مقدمتهم أسقف سرقسطة ووشقة ، وأقسم الجميع قبل القيام بغزوتهم على الانجيل ألا يفر أحد منهم عن صاحبه ، وهكذا مضى الفونسو بحشوده نحو الشرق ، فوصل الى بلنسية في ٢٠ من رمضان ، فتصدت له حامية المدينة بقيادة واليها أبى محمد يدر بن ورقاء • وفي أثناء ذلك كانت جموع المعاهدين تهرع الى الانضمام اليه حيثما وجد ، حتى اجتمعت له منهم أعداد كثيفة عملوا له أدلاء يرشدونه الى الطرق والمسالك ، ويكشفون له مواطن الضعف في صفوف المسلمين ، ثم رحل من بلنسية فوصلت قواته الى جزيرة شقر فقاتل أهلها بضعة أيام ثم واصل غزوته مخترقا كل شرق الاندلس مرورا بدانية وشاطبة والسن وأوريوله ومرسيه وبيرة والمنصورة ومن هناك اتجه نحو الاندلس الجنوبية مرورا ببرشانة وبسطة،وقد حاول أثناء مروره بهذه المدينة أن يستولى عليها مستغلا في ذلك موقعها في بسيط من الارض استمدت منه تسميتها بالاضافة الى ضعف أسوارها ، إلا أن محاولته باءت بالفشل فتابع مسيرته الاستعراضية مارا بوادي آس وبلدة القصر التي حاصرها لمدة شهر دون أن ينال من دفاعها^(١٢٠) •

(١١٧) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٦٧ •

(١١٨) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٦٩ •

(١١٩) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٦٩ •

(١٢٠) ابن عذارى،نفسه ص ٧٠، مجهول ، الحل الموشية، ص ٦٧ ، =

وفي هذه الاثناء كانت أنباء تحركات ألفونسو المحارب قد وصلت الى المغرب فانتزعج لها أمير المسلمين ، فلم يتردد في حشد جيوشه وارسالها الى الاندلس حيث انضمت اليها عساكر مرسية واشبيلية ، وتركزت هذه القوات المرابطية في غرناطة حاضرة المرابطين في الاندلس ، ومقر الادارة المركزية التي يتولاها تميم بن يوسف بن تاشفين^(١٢١) . أما ألفونسو فقد خرج من وادي آش ، نحو غرناطة فمر بقرية دجمة Diezma وتقع غربى وادي آش ، ومن هناك واصل زحفه الى غرناطة ، فلما اقترب منها وأصبح في منتصف المسافة بين وادي آش وغرناطة ، استبد الذعر والقلق عند أهل غرناطة وكثر الجزع والارجاف ، ويصف ابن عذارى رد الفعل في غرناطة فيقول : « وجاءت الطلائع منبهة وانقطعت السابلة والواردة ، وقلت المرافق ، وتراجع الناس في المدينة ، وسكنت المساجد والمصاطب والرحاب ، والخراب وكثر الجزع والارجاف والموتجانب بالنهار والليل والاسوار معمورة بأهل البلدة وما نسي في الدور غير الصبية والنسوة ، وتوالت الامطار وسالت الطرق وضاعت النفوس أشد ضيقة »^(١٢٢) ، ويواصل ابن عذارى سرده لأحداث غرناطة فيذكر أن ألفونسو أقام بمحلته بضع عشرة ليلة دون أن يتمكن من شن هجومه عليها بسبب تكاثف الثلوج وغزارة الامطار ، وفي أثناء ذلك كان المعاهدة النصارى يزودونه بكل ما كان يحتاج اليه من مؤن وأقوات والظاهر أنه ارتاع لكثرة ما عاينه من مناعة غرناطة وكثافة حشود

= ص ٦٨ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٨ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٨ ، ص ١١٠ .
 (١٢١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٠ ، مجهول ، الحل الموسية ، ص ٦٨ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١١٠ .
 (١٢٢) ابن عذارى ، المصحر السابق ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .

المدافعين عنها ، كما أنه لم يلق من المعاهدة ما كانوا قد وعدوه به من مساعدات بدليل أنه بعث يلوم زعيم معاهدة غرناطة ويدعى ابن القلاس لتقاعسهم عن نصرته ونكثهم بما عاهدوه له ، ولكن ابن القلاس رد على لومه مبررا تقاعس معاهدي غرناطة عن نصره الفونسو المحارب ببطء حركته الأمر الذي أتاح للمرابطين فرصة ارسال قواتهم الى غرناطة واحياء التدبير الذي خططوا له (١٢٣) . ثم أن الفونسو لم يلبث أن واصل مسيرته الاستعراضية بعد أن فشل في تحقيق هدفه نحو قرية مرساة ثم بيشى ، ومن هناك واصل السير الى قلعة يحصب Alcala La Real ثم الى قبرة (١٢٤) Cabra . وكان عسكر اشبيلية قد انضموا الى بقية عسكر المرابطين بهدف مطاردة الارغونيين ، وفي هذه الاثناء كان الفونسو المحارب قد انتقل من قبرة نحو غرناطة ، وقوات المسلمين في اثره تلاحقه الى أن وصل الى فحس الرينسول ، وهناك اشتبك الفريقان في معركة ضارية أسفرت عن هزيمة المسلمين وتغل الرواية العربية الهزيمة التي أسفرت عنها المعركة في النهاية بعد أن رجحت كفة المسلمين في بدايتها بحادث وقع في معسكر المسلمين وكان مصدر للاضطراب الذي شاع فيه وتفصيل ذلك أن الامير تميم بن يوسف أصدر أمره بنقل مخيمه الى أكمة يستطيع أن يشرف منها على تطورات الموقعة فظن المسلمون أنه قرر التراجع فاضطرب المعسكر وولى كثير من المقاتلة المسلمين الادبار وترتب على ذلك حدوث الهزيمة (١٢٥) . أما الرواية النصرانية فقبرر الهزيمة بانشغال

(١٢٣) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧١ ، وانظر أيضا : مجهول ، الحلل الموشية ص ٦٨ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١١٠ ، غنان ، عصر المرابطين ، ص ١١٠ ، ص ١١١ .

(١٢٤) قبرة تقع الى الشمال الغربي من غرناطة .

(١٢٥) ابن عذارى البيان ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١١١ ، غنان ، عصر المرابطين ، ص ١١١ .

المسلمين بعد انتصارهم الأول على القوة النصرانية بتقسيم الغنائم اعتقاداً منهم بأن انتصارهم على النصارى كان حاسماً ، فانتهز الفونسو هذه الفرصة وانقض ورجاله على صفوف المسلمين كالبواشق ، وكانت الهزيمة على المسلمين (١٢٦) .

ونستدل من متابعة الفونسو زحفه الى الساحل الجنوبي للاندلس على أن انتصاره لم يكن حاسماً ، فهو لم يستغله في السيطرة على الحصون والقرى المجاورة ، فقد اكتفى بهذا الانتصار وواصل مسيرته نحو الساحل مخترباً البشرات وجاز على وادى متريل الى أن وصل الى بحر بلش ، فلما وصل اليه صنع جفنا صغيراً صاد به سمكا والظاهر أنه أراد أن يفى بنذر كان قد نذر له ووصل الى البحر المتوسط ، وما أن تم له ما أراد حتى اجتزا سلسلة الجبال من جديد متجها نحو غرناطة ، ومرت أثناء مسيرته بعدد من القرى مثل دالر وهمدان ثم المرج وقوات المسلمين تتبعه ، ولم يكن الأمر يخلو من اشتباكات مع المسلمين في بعض الأحيان كما حدث في قرية همدان ، وما زال يتابع سيره حتى وصل الى وادى آس ، وعندئذ قرر فجأة العودة الى بلاده بعد أن تبين له أن حملته لم تحقق الهدف منها وأن عسكره أصيبوا بخسائر جسيمة خلال المعارك التي خاضتها قواته مع قوات المرابطين بالإضافة الى الامراض التي سببتها برودة الشتاء القاسية ، وعلى هذا النحو قرر أن يتراجع الى بلاده وآثره أن يمر أثناء عودته بسواحل شرق الاندلس ، لدفعها نسبياً ، وهكذا اتجه الى مرسية ومن هناك اتجه شمالاً نحو شاطبة ، فبلنسية . وكان طبيعياً أن ينضم اليه عدد كبير من العناصر النصرانية في غرناطة بعد أن أدركوا اخفاقه في خطته ، وأيقنوا

(١٢٦) أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٩ .

بسوء المصير لو أنهم استمروا يقيمون في كنف المسلمين ، فيتعرضوا
لسخطهم وقسوة انتقامهم ، وهكذا لجق بعسكر الفونسو المحارب ما يقرب
من عشرة آلاف من المعاهدين . ومازال الفونسو يواصل انسحابه الى أن
وصل الى سرقسطة وقد عصف به الاعياء وأمضه التعب والارهاق خلال
١٥ شهرا قضاهما في الغزوة الاستعراضية (١٢٧) .

وقد أسفر حملة الفونسو المحارب ملك أرغون على الاندلس عن
النتائج التالية :

١ - أثبتت حملة الفونسو المحارب أن المعاهدة النصارى الذين كانوا
يتعايشون مع المسلمين في ذمة الاسلام وفي ظل سياسة التسامح التى كان
يطبقها المسلمون منذ الفتح أنهم كانوا منافقين غير موالين للمسلمين ،
وأنهم ببذلهم العون والنصرة لملك أرغون قد خانوا العهد ونكثوا بولائهم
للمسلمين مندفعين في ذلك وراء تعصب دينى أعمى بصائرهم ، ونسوا
أنهم للمسلمين أخوة ، وكان طبيعيا أن يتفرغ لهم أولوا الأمر بعد عودة
الفونسو الى بلاده ، فيعاقبوهم بما يستحقون من عقاب ممثلي للنبي
صلى الله عليه وسلم عندما خان به بنو قريظة ، وهكذا أفتى الفقيه أبو
الوليد بن رشد الجد قاضى الجماعة بقرطبة بتغريبهم ونفيهم الى المغرب
فأقر أمير المسلمين هذه الفتوى ، وصدر عهده الى جميع مدن وأقاليم
الاندلس بتغريب النصارى المعاهدين الى المغرب ، فنقل معظمهم في

(١٢٧) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٦٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ،
ج ١ ، ص ١١٢ ، ص ١١٣ ، اشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٥٠ ، غنان ،
عصر المرابطين ، ص ١١٢ .

Codera, Dec R Des. de Los Almora Vides, P. 15, 16; Terrasse, Histoire,
vol, II, p. 245; Miranda, Historia Musulmana, vol, III, p. 57, 58.

رمضان سنة ٥٢١ هـ الى المغرب ونزلوا على الأخص في مدينتي مكناسة
وسلا ، وتعرض عدد كبير منهم للهلاك والموت أثناء انتقالهم الى
المغرب (١٢٨) .

٢ - كشفت غزوة الفونسو المحارب الطويلة عن ضعف وسائل الدفاع
الاسلامي في الاندلس ، كما أثبتت سوء القيادة العسكرية للمرابطين وما
أصابها من وهن وتخاذل سيما بعد أن توفي في العقد الاول من هذا القرن
السادس أعظم قادة المرابطين وبعده الكارثة التي أصيب بها جيش
ارابطين في كتندة .

٣ - أثبتت الغزوة قصور الامير تميم في قيادة عسكر المرابطين ،
ولهذا أفتى الفقيه ابن رشد بعزله عن القيادة ، وأشار على علي
بن يوسف بذلك وتقديم قائد كفاء يمكنه أن يتصدى لقوى النصرانية في
الاندلس (١٢٩) ، غير أن الموت لم يمهل تميم طويلا بعد هذه الغزوة ، فقد
توفي قبل أن يعزله أخوه عن ولاية الاندلس ، فأسند على بن يوسف
ولاية الاندلس الى ابنه تاشفين بن علي ، وجاء تقليد تاشفين ولاية
الاندلس وقيادة الجيوش موفقا كل التوفيق ، وأثبت تاشفين بانتصاراته

(١٢٨) عن تغريب النصارى المعاهدين أنظر ، ابن عذارى ، الديان ،
ج ٤ ، ص ٧٢ ، ص ٧٣ ، مجهول ، الحل الموشية ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ص ٧٠ ،
ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ١١٣ ، ص ١١٤ ، أشباج ، تاريخ
الاندلس ، ص ١٥٠ ، ميراندا ، على بن يوسف وأعماله في الاندلس ، ص ١٧٣ ،
عنان ، عصر المرابطين ص ١١٣ ، ص ١١٤ .

Codera, Des Y Des. Los Almoravides, p. 16, F.J. Simonet : Mozarabes,
Yjuaderios des Los ciudades Hispanomusulmanas, Al Andalus, Vol. XIX,
1954, Fasc, I, p. 173-174.

(١٢٩) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٧٠ .

الكثيرة على جيوش النصرانية أنه أهل لهذا الاختيار كما أثبت جدارة في صراعه مع قوى تشتتة •

٤ - تبين لعلى بن يوسف أن أسوار الأندلس المثلثة لم تعد صالحة للصمود أمام أى غزوة يقوم بها ملوك النصرانية في أسبانيا ولهذا فقد أصدر الأمير أوامره الى ولاية الأندلس بتحسين الاسوار وترميمها وقد فرض لذك ضريبة عرفت بالتعتيب^(١٣٠) خصصت مواردها لترميم الاسوار واصلاح ما وهى منها في القواعد الكبرى للأندلس مثل المرية وقرطبة وغرناطة واشبيلية وغيرها^(١٣١) •

هزيمة المسلمين في القلعة أو القلعة سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م)

واصل الفونسو المحارب نشاطه ضد المرابطين في الثغر الأعلى وكان هؤلاء مزالوا بعدد يسيطرون على الاراضى الواقعة الى الشرق من سرقسطة ، وأهم قواعدها لاردة وافراغة ومكناسة بالاضافة الى المنطقة الممتدة على طول نهر ابرة ، حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة ، وكان الفونسو يستهدف اجلاء المسلمين عن هذه المنطقة ، ضمنا لربط مملكته بالبحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة^(١٣٢) ، فلما سقطت طركونة في أيدي القطلانيين ، لم يبق من ثغور مملكة سرقسطة سوى ثغر طرطوشة ، ازدادت رغبة الفونسو المحارب في انتزاع هذا الثغر ، الا أنه كان لزاما

(١٣٠) الادريسي ، وصف المغرب وارض السودان ومصر والأندلس .

ص ١٩٨ •

(١٣١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ •

(١٣٢) اشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ١٦٤ ، عنان ، عصر المرابطين ،

ص ١١٦ •

عليه قبل ذلك أن يقحم نفسه في صراع عنيف مع المرابطين الذين كانت لهم السيطرة الفعلية على منطقتي لاردة وإفراغة وما وراءهما من أراضي إقليم أرغون حتى مصب نهر أبرة ، وعلى الرغم من الاخفاق الذي تمخضت عنه غزوة الفونسو المصارب للاندلس ، فإنه لم يتردد في معاودة الكرة لتحقيق مشروعه . ولم يمض على حملته عامان حتى خرج في قواته من حاضرتة سرقسطة وزحف شرقا نحو نهر سنكا متجها نحو إفراغة ولاردة ، وكان عليه أن يمضى أولا الى أراضي بلنسية ، فما كادت أنباء تحركاته تصل عن طريق عمال بلنسية الى الامير على بن يوسف حتى سرى الخوف في نفس الامير وخشى أن تكون حركة الفونسو المصارب هذه المرة مماثلة لغزواته التي اخترق فيها بلاد الاندلس ، فأمر باعداد قوات من السودان تتحمل مدن الاندلس تزويدهم بالارزاق والسلاح والنفقات كل مدينة وفق امكانياتها (١٣٣) ، كما أنه وجه الحشود الاسلامية الى مدينة مرسية تعزيزا لجيوش المرابطين في اقليم شرق الاندلس .

ولم تلبث قوات المرابطين بقيادة أبي محمد بن أبي بكر بن سير اللمتوني والارغونيين أن اشتبكت في قتال عنيف في الموضع المعروف باسم القلعة أو القلاعة وذلك في شهر رجب من عام ٥٢٣هـ (١١٢٩م) وأسفر الاشتباك في البداية عن رجحان كفة المسلمين استنادا على الرسالة التي وجهها أمير المسلمين الى الامير أبي محمد بن أبي بكر وفيها يقول « كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا آمال عن الهدى والرشد سعيك . من حضرة مراكش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة . وقبله وافى كتابك تذكر فيه الميله التي كانت

(١٣٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٩ .

للعـدو - دمره الله - عليك في اليوم الذي واجهته فيه ، بعد أن كان لكم صدره ، وأتيـح لكم نصره . فأواخر الامور أبدا أوكد وأهم ، والعواقب هي التي تحمد أو تـذم « (١٣٤) ، غير أن الامور لم تلبث أن انقلبت وتحول نصر المرابطين الى هزيمة نكراء فقد فيها المسلمون ما يزيد على اثني عشر ألفا ما بين قـتيل وأسـير ، واحتوى العدو على أسـلابهم ومتاعهم ودوابهم (١٣٥) . فلما علم على بن يوسف بتلك الهزيمة كتب الرسالة التي أشرنا اليها من قبل الى الامير أبي محمد ابن أبي بكر ، يلومه على تقصيره وتفريطه في مدافعة العدو ، وفيها يقول « وان لسان العذر لـتلك الحال لقصير ، وان الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير ، توافقتم مع عدوكم ، وأنتم أو فر منه عدة وأكثر جمعا ، وأخرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعا ، وأقوى دونه دفعا ، فثبت وزللتكم ، وجد ونكلتم ، وشـد عقد عزيمته وحللتكم ، وكنتم في تلك الوقعة قرة عين الحاسـد ، وشـماتة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعا منكم لولا انثناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرجل الذي أسـلمتموه للقتل ، وفررتم ، ونصبتموهم درئية للرماح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصـدروه ، وخذلتكم من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقـداؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله ، فأنتم أشجع الناس أقفهاء وظاهـورا ، وأجبنهم وجوها ونحورا ، ليس منكم من تدفع به كريهة ، ولا عندكم في الرشـد روية ولا بديهة ، فمتى وأى وقت

(١٣٤) أورد هذه الرسالة أبو دحس مؤنس في مقالته (المـثـغـر الـاعـلى في الانـحـلس) ص ١٣٩ ، ص ١٤٠ ، كما أورد عبد الله عنان في باب الوثائق من كتابه عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٤١ - ٥٤٢ .
 (١٣٥) ابن القـطـان ، نظم الجمان ، ص ١١١ .

تفاحون : ولأى شىء بعد ذلك تصلحون ؟ » (١٣٦) .

وهناك رسالة أخرى وجهها أمير المسلمين الى قاضى بلنسية وأعيانها وأهلها عند وصول الفونسو المحارب اليها ، ، ونستدل منها على أن الفونسو بعد انتصاره فى موقعة القلعة ، تقدم نحو الشمال فى قلب ولاية بلنسية واكتسحت قواته بلدة قليلة الساحلية Cullera (١٣٧) واقتربت من ثغر بلنسية ، فاضطر قاضى هذه المدينة الى الاستنجاد بالأمير على بن يوسف فى رسالة رد عليها بكتابه الصادر من مراكش فى شعبان سنة ٥٢٣هـ (١١٢٩م) ، وفى هذه الرسالة يلح على بن يوسف بالهزيمة المخزية التى تلقاها عسكريه فى القلعة بسبب تخاذلهم وعدم أخذهم بنصحه ، ثم يبعد أهل بلنسية بالدفاع عنهم وعدم تركهم لمصيرهم ويذكر أنه أمر ولاته بالتعجيل بالدفاع وتخليصها من العدو فى أقرب وقت ، ويختتم رسالته بالدعاء الى الله بشد أزهرهم وحمود جبهتهم واسباغ الالفة عليهم (١٣٨) . وعلى الرغم من أن الفونسو كان بمقدوره مضايقة بلنسية بالحصار المتصل واقتساف المزارع والعمران . فقد اكتفى بما قام به عسكريه من أعمال التخريب والعيث والفساد . دون أن يهدف الى مهاجمة ثغر بلنسية بنفسه .

انتصار المسلمين الثالث فى افراغة

انتهاز الفونسو المحارب فرصة وفاة الملكة دونيا أوراكة وتنصيب ولدها الشاب الفونسو ريمونديس على مملكة قشتالة وظن أنه يستطيع

(١٣٦) أنظر نص الرسالة فى مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى . ص ١٢٩ - ١٤٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥٤١ - ٥٤٢ .

(١٣٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١١ .

(١٣٨) أورد رسالة أمير المسلمين الى أهل بلنسية أ. عبد الله عنان فى باب الوثائق من كتابه عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٤٣ .

بالحرب أن ينتزع أكبر عدد من حصون قشتالة اليه ولم يلبث أن دخل مع ريمونديس في حرب طويلة المدى دامت على نحو متقطع مدة أربع سنوات وانتهت بعقد هدنة بين مملكتي أرغون وقشتالة في سنة ١١٣٠م ، وبمقتضاها تنازل ملك أرغون عن الحصون التي كان قد انتزعها من مملكة قشتالة مقابل ولاية « ريوخا » التي تنازل عنها الفونسو ريمونديس ، وكان الفونسو السادس قد انتزعها من نبرة (١٣٩) . ولم يلبث الفونسو المحارب بعد انتهائه من هذا الصراع مع قشتالة أن شغل بحروب أخرى في جنوبي فرنسا ، انتهت باستيلائه على بلدة بيونة ، وكان المسلمون قد استغلوا فرصة اشتغاله بحروبه في قشتالة وجنوبي فرنسا لشن غاراتهم من لاردة وطرطوشة على أراضي أرغون و امارة برشلونة ، ولعل ذلك كان من العوامل التي دفعت الفونسو المحارب الى تصفية خصومه وماته مع الفونسو ريموندس والتفرغ لتنفيذ مشروعاته القديمة ضد المرابطين ، وكان يستهدف قبل كل شيء الى استكمال سيطرته على بقية الثغر الأعلى وهو أمر يحقق له حلمه القديم في وصل مملكة أرغون بالبحر الأبيض المتوسط وضمان سلامة الملاحة في نهر أبرة ، وعلى هذا الاساس عزم على ضم سائر ابدن الواقعة ما بين نهري الزيتون وشيقر وأهمها لاردة وافراغة ، بالاضافة الى ثغر طرطوشة الواقع على مصب نهر ابرة ، لذلك أخذ يتأهب لتنفيذ مخططة فأعد حشود هائلة اشترك فيها عدد كبير من الفرنجة على نحو ما حدث عند استيلائه على سرقسطة ، وكان من المنطقي أن يبدأ بمهاجمة المدن الداخلية الواقعة بين النهرين سالفى الذكر ، فشرع بمهاجمة مدينة مكنسة وتمكن من الاستيلاء عليها في أواخر سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) بعد أن قاومته طويلا ثم اتجه الفونسو بعد ذلك الى

(١٣٩) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٠ - ١٦٢ .

الاستيلاء على مدينتي افراغه ولاردة ، وكان الاستيلاء عليهما أمرا
عسيرا للغاية سيما افراغه لموقعها المنيع في نهاية ربوة عالية وعرة المسالك
لاترام (١٤٠) .

وكان قادة المرابطين بعد وقوفهم على حقيقة نوايا الفونسو المحارب
قد قرروا تهديد امارة برشلونة ليتفرغوا لمواجهة تحركات ملك أرغون ،
ولهذا فقد عقدوا الصلح مع رامون بيرنجير الثالث أمير برشلونة مقابل
جزية سنوية مقدارها اثني عشر ألف دينار ، فلما علم الفونسو المحارب
بهذا الصلح غضب وصرح بقوله : « هؤلاء العمال الصناع يؤدون الاتاة
للمصانع الفاعل ، ولو أعطوني أنا درهما واحدا لأخذته ، ويعلم أني
قهرتهم وغلبتهم وحلف بايمان مغلظة عنده لأنزلن على تلك البلاد التي
يؤدين عليها الجزية ، فأصيرها في ملكي ، وأقطع عن الفاعل الصانع
البرشلوني ، حتى يعلم أهل الارض أني قهرتهم في كل وجه » (١٤١) .

فرض الفونسو المحارب الحصار على مدينة افراغة في رمضان سنة
٥٢٨ هـ (يولييه ١١٣٤ م) ويؤكد الحميري أن ابن ردمير (الفونسو
المحارب) آلى على نفسه ألا يبرح افراغه حتى يأخذها عنوة (١٤٢) ،
فقاومته حاميتها وصمد أهلها لحصاره بقيادة واليها سعد بن محمد
بن مردنيش فلما ضيق عليهم الفونسو الخناق ونضبت مواردهم كتبوا
الى أبي زكريا يحيى بن علي بن غانية والي مرسية وبلنسية ، بطلب
الانجاد والاقوات ، وأنذروه في كتابهم بأنه اذا لم يسرع لنجدتهم سلموا

(١٤٠) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٤ .

(١٤١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٩ ، ص ٢٢٠ .

(١٤٢) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٤ .

مدينتهم لابن ردمير » فلما قرأ كتابهم حشد حشوده ، وأعتق عبيده ، وكتب وصيته ، فقال له بعض خاصته تغزو بهذا العسكر وليس للمسلمين عسكر بالاندلس سواء ؟ فكيف تلقى على بن يوسف بعد اليوم وقد انهزمت ؟ فقال لهم فليصنع بى ما شاء » (١٤٣) ، كما هرع الى نجدة افراغة الزبير بن عمرو اللثمونى من قرطبة فى ألفى فارس ومعه كميات وفيرة من المؤن والاقوات ، كما هرع اليها عبد الله بن عياض والى لاردة فى مائتى فارس (١٤٤) .

كان الفونسو المحارب مصرا على افتتاح افراغة مهما كلفه الامر ولهذا أقسم تحت أسوارها أن يفتتحها ، واذكاء لحماس عسكره ، أمر باحضار رفات القديسين وأن يتولى الاساقفة والرهبان القيادة اقتداء بالقواميس (١٤٥) وما كادت قرأت المرابطين القادمة من بلنسية ومرسية ولاردة تصل الى افراغة حتى دارت معركة ضارية بين قوات أرغون وحلفائهم وبين عسكر المرابطين وتشير الرواية العربية الى أن الفونسو المحارب استهان بقوات المرابطين القادمة لنجدة افراغة واكتفى بأن سير فرقة من عسكره لمقارعة المسلمين ، فلما اقتربوا منهم تصدى لهم عبد الله بن عياض والى لاردة ، وأوقع بهم الهزيمة ، فلما عاين الفونسو انهزام فرقتهم لم يتردد فى أن يمضى على رأسه قواته لمقاتلتهم فتصدى له يحيى بن غانية وعبد الله بن عياض ، ودارت معركة عنيفة مروعة وأذرع المسلمون فى صفوف النصارى وقتلوا منهم أعدادا هائلة فانتهز أهل

(١٤٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٠ ، ص ٢٢١ .

(١٤٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٥١ .

(١٤٥) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ، أشباح ، تاريخ

الاندلس ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

افراغة الفرصة وفتحوا أحد أبواب مدينتهم ، وتدفعوا من خلاله ثم انقضوا على عسكر الارغونيين وسحقوهم سحقا ، واستولوا على ما في المعسكر من المؤن والسلاح والعدد وانتهت المعركة بهزيمة نكراء منى بها الفونسو المحارب وعسكره (١٤٦) . وتشير الرواية المسيحية الى أنه على أثر وصول الجيش الاسلامى الى افراغه ، اشتبك معهم النصارى فى معركتين ، دارت الدائرة فيهما على المسلمين ، فدب اليأس فى نفوس أهل افراغه وعرضوا على الفونسو المحارب تسليم مدينتهم مقابل بعض الشروط ولكن الفونسو أبى الا أن يدخلها بالسيف ، فثارت نفوس أهالى وبلغ بهم الحماس مبلغا كبيرا فاندفعوا على قوات النصارى يقاتلون قتال الموت ، فنصبوا كميناً استدرجوهم اليه ثم انقضوا عليهم ومزقوهم شر ممزق ، وتحولت الهزيمة الى نصر وأصبح المسلمون يملكون زمام المعركة واثخنوا فى عسكر النصارى فهلك منهم عدد هائل من بينهم جمهرة من الفرسان الفرنسيين والقوامس وأسقفا روبة ووشقة وقسم كبير من الجيش (١٤٧) .

وأيا ما كان الأمر فقد كانت موقعة افراغة فى رمضان سنة ٥٢٨هـ (١٤٨) من المواقف المشرفة لدولة المرابطين وصفحة مشرقة فى تاريخهم العسكرى ، ولم تكن فى أهميتها أقل من وقعة الزلافة اذ حققت للمرابطين انتصارا حاسما .

(١٤٦) ابن القطان ، نفسه ، ص ٢٢٢ ، ابن الاثير الكامل ، ص ٣٥١ ، مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، ص ١١٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٣ .
(١٤٧) أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٥ ، وأنظر أيضا مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١١٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٧٣ .
(١٤٨) تختلف المصادر العربية فى تحديد تاريخ معركة افراغة ، فابن القطان يضعها فى عام ٥٢٩هـ ، وابن الاثير فى عام ٥٢٩هـ ، ابن عذارى فى =

وتختلف الرواية الاسلامية والمسيحية حول مصير الفونسو المحارب فالرواية الاسلامية تشير الى أن الفونسو قد مات مهموما بعد المعركة بعدة أيام أو شهور • فابن القطان يقول : « وفر اللعين ابن رذمير في شرذمة قليلة جدا ولحق بمدينة سرقسطة واله العقل ، مخبول الذهن ، ثم خرج منها الى وشقة ، فأقام بها مختبلا أشهر قليلة ، وحان أجله الى نار الله الحامية » (١٤٩) ، وفي حين يؤكد ابن الاثير أنه لحق بمدينة سرقسطة ، فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مفجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة (١٥٠) ، أما ابن عذارى فيؤكد أنه بقى أياما بعد المعركة ومات بسبب مرض أصابه (١٥١) ، ولا يحدد عبد المنعم الحميري الفترة التي قضها حيا بعد هزيمته في افراغه ، ويكتفى بالاشارة الى أنه آوى الى حصن خرب في رأس جبل شاهق ، مع من بقى معه من فلول جيشه ، ثم تسلل من هذا الحصن أثناء الليل عندما أحرق به المسلمون (١٥٢) أما الرواية المسيحية فتختلف هي الأخرى في تحديد مصير الملك الفونسو

عام ٥٢٨ هـ ، والحميري في عام ٥٢٥ هـ • أما الروايات المسيحية فتجعلها في السابع عشر من يولييه سنة ١١٣٤م وهذا التاريخ يوافق رمضان ٥٢٨ هـ • أنظر : ابن القطان ، نظم الجبان ، ص ٢١٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٣٥١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٣ ، الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٤ ، أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٥ ، غنان ، عشر انرابطين ، ص ١٢٣ ، ص ١٢٤ •

Codera, Dec. Y Des. de Los Almoravides en Espana p. 16-18; Lofuente (M); Historia general de Espana, p. 243; Miranda, Historia Musulmana De Valencia, vol, III, p. 82-84.

(١٤٩) ابن القطان ، نظم الجبان ، ص ٢٢٣ •

(١٥٠) ابن الاثير الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٥١ •

(١٥١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٣ •

(١٥٢) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٥ •

المحارب ، فهناك مؤرخ قطلاني معاصر للأحداث يؤكد أن الفونسو فر عقب هزيمته بصحبة فارسين ، ولاد بدير القديس « خوان دى لابنيا » بسرقسطة ، حيث أمضه الحزن واعتصره الألم فمات بعد مضي ثمانية أيام فقط من الواقعة في ٢٥ يولييه سنة ١١٣٤م^(١٥٣) ويتفق هذا المؤرخ في روايته مع رواية ابن الاثير فيما يتعلق بلجوء الملك الفونسو المحارب الى سرقسطة * وهناك رواية مسيحية أخرى خلاصتها أن الفونسو لما عاين الكارثة التي أصابت جيشه فكر في أن يقذف بنفسه في المعمة ليلقى حتفه ولكن أسقف أرقلة نهاه عن ذلك ، ففر بصحبة ستين من فرسانه لم ينج منهم سوى عشرة ، ثم أنه حشد حشودا أخرى من فلوله عاد بهم الى ساحة المعركة على وجه السرعة تجنباً للهزيمة الا أنه لم يلبث أن وقع في كمين نصبه له المسلمون في ٧ سبتمبر سنة ١١٣٤م (٥٢٨ هـ) ، فسقط صريعا في ميدان القتال وقتل معه نحو ثلاثمائة من فرسانه^(١٥٤) * ونرجح أن تكون الروايات الاسلامية أقرب الى الحقيقة التاريخية ، فمن المعقول أن تكون وفاته قد حدثت بعد الهزيمة بفترة من الوقت اما أن يموت في ساحة المعركة دون أن يعثر على جثته بين جثث الضحايا فأمر مستغرب ، وقد دفع ذلك بعض الباحثين الى الاعتقاد بأنه توفي بعد هزيمته في افراغه^(١٥٥) *

وباختفاء صورة الفونسو المحارب من مسرح الاحداث السياسية في

(١٥٣) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٥ . وانظر أيضا عنان ، عصر
الراشدين ، ص ١٢٤ .

(١٥٤) أشباخ ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١٥٥) Codera, Dec. Y Des. 19; Terrasse, Histoire du Morac, vol, (١٥٥)
III, p. 245.

الاندلس تلاشى الخطر الذى كان يتهدد بقية قواعد الثغر الأعلى الى حين . والحقيقة أن الفونسو الاول المحارب كان من أعظم الشخصيات البطولية فى تاريخ أسبانيا المسيحية ، فاسمه يقترب بفتح سرقسطة ، كما أن اسم الفونسو السادس ملك قشتالة يقترب بفتح طيطة ، ولهذا عد من عظام ملوك أسبانيا المسيحية ، ولا يختلف مؤرخو العرب فى نعتة بشدة البأس والمثابرة على حرب المسلمين (١٥٦) .

أما فيما يتعلق بالآثار التى ترتبت على انتصار المرابطين فى افراغة فأولها أنه أعاد للمرابطين هيبتهم العسكرية وأبرز بعض قادة المسلمين ومنهم يحيى بن غانية بطل افراغة . وثانيها أنه أبعد شبح الخطر عن الاندلس لبعض الوقت وأوقف حركة المد المسيحى على حساب أراضى الاسلام ، على أن المرابطين أخطئوا فى عدم افادتهم من هذا الانتصار الساحق ، وكان فى وسعهم أن يستردوا سرقسطة نفسها لو أنهم عجلوا بمحاصرتها فور وفاة ملك أرغون وارتباك صفوف عسكر النصرانية فى أعقاب الهزيمة ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وبذلك فوتوا فرصة ذهبية ، وكما يذكر الاستاذ عنان ارتكبوا خطأ عسكرياً فادحاً فى احجامهم عن استرداد سرقسطة (١٥٧) .

(١٥٦) وقد وصف ابن الاثير الفونسو المحارب ققال : (وكان من أشد دلوک الفرنج بأسا ، وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا) .
نظر : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٥١ .
(١٥٧) عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٢٦ .

مع مملكة البرتغال

في نفس الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تحاصر طليطلة في عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م) ، وجه الامير على بن يوسف في بداية سنة ٥٠٤هـ (١١١٠م) حملة بقيادة الامير سير بن أبي بكر اللمتوني والى اشبيلية صوب الغرب الى اراضي البرتغال (١٥٨) . وكانت هذه المملكة النضرانية الجديدة الناشئة في كنف قشتالة قد بدأت في ظل أميرها هنري البرجونى Enrique de Borgona صهر الفونسو السادس ملك قشتالة وزوج نريسا ابنته غير الشرعية تنمو وتقوى سريعا ، وكانت قاعدتها يومئذ مدينة قللمرية ، وقد استغل البرتغاليون حالة الركود السياسى التى سبقت وفاة يوسف بن تاشفين وأخذت تنتهج سياسة توسعية في غرب الاندلس فاستولت على عدد من قواعد الغرب مثل يابرة وشنترة وشنترين (١٥٩) بل ان صاحب روض القرطاس يذكر أن سير بن أبي بكر والى اشبيلية تمكن في عام ٥٠٤هـ (١١١٠م) من استرجاع بطليوس والبرتغال ويابرة وشنترين وأشبونة (١٦٠) ، وينكر الاستاذ محمد عبد الله عنان فتح بطليوس ويؤكد أنها ظلت منذ سقوط أسرة بنى الافطس تابعة لدولة المرابطين ، أما مدينة البرتغال فلم يحدث أن افتتحتها قوات المرابطين في هذه الحملة المذكورة ولم تصل قواتهم اليها (١٦١) .

-
- (١٥٨) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٢ ، السلاوى ،
الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٥ .
(١٥٩) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٣٩ .
(١٦٠) ابن أبى زرع ، ص ١١٢ .
(١٦١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٧٠ .

وأيا ما كان الأمر عقد توغل سير بن أبى بكر فى أراضى البرتغال وتمكن من استرجاع مدن يابرة وأشبونة وشنتره وشنترين^(١٦٢) ، هذا وقد وصلت إلينا رسالة وجهها سير الى على بن يوسف يبشره فيها بفتح مدينة شنترين ويبين له أدميتها جاء فيها « وهذه القلعة التى انتهينا الى قرارها ، واستولينا على أقطارها ، أرحب المدن أمدا للعيون وأخصبها بلدا فى السنين ، لا يريمها الخصب ولا يتخطاها ، ولا يرومها الجذب ولا يتعاطاها ، فروعها فوق الثريا شامخة ، وعروقتها تحت الثرى راسخة ، تنبأى بأزهارها نجوم السما ، وتناجى بأسرارها أذن الجوزا ، مواقع القطار فى سواها مغبرة مربدة ، وهى زاهرة ترف انداؤها ، ومطالع الانوار فى حشاها مقشعرة مسودة وهى ناضرة تشف أضواؤها ، وكانت فى الزمن الغابر ، أعيت على عظيم القياصر ، فنازلها بأكثر من القطر عددا ، وحاولها بأوفر من البحر مددا ، فأبت على طاعته كل الباء ، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصاء ، ومردت مرود مارء على الزبا ، فأمكننا الله تعالى من ذروتها ، وأنزل ركبها لنا عن صهوتها »^(١٦٣) ولم يكتف سير بما حققه من انتصارات وفتوحات ، بل واصل تقدمه نحو الشمال حتى وصل على مقربة من مدينة قلمرية عاصمة المملكة^(١٦٤) .

وكانت للهزائم المتتالية التى تلقاها المرابطون فى الاندلس على أيدي القشتاليين وخاصة فى سنوات ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ هـ أسوأ الاثر فى نفسية الامير على بن يوسف فصمم على العبور بنفسه على رأس قواته الى

(١٦٢) ابن بى زرع ، المصدر السابق ، ص ١١٢ ، السلاوى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، أشباح ، المرجع السابق ، ص ١٤١ ، عنان ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١٦٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٧ ، ١٨٧٨ .

الاندلس ، وقد قضى فصلى الخريف والشتاء لحشد الجيوش والتزود بالسلاح والعدد والآلات ، فلما اكتمل له ذلك جاز الى الاندلس في أواخر المحرم سنة ٥١١ هـ (مايو ١١٧ م) ، ووفقا لرواية صاحب البيان المغرب توجه فور عبوره المجاز الى مدينة اشبيلية حيث وافته قوات المغرب والاندلس ، كما أقبلت اليه وفود الفقهاء والعلماء من قرطبة وجموع هائلة من غرناطة (١٦٥) ، فلما تكاملت الحشود خرج بها لغزو مدينة قلمرية بالبرتغال ، فلما وصل الى أحوازها شرع في احكام الحصار عليها ابتداء من ٢٨ من المحرم سنة ٥١١ هـ واستمر يحاصرها ٢٠ يوما حتى ١٨ صفر (١٦٦) ، ونستدل من الرواية النصرانية أن عليا تمكن من اقتحامها عنوة في ١٨ صفر المذكور (١٦٧) ، كما نستدل من رواية ابن عذارى على أنه افتتح قلمرية بالفعل ولكنه لم يحتفظ بها طويلا فما كاد ينصرف عائدا الى اشبيلية حتى استردها البرتغاليون ، كذلك يؤكد ابن عذارى أن قوات المرابطين بقيادة كل من عبد الله بن فاطمة ، والمنصور بن الافطس غزت منطقة الغرب وأثخنت في أراضي النصارى وألحقت بها الخراب والدمار ثم عادت الى اشبيلية مثقلة بالسبي والغنائم (١٦٨) .

(١٦٤) اشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٠ .

(١٦٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ٦٤ ، وأنظر أيضا ميراندا على بن يوسف وأعماله في الاندلس ، ص ١٦٨ .

(١٦٦) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ميراندا ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

Codera, Dec. Y Des. p. 22-23.

(١٦٧)

(١٦٨) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٦٤ .

والمنصور هذا هو ولد عمر المتوكل بن الافطس صاحب بطليوس على عصر الطوائف وكان المنصور قد فر هاربا الى قشتالة عقب دخول المرابطين بطليوس وقتلهم لوالده وأخويه وذكروا أنه اعتنق النصرانية ولكنه لم يلبث أن عاد الى طاعة أمير المسلمين ، فرحب به وأكرمه ، وجعله قائدا لاحدى فرق عسكر المرابطين .

راجع (ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٠) .

مع قطلونية

في صفر سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) خرج القائد المراتبي الكبير (أبو عبد الله محمد بن الحاج والى سرقسطة على رأس حملة موجهة ضد امارة برشلونة وكانت هذه الامارة تابعة آنذاك للأمير رامون بيرنجير الثالث Roman Berenger III وانضم القائد المراتبي محمد بن عائشة الى قوات ابن الحاج في تلك الغزوة ، وفي أثناء زحفهما الى برشلونة ، مرت هذه القوات بحصن ثرفيرا Cervera فخربته ، كما أغارت على ظاهر برشلونة فدمرت أرباضها وانتسفت زروعها وغنمت غنائم كثيرة ولكنها أخفقت في الاستيلاء على برشلونة لحصانتها (١٦٩) ، ثم واصل ابن الحاج زحفه غربا بعد أن أرسل السبى والغنائم مع القسم الأكبر من جيشه لتعود من الطريق الرئيسى الكبير في حين سلك هو بمن معه من العسكر طريقا جبليّة خفيقة تؤدي مباشرة الى سرقسطة ولكنه ما كاد يقطع مسافة من هذا الطريق حتى أطبق عليه عدد كبير من قوات النصارى ترصدت له في كمين ، فقاتلهم قتالا ضاريا حتى سقط صريعا ، فاستشهد كما استشهد معه معظم قواته ، ولم ينج سوى ابن عائشة في قلة من أصحابه وان كان قد أصيب إصابة أفقدته بصره فيما بعد ، وتعرف هذه

(١٦٩) مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى فى عصر المراتبين ، ص ١١٢ ،
مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المراتبين ، صحيفة معهد الدراسات
الاسلاميه فى مدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ - ٢ ، ١٩٥٩ م ، ص ١٢٨ .

المعركة في المصادر العربية بموقعة البورت (١٧٠) ، بينما يعرفها مؤرخو
المسيحيين باسم كرونجستدي مارتوريل Congest del Martorell (١٧١) .
ما كاد على بن يوسف يبلغه ذلك حتى بادر بتقليد صهره الامير أبي بكر
بن ابراهيم بن تافلويت المصوفي والى مرسية ولاية بلنسية وطرطوشة
وسرقسطة ، وأمره بالسير لغزو برشلونة انتقاما لمقتل ابن الحاج ،
فجمع ابن تافلويت سائر قواته واتجه بهم شمالا الى برشلونة مخترقا
بلاد تطلونية نائرا الدمار في كل موضع تطرقه قواته الى أن وصل الى
برشلونة فحاصرها مدة عشرين يوما ، واضطر أميرها رامون بيرنجير الى
الخروج لقاتلته في قوات برشلونة وأربونة واشتبك الفريقان في قتال
عنيف أسفر عن مقتل عدد كبير من عسكر الجانبين وبلغت خسائر
المسلمين نحو سبعمائة قتيل ، واضطر المسلمون بعدها الى الانسحاب
نحو دار الاسلام (١٧٢) .

(١٧٠) ابن الأبار ، التكملة ، ج ١ ص ٢٩ ، وانظر أيضا ابن عذاري ،
البيان ، ج ٤ ، ص ٦١ .

Codera, Dec. Y Des. p. 20-22.

(١٧١)

مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسي ، ص ١١٢ ، مكى ، وثائق تاريخية
جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، عنان ، عصر المرابطين ،
ص ٧٥ .

(١٧٢) مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١١٢ ، ص ١١٣ ميراندا ، على
بن يوسف ص ١٦٧ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٥ .

(ب) العلاقات بين المرابطين والصنهاجيين في المغرب الأدنى والوسط

مع بنى زيرى فى المغرب الادنى

من المعروف أن كلا من الزيريين والمرابطين صنهاجيون فهم ينتمون الى قبيلة صنهاجة البربرية ، بل كان يطلق عليها الزيريين صنهاجة الشمال ، وعلى المرابطين صنهاجة الجنوب ، ونظرا لتلك الصلات القبلية التى تجمع بينهما ، فان المرابطين عندما شرعوا فى توسيع دائرة نفوذهم السياسى فى المغرب اقتصرُوا على القسم الغربى من المغرب الاوسط تجنباً للاضطدام مع بنى عمومته بنى زيرى فى المغرب الاردنى وبنى حماد فى القسم الشرقى من المغرب الاوسط .

وهكذا سادت العلاقات بين دولة المرابطين ودولة بنى زيرى روح الود والصداقة وتنعكس هذه العلاقات فى الكتاب الذى وجهه يوسف بن تاشفين الى تميم بن المعز بن باديس بالمهدية يصف له فيه جهوده فى فتح بلاد المغرب وجوازه الى الاندلس لجهاد النصارى ، وانتصاره على الفونسو السادس ملك قشتالة فى موقعة الزلاقة المشهورة عام ٥٧٩ (١٠٨٦م) (١٧٣) ، كما تتجلى هذه العلاقات الودية فى استعانة الزيريين بأسطول المرابطين لمواجهة الخطر النورمندى الذى كان يتهدد سواحل الدولة الزيرية ، وكان النورمنديون قد استقروا بادىء ذى بدء

(١٧٣) انظر نص هذا الكتاب الذى أرسله يوسف بن تاشفين الى تميم بن المعز بن باديس ، لآ باب الوثائق من كتاب حول الطوائف ، للاستاذ محمد عبد الله عنان ، ص ٤٤٦ - ٤٥٠ .

في قلورية ، ثم بدأوا يتدخلون في شئون صقلية عندما استنجد بهم ابن
الثمثة الملقب بالقادر بالله صاحب طرابنش Trapani ضد صهره القائد
ابن الحواس على بن نعمة صاحب قطانية و سرقوسة ، سنة ٤٤٤ هـ
(١٠٥٢ م) ، وأسفر دخول النورماندين على مسرح أحداث صقلية عن
ضياع هذه الجزيرة من أيدي المسلمين ، اذ تمكن روجار الاول من بسط
سلطانه على الجزيرة تدريجيا الى أن تمكن في سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م) من
تلك الجزيرة كلها باستثناء قصر يانة التي سقطت نهائيا في سنة ٤٨٤ هـ
(١٠٩١ م) * ومن صقلية تطلع النورمندين للسيطرة على المهدية (١٧٤) .

وكانت العلاقات قد ساءت بين الزيريين والنورمندين على عهد 'الامير
على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وكان سبب ذلك خلافا حدث
بين الامير الزيري ورافع بن كامل بن جامع الرياحي واليه على مدينة
قابس ، بسبب رغبة الاخير في احتكار التجارة البحرية ، وكان رافع قد
حصل على موافقة الامير يحيى بن تميم ومساعدته على القيام باحتكار
التجارة البحرية ، ومع ذلك فان على بن يحيى بن تميم لما تولى الحكم
عارضة في هذا المشروع وقال : « لا يكون لأحد من أهل افريقية أن
يناوئني في اجراء المراكب في البحر بالتجار » وأدى الخلاف بينهما الى
خروج على بن يحيى لحصار رافع في قابس سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م)
فاضطر رافع الى الاستعانة برجار الثاني صاحب صقلية وطلب نصرته
ولم يتردد رجار في العمل على مساعدته وأمد رافع بأسطول صقلية
يتكون من ٢٤ سفينة أغار به على المهدية ، فلما علم على بن يحيى
بخروج هذا الاسطول النورمندي ، أخرج أسطوله من قاعدته البحرية

(١٧٤) انظر : سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٧٤ .

المهدية وأبحر به نحو قابس ، وتمكن على بن يحيى من أيقاع الهزيمة بأسطول صقلية^(١١٥) ، فبادر هذا الأسطول الصقلى بالانسحاب ، وعلى أثر ذلك ترك على بن يحيى حصار قابس وعاد مرة أخرى الى المهدية ، غير أن رافع لم يلبث أن تمادى في معارضته لعلى بن يحيى وجمع قبائل العرب ثم زحف بهم حتى نزل على المهدية وأحكم عليها الحصار ، ولكن الأمير الزيرى لم يتردد في اخراج عسكره لملاقاة قوات رافع ، فحملوا عليهم حملة عنيفة ، وألحقوا بهم الهزيمة ، فلما عين رافع عدم قدرته على مواجهتهم انسحب ليلا الى مدينة القيروان ، فمنعه أهلها من دخولها ، فقتلهم أيما قاتل ثم دخلها ، فأرسل على بن يحيى اليه عسكرا من المهدية ، حاصروه بها الى أن خرج عنها وعاد الى قابس ، ثم أن جماعة من زعماء افريقية من العرب وغيرهم ، سألوا عليا في الصلح مع رافع ، فامتنع ثم لم يلبث أن وافق وتم عقد الصلح بينهما^(١١٦) .

كانت استجابة رجار الثانى السريعة لمساعدة رافع بن مكن عاملا في تدهور العلاقات النورمندية الزيرية ، فقد أخذ كل منهما يتحسرس من الآخر ، وعمد رجار الى مفاجأة على ، فقد ذكر ابن عذارى أن رجار صاحب صقلية أرسل في عام ٥١٢م رسولا الى الأمير على بن يحيى « يلتمس تجديد العقود . وتأكيد العهود ، ويطلب أموالا كانت له موقفة

(١٧٥) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٧٨ : ص ٢٧٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، ص ٢٣٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٧٧ ، ص ٦٧٨ .

(١٧٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٧٨ ص ٢٧٩ ، ابن عذارى ، النبيان ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، ص ٣٣٠ ، امبرتوريتسيتانو ، العلاقات بين النورمنديين وبني زيرى من الفتح النورمندى لصقلية حتى وفاة روجيرو الثانى ، فصله من مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، ج ١ ، مايو ١٩٤٩م ، ص ١٣ ، ص ١٤ .

بالمهدية وذلك بعنف وغلظة • فرد على رسوله دون جواب وجبهه بالقول ،
فترايدت الوحشة بينه وبين رجار « (١٧٧) • ومنذ ذلك الحين شرع على
بن يحيى فى دعم أسطوله وتقويته واعداده ليكون على أهبة الاستعداد
لمواجهة أى تهديد من جانب النورمنديين ، كما كاتب فى نفس الوقت
المرابطين بمراكش للاجتماع معه على دخول صقلية ، وكف رجار عما
يعتزمه (١٧٨) •

توفى الامير على بن يحيى فى عام ٥١٥هـ (١١٢١م) وخلفه ابنه
الحسن آخر أمراء بنى زيرى ، وحدث فى أوائل عهده أن قام أبو عبد الله
ميمون أمير البحر المرابطى فى عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) بالاغارة على جزيرة
صقلية ، فافتتح مدينة نقوطره Nicotera من عمل رجار الثانى صاحب
صقلية ، وسبى نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجده
فيها • فلم يشك رجار أن المحرك لذلك والمسبب له « هو الحسن بن على
أمير افريقية لما تقدم بينه وبين أبيه من الوحشة العظيمة ، فاستقر أهل
بلاد الروم قاطبة ، فالتأم له ما لم يعهد مثله كثرة ، فعلم بذلك الحسن
بن على ، فأمر بتشديد الاسوار ، واتخاذ الاسلحة ، وحشد القبائل ،
واستقدام العرب ، فجاءت الحشود من كل جهة ومكان ، والناس
متأهبون لما يطرقهم منهم » (١٧٩) •

جعل رجار الثانى جرجى الانطاكى ، وعبد الرحمن بن عبد العزيز

(١٧٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧ •

(١٧٨) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٣١٢ ، ابن عذارى ، المصدر

السابق ، ج ٤ ، ص ٦٧ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٣٠ ، سالم ،
انغرب الكبير ، ص ٦٧٨ •

(١٧٩) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، وانظر أيضا

سالم ، المرجع السابق ، ص ٦٧٨ ، ص ٦٧٩ •

على قيادته تلك الحملة النورمندية على المهدي . وكان جرجى هذا وأبوه ميخائيل من نصارى أنطاكية . وكان قد انتحى ببلاط الأمير تميم بن المعز بن باديس ، ولما توفي الأمير تميم رحل جرجى إلى صقلية حيث استخدمه الملك رجار الثانى فى بلاطه واستقبله أحسن استقبال ، ولم يكتف بذلك بل عهد إليه بكثير من المهام التجارية والحربية وأسند إليه قيادة أسطوله (١٨٠) . خرجت حملة رجار الثانى فى . ذو ثلاثمائة جفن تحمل ثلاثين ألف من المشاة وألف فارس . وفى أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣م) وصل الأسطول الصقلى إلى ساحل إفريقية فافتتح جرجى جزيرة قوصرة . ثم قصد بأسطوله إلى ساحل المهدي ، واستقر على جزيرة الاحاسى وقصر الديماسى فى الثانى من جمادى الآخرة . إذ أن المسلمين تمكنوا من دخول جزيرة الاحاسى ، فانهزم الروم إلى سفنهم ، ثم حاصر المسلمون قصر الديماس . فاضطر عسكر صقلية إلى طلب الأمان من الأمير الحسن بن على ، ولكن العرب الذين اشتركوا فى تحرير الجزيرة رفضوا ذلك . فخرج الصقليون من القصر فى منتصف جمادى الآخرة . فأخذتهم أسیوف ، وأبيدوا عن آخرهم . وأقلع الروم بمن فر من الجزيرة منهم فى السفن عائدین إلى صقلية (١٨١) .

وقد أشاد الشاعر الكبير ابن حمد يس الصقلی بانتصارات المسلمين، وبالهزيمة التى منى بها أولئك الذين جرؤا على مهاجمة المهدي ، فقال مخاطبا الأمير الحسن بن على :

(١٨٠) ابن خلدون . العيبر . ج ٦ ص ٣٣٠ ، ص ٣٣١ ،
امبرنوريتسيتانو . العلاقات بين النورمنديين وبى ربرى . سالم . المغرب
الخبير ، ص ٦٧٩ .

(١٨١) ابن عذارى . البيان . ج ١ . ص ٢٠٩ . ابن خلدون ، المصدر
السابق ، ص ٣٣١ . سالم . المغرب الكبير . ص ٦٧٩

أبى الله ألا يكون لك النصر وان يهدم الايمان ما شاده الكفر
وأن يرجع الاعلاج بعد علاجها خزايا على آثارها الذل والقهر

وقال أيضا :

أتوا بأساطيل تمر كأننها جراد مظل ضاق عن عرضه البحر
وخيل حشوا منها السفين ولم يكن لها في مجال الحر كر ولا فر
وقد ركبت فرسانها صهوتها فأرجلهم عنها التذلل والذعر
فسل عنهم الديماس تسمع حديثهم فهم بالمواضي في جزيرة جزر
وما غنموا الا منى كذت لهم وكان لهم بالقصر عن نيلها قصر (١٨٢)

والظاهر أن الحسن بن علي أرسل أثناء الحصار البحرى الذى فرضه
الاسطول الصقلى على المهديّة ، فى طلب العون من أمير المسلمين على بن
يوسف ، فسارع هذا بإرسال أسطول للمرابطين بقيادة عبد الله بن
ميمون ، والظاهر أيضا أن هذا الاسطول المربطى قد وصل الى سواحل
المهديّة عقب هزيمة الصقليين وقرارهم الى بلادهم ، فلم يشأ ابن ميمون
أن يعود الى بلاده خالى الوفاض ، دون أن يقوم بعمل ما يثاب عليه، فلم
يتردد فى الاغارة على جزيرة صقلية ، والعيث فى نواحيها ، وقفل عائدا
الى قواعده يحمل معه عددا كبيرا من السبايا (١٨٣) .

أدرك رجار الثانى بعد فشل حملته على المهديّة وما أعقبها من اغارة

(١٨٢) ابن حمدىس الصقلى ، الديوان ، صححه وقتم له احسان عباس .
طبعة بيروت ، ١٩٦٠م ، قصيدة رقم ١٤٣ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٧ .
(١٨٣) التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) : الرحلة ، قدم
لها حسن حسنى عبد الوهاب ، طبعة تونس ، ١٩٥٨م ، ص ٣٣٩ ، ابن
خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣١ .

الاسطول المرابطى على صقلية أن الفرصة غير مناسبة للاستيلاء على المهديّة وتقويض دعائم الدولة الزييرية ، ويشير التجاني الى أن رجار الثانى كان يعتقد بأن كل اغارة يقوم بها أسطول المرابطين على سواحل صقلية ، انما تتم بتحريض الامير الحسن بن على (١٨٤) ، وفي هذا دلالة واضحة على أن الاسطول المرابطى كان دائم الغزو لصقلية ، كذلك يشير التجاني الى التعاون العسكرى الوثيق بين المرابطين والزييريين . ومن الواضح أن الاسطول المرابطى لا يمكنه أن يثبث تلك الغارات على صقلية الا اذا كان ذلك مقترنا باتفاق مسبق مع الامير الزييرى . وهكذا ظل المرابطون يوفرون سبل الدفاع عن سواحل المهديّة الى أن سقطت دولة المرابطين على أيدي الموحدين في عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) ، فسنحت الفرصة للصقليين بعد ذلك في الاستيلاء على المهديّة في عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م) (١٨٥) .

وهكذا كان الود والتعاون يسودان العلاقات بين المرابطين والزييريين، ولم يحدث بين الدولتين حادث ما عكر صفو هذه العلاقات وواضح أن دولة المرابطين بحكم صلاتها القبلية ببنى زييرى الصنهاجين التزمت سياسة الحياد تجاه الزييريين ، وكان بإمكانها أن تضم المغربين الأدنى والاوسط اليها على النحو ما فعله الموحدون فيما بعد ولكنها آثرت الجهاد ضد اسبانيا المسيحية من جهة وشغلت بمواجهة حركة المهدي بن تومرت في المغرب من جهة ثانية ، ومع ذلك فلم تتخل تماما في سياستها نحو مساندة الزييريين عندما تعرضوا لخطر النورمنديين .

(١٨٤) التجاني ، المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .

(١٨٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣٢ ، المبادئ ، دراسات فى

تاريخ المغرب والانطلس ، ص ٣٢٧ .

(٢)

مع بنى حماد فى المغرب الاوسط

تم انقسام الدولة الصنهاجية فى افريقية والمغرب الاوسط فى عهد الامير باديس بن المنصور بن بلكين فى أواخر القرن الرابع الهجرى الى دولتين : الدولة الزيرية فى افريقية نسبة الى زيرى بن مناد الصنهاجى والدولة الحمادية فى المغرب الاوسط نسبة الى حماد بن بلكين بن زيرى .

ومن المعروف أن حماد هذا كان يعمل منذ أسندت اليه ولاية أشير^(١٨٦) فى حياة أخيه المنصور بن بلكين على الاستئثار بحكم هذه المدينة الهامة ، فلما توفى المنصور فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) وخلفه ابنه نصير الدولة باديس وكان صبيا لا يتجاوز من العمر اثنى عشر عاما أقر

(١٨٦) اشير مدينة بربرية فى طرف افريقية الغربى ، ويرجع الفصل الاون فى تعميرها الى زيرى بن مناد الصنهاجى ، وكان زيرى هذا فى بدأ أمره يسكن الجبال ولما نشأ ظهرت منه شجاعة دفعت طائفة من عشيرته الى الانضمام اليه فأغار بهم على من حوله من زناتة والبربر وتمكن من الانتصار عليهم المرة بعد المرة فعظم جمعه وطمع فى الامارة وضاق عليه وعلى صاحبه مكانهم ، فخرج يرتاد موضعا ينزله ، فرأى اشير وهو موضع مهجور مع كثرة عيونه وسعة فضائه وحسن منظره ، فاستقدم البذائين من المدن التى حوله وشرع فى انشاء اشير فى سنة ٣٢٤ هـ ، وعمل على جعلها حصنا مانعا لا هجال لدخوله الا من جهة واحدة ، ثم انتجعها أهل النواحي المحيطة بها طلبا للامن والسلامة فصارت مدينة مشهورة راجع (ياقوت) شهاب الدين أبى عبد الله الحموى (معجم البلدان ، طبعة ليبزج ، ١٨٦٧ م ، ج ١ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٦٠ ، الادريس ، صفة المغرب والانحلس ، ص ٨٥ .

عمه حماد على ولاية أشير • وقد كانت حادثة باديس من العوامل الرئيسية التي دفعت حماد الى الانفصال عن دولة ابن أخيه ، وكان قد اتفق مع باديس في سنة ٣٨٩هـ (٩٩٨م) أى فى أعقاب انتزاع أعمامه بنى زيرى عليه فى أشير ، وحركة فلل بن سعيد بن خزون الزناتى فى افريقية وطرابلس على أن يتولى باديس بنفسه محاربة فلل ، بينما يتولى عمه حماد محاربة أعمام باديس الخارجين عليه • وقد قام بالفعل بتنفيذ ما اتفق عليه مع باديس ابن أخيه ، فظل يحارب أعمام باديس حتى تمكن من التخلص من ماكسن بن زيرى وولديه محسن وباديس فى رمضان سنة ٣٩١هـ (١٠٠٠م) أما زاوى بن زيرى وابنا أخيه ماكسن وهما حباسة وحبوس فقد عبروا الزقاق الى الاندلس ولاذوا بعبد الملك بن المنصور بن أبى عامر وكانوا سببا فى الفتنة البربرية التى انتهت بسقوط الخلافة الاموية فى الاندلس (١٨٧) • وظل الوفاق يسود العلاقات بين باديس وعمه حماد الى أن تحركت قبائل زناته من جديد فى سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٤م) ، فسير اليهم عمه حماد بعد أن اشترط عليه الاخير أن يعقد له على ولاية أشير والمغرب الاوسط وكل بلاد يفتتحه وألا يستقدمه باديس • واضطر باديس الى قبول هذه الشروط المجحفة ، رغما عنه أمام الخطر الذى يتهدد دولته ويتمثل فى حركة الزناتيين • أما حماد فقد مضى الى محاربة الزناتيين وتمكن من ايقاع الهزيمة بحشودهم ثم أختط مدينة القلعة المنسوبة اليه (قلعة بنى حماد) بجبل كتامة سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٧م) وتم بناؤها فى طليعة القرن الخامس الهجرى وشيد فيها القصور والمساجد والفنادق وحاطها بالاسوار وأنزل فيها أرباب الحرف

(١٨٧) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ ، سالام تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس بيروت ، ١٩٦٢م ، ص ٣٣٦ ، وانظر أيضا قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ، ص ١٢٠ •

والصناعات^(١٨٨) ، وجعل حماد مدينة القلعة منزلا ومقرا لولايته ، وأخذ يعمل على الاستقلال عن باديس ، وأحس باديس بما يتأهب له حماد ، فأراد أن يختبر طاعته فكتب إليه طالبا أن ينزل عن عمل تيجس وقسنطينه الى المنصور بن باديس ولى العهد فأبى حماد وأظهر الخلاف ، وأعلن استقلاله بهذه الولاية وقامت الحرب بين باديس وحماد حتى وفاة باديس سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) ثم بين المعز بن باديس وبين حماد حتى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٧ م) عندما جنح حماد الى الصلح ، فتم عقده بينهما ، وبمقتضاه يستقل حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من المغرب ، وانقسمت بذلك الدولة الصنهاجية الى دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان وافريقية ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة ثم بجاية التي بنيت من جديد في عهد الناصر بن علناس بن حماد سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) .

أما عن علاقات بنى حماد بالمرابطين فلم تكن ودية تماما وانما كانت تتخللها بعض المناوشات والحروب الصغيرة نتيجة اصطدام الحماديين بسياسة المرابطين التوسعية ، فمن المعروف أن المرابطين بعد أن أقاموا دولتهم في المغرب الأقصى آثروا الانقضاخ على المغرب الاوسط للقضاء على بقايا الزناتيين لينصرفوا بعد ذلك الى فتح السهول الشمالية باطمئنان ، ولذلك بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلى في عام ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) لغزو مدينة تلمسان ، فسار اليها في عشرين ألفا من المرابطين ، فدخلها وظفر

(١٨٨) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٣٤٩ ، ص ٣٥٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٤٩ .
عن قلعة حماد انظر : البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٤٩ ، الادريسي ، ص ٨٦ ، ص ٩١ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ .
ص ١٦٣ - ١٦٤ .

بولد أميرها معلى بن يعلى المغراوي فقتله ، وفي العام التالي — ٤٧٣ هـ
(١٠٨٠ م) — قام يوسف بفتح مدينة أجرسيف ومدينة مليلة وجميع
بلاد الريف وفتح مدينة تكرر وخربها كما فتح مدينة وجده ومدينة
تونس ووهران وجبال وانثريش وأعمال شلب بأجمعها الى
الجزائر (١٨٩) .

ويعتقد الاستاذ الدكتور حسن أحمد محمود أنه لو أن الحماديين
كانوا أقوياء في هذه الفترة لكان المرابطون قد اطمأنوا الى ذلك
وانصرفوا الى فتح السهول الشمالية تاركين أمر زناتة المغرب الى بنى
عمومتهم ، ولكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن فقد اتفق في ذلك
الوقت أن عرب بنى هلال غزوا افريقية وخربوا القيروان وقوضوا ملك
بنى زيري ، ثم طرّقوا باب المغرب الاوسط وهددوا الدولة الحمادية ،
وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الاوسط الى الاقصى فيمثلوا فيه
نفس الدور ويعيثوا فيه فسادا ، كما عاثوا في افريقية من قبل ، لولا قيام
الدولة المرابطية في المغرب الاوسط التي بسطت نفوذها على النصف
الغربي من المغرب الاوسط واستطاعت أن تجنب المغرب الاقصى شر
بنى هلال ، وقد ركز المرابطون اهتمامهم على المغرب الاوسط الذي
يتحكم في الطريق الموصل الى المغرب الاقصى ، ومن مظاهر هذا الاهتمام
أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمر هذا الاقليم ولى عليه القائد
اللمتوني الشهير مزدلي ليرعى شئونه ويحرس مسالكه فلا ينفذ اليه
العرب ويطوقون باب المغرب الاقصى (١٩٠) .

(١٨٩) ابن ابي زرع روض القرطاس ، ص ٩٨ ، ص ٩٩ .
(١٩٠) حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٢٨ ، ص ٣٢٩ .

وقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيطرة على المغرب الاوسط وسعيهم الى مدافعة عرب بنى هلال الى اصطدامهم ببني حماد أصحاب القلعة ، لأن بنى حماد لم ينظروا الى توسع المرابطين في المغرب الاوسط نظرة الارتياح والرضا ولم يضعوا في اعتبارهم أن المرابطين بعد أن وصلوا الى مشارف الجزائر كان في مقدورهم أن يفتتحو افريقية نفسها لو أنهم حقا كانوا يستهدفون ذلك لأن عرب بنى هلال بيعيهم فيها قد أفسدوا عمرانها ومزقوا وحدتها وقضوا على معالم حضارتها ، ولم يمنع المرابطين من فتحها الا الإبقاء على صلات القربى التى بينهم وبين بنى حماد ، ورغم ذلك فقد ظل بنو حماد يتربصون فرصة مواتية للتعبير عن حقدهم وكراهيتهم للمرابطين ، ولذلك فقد انتهزوا فرصة عبور قوات المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الى الاندلس تلبية لنداء ملوك وأمرأ الطوائف بالاندلس ، وانشغال يوسف بالجهاد فى الاندلس ، فاستعان بنو حماد بعرب بنى هلال وأغاروا على القسم الغربى من المغرب الاوسط الخاضع للمرابطين ، وتفصيل ذلك أن المنصور بن الناصر بن علناس حاصر مدينة تلمسان وعاثت عساكره فيها ولكنه لم ينل من تحصيناتها ولم يحقق هدفه فتركها وقفل عائدا الى القلعة (١٩١) . ومن المرجح أن المنصور كان يخشى أن يتسبب حلفاؤه الجدد وهم العرب الهلالية فى تدمير بلاده ، كما فعلوا مع المعز بن باديس فى افريقية .

وعلى أية حال فمن الملاحظ أن العلاقات بين المرابطين وبنى حماد قد ساءت بعد هذه الاحداث ، ولعل ما يؤكد ذلك هو الموقف الذى وقفوه

(١٩١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٦٠ ، ص ٣٦١ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٨٨ .

مع معز الدولة بن المعتصم بن صمادح ، الذى لجأ اليهم بعد فراره من المرية قبل أن يقتحمها عسكر المرابطين ، فرحب بنو حماد بمعز الدولة ، وفتحوا أبواب بلادهم أمامه ، وأقطعوه المنصور بن الناصر بن علناس مدينة تدلس الواقعة على البحر (١٩٢) ، وقد وقفوا نفس الموقف أيضا مع ابن مجاهد صاحب مدينة دانية ، عقب فراره أمام قوات المرابطين التى كان يقودها داود بن عائشة ، فاستقبله المنصور بن الناصر ، وأحسن اليه وأكرمه (١٩٣) .

وهكذا ساد العلاقات بين المرابطين والحماديين توتر واضح المعالم ولكنه لم يؤد الى صدام مسلح بين الطرفين ، ولعل ذلك يرجع الى حد كبير الى تمسك المرابطين بصلة القرى التى تجمع بينهما وكان فى وسع المرابطين فرض سيادتهم الكاملة على دولة بنى حماد لاسيما أن خلفاء المنصور بن الناصر بن علناس كانوا من الضعف واللامبالاة خاصة فى عهد يحيى بن العزيز بن المنصور الذى قضى حياته بين العبيد والملهين والمضحكين بحيث لم يكن لديهم القدرة على مقاومة أى غزوة يقوم بها المرابطين فى أوج قوتهم ، ويمكن أن نضيف الى ما سبق أن ذكرناه أن المرابطين كانوا يحرصون على استقلال الدولتين الصنهاجيتين لأنهم أى المرابطين أنفسهم كانوا فى حالة جهاد دائم ضد قوى المسيحية فى الاندلس ، ولانشغالهم فى نفس الوقت بمواجهة أخطار داخلية أعظمها الحركة التى قادها المهدي محمد بن تومرت ، كل هذه الاسباب وضعت حدا لأى تدهور فى العلاقات المتوترة بين المرابطين وبين ذويهم بنى حماد حتى لا تتخذ شكل الصدام المسلح ، فتزداد بذلك جبهات القتال أمام المرابطين ويستحيل عليهم مراجعة العواصف والانواء .

(١٩٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، سالم ، تاريخ مدينة المرية ، ص ٨٢ .
(١٩٣) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٠٨ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٢ .

(ج) العلاقة بين دولة المزابطين والخلافة العباسية

كان من الطبيعي أن تعترف الدولة المرابطية بخلافة العباسيين ،
' إذ كان المرابطون يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه لن يعتبر ملكهم مشروعاً إلا
إذا بآركته الامامة القرشية ، ولما كانت الخلافة الاموية في الاندلس قد
سقطت ولم يعد يمثل الخلافة القرشية في ذلك الوقت الا خلافة بغداد
العباسية ، ولذا تطلع المرابطون صوب العباسيين يلتمسون منهم العون
ويستمدون التأييد والاعتراف الرسمي أو الشرعي . وقد اختلف
المؤرخون في تحديد تزيغ اتصال المرابطين بالعباسيين ، فابن الاثير
يقول ان أول اتصال بين المرابطين والعباسيين قد حدث عقب انتصار
الزلافة واستيلاء يوسف على الاندلس (١٩٤) ، ويتفق مع ابن الاثير في
هذا الرأي كل من ابن خلدون (١٩٥) والقلقشندي (١٩٦)
والذهبي (١٩٧) .

والصحيح أن المرابطين قد بدأ اتصالهم بالعباسيين قبل فتح
الاندلس بزمان طويل ، فقد نقش المرابطون أسماء الخلفاء العباسيين
على السكة المرابطية منذ عام ٤٥٠ هـ وذلك منذ عهد الامير أبي بكر
بن عمر (١٩٨) ، وظل اسم الخليفة العباسي يذكر مقروناً باسم أبي بكر
بن عمر الى أن توفي في عام ٤٨٠ هـ وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه
على السكة مع اسم الخليفة العباسي (١٩٩) ، وهذا يؤكد أن المرابطين قد

(١٩٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٣ .

(١٩٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٦٥ .

(١٩٦) القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

(١٩٧) الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢١ .

Lavoix, Catalogue de monnaies musulmanes de la Bibbiotheque
nationale, P. 198.

(١٩٩) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ .

دعوا للعباسيين قبل الزلافة ، وليس الى الشك سبيل في أن أبا بكر بن عمر لم يكتب في عملته اسم الخليفة العباسي الا بعد أن راسل الخليفة العباسي وتلقى منه اجابة بقبول طاعته وتقليدا بولايته •

ونستدل من النص الذي أورده صاحب الحل ويتعلق بتعليل تسمية يوسف بأمير المسلمين بدلا من لقب أمير المؤمنين ، ورفضه للقب الاخير بحجة أنه من ألقاب خلفاء بني العباس (٢٠٠) على أن يوسف كان يدين بالطاعة للخليفة العباسي سواء قبل الزلافة أو بعدها •

وهناك ملاحظة أخرى هي أن اسم الخليفة العباسي المنقوش على السكة المرابطية هو « عبد الله أمير المؤمنين » ، وقد ظل هذا الاسم كما هو حتى آخر العهد بالدولة المرابطية ، فكان ذلك سببا في أن بعض الباحثين أثار جدلا حول اسم عبد الله المنقوش على السكة ، فقالوا أنه قد يكون اسم عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين ، ولكن عبد الله كما نعلم لم يتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين ، ولم يكن من الممكن أن يتخذ هذا اللقب ، وهو يعلم أنه من ألقاب الخلافة ، كما أن الرجل لم يتجاوز أبدا سلطة الفقيه ، وترك أمر الحكم ومسئوليته - ليحيى بن عمر وأبى بكر بن عمر ، ولكن الرأي الصائب ما رواه العالم الاثرى الاماني فان برشم Van Berchem من أن الخلفاء العباسيين والامويين كانوا يكنون عن أنفسهم بلفظ عبد الله في النقوش أو النقود ، كما أن التقاليد الدبلوماسية كانت تقضى بعدم ذكر الاسماء المجردة ، انما اكتفت بالكنى والالقب ، لذلك لم يشأ المرابطون أن ينقشوا اسم الخليفة المجرد على السكة ، واكتفوا بقولهم (عبد الله) وهي كنية يمكن أن تخلع على أى خليفة

(٢٠٠) مجهول ، الحل الموشية ، ص ١٦ •

عباسي ، كما أضافوا الى جانبها لقب « أمير المؤمنين » وهو لقب لا يلقب به الا الخلفاء (٢٠١) . كما أن هناك ناحية أخرى وهي أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعارا لهم في ملابسهم وأعلامهم ، وهذا اللون الاسود كما هو معروف هو شعار العباسيين ، ويؤيد ذلك ما روى من أن المعتصم بن صمادح صاحب المرية أراد أن يقترب من المرابطين ، فارتدى ثوبا مرابطيا أسودا ، فكان على حد قول بعض الرواة بين فرسانه البيض « كلغراب الاسود بين الحمام الابيض » (٢٠٢) .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد اسم الخليفة العباسي الذي أرسل الى يوسف بن تاشفين تقليده واعترافه بشرعية حكمه ، فابن الاثير ذكر اسم الخليفة وهو المقتدى بالله (٢٠٣) ، أما ابن خلدون فقد ذكر أنه المستظهر بالله (٢٠٤) ، ومرة أخرى باسم المستنصر بالله (٢٠٥) ، ويؤيد ابن خلدون في روايته الأولى (أى تحديد اسم المستظهر بالله) كل من ابن الخطيب (٢٠٦) والقلقشندي (٢٠٧) والذهبي (٢٠٨) .

أما عن الرسول الذي حمل الرسالة الخلافية الى يوسف بن تاشفين فقد أشار ابن خلدون الى أنه القاضي الفقيه عبد الله بن العربي وولده

-
- (٢٠١) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ١٠٠ .
(٢٠٢) أشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ٩١ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٣٦ ، العبادي ، دراسات ، ص ١٠٠ .
(٢٠٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٣ .
(٢٠٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦١ .
(٢٠٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٦٦ .
(٢٠٦) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .
(٢٠٧) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .
(٢٠٨) الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢١ .

أبا بكر ، وقد رفع ابن العربى الى الخليفة العباسى المستظهر بالله خطابا يلتمس فيه تقليدا خلافا يخول يوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب ، كما طلب توصية من الخليفة له ولابنه أبى بكر ، فاستجاب الخليفة لهما وسلم ابن العربى وولده تقليده وعهده لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين مؤرخا فى رجب سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) ، كما حصل ابن العربى على رسالة من محمد بن جهير وزير الخليفة العباسى ، موجهة الى يوسف بن تاشفين ، وفيها تقدير لما قام به أمير المسلمين وثناء على حسن رأيه وفى نهايتها أيضا توصية بابن العربى وابنه أبى بكر ، كما حصل ابن العربى أيضا على خطاب من الامام أبى حامد الغزالى ، يتضمن مطلبين كان ابن العربى قد طلبهما من الغزالى أولهما :

استصدار فتوى حول موقف بن تاشفين من أمراء الطوائف •

وحقه فى قتال هؤلاء الامراء والظفر بأموالهم ، وحق الطاعة ليوسف بن تاشفين ، وافتوى الغزالى أهمية كبيرة ، اذ أظهرت حق يوسف بن تاشفين فى جهاد ملوك الطوائف وأفتى بشريعة حكم يوسف حتى ولو تأخر وصول تقليد الخلافة ، وطلب الامام الغزالى من الخليفة سرعة ارسال التقليد • أما المطلب الثانى فهو أن يبعث الغزالى رسالة تأييد لجهاد يوسف بن تاشفين وتأييد سياسته ، كما حصل ابن العربى من العلامة أبى بكر الطرطوشى حين مر بالاسكندرية ، وهو فى طريقه الى بلاده ، على رسالة الى يوسف بن تاشفين ، وهذه الرسالة تدور حول الوعظ والارشاد ، مؤيدة بكثير من الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية والروايات عن الصالحين وأهل الخير ، خاصة الخليفة أبر بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وغيرهما ، وقد توفى الفقيه أبى العربى فى الاسكندرية فى عام ٤٩٣هـ (١١٠٠م) ، وعاد ابنه أبو بكر دونه الى الاندلس فى نفس العام وهو يحمل رسالة

الغزالي ورسالة محمد بن جهير ورسالة الطرطوشي فضلا عن التقليد - د
ومرسوم الخلافة الى يوسف بن تاشفين (٢٠٩) •

وهكذا كان أمراء المرابطين يحصلون على وضعيتهم الشرعية من
اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم ، ولذا بمجرد أن تولى على بن يوسف
أرسل الى الخليفة العباسي يطلب الحصول على التقليد الخلافي فأرسل
اليه المستظهر بالله العباسي في عام ٥١٢هـ (١١١٨م) مرسوما بولايته ،
منوها فيه بخدماته من أجل - الاسلام (٢١٠) •

ونلاحظ من خلال هذا المرسوم أن العلاقات بين المرابطين والعباسيين
كانت علاقات روحية فقط ، بدليل أن الخليفة لم يطلب من على بن يوسف
في هذا المرسوم بأي التزام تجاه الخلافة ، بل بمزيد من الجهاد والطاعة
للخلافة فقط •

(٢٠٩) أورد الاستاذ الدكتور مختار العبادي نص الخطاب الذي رفعه ابن
العربي الى الخليفة المستظهر بالله العباسي ، يلتبس فيه تقليدا خلافيا يخول
ليوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب والاندلس ، ورد الخليفة على خطاب ابن
العربي (انظر : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ضميمة رقم (١)، ص ٤٧١
- ٤٧٧) ، كما أوردت نص الخطاب ورد الخليفة عليه عصمت دندش (انظر :
دراسة حول رسائل ابن العربي ، مجلة المذهل ، العدد ٩ ، السنة الرابعة ،
الرباط ، ١٩٧٧م ص ١٦٠ - ١٦٦) ، كما أوردت دندش خطاب الوزير ابن
جهير الى يوسف ص ١٦٦ - ١٦٩ ، كذلك أورد الدكتور العبادي خطاب ابن
العربي الى الغزالي ورد الغزالي عليه ضميمة رقم (٢) ص ٤٧٨ - ٤٨٤ ، كما
أوردتهما دندش ص ١٦٩ - ١٧٧ ، أما عن رسالة الطرطوشي الى يوسف بن
أما عن رسالة الطرطوشي الى يوسف بن تاشفين فقد أوردتهما دندش ص ١٧٧
- ١٨٨ •

(٢١٠) مؤلف مجهول ، الحلال الموشية ، ص ٦٤ ، ٦٥ •

الباب الثاني

الدراسة الحضارية

- الفصل الأول : نظم الحكم والادارة في عصر علي بن يوسف .
- الفصل الثاني : بعض مظاهر الحضارة في عصر علي بن يوسف .

الفصل الأول

نظم الحكم والادارة في عصر على بن يوسف

أولا : النظام الإداري

- (أ) نظام إمارة المسلمين •
- ١ — تطبيق النظام الوراثي بعد نظام الثوري •
- ٢ — لقب أمير المسلمين •
- (ب) ولاية العهد في عصر على بن يوسف •
- (ج) منصب نائب أمير المسلمين •
- ١ — نائب أمير المسلمين في الأندلس ومهامه •
- ٢ — نواب أمير المسلمين في المغرب •
- ٣ — ولاية الأقاليم •
- (د) نظام الوزارة في عصر على بن يوسف •
- (هـ) ديوان الرسائل والمكاتبات •

ثانيا : النظام القضائي في عصر على بن يوسف •

- (أ) نظرة عامة عن النظام القضائي في عصر على بن يوسف •
- (ب) أهم خطط القضاء الشرعي •
- (ج) القضاء العسكري •
- (د) قضاء الذميين في الأندلس •

ثالثا : النظام الحربى فى عصر على بن يوسف •

(أ) الجيش (ب) الأسطول

رابعا : النظام المالى فى عصر على بن يوسف •

(أ) السياسة الضريبية للدولة •

(ب) العملات •

أولا : النظام الإداري

- (أ) امارة المسلمين •
 - ١ — تطبيق النظام الوراثي بعد نظام الشورى •
 - ٢ — لقب أمير المسلمين •
- (ب) ولاية العهد في عصر علي بن يوسف •
- (ج) منصب نائب أمير المسلمين •
- (د) نظام الوزارة •
- (هـ) ديوان الرسائل والمكاتبات •

(أ) نظام امارة المسلمين

١ - تطبيق النظام اليراثى بعد نظام الشورى فى الحكم والادارة :

يرجع الفضل فى وضع نظم الدولة المرابطية الى يوسف بن تاشفين نفسه ، المؤسس الحقيقى للدولة ومؤسس حاضرتها مراكش ، وهو الذى اتخذ لنفسه لقب أمير المسلمين ، وهو نفسه الذى وضع نظام الوراثة فى الحكم .

كان نظام الشورى هو الاساس الذى قام عليه نظام الحكم فى بداية قيام دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين عندما كان المرابطون يختارون بكامل الحرية رئيسهم الذى يتم تعيينه بعد عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء يشارك فيه شيوخ المرابطين وأعيانهم ، بهذه الطريقة تم اختيار عبد الله بن ياسين ، الذى لم يحرص على استمرار الامارة فى أسرته ، كما أنه لم يباشر أى ضغط على المرابطين فى اختيار يحيى بن عمر ثم أبى بكر بن عمر ، بل كانت وصيته الاخيرة للمرابطين قوله : « اياكم والمخالفة والتحاسد على الرئاسة ، فان الله يؤتى ملكه من يشاء ، ويستخلف فى أرضه من أحب من عباده ، ولقد ذهبت عنكم ، فانظروا من تقدمونه منكم ، يقوم بأمركم ويقود جيوشكم ، ويغزو عدوكم ، ويقسم بينكم فيئكم ، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم»^(١) ومن هذه الوصية يتبين أن عبد الله بن ياسين المؤسس الأول للدولة ، لم يكن يرى

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٠ .

طريقة الحكم الوراثةي • أما يوسف بن تاشفين فقد كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده ، وأن تنفصم عرى هذه الوحدة وتنتهي هذه الرسالة التي عمل جاددا على تبليغها زهاء نصف قرن ، لذلك رأى يوسف أن يعين وليا للعهد يستخلفه بعد موته ، وهكذا تحول نظام الشورى المتبع في السنوات الأولى من قيام دولة المرابطين الى نظام وراثي منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه عليا لولاية عهده سنة ٤٩٦هـ (١١٠٢م) ، ولو أن يوسف ترك الأمر شورى للمرابطين لاختاروا من بعده من أحبوا لكان بذلك قد أفسح المجال لفتح باب التنافس بين أبنائه وأقاربه للظفر بامارة المسلمين من بعده ولكان من العسير أن يجتمع الناس على شخص معين ، لأنه لم يكن هناك ثمة نظام للانتخاب في وقت أصبحت بلاد الاندلس فيه مهددة بغارات نصارى الشمال ، ولذلك قرر يوسف أخذ البيعة لابنه على ، استنادا الى أن هذا الحق من جملة حقوقه كما يتبين ذلك من عهده له ، ونضيف الى ذلك بأن يوسف عندما ابتدع هذا النظام لم يكن مقيدا في اختياره لولى العهد بأي شروط أو تقاليد معينة وانما جرى في ذلك حسب تقديره للمصلحة العامة ، واذا كان قد آثر عليا على أخيه تميم ، فانما فعل ذلك لأنه رأى عليا أهلا لخلافته (٢) .

ولد الامير أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين بمدينة سبتة في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين (٣) أو سبع وسبعين وأربعمائة (٤) ، من أم رومية الأصل اسمها قمر وتكنى أم الحسن أو فاض الحسن (٥) ،

(٢) ويعلق محمد بن الخلف في البيان الواضح على اختيار يوسف لابنه على بقوله : (ومما سلى النفوس كل التسلية وأطفأ نار الرزية ما كان من نظره الجميل ورأيه الاصيل ، من توليه الامر في حياته لابنه الامير أبي الحسن ذي العقل الرصين ، والرأي الحسن) • راجع : مجهول ، الحل الموشية ، ص ٥٥ .

(٣) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

(٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ .

(٥) ابن أبي زرع ، نفسه ، ص ١٠٩ ، ابن عذاري ، نفسه ، ص ١٠١ .

ولم يكن على أكبر أولاد أبيه (بد وفاة الابن الأكبر ليوسف وهو أبو بكر سير أثناء موقعة الزلاقة) ، الا أنه وقع اختياره عليه « لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم »^(٦) ، ولتفوقه رغم كونه أصغر سنا على تميم تفوقا كبيرا « في المواهب والخلال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة »^(٧) وقد امتدح أحد شعراء الاندلس الأمير على عندما أقدم أبوه يوسف على اختياره وليا للعهد بقوله :

وان كان في الاسنان يحسب ثانيا

على ففى العلياء يحسب أولا

كذا لكم الأيدى سواء بنانها

وتختص فيهن الخناصر بالحلا^(٨)

وكان من الطبيعي أن يعمل يوسف على مشاوره كل من يهمه الأمر حول هذا الاختيار ، ولهذا باذر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة في سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م) ، وناقشهم في المبررات التي دفعتها إلى اختياره ، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه ، وعالى أثر ذلك قرىء مرسوم البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على هذا الاختيار والشروط الواجب توافرها فيه ، والمبادئ التي ينبغى أن يسير عليها ، وهذا المرسوم من انشاء الوزير الفقيه أبى محمد بن عبد الغفور وكان من أعلام البلاغة في ذلك العصر^(٩) .

(٦) عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٥ .

(٧) اشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٢ .

(٨) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٩) راجع نص المرسوم في الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

ونستخلص من نص هذه الوثيقة : أن يوسف بن تاشفين قد اتبع مبدأين في اختيار ولده أبي الحسن على وليا لعهدده (١٠) .

أولهما : مبدأ الاختيار :

فقد أشارت الوثيقة الى أن يوسف قد اختار من بين أولاده من هو أصح لقيادة تلك الدولة المرابطية المزامية الاطراف : « فوجد ابنه الامير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً الى المعلى ، واهتزازا ، وأكرمها سجية ، وأنفسها احتزازا ، فاستنابه غيدا استرعى ودعاه لما كان اليه دعى » (١١) .

ثانيهما : مبدأ الشورى :

فقد أخذ يوسف به ، وتمسك بما جاء في القرآن الكريم وما جاء على لسان نبيه وما سار عليه الخلفاء الراشدون : « ودعاه لما كان اليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي » (١٢) .

كما يشير مرسوم البيعة الى أنها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها عليه أبوه ولعل أهمها التمسك بالمبادئ التي دعا اليها الامام عبد الله بن ياسين من اعلان الجهاد على أعداء الاسلام ، واحترام الفقهاء والقضاة والحكام ، والعمل على اقامة العدل بين الرعية بالاضافة الى ما ذكره صاحب الحل في قوله : « وكان من الشروط في تقديمه للعهد التي اشترطها عليه أبوه ترتيب سبعة عشر ألف فارس بالاندلس موزعة على أقطار م لومة يكون منها باشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف

(١٠) راجع حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤٥ وما يليها .

(١١) انظر نص المرسوم في احل الموشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٢) انظر نص المرسوم في احل الموشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

فارس وبغرداظة ألف فارس وفي الشرق أربعة آلاف فارس وباقي العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة في الحصون المعاينة للعدو» (١٣) •

وفي عام ٤٩٦هـ (١١٠٢م) ، جاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس جوازه الرابع والاخير برسم تفقد أحوال الاندلس والنظر في مصالحها وتنظيم البيعة لولده على ، وقد صحبه في هذا الجـواز ولداه الامير أبو الحسن على ، والامير أبو الطاهر تميم ، وبعد أن اطمئن على حسن سير الامور في ولايات الاندلس المختلفة ، اتجه صوب مدينة قرطبة المقر القديم للخلافة الاموية والقاعدة الاولى للمرابطين في الاندلس ، وهناك قرر أخذ بيعة أهل الاندلس لولده ، فعدا كبار رجال الدولة من أمراء المتونة وأشياخ البلاد ، وقادة الرأي والفقهاء والقضاة وتلا عليهم عقد البيعة لابنه على الذي سبق الاشارة اليه ، وضمنه الاسباب التي حملته على اختياره وليا للعهد ، ثم أخذ البيعة له من جميع الحاضرين ، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء ، ثم وقعوا على عقد البيعة ، وقام على أثر ذلك ، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وترسم السياسة التي رسمها أبوه ، ثم أشهد الكتاب ووقع على الوثيقة (١٤) • وصدر كتاب التولية والبيعة عن يوسف بن تاشفين لولده على ، بقلم وزيره وكتابه أبي بكر بن القصيرة في ذي الحجة عام ٤٩٦هـ (١٥) •

ثم عاد يوسف بن تاشفين الى المغرب ، حيث مرض مرضه الاخير الذي استمر زهاء عامين وشهرين وانتهى بوفاته عن مائة عام في أول

(١٣) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٥٧ ، ٥٨ •

(١٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ ، مجهول ، الحل

الموشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ، ١٤٣ •

(١٥) انظر : ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ص ٥١٨ - ٥٢١ •

المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر ١١٠٦ م) ، وكان ولي العهد يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه يؤكد ذلك نص لابن عذارى يوصى فيه يوسف بن تاشفين عندما اشتدت به العلة الى ولده ولي عهده ، فاضطاع أبو عاضطلاع وقام أحمد مقام ، كما يدل على ذلك أنه في عام ٤٩٩ هـ أى في فترة ولاية علي بن يوسف العهد قرىء بأشبيلية كتاب من ولي العهد بعزل القاضي ابن منظور^(١٧) ، كذلك أورد الدكتور محمود مكي رسالة صادرة عن علي بن يوسف مؤرخة في آخر ذي الحجة سنة ٤٩٩ هـ (١ سبتمبر ١١٠٦ م) أى قبل وفاة يوسف بن تاشفين بيوم واحد تتضمن رده على رسالة وجهها اليه عدد من الفقهاء في إحدى أقاليم الدولة^(١٨) ، ورسالة صادرة في نفس السنة ردا على رسالة بعثها أحد عمال المرابطين على الاندلس في مستهل ذي القعدة^(١٩) ، كما أشار ويثى ميراندا الى تقلد علي مهام والده أثناء مرضه وأنه قام بعزل محمد بن الحاج عن غرناطة وأقام مكانه أبا بكر بن ابراهيم اللمتونى^(٢٠) .

وكان يوسف بن تاشفين قبل وفاته في مستهل المحرم سنة ٥٠٠ هـ

(١٦) عن وفاة يوسف بن تاشفين انظر : المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ابن بى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، ابن الخطيب ، أعمال إعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٩٥ ، وقد اتفقت المصادر الاسلامية في تحديد عام ٥٠٠ هـ لوفاة يوسف بن تاشفين فيما عدا صاحب المعجب الذى جعل الوفاة في عام ٤٩٣ هـ . وانظر أيضا : بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٤٠ ، عزان ، عصر المرابطين ، ص ٥٤ .

Terrasse, Histoire du Maroc, vol, II, pp. 240 - 241.

- (١٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٥ .
- (١٨) محمود على مكي ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
- (١٩) مكي ، نفسه ، ص ١٤٨ .
- (٢٠) ميراندا ، على بن يوسف وأعماله فى الاندلس ، ص ١٥٥ .

أوصى ولده وولى عهده بعده أبا الحسن عليا بثلاث وصايا أولها « ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة » والثانية : أن يهادن بنى هود بالاندلس وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم ، والثالثة : يقبل من أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم» (٢١) .

٢ - لقب أمير المسلمين

اتخذ المؤسسون الأول لدولة المرابطين لأنفسهم بادىء ذى بدىء لقب « الامير » وهو لقب ظل يطلقه المرابطون على زعمائهم ، ابتداء من عهد أمير لمتونة أبى زكريا يحيى بن عمر اللتمونى ، فتلقب به يحيى كما تلقب به أخوه أبو بكر بن عمر بعد وفاته سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) وعندما تولى يوسف بن تاشفين زعامة المرابطين منذ سنة (٤٦٤ هـ) (١٠٧٢م) ظل يتقلب بالامارة الى أن سقط أبو بكر بن عمر شهيدا في أحد المعارك في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧م) وعندئذ أصبح يوسف الزعيم الأوحد للمرابطين ، واتفق أن لبي أنذاك نداء أهل الاندلس الجهاد ، وبفضل اشتراكه في وقعة الزلاقة أمكن للمسلمين أن يوقعوا بقوى النصرانية في أسبانيا ، الأمر الذى دعاه الى أن يتخذ لنفسه لقباً جديداً هو لقب (أمير المسلمين وناصر الدين) لتتويجا لهذا الانتصار المؤزر الذى حققه في أرض الاندلس ، ويذكر صاحب روض القرطاس أن يوسف تسمى في يوم الزلاقة بأمير المسلمين « ولم يكن يدعى به قبل ذلك » (٢٢) ، وفي موضع آخر يذكر صاحب روض القرطاس « وكان يدعى بالامير فلما فتح الاندلس وصنع غزاة الزلاقة وأذل الله تعالى بها الروم وبايعه في ذلك اليوم ملوك الاندلس وأمرأؤها الذين شهدوا معه تلك الغزاة ، وكانوا ثلاثة عشر ملكا وسلموا

(٢١) مجهول ، الحلال الموشية ، ص ٦٠ .

(٢٢) ابن أبى زرع ، ص ١٠٣ .

عليه بأمر المسلمين وهو أول من تسمى بأمر المسلمين من ملوك المغرب وخرجت كتبه صدره عنه بذلك الى بلاد العـدوة وبلاد الاندلس في ذلك اليوم.....» (٢٣) ، ويؤيد ابن أبى زرع في ذلك من المؤرخين ابن الخطيب (٢٤) وابن خلدون (٢٥) . ويميل عدد من الباحثين المحدثين الى الأخذ بهذا القول (٢٦) لأن انتصار الزلاقة يبرر التسمية الجديدة التي تحمل معنى نصره الدين . غير أن هناك رواية مخالفة لصاحب الحل الموشية وخلاصتها أن يوسف لما كثرت فتوحه في أنحاء المغرب وتضخمت مملكته ، واتسعت أعماله ، اجتمع اليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته وزينوا له أن يتلقب بأمر المؤمنين ، فأبى أن يستجيب لهم لأن لقب أمير المؤمنين من ألقاب خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة في حين أنه لا يعدو قائما بدعوتهم ، واقترح عليهم أن يتسمى « بأمر المسلمين وناصر الدين » فخطب له على المنابر بهذا اللقب الجديد ، كما خوطب له بذلك في العدوتين ، وأمر كتابه أن يكتبوا في ذلك وهذا هو نص كتابه الى عماله ورجال دولته .

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين الى الاشياخ والاعيان والكافة من أهل فلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضاه سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته (أما بعد)

(٢٣) ابن بى زرع ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

(٢٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٢٦) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، عنان ،

عصر المرابطين ، ص ٤٠ . وهناك من الباحثين من يعارض هذا الرأي ومنهم :

أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٩٩ .

حمد الله أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر وواهب النصر والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وانا كتبتناه اليكم من حضرة العلية بمراكش حرسها الله في منتصف محرم سنة ستة وستين وأربعمائة ، وأنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، وهدانا وهداكم الى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل وهو « أمير المسلمين وناصر الدين » فمن خاطب الحضرة العلية السامية فليخاطبها بهذا الاسم ، ان شاء الله تعالى ، والله ولي العدل ، بمنه وكرمه ، والسلام (٢٧) .

والرأى عندي أن يوسف اتخذ هذا اللقب بعد انتصار الزلافة ، فطبيعي أن يحمّد المنتصر الى اتخاذ لقب جديد يتناسب مع مقتضى الاحداث ولهذا فانتصار الزلافة كان الحافز والدافع المباشر الذي دفع بيوسف الى التلقب به على سائر زعماء القبائل ، ومن الواضح أن صاحب "حلل الموشية يخلط بين هذا التاريخ ٤٦٦هـ وتاريخ سنة ٤٧٩هـ الذي انتصر فيه يوسف على نصارى اسبانيا في الزلافة وأنه أخطأ في هذا التاريخ بدليل أنه يذكر في روايته أنه (خوطف به من العدوتين) ولما كان المرابطون في هذا التاريخ (٤٦٦ هـ) على غير اتصال بملوك الطوائف وان أول اتصال بين ملوك الطوائف وبين يوسف حدث قبل الزلافة بعام أو خطى بثلاثة أعوام ، فان النص الذي أورده صاحب الحلل الموشية لا يتفق مع حقيقة الحوادث التاريخية .

(٢٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ١٦ ، ١٧ .

(ب) ولاية العهد في عصر علي بن يوسف

سار أمير المسلمين علي بن يوسف على نهج سياسة والده في اختيار ولي العهد ، فقد بدأ يذكر في مستقبل الدولة من بعده ، وفي ضرورة وجود شخصية قوية على رأس الدولة للحفاظ عليها من طمع الطامعين ، فوقع اختياره على ابنه الأمير مسير لولاية عهده وذلك في عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م)^(٢٨) ، وفي هذا الصدد يقول ابن عذارى نقلاً عن الوراق : « لما عزم علي بن يوسف أن يخلع عهده على ابنه سير الذي من أمته قمر ، وجه الى عقد ذلك أهل العقد والحل من الفقهاء والقضاة وجمع لذلك بنى عمه وأخويه الأمير تميماً كبيره وأخاه ابراهيم صغيره المشتهر بابن تاعيشة وهي أمه سوداء ، فسلم الأمر لابنه سير وشهد الشهود عليه بذلك ، وكملت البيعة له ، وأرسل بها الى سائر الاقطار والانظار ، فاستقرت البيعة والتزم قبولها ، واستقل بالأمر ونظر في سائر ما تدعوه الضرورة من أهور الجيش والاحكام والولايات والعزل ورد المظالم وقعد للناس قعوداً فخماً »^(٢٩) ، هذا هو نص رواية ابن عذارى حول توليه الأمير سير ولاية عهد أبيه أمير المسلمين علي بن يوسف ، وهي تثبت لنا أن علياً قد اتبع السلف الصالح في اختيار ولي العهد ، واتبع نفس الطريق الذي سلكه أبوه في اختيار ولي العهد فهو لم يحاول أن ينفرد بهذا الاختيار وحده ، بل أنه استدعى كبار رجال دولته من الفقهاء والقضاة ، كما استقدم أخوته وأبناء عمومته وزعماء قبيلته لمتونة ليشهدوا على عقد تولية العهد للأمير سير ، وليكون ولي العهد مسئولاً أمامهم عن أمور البلاد ، وبعد أن تمت البيعة ، أرسل علي بن يوسف الى مختلف مدن

Antoonio Preto Y Vives, los reyes de Taifos, p. 243.

(٢٩) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٩ .

المغرب والاندلس منشورا باختيار ولى العهد ، ويبدو أيضا كما هو واضح من النص أن هناك بعض المهام التي كان يقوم بها ولى العهد منها قيادة الجيوش في وقت الحرب ، والنظر في أمور وأحوال الولايات ، والجلوس للفصل في النزعات بين الناس ، وكان اسم ولى العهد ينقش على السكة الى جانب اسم أمير المسلمين ، وهكذا كانت نقود على بن يوسف تحمل في إحدى وجبهاتها عبارة : « لا اله الا الله محمد رسول الله أمير المسلمين على بن يوسف ولى عهده الامير سير »

ولما ولى على ابنه سير ولاية عهده ، رأى أن يولى ابنه الامير تاشفين الاندلس ، فولاه على مدينة غرناطة والمرية ثم أضاف اليه مدينة قرطبة . وكانت للامير تاشفين في مدافعة العدو صولات وجولات وفق فيها كل التوفيق وأحرز انتصارات رفعت مكانته في نظر أهل الاندلس ، فلما ذاع صيته في أمر الغزو والجهاد ، وشاع ذكره في المغرب والاندلس ، كبر ذلك على أخيه الامير سير ولى العهد ، وأكلت قلبه عوامل الغيرة من أخيه ، ففاوض أباه في ذلك وقال له : « ان الأمر الذي أهلتنى اليه لا يحسن لى مع تاشفين ، فانه قد حمل الذكر والثناء دونى ، وغطى على اسمى ، وأمال اليه جميع أهل المملكة ، فليس لى معه اسم ولا ذكر . فأرضاه بأن عزله عن الاندلس ، وأمره بالوصول الى حضرته ، فرحل عن الاندلس في أواسط سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، ووصل مراكش وصار في جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابيه » (٣١) .

- ظل سير وليا لعهد أبيه الى عام ٥٣٣ هـ ، عندما توفي ، وقد اختلفت

(٣٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ،

ج ١ ، ص ٩٧ .

(٣١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٩٧ .

الروايات حول وفاته ، فيقول ابن القطان : « ولم يكن — أى سير — أهلاً
لثىء ، فعكف على البطلة ، ودخل مستورا على أخيه عمر يريد زوجته ،
فجرح جراحة ، عجلت منيته » (٣٢) ، ويقول ابن عذارى « وكان سير يركن
للراحة ويصطحب أهل الفكاهة ، فاقتحم ليلاً على أخيه عمر فى داره
فضربه وقضى عليه » (٣٣) ، ويقول ابن الخطيب « فقضى الله وفاة سير
على الصورة القبيحة » (٣٤) . وهكذا يبدو لنا أن هناك جريمة أخلاقية
انتهت بوفاة سير ، فى حياة أبيه ، فثكله أبوه وأشتد جزعه عليه وكان
عظيم الايثار والارضاء لأمه قمر التى كانت قد تسببت فى عزل تاشفين
عن ولاية الاندلس واهمال شأنه ، فتدخلت من جديد لتقديم ولده اسحق
لولاية العهد ، وكان اسحق حدثاً لم يبلغ الحلم بعد ، تبنته قمر وتولت
تربيته والاشراف عليه ، فشب محباً مخلصاً لها ، ولم يستجب على بن
يوسف لطلبها قبل أن يستطلع رأى الناس خاصتهم وعامتهم فى ولى
العهد (٣٥) ، وواضح أن عليا كان يتبع فى اختيار ولى العهد مبدأ الشورى
الذى كان تقليداً متبعاً عند المرابطين ، وقد يعبر هذا الموقف عن ندم
على فى عزل تاشفين عن ولاية الاندلس ، وكأنما أراد يترك الامر شورى
أن يفكر عن خطئه فى حق ولده تاشفين الذى تعرض لظلم أخيه واستبداده
به بالاضافة الى أنه كان أميل الى تاشفين الامير القائد الذى ذاعت
شهرته ، وأختياره ولياً للعهد فى هذه المرحلة بالذات من تاريخ دولة
المرابطين ينسجم تماماً مع تطور حوادث الاندلس التى كانت تحتاج

(٣٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٥ .

(٣٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٩٧ .

(٣٤) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٧ .

(٣٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ابن الخطيب ، المصدر

السابق ، ص ٤٤٧ .

لجهاده وجهوده العسكرية ، ثم ان دولة المرابطين كانت آنذاك في أشد
مراحل الانهك بسبب المعارك المتواصلة مع الموحيدين في المغرب .

جمع على بن يوسف كبار رجال الدولة من الفقهاء والقضاة وزعماء
التونة ، وأفراد الاسرة المرابطية ، وعرض عليهم الامر ، وطلب منهم أن
يتشاوروا ويختاروا لولاية العهد من يرضونه ، ومن يرون فيه الصفات الطيبة
التي يجب أن تتوافر في ولي العهد ، فأجمعوا على اختيار الامير تاشفين
لولاية عهد المرابطين ، فعقد له والده ولاية عهدة ، ونقش اسمه على الدنانير
والدراهم الى جانب اسم أبيه أمير المسلمين ، وقلده النظر في الامور السلطانية ،
كما كتب الى العدو والاندلس وبلاد المغرب ببيعة تاشفين ، فبايعوه
ووصلت البيعات من كل الجهات وذلك في رجب عام ٥٣٣هـ (١١٣٩) (٣٦) .

ومنذ أن تولى تاشفين ولاية العهد والحظ بجانبه وينحرف عنه ، فلم
يوفق في محاربة الموحيدين ، بخلاف ما كسبه من شهرة في الاندلس ، ويبدو
أن عليا بن يوسف قد غضب على ولده تاشفين لهذا السبب ، ونستدل مما
رواه المؤرخون أنه كان يأمل في ابنه تاشفين ما لم تكن الاقدار تساعد
به ، فتشاءم به وعزم على خايعه وصرف عهده الى اسحق ، ولده الاصغر ،
فاستقدم الى مراكش عامله على اشبيلية ويسمى أغمار ليشرف على تربية
ولده اسحق واعداده لتولى ولاية عهده (٣٧) ، الا أن انشغال الدولة
بمحاربة الموحيدين ، ثم وفاة أمير المسلمين على بن يوسف حالت دون
تحقيق رغبة على في نقل ولاية العهد الى ابنه اسحق ، ولعل في هذا ما
يشير الى عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد في دولة المرابطين ، (٣٨) ،

(٣٦) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، مجهول ، الطل
اوشية ، ص ٨٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٧ .
(٣٧) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٨ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ،
ص ٤٤٧ .
(٣٨) اشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٤٧ ، ٤٧٨ .

وهو أمر له حسناته وله سيئاته وسيئاته أكثر من حسناته ، اذ كان يترقب عليه قيام النزاع بين أولاد الأمير حول حق كل منهم في ولاية العهد ، ولدينا مثال على ذلك الأمير أبو بكر بن علي بن يوسف الابن الأكبر للأمير المسلمين ، اذ أنه ولد في عام ٤٩٣ هـ ، وكان يلقب ببكور ، أو بكو ، ونشأ في الأندلس كما جرت عادة علي بن يوسف في تنشئة أبنائه^(٣٩) وقد قام علي رعايته وتأديبه الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان بن زهر ،^(٤٠) ، وكان أول منصب تولاه أبو بكر ولاية مدينة اشبيلية في ذي الحجة عام ٥١٧ هـ (١١٢٤ م)^(٤١) ، ثم أسندت اليه قيادة الجيوش المرابطية في الأندلس^(٤٢) ، الى أن عزل عن ولاية اشبيلية في رجب عام ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) بسبب التصريحات التي صدرت منه ، يعبر فيها عن عذم رضائه عن البيعة لأخيه سير ، فأسرع أبوه بعزله وأمر بتكيله وارساله الى الصحراء^(٤٣) ، ولكنه لم يلبث أن عفا عنه وعهد اليه بقيادة بعض جيوش المرابطين ضد الموحدين^(٤٤) ، ويبدو أن أبا بكر قد عاد مرة أخرى بعد وفاة الأمير سير ومبايعة تشفين بولاية العهد ، عاد الى الاعتراض بسبب تخليه مرة أخرى عند اختيار ولي العهد ، اذ يشير ابن عذاري الى أن عليا بن يوسف أمر بخراج ولده أبي بكر من مراكنس الى الجزيرة الخضراء ، ليسجن بها ، لأنه خاف من خوضه في أمور ، فأصيب أبو بكر خلال سفره بمرض ، فكان الرجال يحملونه على أعناقهم ، فلما وصل

-
- (٣٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، هامش رقم (١) ، ص ١٠٥ .
 (٤٠) مؤنس ، سبع وثائق تاريخية عن عصر المرابطين ، ص ٧٠ .
 (٤١) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦٧ .
 (٤٢) مكي ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .
 (٤٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، وفي نص رسالة علي بن يوسف الى ولده أبي بكر ما يشير الى أنه هذبه بالنفي الى ديورثة (انظر مؤنس ، سبع وثائق ، ص ٦٩) .
 (٤٤) ابن القطان ، ص ١١٥ - ١١٨ .

الى الجزيرة ، سجن بها الى أن مات في مجلسه (٤٥) . وهذا ما يؤكد على أن عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد تسير عليه الدولة ، كثيرا ما يؤدي الى النزاع بين أفراد البيت الحاكم نفسه .

(ج) نائب أمير المسلمين

١ — نائب أمير المسلمين في الأندلس ومهامه

كان من المستحيل على أمير المسلمين أن يشرف وحده على تلك الدولة مترامية الأطراف ، فكان من الطبيعي أن يكون له نائب ينوب عنه في إدارة شئون الأندلس ، وأكثر من نائب يتولون عنه إدارة شئون المغرب ، وكان يراعى في اختيار النائب أن يكون أقرب الناس الى أمير المسلمين ، وأن تتوفر فيه حسن الإدارة والكفاية العسكرية .

كانت بلاد الأندلس ولاية شبه مستقلة يحكمها نائب أمير المسلمين ، وكان ولي العهد يتولى عادة هذا المنصب قبل تنصيبه أميراً للمسلمين ، فإذا اعتلى ولي العهد العرش ولي أحد أخوته أو أكبر أبنائه في هذا المنصب وممن حظى بالولاية على الأندلس على عهد علي بن يوسف : الأمير أبو الطاهر تميم (٤٦) وأبو محمد بن فاطمة (٤٧) وأبو بكر بن علي بن يوسف (٤٨) ، وثلاثين بن علي بن يوسف (٤٩) .

(٤٥) ابن عذاري ، ج ٤ ، ١٠١ .

(٤٦) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ٨٣ ، ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٨ ، ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٨٦ .

(٤٧) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١١٧ ، ابن عذاري ، نفسه ، ص ٦٢ ، ٦٤ .

(٤٨) ابن عذاري ، نفسه ، ص ٦٧ .

(٤٩) ابن عذاري ، نفسه ، ص ٧٩ ، ٨٧ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ .

وكان النائب يستقر غالبا في غرناطة أو قرطبة ، فقد كانت الاندلس تنقسم في عهد المرابطين الى خمس ولايات هي اشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية ، وكانت سرقسطة هي الولاية السادسة قبل سقوطها في أيدي الفونسو المحارب سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) ، وقد اتخذ المرابطون في أول عهدهم بالاندلس قرطبة مركزا لحكومتهم وفيها أصدر يوسف بن تاشفين عهده بولاية ابنه على ولاية عهد الدولة المرابطية ، ولما تولى على الملك أمر بنقل قاعدة الحكم الى غرناطة ، فلبثت كذلك حتى عام ٥٢٦هـ (١١٣٢م) ، ففى نفس العام عين أمير المسلمين ولده تاشفين واليا على قرطبة ، وطلب منه أن يتخذ منها مقرا للحكومة المرابطية فيقول : « واجعل قرطبة دار سكناك وقرار مثواك » (٥٠) .

كان نواب أمير المسلمين يمثلونه في سلطانه ، فكانت سلطاتهم شبه مطلقة ، فكانوا يقيمون الولاية أو يعزلونهم حسبما تقتضيه مصلحة الدولة ، وكانت تعقد لـنائب أمير المسلمين القيـادة العليا على جيوش المرابطين بالاندلس ، فمن رسالة لعلى بن يوسف الى ابنه الأكبر أبو بكر بن على ، وكان نائبا عنه على الاندلس يقول له فيها : « وقد رأينا أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك الجزيرة عموما يشمل من كان هناك منها ، ومن وصل من هذه العدو اليها ، وخاطبنا عاك بالسمع منك والطاعة لك ، وأن يطابق كل واحد منهم رأيك ، ويوافق عملك » (٥١) . وفي هذا تأكيد على أن وظيفة نائب أمير المسلمين سياسية ادارية تستلزم اشرافا شاملا على الشؤون السياسية والادارية والعسكرية .

(٥٠) ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٨٧ ، عنان ، عصر المرابط ، ص ٤١٥ .

(٥١) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

٢ - نواب أمير المسلمين في المغرب

كان لأمير المسلمين نائب عنه في المغرب مقره مدينة فاس وكان نائب فاس أميرا مصغرا للمسلمين إذ كانت فاس وماتزال العاصمة الدينية للمغرب ، وقد حاول بعض أمراء المرابطين الانتزاع بها ، ولكنهم أخفقوا ومن بين هؤلاء الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين الذي سبق أن أثرنا الى حركته في بداية دراستنا لدولة علي بن يوسف ، لذلك حظيت مدينة فاس باهتمام أمير المسلمين ، فكان يولى عليها أقرب المقربين اليه كأخيه أبي الطاهر تهيم الذي تولى فاس بعد أن عزل عن الاندلس (٥٢) .

ولأهمية منصب نائب أمير المسلمين سواء في المغرب والاندلس وخطورته كان أمير المسلمين يتحرز من نوابه ويعمل على مراقبتهم كما أنه لم يكن يتج لهم الاستقرار في مناصبهم لعهود طويلة حتى لا يعملوا على الاستتلال والانتزاع ، فكان النواب دائما معرضين للنقل من ولاية الى أخرى (٥٣) . وكان نائب أمير المسلمين يتخذ لنفسه كتابا يقومون عنه بال مكاتبات أو تسند اليهم بعض الاعمال الادارية وممن ظهر من كتاب نواب أمير المسلمين علي بن يوسف في الاندلس الكاتب الاديب أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال كاتب الأمير محمد بن الحاج ، وأبو بكر بن الصائغ كاتب الأمير أبي بكر بن ابراهيم ، والزبير بن عمر الممتوني كاتب تاشفين بن علي بن يوسف (٥٤) . وكانت حياة كل نائب من نواب أمير المسلمين صورة مصغرة من حياة هذا الأمير فكانوا يتخذون القصور والخدم والفقهاء والاعوان ، كما أن بعضهم كان ينعم بحياة البذخ والابهة .

(٥٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٥٣) ابن بى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٢ .

(٥٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٥٣ .

٣ - ولاية الأقاليم

كان أمير المسلمين على بن يوسف من اليقظة وحسن التصرف، بحيث أنه كان يراقب سير الأمور في الولايات المختلفة ، مخافة أن يستبد أمير من الأمراء بأمر ولايته ، أو يسيء معاملة رعيته ، فكان إذا ولى أحد الولاية ، أرسل اليه رسالة رسم له فيها السياسة التي يجب أن يتبعها في معاملة رعاياه، ويتمثل ذلك في رسالة مؤرخة في سنة ٥١٠هـ^(٥٥) كتبها أبو القاسم بن انجد عن أمير المسلمين الى أبي محمد بن فاطمه واليه على اشبيلية جاء نحيها: وقد رأينا والله ولى الترفيق ، والهادى الى سواء الطريق ، أن نجدد عهدنا الى عمالنا بملتزام أحكام الحق وإيثار أسباب الرفق لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل والخير العجل ، والله تعالى ييسرنا لما يرضيه في قول وعمل وأنت - أعزك الله - ممن يستغنى بإشارة التذكرة ويكتفى بلمحة انتبصرة لما تأوى اليه من السياسة والتجربة ، واتخذ الحق أمامك ومالك يده زمامك ، وأجر عليه في القوى والضعيف أحكامك ، وأرفع لدعوة المظلوم حجابك ، ولا تسد في وجه المهضوم بابك ، ووطىء للرعية حاطها الله أكذفك ، وأبذل لها انصافك واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها وأطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو خرق في أمرها عادة أو غير رسما أو بدل حكما ، أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما ، فأعزله عن عمله ، وعاقبه في بدنه ، وألزمه رد ما أخذ متعديا الى أهله وأجعله نكالا لغيره ، حتى لا يقدم منهم أحدا على مثل فعله ان شاء الله وهو تعالى ولى تسديديك ، والمى بضدك ، وتأبيدك ، لا اله غيره ولا خير الا خيره »^(٥٦) .

(٥٥) ينسبها الدكتور حسن محمود الى يوسف بن تاشفين ، انظر قيام دولة المرابطين ، ص ٣٥٦ .
(٥٦) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١١٣ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

الواقع أن هذه الرسالة تعتبر دستوراً يبين للوالى الطريق الذى ينبغى أن يسير عليه ، حيث يدعوه أمير المسلمين الى أن يستخدم كل تجاربه لخير رعيته ، ويأمره بتطبيق العدالة والتزام جانب الحق فى معاملة الرعية •

وكان أمير المسلمين دائماً الاهتمام بأمر الولايات ، لا يترك أمراً من الأمور فى ولاية دون أن يؤكد على أهلها بالعمل على الحفاظ على وحدتهم ونبذ خصومتهم والانتقاد لأهليهم ، والعمل على عدم الخروج عن طاعته ، ونشير فى هذا المقام الى الرسالة التى أرسلها على بن يوسف الى اشبيلية فى جمادى الأولى سنة ٥١٢هـ تتضمن هذه التوجيهات (٥٧) ، وهناك رسالة من انشاء ابن القمصيرة موجهة من على بن يوسف الى أهل بلنسية يدعوهم فيها الى الانصياع والطاعة لواليه عليها أبى محمد عبد الله بن محمد بن غاطمة تولى نشرها الاستاذ الدكتور محمود على مكي (٥٨) فى جملة ما نشره من وثائق تاريخية جديدة من عصر المرابطين •

وأذا كانت سياسة أمير المسلمين تدعو الى حسن معاملة الوالى لرعيته وطاعة الرعية له ، فإن سياسة الدولة كانت تدعو أيضاً الى أن يعاقب الوالى أو يعزل اذا قصر أو أهمل أو أساء السيرة فى الرعية ، ويتجلى ذلك بحق فى موقف أهل الجزائر الشرقية من واليهم وأنور بن أبى بكر اللتمونى ، الذى تعسف مع أهل الجزيرة وأراد أن يرغمهم على بناء مدينة جديدة بعيدة عن البحر ، فامتنعوا عليه وثاروا ضده ، فأقدم وأنور على قتل زعيم الثوار ، الامر الذى أثار عليه أهل الجزيرة واقدامهم على

(٥٧) انظر نص الرسالة : ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١١١ ، ١١٢ •

(٥٨) مكي ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١١٤ •

القبض عليه وارساله الى على بن يوسف ، وقد ترتب على ذلك أن ولى عليهم أمير المسلمين محمد ابن على بن غانية^(٥٩) .

(د) نظام الوزارة

لم يظفر نظام الوزارة في عصر المرابطين باهتمام مؤرخى هذا العصر فان أحدا منهم لم يتعرض للحديث عن وزراء المرابطين الا بالتقدير الذى يضطر اليه ، وكل ما أوردوه لا يعدو شذرات قليلة لا تشبع لهفة الباحث ، فى حين أوردوا مادة كافية فيما يتعلق بدولة الموحيدين ونظمها فى الادارة والحكم .

ونستدل مما ورد فى المصادر العربية الاندلسية والمغربية أن الوزير كان يشغل مكانة سامية فى دولة المرابطين ويتمثل ذلك بصدق فى كتابات بعض الكتّاب المعاصرين لهذه الدولة ومن بينهم الطرطوشى صاحب كتاب سراج الملوك ، وابن عبدون صاحب كتاب رسالة فى القضاء والحسبة ، فالطرطوشى يسجل أهمية الدور الذى يقوم به الوزير فى عصره بقوله : « وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة ، والوزير عون على الامور وشريك فى التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة ، والوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، و فى الامثال نعم الظهير الوزير »^(٦٠) ، أما ابن عبدون فيعبر عن ذلك بقوله : « الوزير واسطة بين القاضى والسلطان ، فباتفاق القاضى والوزير يكون صلاح الدولة وصلاح العالمين »^(٦١) .

(٥٩) ابن خلدون ، العبرة ، ج ٤ ، ص ٥٠٥ .

(٦٠) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ٧٠ .

(٦١) ابن عبدون ، رسالة فى الحسبة ، ص ١٤ ، ١٥ .

ولما كن أهم مبادئ دولة المرابطين التى قامت عليها الجهاد فقد كانت تعتمد فى نظمها الادارية على المقومات العسكرية ولهذا فقد كان من الطبيعى أن تغلب على صفة الوزير السمة العسكرية كذلك جرت العادة أن يكون الوزير ملما بالآداب وفنون كتابة الرسائل والوثائق على النحو الذى عرف فى عصر الطوائف فى الاندلس ولهذا أيضا وجد فى دولة المرابطين وزراء يجيدون الكتابة الديوانية كما يجيدون الدراسات الفقهية •

وهكذا اجتمع فى دولة على بن يوسف نوعان من الوزراء :

الأول : وزراء الحرب وكانوا يختارون عادة من أقرباء الامير أو من قبائل لتونة وصنهاجه عصب دولة المرابطين •

الثانى : وزراء أدباء معظمهم من الاندلسيين (٦٢) •

ومن المعروف أن الوزراء فى العهد السابق لعلى بن يوسف كانوا كتابا يشرفون على ديوان الانشاء ، ولكن الأمر لم يلبث أن تغير فى عهد على بن يوسف فتعقد نظام الوزارة وتعددت اختصاصات الوزراء ، ونظرا لكثرة عدد الوزراء فى الدولة ، فقد كان لهم مجلسا يتولى رئاسته كبير الوزراء أو الوزير الأول (٦٣) هو حلقة اتصال بين الوزراء والامير ، ولقد كان الوزراء موضع احترام أمراء المسلمين ومحل ثققتهم ، ولهذا أطلقوا أيديهم فى الشئون المالية والادارية وأدانوا منازلهم (٦٤) •

أشهر وزراء على بن يوسف :

١ — الفقيه الكاتب هالك بن وهيب الاشبيللى :

١ كان من أشهر الوزراء الكاتب والفقهاء ، وهو اشبيللى الاصل ، كان

(٦٢) أحمد مختار العبادى ، دراسات ، ص ١٥١ ، ١٥٢ •

(٦٣) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٧٨ •

(٦٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٢ •

موسوعة في الفقه والعلوم الدينية والاجتماعية والآداب ، وقد شارك في جميع مجالات المعرفة ، فنظم الشعر وصنف في التاريخ والعلوم وكانت له مواقف مشهورة ، يقول عنه صاحب المذهب : « وكانت لديه فنون من العلم ، رأيت له كتابا سماه « قراصة الذهب في ذكر لئام العرب في الجاهلية والاسلام ، وضم الى ذلك ما يتعلق به من الآداب ، ولالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة ، رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطليموس في الاحكام وكتاب المجسطى في علم الهيئة » (٦٥) .

ولل شهرة مالك بن وهيب تقترن بموقف من المواقف المشهورة أثناء المناظرة العلمية والفقهية التي تمت بين فقهاء الرابطين والمهدى بن تومرت في حضرة أمير المسلمين على بن يوسف ، فقد استطاع مالك دون بقية الفقهاء أن يقدر براعة هذا الرجل ، ويدرك مدى الخطر الذي يمكن أن تتعرض له الدولة على يديه ، فأشار على أمير المسلمين بقتله وقال له : « هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد الا مال اليه ، وان وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كبير (٦٦) ، الا أن أمير المسلمين رفض قتله ، فلما يئس مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت فقال أمير المسلمين : علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن الا آخر القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء (٦٧) . وبلغ مالك بن وهيب مكانة كبيرة عند على بن يوسف ، فأصبح جليسه وأنيسه مما أوغر عليه بعض حساده وأعدائه ، فقال نبيه :

(٦٥) المراكشي ، ص ١٨٥ .

(٦٦) المراكشي ، نفسه

(٦٧) المراكشي ، المعجب ، ص ١٨٨٦ .

دولة لابن تاشسفين على

طهرت بالكمال من كل عيب

غير أن الشيطان دس اليها

من خباياه مالك بن وهيب (٦٨)٩

٢- ينتان بن عمر :

كان من أشهر الوزراء العسكريين ، فقد كان قائدا لفرقة الحشم (٦٩) ، وكان لينتان هذا موقفا تاريخيا خلال المناظرة التي حدثت بين فقهاء المرابطين وابن تومرت ، فقد أشار البيهقي الى ما قام به ينتان في هذا اليوم من انقاذ ابن تومرت من السجن ، وأنه اقنع أمير المسلمين بتركه يرحل عن مراكش بدلا من سجنه (٧٠) ، ولقد حفظ الموحدون لينتان هذا الموقف النبيل وظهر ذلك خلال المعارك التي دارت بين المرابطين والموحدين ففي احدى هذه المعارك وقعت ابنة لينتان تسمى تاما كونت في قبضة الموحدين ، فطلبت مقابلة عبد المؤمن بن علي ، وأخبرته بما فعله والدها من أجل ابن تومرت ، فأطلق سراحها هي ومن كن معها من النساء وكان عددهن أربع مائة (٧١) .

٣- أسهق بن ينتان بن عمر :

هو ابن الوزير ينتان بن عمر ، ، استوزره علي بن يوسف في أواخر أيامه ، وكان شابا لم يتجاوز الثامنة عشر عاما ، الا أنه كان يتميز بالذكاء

(٦٨) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٢٨ .

(٦٩) العبادي ، دراسات ، ص ١٥٤ .

(٧٠) البيهقي ، المهدي بن تومرت ، ص ٦٨ ، ٦٩ . ويقرل صاحب الحلل

ان ينتان قال للامير علي بن يوسف : (يا أمير المسلمين ، هذا وهن في حق

مالك ، أن تلتفت الى هذا الرجل الضعيف ، فخلي سبيله) . ص ٧٤ .

(٧١) البيهقي ، ص ٨٨ .

الخارق والفهم السريع ، ولهذا أعجب به الأمير على وأسند اليه مهمة الاشراف على ديوان المظالم والشكايات ، وكان هذا الديوان لا يتولاها سوى ولى العهد بنفسه (٧٢) .

٤ - أبو محمد بن مالك :

كان أبو محمد - د بن مالك من الوزراء الذين حازوا ثقة أمير المسلمين على بن يوسف ، فقد أطلق على يد هذا الوزير في جميع شئون الاندلس المالية والادارية ، وقد أثار ابن خاقان الى تلك المكانة التي تمتع بها ابن مالك بقوله : « حتى أقطعه أمير المسلمين وناصر الدين خلد الله ملكه في الاندلس من خطة ، وأقعده على تلك المنصة وبوأه المراتب اللائقة به المختصة ، ولما كثر اختلال الشرق - أى شرق الاندلس - وفساده وظهر استفحال العدو فيه ، واستئساده ، صرف أمير المسلمين اليه وجه اهتمامه ، وجد في صرف الشوائب عن جمامه وجعل رأييه فيه سيرة وانعل نظره له جده وتنشيميره ، ووجه أموالا لرم خلله وحسم علله ، واقامة ميله ، وانتعاش رجله وخيله ، ثم خاف أن ينتهبها العمال وتتعذر تلك الآمال فقلده طوقها ، وحمله أوقها ، ووجهه لبناء الاقطار ، ونبيه لقضاء تلك الاوطار فاستقل بها أحسن استقلال ونظم مصالحها نظم اللال » (٧٣) .

(هـ) ديوان الرسائل والمكاتبات

كان من الطبيعى أن يكون لدولة المرابطين مترامية الاطراف ديوان

(٧٢) عن اسحق بن ينفان انظر : مجهول ، الحل ، ص ٦١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٤٤ ، العبادى ، دراسات ص ١٥٤ .
(٧٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

لِلرِسَالِ أَوْ الْمَكَاتِبَاتِ ، يَكُونُ هَمْزَةُ الْمَوْصِلِ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَعَمَالِهِ وَوَلَاتِهِ عَلَى مُخْتَلَفِ أَقَالِيمٍ وَمَدَنِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةٍ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ مُخْتَلَفِ الْقُوَى الْمُحِيطَةِ بِدَوْلَتِهِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى •

وَمَنْ الْمَلَاخِظُ أَنَّ دِيْوَانَ الرِّسَالِ وَالْمَكَاتِبَاتِ عَلَى عَصْرِ عَلِيِّ بْنِ يُوْسُفَ كَانَ يَزْخَرُ بِطَبَقَةٍ مِنْ كِبَارِ كِتَابِ الْأَنْدَلُسِ وَأَدْبَائِهِ وَأَعْلَامِ الْبَلَاغَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَرَبِمَا كُنْتُ هُنَاكَ عَوَامِلَ وَأَسْبَابَ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ نَجْمِلَهَا عَلَى النَّحْوِ التَّالِيِ :

أ — كَانَتْ أُمُّ عَلِيِّ بْنِ يُوْسُفَ أُمٌّ وَلَدِ رُومِيَّةِ أَنْدَلُسِيَّةٍ ، كَانَ لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي إِزَالَةِ جَفْوَةِ الْبِدَاوَةِ مِنْ طَبِيعَتِهِ ، ثُمَّ أَنَّهُ وَلَدَ بِسَبْتِهِ فِي سَنَةِ ٤٧٧ هـ وَقَضَى فِيهَا أَحْدَاثَهُ ، وَسَبْتَهُ رَغْمُ كَوْنِهَا فِي أَرْضِ الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّهَا تَعْتَبَرُ قِطْعَةً مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَأَحَدَ مَعْبَرِيهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ نَشَأَتَهُ بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ وَتَعَلَّمَهُ عَلَى أَيْدِي مَوْدُبِينَ أَنْدَلُسِيِّينَ كَانُوا حَافِظِينَ عَلَى اقْبَالِهِ عَلَى الثَّقَافَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، وَمِنْ هَذَا الْمَنْطَلَقِ يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَسْتَنْتَجِ حَرْصَهُ فِيمَا بَعْدَ عَلَى أَنْ يَحْصُوطَ نَفْسَهُ بِكِبَارِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ • وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ يُوْسُفَ يَقْلُدُ مَلُوكَ الطَّوَائِفِ فِي الْآبَهَةِ وَالتَّرَفِّ ، فَكَانَ لَهُ بِأَشْبِيلِيَّةٍ مَعْرَشٌ يَنْزِلُ فِيهِ كَلِمًا حَلَّ بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ وَصَفَهُ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ أَبْدَعَ وَصَفَ (٧٤) ، وَفِي عَهْدِهِ تَأَنَّقَ الْأَمْرَاءُ وَاسْتَنَامُوا إِلَى حَيَاةِ التَّرَفِّ وَنَعَمُوا بِسَمَاعِ قَصَائِدِ الشُّعْرِ وَطَرَّبُوا لُغْنَاءَ الْمُغْنِيِّينَ وَشَيَّدُوا الْقُصُورَ الْمُنْمَقَةَ ، كَمَا كَانَ عَلِيُّ بْنُ يُوْسُفَ يَسْمَعُ الشُّعْرَ الْجَيِّدَ وَيَطْرِبُ لَهُ وَلِذِمَّةِ شُعْرَاءِ أَنْدَلُسِيِّينَ مِنْهُمْ أَعْمَى تَطِيلَةَ وَأَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَضْحَى (٧٥) •

(٧٤) ابْنُ خَاقَانَ ، قَلَائِدُ الْعُقَيَّانِ ، ص ١٧١ •

(٧٥) حَسَنُ أَحْمَدَ مَحْمُودٌ ، قِيَامُ دَوْلَةِ الْمُرَاطِبِيِّينَ ، ص ٤٤٢ •

ب - أن نقطة الارتكاز في السياسة الخارجية لدولة المرابطين وبصفة خاصة في عصر علي بن يوسف ، كانت الأندلس ، ولم يكن أحد أعرف بدخائل النصارى وسياساتهم من هؤلاء الكتاب الأندلسيين الذين عمل أكثرهم في بلاط ملوك انطوائف ، وكتبوا النصارى ، واطلعوا على الأسرار الخفية التي لم يكن في ميسور المغاربة على أن يطلعوا عليها

ج - أدى سقوط ملوك الطوائف الى تفرق أدباء الأندلس وهجرتهم نحو المغرب ودخلوا في خدمة أمراء المرابطين ، وبدأ هؤلاء يغسرونهم بعبائهم ويسبغون عليهم حمايتهم ويجزلون عليهم الخلع والأموال بعد أن خلعوا عنهم خشونتهم وأخذوا بحضارة الأندلس وبذلك يكون على بن يوسف قد مهد السبيل لتشر الثقافة الأندلسية في دولته .

د - كانت دولة المرابطين قد ارتبطت زمن علي بن يوسف بعلاقات سياسية مع جاراتهم الإسلامية في المغرب ومع دول الشرق الإسلامي ، فكان أمير المسلمين في حاجة الى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فنون الكتابة ، وقد تمثل ذلك في جماعات علماء الأندلس وكتابه ممن شاركوا مشاركة فعلية في الحياة العلمية في المغرب والأندلس في عصر علي بن يوسف (٧١) .

لقد بدأ استخدام كتب الأندلس وفقهائه في خدمة دولة المرابطين على عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وأولهم عبد الرحمن بن أسباط وكان أندلسيا من أهل المرية التحق بخدمة البلاط المرابطي في سنة ٤٧٢هـ الأندلس (٧٢) ، فعمل يوسف بنصيحته ولم يعبر الى الأندلس حتى تسلم

(٧٦) حسن حمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٠ .
(٧٧) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٣٢ ، وانظر أيضا عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(١٠٧٩م) وأسند اليه يوسف منصب الكتابة ، وهو الذي استشاره يوسف في الامر عند ورود كتب المعتمد بن عباد اليه يستتجد به على نصارى اسبانيا ، فأنشأ عليه ابن أسباط بأن يطلب من ابن عباد أن يتنازل له ولقواته عن الجزيرة الخضراء لتكون ثاعدة له عند جوازه الى الجزيرة الخضراء ، وظل ابن اسباط في خدمة يوسف بن تاشفين الى أن توفي في سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) ، فخلفه في منصب الكتابة أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الاشبيلي المعروف بابن القصيرة •

ابن القصيرة

كان محمد بن سليمان الكلاعي الكاتب والمعروف باسم أبي بكر بن القصيرة من أعظم كتاب الاندلس زمن الطوائف وأحد وزراء المعتمد بن عباد ، ثم كتب ليوسف بن تاشفين ثم لولده على بن يوسف ، وقد استمر في الكتابة في بلاط على بن يوسف الى أن توفي في جمادى الثاني عام ٥٠٨هـ (١١١٤م)^(٧٨) ، ولقد وصفه ابن خاقان في القلائد بقوله : « غرة في جبين الملك ، ودرة لا تصلح الا لذلك البسك ، باهت به الايام وتاهت في يمينه الاقلام ، واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور وانسربت اليه امانى انسراب الماء الى الغور^(٧٩) » ، ويقول عنه ابن الأثير في : « الوزير الكاتب الناظم النثر ، القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، والسابق الذي لا يشق غبارة ، ولا تخمد أبدا أنواره ،

(٧٨) راجع ترجمته في : ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٦٥ ، وابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٢ ، المراكشي ، المعجب ، ص ١٦٤ ، وابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ص ٥١٧ ، وانظر أيضا عنان ، عصر الزباطين ، ص ٥١ ، ٥٢ •

(٧٩) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٠٤ •

اجتمع له براعة النثر ، وجزالة النظم ، رقيق النسيج ، حصيف المتن ،
 رقعته ماثيت في العين وأيد «^(٨٠) • وقد وصلت اليها نماذج كثيرة من
 نثر ابن القصيرة أهمها بالنسبة لدراستنا نص المرسوم الصادر عن يوسف
 ابن تاشفين باسناد ولاية العهد الى ولده على ، فضلا عن رسائل مختلفة
 أوردها لنا صاحب قلائد العقيان ، وكلها تعبر عن جزالة لفظه وقوة
 التعبير ، ويرجع الى ابن القصيرة الفضل الاعظم في تحويل بلاط على
 بن يوسف الى بلاط الاندلس ، فقد اجتذب الى المغرب صفوة أدباء
 الاندلس وفتح الباب على مصراعيه لخدمة أمير اسلمين ، فاحتشدوا في
 بلاطه وتولوا خدمة ديوان الانشاء وأشهر هؤلاء الاعلام :

١ - بنو القبطرنة :

هم أبو بكر وأبو محمد وأبو الحسن بنو القبطرنة^(٨١) من أعظم كتاب
 دولة بنى الافطس أصحاب بطليوس ، وأعظمهم حظوة لدى المنصور
 والمتوكل ابني الافطس هو الوزير أبو بكر ، وقد كتب ثلاثتهم بعد
 سقوطها لأمر المسلمين على بن يوسف • يقول عنهم صاحب القلائد :
 « هم للجد كالأثافي وما منهم الا موفور القوادم والخوافي ، ان ظهروا
 زهروا ، وان تجمعوا تضرعوا ، وان نطقوا صدقوا ، ماؤهم صفو ، وكل
 واحد منهم لصاحبه كفو ، أنارت بهم نجوم المعالي وشموسها لهم أرواحها
 ونفوسها »^(٨٢) ، كما يصفهم صاحب نفح الطيب بقوله : « وكان بنو

(٨٠) المراكش ، عن ابن الصيرفي في المعجب ، ص ١٦٤ •

(٨١) لا ترجمة بنى القبطرنة انظر : ابن الأبار ، التكملة ترجمة رقم

١٧٤٣ ، ابن خاقان ، القلائد ص ١٤٨ - ١٥٥ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ •

ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ابن دحية ، المطرب ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ابن الخطيب

الاحاطة ، ج ١ ، ص ٥٢٠ وما يليها ، المقرئ ، ج ٢ ص ١٢٦ - ١٦٤ •

(٨٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٤٨ •

القيصرية بالاندلس أشهر من نار على علم ، وقد تصرفوا في البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة ، والفضائل المشكورة » (٨٣) .

٢ - ابن عبد - دون :

عاش أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهرى اليابرى الاندلسى في بلاط المتوكل بن الافطس في بطليونس ، وعندما طويت صفحة الدولة الافطسية في عام ٤٨٧هـ بوفاة المتوكل بن الافطس وولديه ، التحق ابن عبدون بخدمة سير بن أبى بكر اللمتونى ، ثم كتب ليوسف بن تاشفين ولولده على بن يوسف (٨٤) ، وعاش في البلاط المرابطى حتى آخر حياته ، حيث توفي في عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م) (٨٥) . وكان من كبار شعراء الاندلس واليه تنسب مرثيته لبنى الافطس المسماة بالعبدونية وهى القصيدة التى بدأها بقوله :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر . فما البكاء على الاشباح والصور ؟

وقد وصف صاحب المعجب هذه القصيدة بقوله : « انها أزلت على الشعر وزادت على السحر ، وفعلت في الابواب فعل الخمر ، فجبلت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر اليها المشير وتساوى في تفصيلها وتقديمها بأقك وجريير » (٨٦) ، وفضلا عن تلك القصيدة ، فلا بن عبدون أيضا رسالته التى كتبها عن الامير سير بن أبى بكر اللمتونى الى أمير المسلمين على بن يوسف يبيشره فيها بفتح مدينة

(٨٣) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٨٤) المراكش ، المعجب ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، ١٦٤ .

(٨٥) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ١١٨ .

(٨٦) المراكش ، المعجب ، ص ٥٧٥ ، ٧٦ .

ثمنتيرين الحصينة^(٨٧) ، وله أيضا رسالته التي كتبها الى ابي عبد الله محمد بن أبي الخصل يخطب مودته^(٨٨) .

٣ - ابن الجد :

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى ، من أسرة بنى الجد من أعيان مدينة لبلة واشبيلية^(٨٩) ، التحق في بداية أمره بخدمة دولة ابن عباد^(٩٠) ، ولما ذهبت دولتهم تولى خطة الشورى ببلده لبلة^(٩١) ، ثم استدعاه على بن يوسف ليتولى الكتابة في ديوان رسائله^(٩٢) ، واستمر يؤدي دوره في بلاط أمير المسلمين الى أن توفي في عام ٥١٥هـ (١١٢١م)^(٩٣) .

وقد نقل ابن خاقان عددا من الرسائل التي كتبها ابن الجد عن أمير المسلمين على بن يوسف وكثما تسلط مزيدا من الضوء على تاريخ الاندلس في عصر المرابطين ، نذكر منها رسالته الى القائد أبي محمد عبد الله بن فاطمة عامله على اشبيلية ، وأخرى عنه الى أهل غرناطة ينعى فيها عليهم اختلافهم وتنازعهم ومطابقتهم ببذل الطاعة لواليتهم ، وثالثة في تولية أبو زكريا يحيى بن أبي بكر المعروف بابن الصخراوي على سبتة وفاس^(٩٤) .

(٨٧) المراكش ، نفسه ، ص ١٦٤ - ١٦٨ .

(٨٨) المراكش ، نفسه ، ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٨٩) في ترجمة ابن الجد انظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ ،

ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٠٩ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٤١ ،

٣٤٢ ، عبد الواحد المراكش ، ص ١٧٣ ، ابن دحية ، المطرب ، ص ١٩٠ .

(٩٠) عفان ، عصر المرابطين ، ص ٤٤١ .

(٩١) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .

(٩٢) مكى وثائق تاريخية جديدة ، ص ١١٦ ، عفان نفسه ، ص ٤٤١ .

(٩٣) ابن بشكوال ، نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥٧٤ ، ابن دحية ،

المطرب ، ص ١٩٠ .

(٩٤) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١١٢ - ١١٤ .

٤ - ابن أبي الخصال :

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقي الشقوري المعروف بابن أبي الخصال الغافقي ، وكان من أهل شتورة ، برز في الفقه وبرع في الكتابة والشعر حتى أصبح من أبرز أعلام النثر الاندلسي في عصر المرابطين ، يصنفه صاحب الاحاطة بأنه : « الشيخ الأجل ، ذو الوزارتين ، السيد الكامل ، الشهير ، الاثير ، الاديب اللغوي السري ، الكاتب البليغ ، معجزة زمانه وسابق أقرانه ، ذو المحاسن الجمية ، الجليلة الباهرة ، والادوات الرفيعة الزكية الظاهرة الكاملة ، المجمع على تنهاى نباهته ، وحمد خصاله رفصاحته ، من لا يشق غباره ، ولا تلحق آثاره ، معجزة زمانه في صناعة النثر والنظم » (٩٥) . وكان أبو عبد الله بن أبي الخصال هو وأخوه أبو مروان عبد الملك من أعظم كتاب دولة المرابطين الى قلب على بن يوسف وأدناهم مكانة لديه (٩٦) ، غير أن أبا عبد الله على ما يظهر لم يكن مخلصا في خدمته له ، اذ أن أمير المسلمين قد أمره أن يكتب عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتسببوا في هزيمة قبيحة للمسلمين على يدى ابن رزمير ، وكان أمير المسلمين لا يطلع عادة لثقتته في كتابة على نص الرسائل التي كانت تصدر عن دياره ، فكان يكتفى بتزجيهم للنقاط الاساسية التي يتعين على الكاتب أن يكتبوا فيها ، فحدث أن عهد على بن يوسف الى كاتبه عبد الله بن أبي الخصال بكتابة رسالة توبيخ الى جند بلنسية ، فأهتبلها فرصة لاطهار مكنون حقه على المرابطين مما تسبب في غضب الامير منه ، فكان من فصول تلك الرسالة قوله : « أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، ألم يزيقكم الذئد ، ويردكم الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط

(٩٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ج ٢ ، ص ٤١٦ .

(٩٦) المراكشي ، المعجب ، ص ١٧٣ .

الخيول ضأننا لها حالب قاعد ، لتد آن أن نوسعكم عقابا ، وألا تلوثوا على وجهه نقابا ، وأن نعيدكم الى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم» (٩٧) . وقد كانت هذه الرسالة سببا في الجفوة التي قامت بينه وبين الامير ، فأعفاه من منصبه ، وعاد الى قرطبة حيث توفي سنة ٥٥٤٠ (١١٤٦م) (٩٨) .

٥ - ابن الصيرفي :

هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الانصارى الغرناطى ، كان من أعلام الكتاب في ديوان على بن يوسف وقد ألف في تاريخ الاندلس في عصر المرابطين كتابة الموسوم «بالانوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» ، كما ألف كتابا آخر عنوانه « قصص الانباو وسياسة الرؤساء » (٩٩) ، لم يصلنا اليها منها سوى شذور من الانوار الجلية نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب وخاصة روايته عن غزوة الفونسو المحارب للاندلس (١٠٠) ، وقد توفي ابن الصيرفي في غرناطة في عام ٥٧٠ (١١٧٤م) (١٠١) .

٦ - ابن عطية :

هو أحمد بن أبى جعفر بن محمد بن عطية القضاعى ، أصله الأول من طرطوشة ، ثم من دانية ، كتب عن على بن يوسف وعن ابنه تاشفين ، ثم عن أبى اسحق ابراهيم بن تاشفين ، وكان أحظى كتابهم لديهم الى أن

(٩٧) المراكش ، المعجب ، ص ١٧٦ ، وقد نشر الدكتور حسين مؤنس نص هذه الرسالة في صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥م ، ص ١١٦ - ١١٨ .

(٩٨) المراكش ، نفس المصدر والصفحة .

(٩٩) عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٤٤ .

(١٠٠) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٣ .

(١٠١) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ١٨٢ .

سقطت دولتهم ، فاستتر وأخفى نفسه ، الى أن ظهر من جديد زمن الخليفة
الموحدى عبد المؤمن فقلده وزارته الى أن نكبه عبد المؤمن بن على (١٠٢) .

وهناك غير هؤلاء الكثير من الكتاب والادباء الذين عملوا فى خدمة دولة
المرابطين زمن أمير المسلمين على بن يوسف منهم على بن عبد العزيز بن
الامام الانصارى (١٠٣) ، وأبو نصر الفتح بن خاقان وغيرهم (١٠٤) .

•

(١٠٢) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٧ .

(١٠٣) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ١٨٢ .

(١٠٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٩١ ، ابن العماد الحنبلى .

شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٤٥٠ ، بالفتيا ، تاريخ الفكر الانحلاسى ، ص ٢٩٦ .

ثانيا : النظام القضائي في عصر علي بن يوسف

- (أ) نظرة عامة على النظام القضائي في عصر علي بن يوسف .
- (ب) أهم خطوط القضاء الشرعي .
- (ج) القضاء العسكري .
- (د) قضاء الزميين في الأندلس .

تعتبر العدالة ونحفة المظلومين من الاسس الهامة التى دعا اليها الاسلام ، فقد أمر تعالى بتحرى العدالة فى الاحكام ، من ذلك قوله تعالى فى كتابه العزيز : « وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المتقنين »^(١) ، وقوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »^(٢) .

ونستدل من هذه الآيات الكريمة على أهمية القضاء وخطورته والمسئولية الملقاة على كاهل القضاة ، وقد اهتم المرابطون بخطة القضاة اهتماما خاصا ، اذ كانوا لا يقطعون فى أمر دون استفتاء الفقهاء والقضاة ، ولهذا تمتع القضاة بمكانة كبيرة فى المجتمع المرابطى .

وكانت للقضاة فى دولة على بن يوسف اختصاصات واسعة ومهام عديدة ، يحددها ابن خادون فى قوله : « واستقر منصب القضاء آخر الامر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر فى أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السنة وفى وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء على رأى من رآه والنظر فى مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم ، بالعدالة والجرح ليصل اليهم الوثوق بهم ، وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته »^(٣) ، وكان له الاشراف على خطة الشورى والفتيا^(٤) والاشراف

(١) القرآن الكريم ، سورة المائدة ، آية رقم ٤٢ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة المائدة ، آية رقم ٤٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٥ .

(٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٨ ، ص ٣٦٩ .

على بيت المال وموارده ، واختيار القائمين عليه وأوجه أنفاقه^(٥) . وفي رسالة موجهة من أمير المسلمين على بن يوسف الى الوحيدى قاضى مالقة وذلك فى سنة ٥٢٣هـ (١١٢٩م) يعرف فيها القضاء بأنه « لرفع المشكلات وتمييز الحقائق من المتسابهات والفصل بعد التبرم فى الدعاوى والمنازعات^(٦) » .

(١) نظرة عامة عن النظام القضائى فى عصر على بن يوسف :

كان تعيين القضاة يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين ، يوصى فيه القاضى بأن يكون عادلا حازما ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ويتمثل ذلك فى المرسوم الذى أصدره على بن يوسف فى أوائل رمضان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) بتولية القاضى موسى بن حماد قضاء مدينة غرناطة وقد جاء فيه : « وبـد ، فتقلد معانا مسددا ما قلدناك وانهض نهوض مستقل بما حملناك ، وتلق ذلك بانسراح من صدرك ، وانبساط من نفسك وفكرك ، وقم فى الخطبة مقام مثلك ومن استحكمت سنه ورجح علمه ، وكفه عن التهافت وروعه وعلمه . وليس هذه بأول ولايتك لها فنبتدىء بوصيتك ونعيد ، ونأخذ بالقيام بحققها العهد الموفق السديد ، بل قد سلفت فيها أيامك وشكر فيها مقامك ، واستمرت على سنن الهدى أحكامك ، فذلك الشرط عليك مكتوب ، وأنت بمثله من اقامة الحق مطلوب ، وأنا ما نعلمه من جيل نظرك واعتدال سيرك ، لم نر أن نقفل توصيتك بحكام الانظار القاصية عليك ، والقريبة منك ، فلا تنصر فيها الا من كثر الثناء عليه وأتسبى بالثقة اليه ، ولتكن رقيبيا على أعمالهم ، وسائلا عن أحوالهم ، فمن بطىء

(٥) ابن عبدون ، رسالة فى الحسبة ، ص ١٠ ، ص ١١ .

(٦) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص

١٧١ ، عثان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٤٣١ .

به سعيه ، وساء فيما تولاه نظره ورأيه ، أظهرت سخطه ، وأعلنت في أنفاس جرحته ، فذلك يعدل جانب سواء ويشربه النصيحة فيما يتولاه ، ولدينا نص الرسالة الموجهة من على بن يوسف الى الوحيدي أبو محمد عبد الله بن أحمد القيسي المالقي تتضمن واجبات القضاء وتحدد اختصاص السلطة القضائية وعلاقتها بسائر السلطات^(٧) . وكان تولية القاضي في منصبه تتم بناء على ترشيح أهل البلاد ، أى أن اختيار القاضي كان يتوقف على رغبة أهل البلد وكانت السلطة القضائية تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية ونستدل على ذلك من الرسالة الثامنة عشر من الرسائل التي نشرها الدكتور محمود على مكي^(٨) . كما كان عزل القاضي أيضا بمرسوم من أمير المسلمين ، وكان هذا المرسوم يرسل الى أهل المدينة التي عزل قاضيها ليطلبوا على الاسباب التي أملت على أمير المسلمين عزله ، وقد أشار ابن عذاري الى سطور من المرسوم الذي أرسله على بن يوسف الى أهل مدينة فاس سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣م) يبين فيه الاسباب التي أدت الى عزله لقاضيهم ابن الملقوم عن قضاء مدينة فاس جاء فيه : « أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ويسركم لما يرضاه وقد أنهى إلينا أن الجهول ابن الملقوم ، أجهل بأحكام القضاء من العلجوم ، وأنه أظهر فيكم أحكاما يترحم من مثلها على سدوم ، فقد ولينا خطة الملقوم ونبذناه في السراء وهو هذوم ، وجعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم »^(٩) .

كان القضاء يحصلون على رواتب ثابتة من بيت المال ، فقد كان من

(٧) المالقي ، تاريخ قضاء الاندلس ، ص ٩٨ .

(٨) مكي ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٤٠ .

(٩) مكي ، نفسه ، ص ١٦٤ .

(١٠) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

الطبيعي للمحافظة على استقلال القضاء ، والحفاظ على سمعة القضاة ،
تقدير رواتب شهرية لهم^(١١) . وكان القضاة يتخذون الكتاب ، ومن
كتب للقضاة ابراهيم بن جعفر بن أحمد اللمتوني ، يعرف بابن الفاسي
وقد كتب للقاضي أبي الاصبغ بن سهل طوال مدة قضائه بالاندلس
والمغرب^(١٢) ، وأبو عبد الله محمد بن علي بن عياش الذي كتب للقاضي
أبي الحسن بن أضحي^(١٣) ، وأبو عامر محمد بن اسماعيل بن عبد الرحمن
بن أمية بن مطرف الجمحي وقد كتب لأبي الحسن بن عبد العزيز قاضي
بلنسية^(١٤) ، كما كان للقضاة حجاب يقفون على أبوابهم ليحجزوا بين
الناس وبين مكان القضاة حفاظا على هيئة المجلس القضائي ووقاره^(١٥) .

(ب) أهم خطط القضاء الشرعي في الدولة : (أ) قضاء الجماعة :

يعتبر منصب قاضي الجماعة من أرفع المناصب القضائية في
الاندلس ، كان صاحبه يشرف على القضاء في جميع أنحاء الاندلس ومن
المرجح أن هذا المنصب الخطير كان لا يتولاه الا كل من يثبت كفاية
عالية في أمور القضاء ، وكان قاضي الجماعة في الاندلس يتمتع بسلطات
واسعة ومنهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز
بن حمدين التغلبي الذي وجهه الامير يوسف بن تاشفين الى اتباع الحق
في الاحكام دون أن يعرف في الله لومة لائم فكتب له « ولا تنبالي برغم

(١١) الملقى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ١٠٤ ، علال الفاس ، الخطط
الشرعية (القضاء) ، مجلة البنية ، السنة الاولى ، العدد ٩ ، نوفمبر ١٩٦٢م ،
ص ١٠٩ .

(١٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(١٣) ابن الابار ، التكملة ، ج ٢ ص ٤٧٣ .

(١٤) ابن الابار ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(١٥) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٧٠ .

راغم و تشفق من ملامة لائم ، فأس بين الناس في عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ؛ ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه » (١٦) . ومن أشهر من تولى منصب قضاء الجماعة في الاندلس في عصر علي بن يوسف أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد ابن رشد المالكي^(١٧) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف ابراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج^(١٨) .

وكانت رئاسة القضاء في المغرب تسند الى قاضي الجماعة بمراكش ، الذي كان يسمى بقاضي قضاة المغرب^(١٩) أو بقاضي الحضرة^(٢٠) ، ويقول الدكتور حسن محمود أن هذا القضاة كان أقرب الفقهاء الى قلب أمير المسلمين ، وأدناهم منه مجلسا ، فقد كان عضوا بمجلس الشورى ، وكان أمير المسلمين يستفتيه في كل ما يعرض له من شئون^(٢١) . ومن أشهر من تولى هذا المنصب : أبو محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي^(٢٢) ، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقون^(٢٣) ، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله^(٢٤) .

(١٦) ابن بسام ، الذخيرة في مجاسن أهل الجزيرة ، مخطوط بغداد ، القسم الثاني ، ص ١٠٦ .

(١٧) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، الضبي ، بغية المتيسر ص ٥١ ، الملقى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٩٨ .

(١٨) ابن الأبار ، المعجم في أصحاب القاضى الامام أبى على الصدفى : ص ١١٨ ، ص ١١٩ .

(١٩) ابن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ٩١ .

(٢٠) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٧ .

(٢١) حسن أحمد ، نفسه ، ص ٣٦٧ .

(٢٢) ابن الأبار ، المعجم ، ص ٢١٤ .

(٢٣) ابن الأبار ، نفسه ، ص ٣٠٠ .

(٢٤) ابن الأبار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

ونتفق مع رأى الدكتور حسن محمود فى أن المرابطين قطعوا فى سبيل تنظيم القضاء شوطا أبعد من مجرد تقسيم قضاء الاندلس والمغرب وجعل زعامة القضاء فى كل منهما لقاضى قضاة ، أحدهما يختص بالاندلس والآخر يختص بالمغرب ، بل ان المرابطين اتخذوا فقهاء له السلطة العليا على قضاء المغرب والاندلس على السواء^(٢٥) ، ومن المرجح أن زعامة القضاء فى العدوتين كانت أحيانا من نصيب قاضى مراكش أو قاضى سبتة أو طنجة ، وأحيانا أخرى لقاضى الجماعة بقرطبة^(٢٦) .

(ب) قاضى قضاة الشرق :

كانت بلاد الاندلس مقسمة جغرافيا زمن المرابطين الى ثلاثة أقاليم رئيسية هى : الشرق والموسطة والمغرب ، وكان لكل اقليم من هذه الاقاليم الثلاثة قاضى قضاة يشرف على القضاء فى الاقاليم التابع له^(٢٧) . وقد أشار المؤرخون الى منصب قاضى قضاة الشرق وهو المختص بالاشراف على قضاء شرق الاندلس ، ولدينا رسالة وجهها على بن يوسف الى أحد عماله على الاندلس ، يحثه فيها على حماية قاضى قضاة الشرق ، كما تحمل هذه الرسالة انذارا للمعترضين على قاضى قضاة الشرق بتوقيع أشد العقاب عليهم^(٢٨) . ومن أشهر من تولى هذا المنصب : ابراهيم بن محمد ابن ابراهيم بن عبد الله بن عصام المعروف بابن منتيل^(٢٩) ، وأبو بكر محمد بن ابراهيم بن أحمد بن أسود الغسانى^(٣٠) ، وأحمد بن محمد بن

(٢٥) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٦٧ .

(٢٦) حسن أحمد محمود ، نفسه ، ص ٣٦٨ .

(٢٧) مؤنس ، سبع وثائق جديدة ، ص ٧٥ ، مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ٧٥ .

(٢٨) مكى ، نفسه ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢٩) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، المعجم ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣٠) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٣٠ ، ١٣١ مؤنس ، سبع وثائق جديدة

ص ٧٥ .

زيادة الله الثقفى ويعرف بابن الحلال (٣١) .

(ج) خطة الاشراف :

تعتبر خطة الاشراف من خطط القضاء المعروفة فى عهد الامير على بن يوسف ، وكانت تختص بالفصل فى المناجات بين الاشراف ويبدو أن المقصود بهم هم قبيلة لتونة وكبار رجال الدولة والاسرة الحالكة ، وقد أورد الفتح بن خاقان اسم واحد ممن تولى هذه الخطة هو الوزير المشرف أبو بكر بن رحيم ، فقد أرسل اليه ابن خاقان يهنئه على تولية خطة الاشراف بشيلى سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) بقوله :

إذا ما شرف الاشراف قـوما	فان بنى رحيم شرفوه
ومن يعرف به لهم قديما	وان رغت أنوف عرفوه
كفاه للملوك على سبيل	ودين نصيحة ما حـرفوه
أبو بكر له ولهم كفيـل	بكل كفاية اذ صرفوه
وما الاشراف الا عـبدقن	لهم فمتى تولى استـصرفوه (٣٢)

(د) خطة المشورى :

هى احدى خطط القضاء فى عصر على بن يوسف ، ومن المرجح أن صاحبها كان فقهيا يشاوره القاضى قبل أن يصدر الاحكام ، وان قاضى المدينة يتولى اختيار هؤلاء الفقهاء من أهل مدينته ، ممن يعرفون بالورع والتقوى والتبحر فى الفقه والعلوم الدينية ، ويد ابن عبدون هؤلاء الفقهاء المشاورين بأربعة : اثنان يشتركان فى مجلس القاضى ، واثنان يقعدان فى المسجد الجامع (٣٣) .

(٣١) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٦٤ ، المعجم ، ص ٣٩ .

(٣٢) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٨٠ .

(٣٣) ابن عبدون ، رسالة فى الحسبة ، ص ٩ ، حسن أحمد محمود ، المرجع

السابق ، ص ٣٦٨ .

(هـ) النظر في المظالم :

كان النظر في المظالم في عصر علي بن يوسف من اختصاصات ولي العهد وقد أورد لنا ابن عذاري نصا يشير الى تولية الامير سبـير بن علي بن يوسف ولي عهد الدولة خطة النظر في المظالم نصه ما يـى : « واستقل بالأمر ونظر في سائر ما تدعوه الضرورة من أمور الجيـوش والاحكام والولايات والعـزل ورد المظالم » (٣٤) ، كما أشار صاحب الاحاطة الى قيام الامير تاشفين بن علي ابن يوسف خلال فترة توليه ولاية عهد المرابطين بالنظر في المظالم : « وأقام المساجد في الثغور ، وبنى لنفسه مسجدا بالقصر ، وواصل الجاوس للنظر في الظلمات ، وقراءة الرقاع ورد الجواب » (٣٥) ، ولكن يبدو أن هذه الخطة قد أضيفت الى اختصاصات الوزير وذلك في أخريات عصر علي بن يوسف ، عندما ازدادت مشاكل الدولة في الداخل بسبب الصراع مع الموحدين ، وفي الخارج بسبب الحروب مع نصارى الاندلس وانشغال الامير تاشفين ولي العهد بالدفاع عن الدولة ، يؤكد ذلك ابن عذاري في قوله : « واستوزر علي بن يوسف في آخر أيامه اسـحق بن يـنتان بن عمر بن يـنتان وما بلغ من عمره ثمانية عشر عاما ، وكان يتوقد ذكاء وعقلا وفهما فأعجب به اعجابا كثيرا وجعل اليه النظر في المظالم والشكايـا ، فاتبع الناس في أمورهم وكافة شئوونهم » (٣٦) .

أما القضاء المدني فقد ظل علي حالة في الاندلس والمغرب دون تغيير ، وكان يدخل فيه نظام الحسبة وما يرتبط به من مهام وكذلك نظام الشرطة .

(٣٤) ابن عذاري ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٨ .
(٣٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ٤٥٠ .
(٣٦) ابن عذاري ، البيان ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(و) خطة صاحب الاحكام :

هي خطة قضائية صغيرة كان يتولاها على حد قول الدكتور حسين مؤنس فقيه من الناشئين في سلك القضاء في بلدة ما أو في حي من أحيائها .
نيابة عن أحد كبار القضاة وبتفويض خاص منه يبيح له أن يصدر أحكامه باسمه فيما يعرض له من قضايا ، وهو ما يعرف في المصطلح الحديث بقضاء الدرجة الثانية ، كما وجد في عصر المرابطين قضاء درجة ثالثة يتولاه فقيها يعرف بالمسدد لا يتجاوز دائرة اختصاصه القرية الصغيرة ولا يتصدر للحكم الا في القضايا والمنازعات الصغيرة (٣٧) . ويتولى صاحب الاحكام بناء على عقد يعرف باسم الصك وقد نشر الدكتور مؤنس كتاب صك عن أحد الرؤساء (٣٨) .

(ج) القضاء العسكري :

عرفت دولة علي بن يوسف ما يمكن تسميته بالقضاء العسكري ، وكان يمارسه قضاة مختصون بحل مشاكل الجند في مواضع خاصة بالمعسكرات ، كما كانوا يشتركون في القتال لحث الجند وتشجيعهم على القتال ، وكان هؤلاء القضاة يسمون بقضاة المحلة أو قضاة الجند ، وقد أشار صاحب المعجم الى أحد القضاة الذين شغلوا منصب القضاء العسكري وهو عبد الرحيم بن اسماعيل الذي عين قاضيا في عسكر أمير المسلمين علي بن يوسف بمدينة سلا (٣٩) .

(د) قضاء الذميين في الاندلس :

أما بالنسبة لأهل الذمة في الاندلس ، فقد كان رجال الدين من

(٣٧) مؤنس ، سبع وثائق جديدة ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٣٨) مؤنس ، نفسه ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٣٩) ابن الأبار ، المعجم ، ص ٢٥٧ .

النصارى واليهود يتولون القضاء لهم ، دون أن يتدخل فيهم قضاة المسلمين ، أجاز الفقهاء تقليد الذمى القضاء لأهل الذمة ، وفي الاندلس خصص المسلمون لأهل الذمة قاضيا يعرف بقاضى النصارى أو قاض العجم . أما إذا كانت الخصومة بين ذمى ومسلم فإن قضاة المسلمين يتولون الفصل بينهما وفي هذا الصدد يشير اشباخ الى أن النصارى كانوا « يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضااتهم »^(٤٠) ، ولكن منذ أن تواطأ النصارى المعاهدون في غرناطة مع الفونسو الأول المصارب فاستدعوه اليهم سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) بعد أن استثاروا طمعه وابتعثوا جيشه ، ومنذ أن افتضح تدبيرهم فى اجتلابه ناكثين بذلك عهدهم للمسلمين أفتى القاضى أبو الوليد ابن رشد « بتغريبهم واجلائهم الى العدو عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم »^(٤١) .

(٤٠) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٨٢ .

(٤١) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٥ ، ص ٦٦ ، ص ٧٠ .

ثالثا : النظام الحربى فى عهد على بن يوسف

(أ) الجيش

(ب) الأسطول

(١) الجيش

قامت الدولة المرابطية على أساس ديني يعتمد على روح الجهاد ، وقد تجلت هذه الروح واضحة جليلة في معارك المغرب الأقصى التي خاضوها ، كما تجلت أيضا في معركة الجهاد في الاندلس .

كانت القيادة العليا للجيش المرابطي تعقد لأمير المسلمين ، أما فرق الجيش المختلفة فكان يتولى قيادتها قواد من الاسرة الحاكمة كى يضمن أمير المسلمين ولائهم واخلاصهم له^(١) .

كان لكل من الاندلس والمغرب ، قيادة عليا موحدة ، فكانت القيادة العليا للجيش الاسلامي في الاندلس تعقد للحاكم العام للاندلس الذى كان غالبا أحد أبناء أمير المساهين أو أحد أخوته ، ولدينا رسالة أرسلها علي بن يوسف الى ابنه أبى بكر القائم بولاية اشبيلية خلفا لعمه تميم ابن يوسف في سنة ٥١٧ هـ ، بتقليده قيادة الجيوش بجزيرة الاندلس ، حيث يقول فيها : « وقد رأينا أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك الجزيرة عموما يشمل من كان هناك منها ، ومن وصل من هذه العدو ... »^(٢) . ومن هنا فقد كان منصب الولاية على الاندلس منجبا سياسيا وحربيا في نفس الوقت ، وهذا يوضح أن الاسس التى قامت عليها دولة المرابطين كانت حربية الطابع ، وكان كل قادة الجيوش وولاة الاقاليم يدينون بالطاعة والولاء لأمير الاندلس . أما القيادة العليا للجيش المرابطي في المغرب فمن المرجح أنها كانت تخضع للإشراف المباشر لأمير

(١) حسن احمد محمود قيام دولة المرابطين ، ص ٢٨٤ ، العبادى ،

دراسات ، ص ١٥٢ .

(٢) مكي ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

المسلمين بسبب اقامته شبه المستمرة في عاصمته مراكش المغربية ، أو كانت
توضع تحت اشراف أحد كبار رجال الاسرة الحاكمة •

سارت الدولة على سياسة أحداث التنقلات بين قادة الفرق العسكرية ،
وهي نفس السياسة التي اتبعتها الدولة في شغل مناصب الولايات على
مختلف مدن المغرب والاندلس ، فقد سارت الدولة على سياسة عدم بقاء
الوالي على ولايته أكبر فترة ممكنة ، حتى لا يكون ذلك فرصة للانفراد
بالولاية والخروج عن طاعة أمير المسلمين^(٣) •

ولقد كان أمير المسلمين على بن يوسف خيرا باختيار القادة الذين
يعاونونه في قيادة الجيش المختلفة ، واختيار القائد الناجح أمر يحتاج
الى عبقرية ، فاكتشف المراهب ليس أمرا هينا ، فهو يحتاج الى الفطنة
واليقظة وحضور البديهة والتجربة وتقدير الواجب والحزم ، لذلك فما
من قائد اختاره الا وظهرت عبقريته وقام بما كلف به خير قيام ، وأدى
واجبه مخلصا لله ولأمير المسلمين ، ولقد ظهر من بين المرابطين قادة من
أعظم القواد العسكريين نذكر منهم أبو محمد مزدلي ، سير بن أبي بكر
اللتمونى ، أبو عبد الله محمد بن الحاج ، داود بن عائشة ، عبد الله بن
فاطمة ، يحيى بن غانية وتاشفين بن على بن يوسف •

كان من الطبيعي أن يعقد أمير المسلمين أو نائبه مجلسا حريا يضم
قواد الفرق العسكرية المختلفة ، لدراسة الخطط الحربية ، وتلقى الاوامر
والتعليمات من أمير المسلمين^(٤) •

(٣) حسن حمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٨٤ •

(٤) اشياخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٧٩ •

عناصر جيوش المرابطين :

(أ) المثلثون أو المرابطون ، وكانوا هم النواة الأولى التي تكون منها الجيش المرابطي ، وقد قامت الدولة على أكتافهم ، وقد اشتهر هؤلاء المثلثون أو المثلثون بقوة بأسهم في الحرب ، ولا يفرون أمام العدو مهما تفوق عليهم في العدد ، ويرجع اليهم الفضل في تلك الانتصارات الرائعة التي أحرزتها الدولة سواء في المغرب الأقصى أو في معركة الجهاد في الأندلس .

(ب) العرب : وكانوا يشكلون فرقة من أهم فرق الجيش المرابطي ، وقد شاركوا في كثير من حروب المرابطين في الأندلس ، وتنتمي بعض العناصر العربية الى عرب الأندلس الذين استقروا في المغرب في عصر الادارسة في حين يرجع البعض الآخر الى بنى هلال ممن تسربوا الى المغرب الاوسط خلال القرن الخامس الهجري ، وقد شارك هؤلاء العرب في معركة كونسويجره consuegra فيقول ابن الكردبوس : « فجرد — أي يوسف بن تاشفين — عسكريا جرارا من مرابطين وعرب وأندلس الشرق والغرب ، وقدم عليهم قائده محمد بن الحاج ، فالتقوا بكنشرة ، فكانت بينهم جولات وحملات الى أن زلزل الله أقدام المشركين ، وولوا مدبرين .. » (٥) كما شاركوا في معركة اقليش فيقول ابن القطان : « واستشهد في هذه الوقيلة — أي اقليش — الامام الجزولي ، وكان رجل صدق ، وجماعة من الاعيان والعربان .. » (٦) وسيشارك هؤلاء العرب في الجهاد في الأندلس على الاخص في عصر الموحدين .

(٥) الاكتفاء ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .

(٦) نظم الجمان ، ص ٩ ، ص ١٠ ، وانظر أيضا ، مؤنس ، الثغر الاعلى الأندلسي ، حاشية (٢) ، ص ١٢٩ .

(ج) الحرس الخاص : كانت قوى الحرس الخاص تتألف من أشجع الجند من مختلف الولايات ، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوى القوام الحسن والشجاعة الفائقة والقوة والبراعة يقول اشباخ « جمع يوسف بن تاشفين بواسطة تجار الرقيق في اقليم غانا ، عددا كبيرا من العبيد واختار منهم أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيول ودرّبهم على جميع غنون القتال ، وأنشأ منهم حرسه الخاص الاسود من ألفى رجل وأنشأ على مثل هذا النمط حرسا خاصا من الاندلسيين يتألف من فتيان من النصراني المعاهدين ، وكان يوسف يحبهم بعطفه وصلاته وينعم على من امتاز منهم بالاخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد » (٧) . ولم يلبث هذا الحرس الخاص أن أصبح ركنا أساسيا من أركان الجيش المراتبي ، ولاسيما أن عليا بن يوسف ضم اليه الكثير من أسرى الحروب مع المسيحيين ، كما أنه اشترى الكثيرين منهم من شواطئ جيلقية وقطالونية وإيطالية والامبراطورية البيزنطية (٨) ، وقد شارك هذا الحرس الخاص في حراسة معقل المغرب بل حتى في حروب الدولة ضد الموحدين ، وكان من أبرز الجند النصراني في حرس علي بن يوسف القائد القطوني الشهير الروبرير (٩) Reverter

(د) الحشم : كانت فرق الحشم من أهم فرق الجيش المراتبي ، وكانت تتكون من زناتة والمصامدة (١٠) ، وكانت هذه الفرق تتقدم عادة الجيوش المراتبية في القتال .

فنون القتال :

يصف أبو بكر الطرطوشي فن القتال في الاندلس في عصره ، ومن

(٧) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

Dozy, Histoire, Vol, III, p. 164.

(٨)

(٩) عن الروبرير انظر الفصل الخاص بالعلاقات بين المراتبين والموحدين .

(١٠) مجهول ، الحل الموشية ، ص ٢١ ، ٢٢ .

المعروف أن الطرطوشي قد عاصر الفترة الأولى من دولة المرابطين وبصفة خاصة عصر يوسف بن تاشفين ، وإذا فإن في وصفه لفن القتال في الاندلس في عصره ، يتضمن فن القتال في عصر المرابطين ، ولاسيما أن المرابطين بعد أن افتحوا الاندلس نقلوا الكثير من طرق القتال التي كان يعرفها أهل الاندلس فيقول الطرطوشي : « فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا وهو تدبير نفعله في لقاء عدونا ، أن تقدم الرجال بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة ، فيصنفوا صفوفهم ، ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض ، وصدورهم شاردة الى عدوهم وهم جاثمون في الأرض ، وكل رجل منهم قد ألحم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التي تمرق سهامهم من الدروع والخيول خلف الرماة ، فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتحزح الرجال عن هيئاتهم ، ولا يقوم رجل منهم على قدميه ، فإذا قرب العدو ، رشقهم الرماة بالنشاب والرجال بالزاريق وصدور الرماح تلقاهم ، فأخذوا يمينه ويسرة ، فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجال فتتال مناهم ما شاء الله » (١١) .

ولكن لم يلبث أن تطور هذا النظام ، فأصبح ترتيب المعركة يقسم على أساس نظام خماسي أي المقدمة والمؤخرة ، والميسرة واليمين والقلب . فكانت المقدمة تتألف من الجند المشاة ، أما الجناحان وهما يمثلان اليمين والميسرة ، فقد كانتا تتألفان من وحدات من الفرسان الخفيفة وحملات النبال ، أما القلب فقد كان يتألف من وحدات من الفرسان الثقيلة ، أما المؤخرة أو الساق ، فقد كانت توجد بها القوة الاحتياطية ، وكان يقودها عادة أمير المسلمين إذا كان مصاحباً للجيش ، وكان لكل قسم من هذه الأقسام الخمسة قائده الخاص به (١٢) . وكان الجند ينظمون وفقاً للأقاليم

(١١) الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١٧٩ .

(١٢) اشباح ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٧٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤١٢ .

والمدن ، فكانت فرق الحشم في المقدمة ، وفي الجناحين أهل الثغور ، وفي القلب القائد العام للجيش وجموع المرابطين ، وفي الساقة أهل الاندلس ، كما كان لكل فرقة أعلامها الخاصة بها فأهل الاندلس يحملون أعلام اثبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها وهي الاعلام الحمراء ذات الصور ، أما أعلام المرابطين فكانت مزخرفة بالآيات القرآنية ، أما فرق الحشم فكانت أعلامها مزركشة ملونة^(١٣) . كانت العادة أن تتقدم فرق الحشم القتال ، ثم تتلوها بقية الفرق الأخرى في دقة ونظام كلما أنهكت فرقة تقدمت اليها فرقة أخرى ، أما فرقة لمتونة فهي لا تخوض المعركة الا في مرحلتها الأخيرة ، لخوف المرابطين من تفرق الفرق الأخرى عنهم وتتركهم لسيوف الاعداء ، فكان طبيعيا أن يكونوا هم في مؤخرة الفـرق العسكرية كي يجنوا ثمار النصر في النهاية^(١٤) ، كما أورد لنا صاحب الحل الموشية قصيدة سرية تضمنت ألوانا من فنون الحرب والقتال على عهد المرابطين ، وقد أهديت هذه القصيدة الى الأمير تاشفين بن علي بن يوسف وهي من نظم كاتبه المؤرخ ابن الصيرفي ، نكتفي هنا الاشارة الى بعض أبياتها^(١٥) . نستخلص من هذه الابيات بعض فنون الحرب والقتال التي نصح ابن الصيرفي تاشفين باتباعها وهي :

(١٣) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٢ ، ص ٤٥٣ .

(١٤) حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٨٨٩ .

(١٥)

أهديك . ن أدب السياسة ما به	كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لأنني أدرى بها ولكنها	ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
خندق عليك اذا ضربت محله	سيان تتبع ظاهرا أو تتبع
حارب بمن يخشى عقابك بالذى	يخشى وهو في جود كفك يطمع
قبل التهاوش عبء جيشك مفسدا	حيث التمكن والمجتال الأوسم
اياك تعبئة الجيوش مضيقا	والخيل تفحص بالرجال وتمزع
حصن حواشيها ولكن في قابها	واجعل أمامك منهم من يشجع
وأحذر كمين الروم عند لقائها	وامض كمينك خلفها اذ تدفع
لا تبقيين النهر خلفك عندما	تلقى العدو فشره وتوقع
وأصدمه أول وهلة لا ترتدع	بدءا تقدم فلنكوص يضعضع =

١ — ضرورة دفر الخنادق حول المدن إحمائها من أى خطر خارجى •
٢ — ضرورة تعبئة الجيوش وتنظيمها قبل المعركة بوقت كاف لكى
تدخل هذه الجيوش الى المعركة وهى على أهبة الاستعداد ، وحتى
لا يأخذها العدو على غرة •

٣ — ضرورة وضع أقوى الفرق العسكرية فى جناحى الجيش وفى
المقدمة ، بينما يتودد القائد العام للجيش المعركة من القلب مع جنده •
٤ — ضرورة نصب الكمائن خلف خطوط العدو •

٥ — عدم القتال وظهورهم الى الماء ، لأن فى ذلك هلكة لجيوشهم •
٦ — ضرورة احداث عنصر المفاجأة فى بداية المعركة، عن طريق الصدام
مع العدو ، مع ضرورة التقدم وعدم التقهقر •

كان الجيش يسير الى المعركة تصحبه دواب محملة بالأقوات
والخيام ، وتكون فى المؤخرة ووراءها قطعان الماشية يقودها الرعاة (١٦) •

كانت أحيانا تحدث قبل المعركة مبارزات فردية بين بعض أبطال
الجيش وهى عادة قديمة عند العرب الغرض منها تقوية روح الجنود
المعنوية ، لأن منظر الماء يثير حماسهم ، ولعل هذا كان واضحا فى معركة
اقلبيش فقد بدأ القتال عقب مبارزة عنيفة بين أحد أبطال المسلمين وأحد

= نشر هذه القصيدة كاملة صاحب الدل الموشية ص ٩٢ - ٩٦ ، وانظر أيضا
أحمد مختار العبادى ، دراسات حول كتساب الدل الموشية ، مجلة تطوان ،
العدد الخامس ، ١٩٦٠ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ •
(١٦) اشباح ، تاريخ الانبلس ، ص ٤٨٠

أبطال النصرانية ، انتصر فيها المسلم على النصراني ، فكان ذلك ايذانا
بنصر المرابطين في هذه الموقعة (١٧) .

كان المرابطون على الرغم من بسالتهم في المعارك الحربية قليلة الخبرة
بفن الحصار ويرجع اشباح ذلك « الى أن دعامة قوتهم كانت تركز الى
الفرسان ، وهم أقل براعة في فنون الحصار » (١٨) ، الا أن فشل يوسف
ابن تاشفين في حصار حصن ليبيط كان حافزا للمرابطين على اتقان فن
الحصار ، وتجلي ذلك بوضوح خلال حصارهم لقلعة شنترين الحصينة ،
وتمكنهم من التغلب عليها (١٩) ، كما ظهرت براعتهم في هذا الفن أثناء
الحصار الذي فرضته الجيوش الاسلامية على مدينة غرناطة لحمايتها
من الفونسو المحارب خلال غزوته الكبرى للاندلس التي كان يهدف من
ورائها تلبية دعوة النصراني المعادين في مدينة غرناطة الى نصرتهم ،
ويصف ابن الخطيب حصار المرابطين لـغرناطة بقوله : « وقد أهدقت
جيوش المسلمين من أهل العدو والاندلس بـغرناطة ، حتى صارت كالدائرة
وهي في وسطها كالنقطة » (٢٠) . وكما نبغ المرابطون في الحصار ، فقد
تفوقوا أيضا في فن التخلص من الحصار ، نستدل على ذلك من نجاحهم
في التخلص من الحصار الذي أحكمه الموحدون على مراكش عام ٥٢٤هـ
ودام ما يقرب من أربعين يوما ، ثم تمكن المرابطون من التخلص منه
وأوقفوا الهزيمة بالموحدين عند البحيرة (٢١) .

(١٧) أحمد مختار العبادي ، صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب
والاندلس ، مجلة البنية ، السنة الاولى ، ع ٩ ، يناير ١٩٦٣م ، ص ٨٨ ، ٩٠ .

(١٨) اشباح ، ارجع السابق ، ص ٤٨٨٠ .

(١٩) المراكش ، المعجب ، ص ١٦٦ .

(٢٠) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٢١) راجع الفصل الخاص بالصراع بين المرابطين والموحدين .

أما عن أساحة الجيش المرابطى ، فلم تكن تخرج عن الأسلحة التى كانت شائعة فى ذلك العصر مثل النشاب والسهام والرماح والسيوف والدروع والبيضات والرعايات والمزاريق (٢٢) ودرق اللط (٢٣) والأطاس (٢٤) .

.. عن رواتب الجيش ، فقد كان الجيش المرابطى شأنه شأن أى جيش آخر ، يتكون من قسمين ، القسم الأول ويشمل الجند غير النظاميين ، وهؤلاء لم تكن لهم رواتب ثابتة تصرف من ديوان الجيش ، بل اتبعوا ما يصرف باسم الاقطاع العسكرى حيث كان لكل جند أرضه الزراعية ، التى يتولى زراعتها ، ويقوم باستغلالها ، ويشتري من ريعها كل احتياجاته من السلاح ، وكان يستدعى وقت الحرب للمشاركة فى القتال ثم يعود مرة أخرى الى أرضه ، ويعبر الطرطوشى عن ذلك بقوله : « وسمعت بعض شيوخ الاندلس من الاجناد وغيرهم يقولون مازال أهل الاسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو فى ضعف وانتفاض ، لما كانت الارض مقطعة فى أيدي الاجناد ، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ويربونهم ، كما يربى التجار تجارته ، وكانت الارض عامرة والاموال وافرة والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه الى أن كان الامر فى آخر أيام ابن أبى عمر فرد عطايا الجند مشاهرة ، بقبض الاموال على النطع وقدم على الارض جباه يجبونها ، فاكلوا الرعايا واجتاحوا أهولهم واستضعفهم ، فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة ، فقللت الجبايات المرتفعة الى السلطان ، وضعفت الاجناد وقوى العدو على

(٢٢) المزاريق رماح طويلة يحملها أصحاب الصفوف الامامية عند القتال .

(٢٣) درق اللط نسبة الى حيوان يسمى باللط يعمل من جلده الدرق .

(٢٤) الأطاس خنجر معقوف يستخدم ضد الاصطنام المباشر ، كما حدث

فى معركة الزلاقة ، حيث عجم أحد غلمان يوسف بن تاشفين على الفونسى السادس وطمعنه بهذا الأطاس طعنة غير قاتلة أصابته فى فخذه ، وكان الفونسى يظن أنه منجل مما يدل على ن القشتاليين لم يكن يعرفون هذا السلاح .

بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ، ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور الى أن دخلها المتلثمون ، فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم » (٢٥) . وهذا يؤكد على أن الدولة المرابطية اتبعت نظام الاقطاع العسكري . أما بالنسبة للجند النظاميين ، وكانوا غالبا من النصراني الذين ازداد عددهم في جيش على بن يوسف حتى أصبحوا يشكلون قسما رئيسيا منه ، فكان لابد من وجود ديوان للجند ، يتولى تسجيل أسمائهم ومقادير نفقاتهم وحقوقهم وصرف مرتباتهم ، فكانوا أشبه بارتزقة في عصرنا الحالي .

كان يتقدم الجيش عادة ، عيونه وجواسيسه لمعرفة أخبار العدو وعدد جنوده وشجاعته ، كذلك كان يتقدمه أيضا جماعة من الادلاء لارشاده الى المسالك والطرق الصالحة بين الجبال الوعرة ، ولهذا كان يختار لهذه المهمة الرجال الموثوق بأمانتهم واخلاصهم . ومن الطريف أن كلمة « دليل » قد انتقلت الى اللغة الاسبانية بلفظها ومعناها ، فصار الاسبان يطلقون على أدلائهم اسم Adalides

(ب) الأسماء - طول

يرجع الفضل في انشاء البحرية المرابطية الى يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين ، وعلى الرغم من بداوة المرابطين وقلة دربتهم وانعدام خبراتهم البحرية بحكم انبثاق دولتهم داخل الصحراء ، فقد أدركوا لأول وهلة أهمية القوة البحرية وذلك منذ شرعوا في فتوحاتهم في المغرب الأقصى ، واستطاعوا في أمد قصير فرض سيادتهم

(٢٥) الطرطوش ، سراج الملوك ، ص ١٢٣ .

على المغرب الاقصى بأكمله وأن يتقدموا الى السواحل الشمالية وبيسطوا سلطانهم عليها باستثناء بعض الثغور الشمالية المطلة على البحر مثل سبتة وطنجة وكانتا خاضعتين لامارة بحرية قوية ، هي امارة سقوت البرغواطى ، وكان سقوت هذا من موالى بنى حمود وكانوا قد أسندوا اليه ولاية سبتة وطنجة بعد ما أثبت اخلاصه وولائه لهم ، ولكنه لم يابث أن خلع طاعتهم ، وأعلن استقلاله عنهم ، واطاعته قبائل غمارة ، فأسس امارة قوية استمرت حتى قيام دولة المرابطين (٢٦) .

وكان من الطبيعي أن يحدث الصدام بين المرابطين والبرغواطيين لأن البرغواطيين كانوا فى الواقع بمثابة شوكة فى ظهر الجيش المرابطى ، فعلى الرغم من سيطرة المرابطين على منطقة فاس ، الا أن هذه الامارة البرغواطية بقيت تسيطر على اقليم الساحل وتتحكم فى المضائق وبالتالى فى التجارة الاندلسية المخربية ، فضلا عن اشتغالها باعمال القرصنة فى البحر (٢٧) ، وكان لزاما على المرابطين الذين يسيطرون على المغرب الاقصى ويستهدفون جهاد الخارجين عن الدين من قبائل برغواطة وغمارة الزناتية أن يسيطروا سلطانهم على الساحل الشمالى بمرافقه الهامة ومجازية طنجة وسبتة ، ولم يكن فى الامكان تحقيق ذلك الا باصطناع سياسة بحرية عاجلا كان ذلك أم آجلا ، كل هذه الاسباب مجتمعة أملت على المرابطين أن يخفوا للقضاء على بقايا الزناتيين ثم يتجهوا بعد ذلك لفتح سبتة وطنجة .

(٢٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، أحمد مختار العبادى ،

دراسات ، ص ٣١٨ .

Bermejo (Joaquin Vallve) : Suqut Al Bargawati rcy de Ceuta, Al Andalus, Vol, XXVIII, Madrid, 1963, Fasc,1, pp. 195 - 198.

(٢٧) أحمد مختار العبادى ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، ص

٦٥ ، ٦٦ .

أعد يوسف بن تاشفين جيشا قوامه اثنى عشر ألف فارس من المرابطين ، وعشرين ألفا من سار قبائل المغرب ، قدم عليه قائدده صالح بن عمران ، فلما اقترب المرابطون من أحواز طنجة ، خرج اليهم سقوت البرغواطى ، وكن شيخا كبيرا قد تجاوز ستة وثمانين عاما وأقسم سقوت على لقاء المرابطين وقال : « والله لا يسمع أهل طنجة طبول اللمتونيين وأنا حتى أبدا » ، فالتقى الجمعان بأحواز وادى منى من أحواز طنجة ، فاشتد القتال بينهما ، فقتل سقوت وهزم جيشه ، فسار المرابطون الى طنجة ودخلوها فكتب القائد صالح بن عمران الى يوسف بن تاشفين يخبره بفتح طنجة^(٢٨) . أما سبتة فقد ظل يسيطر عليها الحاجب ضياء الدولة المعز بن سقوت ، ونظرا لأهمية موقع سبتة الاستراتيجية وما لديها من قوة بحرية ضارية ، فقد اضطر يوسف بن تاشفين الى تجهيز أسطول بحرى يمكنه من الاستيلاء عليها ، غير أن هذا الاسطول لم يلبث أن تعرض للهزيمة وتمكن ضياء الدولة أن يستولى على قطعة منه وعندئذ التمس يوسف بن تاشفين العون من المعتمد بن عباد لاستئصال سبتة تمهيدا للعبور الى الاندلس والمشاركة فى مدافعه ووى النصرانية والجهاد^(٢٩) . وكان المعتمد قد أنشأ سفينة ضخمة يصفها صاحب مفاخر البربر بقوله : « وكان من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين ، بعد العهد بمثلها شدة أسر ، وسعة بطن وظهر كأنها بناها على الماء صرحا ممردا ، وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا »^(٣٠) ، فلما تسامع يوسف بن تاشفين بذلك السفينة الضخمة ، خاطب المعتمدين عباد فى ارسالها اليه لمساعدة المرابطين فى الاستيلاء على سبتة ، فبادر المعتمد بارسالها اليه ، فتقدمت نحو سبتة : « فأطلت على أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ، وأفضت بدولة صاحب سبتة الى سوء قرارها ، ليلة

(٢٨) ابن بى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨ ، وانظر ايضا مجهول .

مفاخر البربر ، ص ٥٥ .

(٢٩) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣٠) مجهول ، مفاخر البربر ، ص ٥٦ .

الجمعة من صفر المؤرخ سنة ٥٤٧٦ هـ ، فلجأ المعز بن سقوت الى البحر ، فهم بركوبه فأعوزته الثرار ، ودفع صدره المقدار . وكر راجعا فدخل دارا تعرف بدار شوير ، وبدرت جماعة من المرابطين ، فاقتحموا عليه بعد سرهم وقتال شديد حتى ضاق اضطرابه ، وفر عنه أصحابه ، ولما أحس بالشر ، دفع ذخائره كانت عنده الى بعض أصحابه ، فبلغنى أنه عثر عليها ، فوجدوا فيها جوهرا كبيرا ، ونشبا من نشب الملك خطيرا ، ووجد فى جملتها خاتم يحيى بن على بن حمود الادريسي ، وخرج بالمعز بن سقوت حين وضح الفجر ، فلقية المعز بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فطلب منه المال فقال له : « الخازن أبيتك كنا نجمع المال ؟ فجلله الحسام ، وحكم فيه الجمام ، تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبديد آلاؤه » (٣١) .

كان من الطبيعى أن يهتم يوسف بن تاشفين بأمر الاسطول فبدأ يهتم بإقامة قوة بحرية كبيرة لاسيما أنه كان مقبل على فتح الاندلس وكان فى أشد الحاجة لهذه القوة البحرية لنقل جيوشه الى الاندلس وتوفير الحماية لها (٣٢) ، فاستعان يوسف بخبرة أهل الاندلس ، كما استعان بالمواد الخام التى تتوفر بكثرة فى الاندلس والتى تصلح لصناعة السفن كمعدن الحديد والاختشاب ، كما استعان أيضا بدور صناعة السفن المنتشرة على طول السواحل الاندلسية وخاصة دور الصناعة فى طرطوشة ودانية وقصر أبى دانس وشلب التى كانت مصاطبة بغابات تصلح أخشابها لصناعة السفن (٣٣) .

(٣١) مجهول ، مغاخر البربر ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، وانظر أيضا أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٣١٩ .
(٣٢) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٩٢ .
(٣٣) العبادى ، المرجع السابق ، هامش (١) ، ص ٣٢١ .

ومهما يكن من شيء ، فإن البذور البحرية الأولى التي غرسها يوسف بن تاشفين لم تلبث أن نبتت وأينعت واشتد عودها وأثمرت في عهد ولده وخليفته على بن يوسف ، وبدأ أسطول المرابطين بفضل قادته الكبار وعلى رأسهم أبو عبد الله بن ميمون احراز انتصارات تجاوزت كل تقدير في الحسبان .

استيلاء المرابطين على جزر البليار

كانت جزر البليار خاضعة لإجاهد العامري صاحب دانية ، وكان قد استقل بملكها سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) ، وولى عليها ابن أخيه ، ثم ولى عليها مولاه الاغلب سنة ٤٣٨ هـ (١٠٣٧ م) ولما قتل مجاهد في سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) خلفه ابنه على « الذي تلقب باقبال الدولة ، وظل الاغلب واليا على جزيرة ميورقة . وكان الاغلب هذا كثير الغزو في البحر ، فاستأذن على بن مجاهد في الغزو ، واستخلف على ميورقة صهره سليمان بن مشكيان نائبا عنه ، وظل سليمان خمس سنوات واليا على ميورقة ثم لم يلبث أن توفي ، فولى على بن مجاهد مكانه مبشرا بن سليمان الذي تسمى بناصر الدولة ، فأقام بها خمس سنوات تغلب خلالها المقتدر بن هود صاحب سرقسطة على دانية سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) ، وألقى القبض على على بن مجاهد ونقله الى سرقسطة حيث أقام سجيناً الى أن توفي في عام ٤٧٤ هـ (١٠٨١) ، فلما علم مبشر بن سليمان بوفاة على بن مجاهد أعلن استقلاله بميورقة^(٣٤) . فلما جاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس وأسقط

(٣٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، القلقشندي صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ٢٥٦ . راجع في تاريخ البليار .
Alvaro Campaner Y Fuertes, Bosquejo Historico de la dominacion islamita en las Baleares, Palma de Mallorca, 1888; Alfred Bel : les Banou Ghanya, Paris, 1903.

ملوك الطوائف الذين أثبتوا ضعفهم وعجزهم وتخاذلهم ، لم يتعرض يوسف لمبشر بن سليمان ناصر الدولة ، ولعل يوسف اتبع في علاقاته بالجزائر الشرقية نفس السياسة التي انتهجها مع بني هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى ، اذ رأى أن كل من المقتدر بن هود أمير سرقسطة ومبشر ابن سليمان صاحب البليار تقوم دولتهما حلالاً بين امارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين ، ثم أنهما لم يحالفا النصارى المتأخمين لهما ضد جيوش المسلمين ، ولم يقفوا من الدولة الإسلامية موقف الخيانة والتقاعس الذي وقفه غيرهم من ملوك الطوائف ، بل ان مبشرا بن سليمان كان أكثر غيرة على مصالح المسلمين من بني هود ، وأقدر على حماية ملكه من غارات النصارى ، فضلا عن كونه أقر العدل وأرضى الرعية ، وهكذا ظل مبشر يحكم الجزائر الشرقية في عهد يوسف بن تاشفين وفي السنوات الأولى من حكم علي بن يوسف الى عام ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) (٣٥) ، ففي هذا العام قام حليف مشترك من أساطيل جمهوريتي بيشسة وجنوة ، وأمير برشلونة رامون بيرنجير الثالث Ramon Berenger III

وأميرى أربونة ومونبيليه بفرنسا (٣٦) ، وقد خرج أسطول الدول المتحالفة في نحو ثلاثمائة سفينة ، ازداد عددها بعد ذلك حتى غدت خمسمائة سفينة واتجهوا أولا صوب جزيرة يابسة ، فحاصروها حصارا شديدا وتمكنوا من الاستيلاء عليها على الرغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها أهل الجزيرة (٣٧) ، ثم توجهوا الى جزيرة ميورقة ونزلوا فيها وضربوا حصارا حول عاصمتها مدينة ميورقة التي تعرف الآن باسم بلما دي ميورقة Palma de Mallorca وقد أبلى مبشر بن سليمان بلاء حسنا في الدفاع عن

(٣٥) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣٦) ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٢٢ ، كاليليا سارنللى ، مجاهد العامرى ، قائد الاسطول العربى فى غربى البحر المتوسط ، ص ١٩٠ ، عنان دول الطوائف ، ص ٢١١ ، العبادى ، دراسات ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣٧) ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

الجزيرة ولما أحس بعدم قدرته على مواصلة المقاومة لفترة طويلة ، أرسل إلى أمير المسلمين على بن يوسف يستصرخه ويستنصره ، ووجه كتابه مع القائد أبي عبد الله بن ميمون ، وكان اذ ذاك عنده قائد غراب بين يديه ، فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمرًا ليلا من دار الصناعة عليه ، وقد حاولت بعض السفن المسيحية تعقبه ، الا أن محاولتهم باءت بالفشل فوصل ابن ميمون الى المغرب ، والتقى بأمير اسلمين وأعطاه كتاب مبشر بن سليمان اليه ، فأمر في الحال باعداد ثلاثمائة سفينة لانقاذ ميورقة (٣٨) .

وقد حدث أثناء الحصار المسيحي لجزيرة ميورقة أن توفي مبشر فقام بالأمر بعده قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون ، الذي واصل الدفاع عن الجزيرة ، الا أنه لم يستطع الصمود طويلا ، وحاول أن يفر من الجزيرة في مركب ليطلب النجدة أمام عنف الحصار ولكنه وقع في أسر النصارى ، ولم تلبث الجزيرة أن سقطت على أثر ذلك في أيدي النصارى في أواخر عام ٥٠٨ هـ (١١١٥م) بعد حصار دام عشرة شهور ، فقتلوا من وجدوه في المدينة من المسلمين وعاثوا فيها تخريبا ونهبا (٣٩) .

كان لسقوط ميورقة في أيدي النصارى ، أسوأ الأثر في نفوس اسلمين ، فتطلعت أفئدتهم إلى أمير المسلمين لانقاذها ، فأسرع على بن يوسف بارسال أسطول له وجعل على قيادته قائده ابن تافرطاس (أو تافر طاست) ،

(٣٨) ابن خلدون ، العبر ، ج ٥٤ ، ص ٣٥٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٥٩ ، عنان ، دول الطوائف ، ص ٢١٢ ، العبادى ، دراسات ، ص ٣٢٤ .

(٣٩) ابن خلدون ، نفس المصدر والصفحة ، ابن الكردبوس نفس المصدر ص ١٢٣ ، مكى ، نفس المرجع والصفحة ، عنان ، نفس المرجع والصفحة ، العبادى ، نفس المرجع والصفحة .

فلما علم النصارى بخروج هذا الاسطول واقترابه من ميورقة ، قرروا الرحيل وترك الجزيرة ، بعد ما حملوا معهم السبى والغنام ، وأثسعلوا النيران في الجزيرة ، فلما وصل الاسطول الى الجزيرة في عام ٥٥٠٩ وجدها خالية^(٤٠) ، وفي الحال شرع ابن تافرطاس في تعميرها ، وأعاد اليها الفارين من سكانها ، وكانت قد لجأت منهم الى الجبال جموع غفيرة^(٤١) ، ومن ذلك التاريخ تدخل الجزائر الشرقية في حظيرة الامبراطورية المرابطية الكبرى .

لم يقتصر نشاط الاسطول المرابطى في عصر على بن يوسف على استنقاذ الجزائر الشرقية من أيدي النصارى ، بل تصدى لاطماع النورمنديين في ممتلكات الدولة الزييرية بافريقية ، وقد تعرضت بالتفصيل لنشاط البحرية المرابطية ضد النورمنديين في الفصل الخاص بالعلاقات بين المرابطين والزييريين ، كذلك نشط الاسطول المرابطى نشاطا كبيرا على سواحل أوربا الجنوبية فاغار على سواحل جليقية وقطلونية وايطاليا ، والامبراطورية البيزنطية^(٤٢) .

قيادة الاسطول

من أشهر قادة الاسطول المرابطى أبو عبد الله بن ميمون ، وقد تولت

(٤٠) عن استيلاء المرابطين على جزيرة ميورقة انظر : ابن الاطن ، نظم الجمان ، ص ٢٠ ، ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٣٥٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٢٤ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٨٨ ، مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٠ ، كليلىا سارنللى ، مجاهد العامرى ، ص ١٩١ ، العبادى ، دراسات ص ٣٢٥ .

(٤١) ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

Dozy, Histoire, vol., III, p. 164.

(٤٢)

أسرة بنى ميمون قيادة الاساطيل المرابطية ، ثم انتقلوا الى قيادة الاساطيل الموحدية عقب سقوط دولة المرابطين ، ومما يؤكد على تلك المكانة الكبيرة التى كانت تتمتع بها هذه الاسرة ، أنه عندما اضطربت الامور السياسية فى أواخر عهد المرابطين رأى أهل المرية تقديم القائد أبا عبد الله بن ميمون واليا عليهم ، غير أنه اعتذر بقوله : « انما أنا رجل منكم ، ووظيفتى البحر وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى » (٤٣) . وقد أشعار ابن خلدون الى أهمية الدور الذى لعبته تلك الاسرة أثناء قيادتهم للأسطول المرابطى فى الدفاع عن السواحل المغربية بقوله : « وكان الجانب الغربى من هذا البحر لهذا العهد وفور الاساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة ، فكان قواد الاسطول به لعهد لمتونة بنى ميمون رؤساء جزيرة قادس ، ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم ، وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا (٤٤) . ومما يدل على أهمية الدور الذى لعبه على بن عيسى بن ميمون فى قيادة الاساطيل المرابطية أن مدونة الفونسو السابع اهتمت به وسجلت نشاطه .

قواعد أسطول المرابطين

تعتبر المرية من أكبر قواعد الاسطول المرابطى فى الاندلس وكان بالمرية قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبى عبد الله محمد بن ميمون ، وكان هذا الاسطول على أهبة الاستعداد لتلبية أوامر أمير

(٤٣) المراكش ، المعجب ، ص ٢١٠ ، وانظر ايضا العبادى ، دراسات ،

ص ٣٢١ ، ص ٣٢٢ .

(٤٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٩٥ .

المسلمين . فقد طلب تاشفين بن على بن يوسف عندما حاصره الموحدون بوهران من أبى عبد الله بن ميمون قائد أسطول المرية أن يجهز له عشر أجفان غزوية لتكون تحت تصرفه بوهران على أمل أن يركب منها البحر الى الاندلس إذا ما غلبه الموحدون » (٤٥) . كما كانت المرية تضم دارا لصناعة السفن (٤٦) ، وهناك أيضا مدينة دانية التى كانت من كبرى قواعد الاسطول المراتبى فى الاندلس ويعتقد الدكتور محمود على مكى أن دانيية كانت تعتبر مقر قيادة الاسطول المراتبى فى الاندلس (٤٧) . ومن المرجح أيضا أن قواعد الاسطول المراتبى كانت تنتشر على طول سواحل المغرب والاندلس سواء فى طنجة ، وسبتة وبجاية وطريف واشبيلية والجزيرة الخضراء ، وجزر البليار . ومن الطبيعى أن هذه القواعد كانت تضم الكثير من البحريين للإشراف على اصلاح السفن وصيانتها ، وتزويدها به تحتاج اليه من المؤن والعتاد .

أما عن حجم الاسطول المراتبى وعدد سفنه ، فليست لدينا أى تفاصيل كافية أو شافية ، سوى ما ذكره ابن خلدون بأن الاساطيل المراتبية بلغت مائة أسطول (٤٨) ، وهو بالتأكيد قول مبالغ فيه ، وأنتى هنا أتفق مع الاستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى فى أن المقصود من كلام ابن خلدون هو عدد مجموعات السفن الحربية التى كانت موزعة على جميع قواعد المغرب والاندلس أو عدد وحدات الاسطول المراتبى الموزع على سواحل الاندلس والمغرب (٤٩) .

(٤٥) سالم ، المرية ، ص ٨٩ .

(٤٦) لطفى عبد البديع ، نص اندلسى جديد، قطعة من كتاب فرحة الانفس لابن غالب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الاول ، ج ٢ ، نوفمبر ، ١٩٥٥ م ، ص ٢٨٣ .

(٤٧) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٣ .

(٤٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٨ .

(٤٩) العبادى ، دراسات ، ص ٣٢٣ .

رابعاً : النظام المالي في عصر علي بن يوسف

(أ) السياسة الضريبية للدولة •

(ب) العمـلات •

(أ) 'السياسة الخريبية للدولة :

اتبعت دولة المرابطين في البداية — نظرا لنشأتها الدينية وتأثرها بتعاليم الفقيه عبد الله بن ياسين — اتبعت حكم الشريعة الإسلامية في جباية الضرائب ، فكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يلتزم بتحصيل ما تجيزه الشريعة من الفروض مثل الزكاة والاعشار وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة وفي ذلك يقول صاحب روض القرطاس : « ولم يجد في بلد من بلاده — أي يوسف بن تاشفين — ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم هكس ولا معونة ولا خراج لا في حاضرة ولا في بادية إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والعشر وجزيات أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين » (١) .

ولكن عندما اتسعت رقعة الدولة ، وتضاعفت جيوشها ومسئولياتها ولاسيما بعد اغتياح الاندلس واتساع عمليات الجهاد في شبه الجزيرة لم تعد هذه الموارد الشرعية المتواضعة تكفي لمواجهة تلك المسؤوليات الجديدة ، فاضطر يوسف بن تاشفين الى فرض ضرائب جديدة على أهل المغرب والاندلس تعرف بالمعونة المساهمة في الجهاد ولعل دليلنا على ذلك ما رواه المقرئ من أن يوسف بن تاشفين قد كتب الى أهل مدينة المرية يطالبهم برسالة هذه المعونة ، غرد عليه قاضي المدينة أبو عبد الله بن الفراء بكتاب رفض فيه أن يمدد بالمال على اعتبار أن هذه الضرائب غير شرعية أو قانونية ، وطلب القاضي من أمير المسلمين بأن يدخل المسجد الجامع بمدينة مراكش ويقسم أمام الملائكة بأنه ليس عنده درهم ولا في بيت مال المسلمين أسوة بما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام والفاروق عمر

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ ، وانظر أيضا ابن الخطيب

الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٨١ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٢٠ .

ابن الخطاب ، ثم وعده القاضى فى النهاية بالنظر فى معاونته اذا ثبت ذلك^(٢) . فلما تولى على بن يوسف لجأ الى فرض القبلات على مختلف السلع والصناعات ، وفى هذا الصدد يقول الادريسي « فكانت أكثر السلع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والمغازل ، فكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل كل شيء على قدره »^(٣) ، كما لجأ على بن يوسف الى فرض ضريبة جديدة على مدن الاندلس الهامة تعرف بالتعتيب أو التعطيب كان يخصص دخلها لاقامة أسوار جديدة ، وترميم الاسوار القديمة وقد فرضت هذه الضريبة فى أعقاب غزوة الفونسو المحارب للاندلس سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م)^(٤) ، وقد عهد على بن يوسف الى النصارى المقيمين سواء فى المغرب أو فى الاندلس بأعمال الجباية^(٥) .

أما عن الاملاك السلطانية — وهى الاملاك الخاصة بأمر المسلمين — فكان الامير يعهد بتحصيلها الى شخص يسمى بالمستخلص ومن هؤلاء الذين تولوا هذه المسئولية مؤمل مولى باديس بن حبوس جابى مستخلص أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافى جابى مستخلص أمير المسلمين على بن يوسف

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ ، وانظر أيضا سالم ، تاريخ مدينة المرية ، ص ٩٠ .

Dozy, Histoire., vol, III, pp. 161 - 162.

(٣) الادريسي ، المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ص ٢٠٠ ، وانظر أيضا عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٢١ .

(٤) عن ضريبة التعتيب أو التعطيب انظر : ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، سالم ، المرية ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٥) عبد الله بن بكين ، التبيين ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ .

على هدينتى غرناطة واشبيلية^(٦) . وكان أمراء المرابطون يراقبون هؤلاء المستخلصين مراقبة دقيقة ويشددون النكير عليهم ويحاسبنونهم حسابا عسيرا ، ويعاقبون المقصر عقابا شديدا ، فكأنوا يحاسبونهم اذا ما اعتزلوا الخدمة ، ويعرضونهم لمصادرة الاموال والسجن اذا رأوا منهم تفريطا أو تقصيرا ، وكانوا يحاسبون ورثة المستخلص اذا مات ويثقلون عليهم ويصادرون تركة المتوفى اذا لزم الامر ، ولعل الخوف من هذا الحساب العسير هو الذى دفع هؤلاء مستخلص أمير المسلمين عندما حضرته الوفاة ، أن أحضر ما كان عنده من مال المستخلص وأشهد الحاضرين على دفعه الى من استوثقه على حمله ، ثم أبرأ جميع عماله وكتابه ، وأرسل رجلا من رجاله الى أمير المسلمين يحمله كل ما يملكه مؤملا من مال خاص به ليخبر أمير المسلمين أن ذلك المال هو كل ما اكتسبه نظير خدمته في دولة الأمير ، ويطلب منه أن يقبل هذا المال تبرعا منه لبيت مال المسلمين وذلك خوفا أن يصيب ورثته مكروه اذا ما مات^(٧) .

(ب) العملات :

كانت العملة الرئيسية لادولة المرابطية هي الدينار الذهبى الذى كان عماد الاقتصاد فى الدولة ، وقد ظلت هذه العملة المرابطية الذهبية مستخدمة لعدة قرون حتى بعد سقوط الدولة المرابطية^(٨) ، وقد قلد الفونسو الثامن فى طيلة هذه العملة المرابطية حيث ضرب دنانير عرفت

(٦) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٧) عبد الله بن بلكين ، المصدر السابق ، ص ٢١٣ ، حسن احمد

محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤١١ .

(٨) ارشيبالد اويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ،

ترجمة احمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٨٦

باسم الفونسو المرابط في عام ١١٧٣م^(٩) ، وفي هذا تأكيد على ما كانت تتمتع به العملة المرابطية في ذلك الوقت من قوة ، كما أنها تدل على مدى قوة الاقتصاد المرابطي ، كما استخدم المرابطون العملة الفضية المعروفة بالدرهم الفضي ، ولتسهيل المعاملات التجارية ضربوا عملات بجانب الدينار والدرهم من فئة النصف درهم وثمانه $\frac{1}{16}$ منه ، وكانت هذه العملة الأخيرة تسمى خروبة (بالاسبانية Algorroba)^(١٠) .

هذا وقد انتشرت دور سك العملة في مختلف أجزاء الدولة سواء في المغرب أو في الأندلس مثل أغمت ، تلمسان ، سجلماسة ، فاس ، مراكش ، نول لطة ، سبقة ، سلا ، مكناسة ، نول ، شريش ، طنجة ، شاطبة ، مارتة ، أشبيلية ، بلنسية ، الجزيرة الخضراء ، دانية ، غرناطة ، قرطبة ، مالقة مرسية ، المرية ، سرقسطة^(١١) .

(٩) Roland-Oliver, the Cambridge History of Africa, Volume, 3, p. 336.
Codera, Decadencia., p. 220.

(١٠) راجع المراكش ، المعجب ، ص ٢٠٧ .

Codera, Decadencia., p. 220.

(١١) Lavoix, Catalogue de minnaits Musulmanes de la Bibliothe que nationales., pp. 198 - 245; Antonio Preto Y Vives, los reyes de Taifos pp 241 - 243.

الفصل الثاني

بعض مظاهر الحضارة في عصر علي بن يوسف

أولاً - الحياة الاجتماعية :

- (أ) المجتمع المغربي الاندلسي •
- (ب) العادات •
- (ج) أثر الاندلس في تخفيف حدة الخشونة عند المرابطين •

ثانياً - الحياة الاقتصادية :

- (أ) التجارة •
- (ب) الصناعة •
- (ج) الزراعة •

ثالثاً - أمثلة من الآثار المعمارية في المغرب والاندلس زمن علي بن يوسف:

- (أ) الآثار الدينية •
- (ب) الآثار المدنية والمنشآت العامة •
- (ج) الآثار الحربية •

رابعاً - الحياة الأدبية والعلمية :

- (أ) الحياة الأدبية •
- ١ - الشعر والنثر •
- ٢ - الموشحات والأزجال •

(ب) الحياة العلمية •

- ١ — علوم الفقه والحديث •
- ٢ — علوم اللغة •
- ٣ — التاريخ والجغرافية •
- ٤ — التصوف •
- ٥ — الطب •
- ٦ — الفلك والتنجيم والفلسفة •

أولا : الحياة الاجتماعية

- (أ) المجتمع المغربي الاندلسي
- (ب) العسادات
- (ج) أثر الاندلس في تخفيف حدة الخشونة عند المرابطين

(أ) المجتمع المغربي الاندلسي

١ - مجتمع الخاصة :

(أ) الأمراء والقواد :

كان المرابطون (أو الملتزمون أو اللمتونيون) يمثلون الطبقة الحاكمة صاحبة السيادة على المغرب والاندلس ، ولذا فقد اتخذوا من اللثام شعارا يميزهم عن غيرهم من قبائل المغرب ، وفي هذا الصدد يقول ابن عبدون « يجب أن لا يلثم الا صنهاجي أو لمتوني أو لمطي ، فان الحشم والعبيد من لا يجب أن يلثمون على الناس ويهيبهونهم ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام »^(١) . ولعل هذه العبارة التي أوردها ابن عبدون - المعاصر للدولة المرابطية - تؤكد ما كانت تتمتع به تلك الطبقة الحاكمة من نفوذ وسيطرة على الناس ، مما جعل بعض العناصر الأخرى كالْحشم والعبيد والاتباع يتشبهون بالمرابطين فيلبسون زيهم المميز وهو اللثام ، ويأتون الكثير من ألوان الفجور والتعدي والعيث بالأمن ارتكاب المعاصي تحت ستار هذا اللثام .

من الملاحظ أن المناصب الكبرى في الدولة ، كمناصب حكام الولايات ، وكذلك قادة الفرق العسكرية ، كانت وقفا على أفراد البيت الحاكم كي يضمن أمير المسلمين ولاء حكام الولايات وقواد الجيش له .

ولقد انتهجت هذه الطبقة الحاكمة تعاليم الفقيه عبد الله بن ياسين وظل هذا الوضع قائما طوال العصر المرابطي الأول أي ابان الفترة التي سبقت عبور المرابطين الى الاندلس ، الا أنه بضم المرابطين الاندلس الى

(١) ابن عبدون ، رسالة في الحسبة ، ص ٢٨ .

دولتهم في المغرب ، بدأ تطور جديد يطرأ على هذه الطبقة الحاكمة لاسيما بعد أن بهرتهم مظاهر الابهة في حضارة الاندلس ، فأخذوا بها واستغرقوا فيها ، ولعل هذا قد ظهر بوضوح منذ عصر علي بن يوسف ، وقد كان هذا أمرا طبيعيا فعلى أندلسي النشأة ، وقد بلغ شغفه بالاندلس وحضارتها أن بلاطه المغربي كان يضم نخبة ممتازة من أئمة الفقهاء وكبار الشعراء والادباء والعلماء الاندلسيين ، حتى قال عنه صاحب المعجب أن بلاطه أصبح أشبه ببلاط الخلفاء العباسيين في بغداد^(٢) ، كما كان أمير المسلمين يحرص اذا ما رحل الى الاندلس أن ينزل في مدينة اشبيلية في معرث غاية في الحسن والجمال ، وقد وصفه صاحب القلائد بقوله : « خرجت باشبيلية مشيعا لأحد زعماء المرابطين فلما انصرفنا مال بنا الى معرث أمير المسلمين أدام الله تأييده الذي ينزله عند حلوله اشبيلية وهو موضع مستبدع ، كأن الحسن فيه مودع ما شئت من نهر ينساب انسياب الأرقام وروض كما وثت البرود يدر اقم وزهر يحسد المسك رباه ويتمنى الصبح أن يسم به محياه »^(٣) ، وهكذا عاش أمير اسلمين عيشة أقرب ما تكون الى ما كان يحياه من قبل ملوك الطوائف . وقد كان من الطبيعي أن يستطيب أمراء الدولة مثل هذه الحياة المترفة بعد أن يتذوقوها وساعد على ذلك أن أمراء المرابطين كانوا يتنقلون في مناصبهم ما بين المغرب والاندلس ، وكان الامير الذي يقضى بنقله من المغرب الى الاندلس يصحب بطانته ووزراءه وكتابه ، فبدأ أمراء الدولة يعيشون في ولاياتهم عيشة مترفة ، فتأنقوا في اللبس والمأكل واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنيين والندماء وبدأوا يحيون حياة لا تكاد تختلف عن الحياة

(٢) المراكش ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٧١ ، وانظر ايضا حسن احمد

محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٢٢ .

التي كان يحياها أهل الاندلس^(٤) وأقرب مثال الى ذلك الامير أبو بكر ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تيفلويت صاحب سرقسطة على عهد علي بن يوسف ، الذي اتخذ من العالم الفيلسوف ابن باجة كاتباً له فظل ابن باجة ملازماً لابن تيفلويت حتى وفاة الاخير عام ٥١٠هـ وكان هذا الامير يقدر الشعراء والحكماء والادباء ومما يذكر في هذا المجال ما رواه ابن الخطيب في ترجمته لابن تيفلويت عندما قال أن ابن تيفلويت «أمر يوماً أصحابه ومنهم ابن باجة بالتأهب والاستعداد للمسير ، فاستعد ابن باجة للمسير واتخذ الأقيية والاخبية واستفره الجياد من بغال الحمولة ، فكانت له منها سبعة صفر الالوان ، حمل عليها الثياب والفرش والمال ، فلما نزل الامير ابن تيفلويت ، مرت عليه البغال المذكورة في أجمل الهيئات ، فقال لجلسائه لمن هذا البغال ، ومن يكن من رجالنا هذا ، فأصابوا العزة ؟ فقالوا هي للحكيم ابن الصائغ صاحب سرقسطة (يقصد ابن باجة) ، وليعلم مولانا الوزير الحكيم أن في وسط كل حمل منها ألف دينار ذهباً سوى المتاع والعدة . فاستسحن الامير ذلك ، وقال أهذا حق ؟ قالوا نعم ، فدعا الخازن على المال ، وقال له ادفع لابن باجة خمسة آلاف دينار ليكمل له ذلك اثني عشر ألفاً ، فقد سمعته غير ما مرة يتمنى أن يكون له ذلك ، ثم بحث عنه في الحين وقال له يا حكيم ما هذا الاستعداد ، فقال له يا مولاي ، كل ذلك من هباتكم وأعطياتكم ، ولما علمت أن اظهر ذلك يسركم فسر بذلك » وقد رثاه ابن باجة بعد وفاته في سنة ٥١٠هـ بقوله :

سلام والمأم ووسمى مزنة على الجدث الثاني الذي لا أزوره

(٤) حسن احمد محمود ، المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

أحق أبو بكر تقضى لا ترى ترى جماهير الوفود مستورة
لئن أنست تلك اللهود بلحده لقد أوحشت أقصاره وقصوره^(٥)

(ب) الفقهاء والقضاة وعلماء الدين :

تمتع الفقهاء والقضاة وعلماء الدين بمكانة سامية في المجتمع
الاندلسي المغربي زمن المرابطين ، ولعل ذلك يرجع الى دورهم الكبير
في قيام الدولة المرابطية أو الى التعاليم الراسخة التي وضعها الفقيه
المالكي عبد الله بن ياسين منشئ الدولة الروحية ومؤسسها ، وهكذا كان
من الطبيعي أن يتمتع فقهاء المالكية بمنزلة كبيرة في بلاط يوسف
بن تاشفين ، ثم في بلاط ولده علي بن يوسف ، وأن ترتفع مكانتهم
ويصبحون موضع المشاورة من أولى الامر في كل شأن وأمر ، بحيث
تحكموا في ارادة الامير وغدوا يسيطرون عليه ويتحكمون في تصرفاته ،
مع ضيق أفقهم وجمود أفكارهم ، وقد استشرى نفوذ هؤلاء الفقهاء في
عهد علي بن يوسف ، الذي كان على حد قول صاحب المعجب قد :
« اشدت ايثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته
دون مشاورة الفقهاء ، فكان اذا ولى أحدا من قضائه ، كان فيمن يعهد
اليه ألا يقطع أمرا ولا بيت حكومة في صغيرة من الامور و كبيرة الا
بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا
مثله في الصدر الأول من فتح الاندلس^(٦) وهكذا أسرف الفقهاء في تحكمهم
واستبدادهم بالأمير ، فقصدتهم الشعراء مادحين ، وتكدست لديهم
الاموال ، فأقبلوا على الترف وتخلقوا بما تخلق به في العادة رجال

(٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٦) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٧١ .

الجاشية في بلاط الملوك من الحقد والتنافس والانصراف الى التمتع بمباهج الحياة ، والاخذ بالوان البذخ والترف ، ومن أمثال هؤلاء الفقهاء القاضى الفقيه أحمد بن حمدين ، والقاضى أبى الحكم بن حسون بمالقة والقاضى ابن جزى بجيان والقاضى أحمد بن عاصم بأوريولة ، والقاضى عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية ، ومن أمثلة الاشعار التى قيلت فى مدح بعض الفقهاء البارزين فى المجال السياسى بالاندلس القصيدة التى مدح بها الشاعر أعمى تطيلة للفقيه القاضى أحمد بن حمدين قاضى الجماعة بقرطبة وفيها يقول :

لأبى القاسم بن حمدين نفس خلقت من مكارم الاخلاق
ويدان براهما المجد حتى سبحتا بالآجال والأزراق
يا أبا القاسم دعاء امرىء وافا كس سبقا فى أول السباق
خذ اليك الثناء لا بل أدل الشكر عرف المهبط المساق
لك مجد لو كان للنجم شملا لم يرعه صرف الردى بفراق^(٧)

وعلى الرغم من تلك المكانة العظيمة التى بلغها فقهاء المالكية فى عصر على بن يوسف ، فان هذا العصر شهد أيضا انتقاد الشعراء لهم وهجوم اياهم ، فهذا أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى أحد شعراء جيان يقول عنهم :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهب وبأصبع صبغت لكم فى العالم^(٨)

(٧) الاعمى التطيلي ، الديوان ، ص ٨٧ .

(٨) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧١ .

ويبدو أن أبا جعفر أحمد المعروف بابن البنى كان شديد النقد لرجال الدين لركونهم الى جمع المال وتعلقهم بحب الدنيا في ذلك الزمان ، فقد هجا أحمد بن حمدين قاضى قرطبة على عهد على بن يوسف هجاء مقذعا بقوله :

أدجال هذا أوان الخروج ويا شمس لوحى من المغرب
يريد ابن حمدين أن يعتقى وجهدوا أنسأى من الكوكب
إذا سئل العريف حك أسفنة ليثبت دعسواه فى تغلب

فيصف ابن البنى هنا ابن حمدين بشدة البخل ، وباستماتته فى وظيفته التى تدر عليه ربحا طائلا ، ويبدو أن ابن حمدين كان يهدد بالاستقالة من منصبه كقاضى للجماعة بقرطبة ، لذلك يقول الشاعر أن من علامات الساعة أن يطلب ابن حمدين الاستقالة فهو يطلب ذلك طلبا كاذبا ، فالصعود الى الكواكب أيسر عليه من أن يصدق فى تقديم الاستقالة ويتنازل عن عمله المربح وهو من الشح بحيث لا يستجيب لسائل أو محروم .

ومادما مقررين بأن الأدب يكشف عن أخلاق العصر الذى قيل فيه ، فاننا نستنتج مما سبق أن فقهاء عصر على بن يوسف قد انصرفوا عن جادة الاعتدال ، وأن ذلك بلا شك من المثالب الاجتماعية لعصر على بن يوسف ، فقد كان الفقهاء يتدخلون فى كل أمور الدولة ، وكان عليها يستفتيهم فى كل أموره ، فحين فكر على فى تسوير مراكس استفتى فقهاء الدولة ومنهم ابن رشد الاندلسى الذى أفتى بصحة هذه الفتوى ،

(٩) المراكش ، المصدر السابق ، ١٧٢ .

كما أفتى ابن رشد بابعاد المعاهدين في الاندلس وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ومساعدتهم لألفونسو المحارب ، كما أفتى الفقهاء وعلى رأسهم ابن حمدين باحراق كتاب احياء علوم الدين للعالم الفقيه أبى حامد الغزالي سنة ٥٠٣ هـ .

٢ - مكانة المرأة :

تمتعت المرأة في عصر المرابطين بمكانة رفيعة في المجتمع المغربي الاندلسي ، فكانت أكثر ظهورا في مجال الحياة العامة ، وأعظم نفوذا وأشد حرية ، وربما يرجع ذلك الى أن المرابطين قد نشأوا في الصحراء ، والمرأة الصحراوية كانت دائما الركن الركين في اقامة بناء الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فهي التي ترعى الابل والغنم ، وهي التي تطهو الطعام وتربي الأولاد وتحيك الثياب ، أما الرجل فأهم أعماله حماية الاسرة والذود عن القبيلة . وقد أشار المؤرخون الى أنه كان لبعض نساء المرابطين رأى مسموع في سياسة الدولة العليا ، منهم السيدة زينب النفزاوية زوج أمير المسلمين يوسف بن تاشفين التي تمتعت بمكانة مرموقة في الدولة ، وكانت أشبه بالمستشار السياسي لأمير المسلمين ، فقد استمع يوسف الى نصيحتها التي أشارت بها عليه في معاملة الامير أبى بكر بن عمر بعد عودته من الصحراء ، فقد قالت له : « يا يوسف ان ابن عمك رجل متورع في سفك الدماء ، فاذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع ، وأظهر له غلظة ولاطفه مع ذلك بالاموال والخلق والثياب والطعام والترف واستكثر من ذلك فانه ببلاد الصحراء ، وكل شيء عندهم من هنا مستطرف »^(١٠) ونفذ

(١٠) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

يوسف نصيحتها ففاز بملك المغرب الاقصى الذى كان النواة الأولى لتلك
الامبراطورية الضخمة التى أسسها المرابطون فى المغرب والاندلس ،
ومما يروى عن زينب زوج يوسف بن تاشفين وعما كانت تتمتع به من
قوة وسلطان فى دولة زوجها أن أحد الأدباء الشعراء واسمه زرهون
ويعرف بابن خلون قد مدح الحرة حواء زوج الامير سير بن أبى بكر
اللمتوني وفضلها على سائر النساء بالجمال والكمال ، فلما علمت
زينب بذلك ، أمرت بعزله عن القضاء — وقد كان قاضيا على إحدى
مدن المغرب آنذاك — فوصل زرهون الى أغمت واستأذن زرهون على
زينب ، فدخل البواب ، وأعلمها به ، فقالت له قل له امضى الى التى
مدحتها تردك الى القضاء ، فبقى على بابها أياما حتى نفذت نفقته ،
فأتى الى خادمها ، فقَالَ له أن مولاتك قد صرفتنى ونقمت على على
مدحى لامرأة سير ولو علمت أن ذلك يغضبها ما قلت له ، وقد نفذت نفقتى
واردت بيع هذا المهر وعز على أن يصير فى يد من لا يستحقه وأنا أحب
أن تعطينى مثقالين أنزود بهما الى أهلى وخذ المهر ، فأنت أحق به ،
فسر الخادم وأعطاه مثقالين وأخذ المهر ودخل على مولاته زينب وهو
فرحان فقالت له ما شأنك ، فأخبرها الخبر ، فرقت للقاضى زرهون ،
وندمت على ما فعلت به وقالت للخادم اذهب ، فأتنى به الساعة ،
فأحضره اليها فقالت تمدح زوجة سير وتفضلها على سائر النساء ،
وخرجت فى وصفك بها عن الحد وزعمت أن ليس فى الارض أجمل منها
وما هذه منزلة القضاة ولا يليق بك أن تنزل فى هذه المنزلة ، فقال زرهون
ارتجالا :

أنت بالشمس لاحقية وهى بارض لاصيقة
فمتى ما مدحتها فهى من سير طالقة

فقالت له يا قاضى طلقها منه ، قال نعم ثلثه ثلثه ، فضحكت حتى
افتضحت وقالت له والله لا سم لها قفا أبدا ، وكتبت الى يوسف بن
تاشفين برد زرهون الى القضاء فردده (١١) .

ومن هؤلاء النسوة السيدة قمر زوج أمير المسلمين على بن يوسف التى
أشارت على زوجها أن يولى ابنها الأمير بسير ولاية عهدأبيه وقيل أنه قد تملكها
الغيرة على ابنها سير من أخيه الأمير تاشفين ، لتلك المكانة الكبيرة التى
بلغها بسبب تلك الانتصارات العظيمة التى أحرزها على قوى
النصرانية فى الاندلس ، فأوعزت قمر الى زوجها أمير المسلمين بعزل
ابنه تاشفين عن ولاية الاندلس ، فرضخ أمير المسلمين لها ، وبعث فى
استدعاء ولده تاشفين من الاندلس حيث أصبح تحت أمره ابنها سير ،
الى أن توفى الأخير ، فتدخلت قمر مرة أخرى فى اختيار ولى العهد ،
وعرضت على على بن يوسف أن يولى ابنه اسحاق ولاية عهده ، وكان
اسحاق هذا فى منزلة ابنها فقد أشرفت على تربيته بعد وفاة أمه ، وكاد
أمير المسلمين ينزل على رغبته لولا أن المرابطين قد أجمعوا على اختيار
تاشفين لولاية العهد (١٢) .

وقد اشتهرت بعض الاميرات المرابطيات بحب الادب والشعر مثل
الاميرة تميمية بنت يوسف بن تاشفين ، وقد وصفها صاحب جذوة الاقتباس
بقوله : « وكانت كاملة الحسن راجحة العقل مشهورة بالادب والكرم ،
وكانت تسكن فى مدينة فاس ، وقد رآها يوما كاتب لها قد أمرت بمحاسنته

(١١) النويرى (احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم البكرى
التميمي) : نهاية الارب فى فنون الادب ، الجزء الثانى والعشرون مخطوط
مصور عن دار الكتب المصرية رقم ٥٩٥ لوحة ١٨٣ ب ، ١٨٤ أ .
(١٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

وبرزت لذلك ، فلما ظهرت اليه ظنت أنه بهت بها ، فأومأت اليه
وانشدته :

هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا^(١٣)

كما قصد الشعراء الاميرات الموابيات يستشفعن بهن ، فهذا شاعر
الاندلس الكبير ابن خفاجة الذي كتب الى الاميرة الحرة مريم بنت
ابراهيم يستشفع بها عند زوجها الامير أبى الطاهر تميم أخى أمير
المسلمين على بن يوسف فيقول :

وكفى احتماء مكانة وصيانة أنى علقت بذمة من مـريم
ذات الأمانة والديانة والتقى والخلق الأشراف والطريق الأقوم
ذات الجلالة والجزالة والنهى والبيت الأرفع والنصاب الأكرم^(١٤)

ومن النساء اللاتى كانت لهن مكانة مرموقة في المجتمع الموابى الحرة
حواء زوج الامير سير أبى بكر التمونى وفيها يقول الاعمى التطيلي :

حواء يا خير من يسعى على قدم ولست عبدك ان لم أقض ما يجب
اليك أهديت مما حاكه خلدى فخرا يجرد وتبلى هذه الحقب
وأفئك سود خطوط كلما احتضرت ألفت مقالدها الأشعار والخطب
قد عم برك أهل الارض قاطبة فكيف أخرج عنه جارك الجنب^(١٥)

وقد كانت مكانة المرأة الموابية من السمو بحيث أن الرجل كان

(١٣) ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٤) ابن خفاجة ، الديوان ، ص ٩٧ .

(١٥) الاعمى التطيلي ، الديوان ، ص ١٨ .

ينسب الى أمه وليس الى أبيه ، فهناك بعض كبار القادة المرابطين الذين لعبوا دورا عظيما في أحداث المغرب والاندلس يحملون أسماء أمهاتهم مثل ابن عائشة ، وابن فاطمة ، وابن غانينة ، وابن تاعيشة وابن الصحرأوية وغيرهم ، بل أن هناك ظاهرة ملفتة للنظر وهي وجود قصائد لثراء بعض النساء المرابطيات ، فمن يقرأ ديوان الاعمى التيطلي ، يلحظ أن هذا الديوان يحتوى على كثير من قصائد الثراء الخاصة بالنساء ، ومما يلفت النظر أيضا أن النساء المرابطيات كن يخرجن سافرات في الاسواق والميادين في حين يتاثم الرجال ، ولعل ما يؤكد ذلك هو حادث الاميرة الصويرة أخت أمير المسلمين على بن يوسف مع المهدي بن تومرت الموحدي ، فقد خرجت الصويرة في موكبها ومعها عدد من الجواري الحسان وهن جميعا سافرات ، ورأى ابن تومرت هذا الموكب ، فأنكر على النساء سفورهن وأمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الاميرة عن دابتها ، ولعل سفور النساء المرابطيات من المآخذ التي أخذها المهدي بن تومرت في حملته على المرابطين ، وجعلها من عوامل ضعف الدولة وانتشار الفساد فيها •

٣ - أوضاع أهل الذمة :

أما عن أهل الذمة في المغرب والاندلس من النصراني المعاهدين واليهود ، فقد كانوا يشكلون طبقة كبيرة في المجتمع المغربي الاندلسي ، فالنصارى المعاهدين لقوا معاملة كريمة في ظل حكومات الطوائف ، بل أن ملوك الطوائف عملوا على حمايتهم وكسب مودتهم واستخدموهم في أخص مهامهم السياسية والعسكرية ، ولكن وعلى الرغم من هذه الرعاية والحماية ، وهذا التسامح الذي كان يتبعه نحوهم ملوك الطوائف ، الا أنهم لم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة ، بل

لبثوا دائما ينتهزون الفرصة للإيقاع بهم ، ومما لآه الملوك النصارى ، ومعونتهم بكل وسيلة على محاربتهم ، وتسهيل مهمتهم فى غزو أراضى المسلمين والتتكيل بهم ، كما كان اليهود يتمتعون كذلك بمكانة كبيرة فى بعض دويلات الطوائف لاسيما دولة حبوس بن ماكسن بغرناطة ، فقد استوزر حبوس الوزير اليهودى اسماعيل بن نخرالة ، كما استوزر بادريس بن حبوس اليهودى يوسف بن نخرالة^(١٦) . ولعل هذا يظهر لنا تلك المكانة العظيمة التى تمتع بها أهل الذمة فى ظل حكومات الطوائف ، ومن هنا كان طبيعيا بعد أن قامت دولة المرابطين فى المغرب والاندلس أن تضع حدا لهذا النفوذ الكبير الذى تمتع به أهل الذمة على عهد أسلافهم ملوك الطوائف ، الا أن الدولة لم تخرج فى تعاملها معهم عن أحكام السنة النبوية التى استنتها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى تخييرهم بين الاسلام أو دفع الجزية السنوية لبیت مال المسلمين ، وقد ارتضى الكثير من النصارى دفع الجزية للمسلمين مع تمتعهم بالحرية الكاملة فى ممارسة شعارهم الدينية •

وعلى عهد أمير المسلمين على بن يوسف ورغم روح التسامح التى سار عليها هذا الأمير ، الا أن نصارى الاندلس المعاهدين ، ظلوا يحملون روح الحقد والكراهية لهؤلاء السادة الجدد ولعل موقفهم المخزى من دعوة الفونسو المحارب بملك أرغون ومساعدته فى حملته الكبرى على الاندلس فى عام ٥١٩هـ لأكبر دليل على أن نصارى الاندلس كانوا يدبرون المؤامرات للتخلص من السيادة الاسلامية على الاندلس ، ولقد ترتب على هذا العمل المخزى أن قام أمير المسلمين بنقل الكثير من نصارى الاندلس

(١٦) عنان ، دول الطوائف ، ص ١٣٣ •

الى المغرب ، وعلى الرغم من موقفهم هذا الا أن علياً بن يوسف قد استعان بهم للعمل في بلاطه ، كما أنشأ منهم فرقة خاصة في الجيش وعهد اليهم أيضا بتحصيل الضرائب في المغرب (١٧) .

أما بالنسبة لليهود فقد طبق عليهم ما طبق على النصارى المعاهدين في تخييرهم بين الاسلام أو الجزية ، وقد ارتضى الكثيرون منهم دفع الجزية لبیت مال المسلمين • ويشير أشباخ الى أن يوسف بن تاشفين كان شديد العداء لليهود ، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الاسلام (١٨) ، فقد روى أن أحد فقهاء قرطبة وجد مجلدا من تأليف ابن مسرة القرطبي ، وكان يوجد في هذا المجلد حديث منسوب الى الرسول عليه الصلاة والسلام بأن اليهود ألزمت نفسها اذا مرت خمسة قرون من مبعث رسول الله ولم يظهر مسيحهم المنتظر فأنهم سوف يعتنقون الاسلام ، فرفع هذا الفقيه القرطبي الأمر الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فاجتاز فاجتاز يوسف على مدينة اليسانة وهي مدينة اليهود في الاندلس ، ليطالبهم بالوفاء بالوعد الذي وعد به أجدادهم من قبل ، الا أنهم بذلوا الكثير من الاموال لأمر المسلمين حتى لا يكرههم على الوفاء بوعدهم القديم (١٩) • واذا كان هذا ينطبق على عصر يوسف بن تاشفين ، فان هذا لا ينطبق على عصر علي بن يوسف الذي كان عصر تسامح مع

(١٧) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٨٢ •

(١٨) اشباخ ، نفسه ، ص ٤٨٢ •

(١٩) مجهول ، الحلال الموشية ، ص ٥٨ •

وانظر أيضا :

Dozy, Histoire de Musulmane d'Espagne, vol, III, p. 158, 159; J A. Conde, History of the dominion Arabes in Spain, vol, II, Lindin, 1909, p. 326.

أهل الذمة بدليل أن المؤرخ أشباح لا يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة ويقول : « ولم يتمتع اليهود بنوع من التسامح إلا في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين » (٢٠) .

وكان اليهود — كما هي عاداتهم يتجمعون في أماكن أو مدن خاصة بهم ، فكانوا يتركزون في الاندلس كما سبق أن أشرنا في مدينة اليسانة ، أما يهود المغرب فقد كانوا يقيمون في مدن خاصة بهم مثل مدينة فاس (٢١) ومدينة أغمات وريكة (٢٢) ، وكان أمير المسلمين على بن يوسف لا يسمح لهم بدخول مدينة مراكش إلا نهرا لقضاء حاجاتهم ثم ينصرفون عنها عشية ، فاذا عثر على أحدهم أسبغ دمه وماله ، ولذا كان اليهود يرفضون المبيت في مراكش خوفا على أموالهم وأنفسهم .

٤ — مجتمع العامة :

يتكون مجتمع العامة من التجار والصناع والحرفيين والمزارعين ، فقد كان لحالة الاستقرار السياسى والاقتصادى الذى شهدته الدولة المرابطية في عصر يوسف بن تاشفين والنصف الأول من عصر ولده على بن يوسف أكبر الأثر في ظهور أهمية التجار ، فقد كان لالغاء الدولة الضرائب الفادحة على التجارة والتاجر أكبر الأثر في تشجيع التجار ، اذ أصبح في مقدور التاجر أن ينمى ثروته طالما يؤدي عليه من ضرائب شرعية للدولة ، فازدادت ثروات هؤلاء التجار وشاركوا في الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها . وكذلك الحال بالنسبة للصناع والحرفيين ، فقد فتحت الدولة أبواب المغرب أمام صناع الاندلس ، فأصبحوا يشكلون جانبا كبيرا في

(٢٠) اشباح ، المرجع السابق ، ص ٤٨٢ .

(٢١) البكرى ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١١٥ .

(٢٢) الادريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ٦٩ .

الدولة ، حيث كان الصناع والمهندسين والحرفيين يأتون الى المغرب يعرضون على أمير المسلمين وأمراء وعمال الدولة خبراتهم ومهاراتهم ، وقد بدأ استخدام الصناع المهرة في عهد يوسف بن تاشفين اذ يشير الادريسي الى احضار يوسف بن تاشفين المهندس الاندلسي عبد الله بن يونس الى مراكش سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) ولم يكن بمراكش الا بستان واحد لأبى الفضل مولى أمير المسلمين يوسف ، لأن الماء فيها ليس بعيد الغور فاستخدم هذا المهندس الاندلسي السواقي بعد أن قام بحفر آبار مربعة كبيرة من أعلى الى أسفل ، فكثرت البساتين ، وقد أكرمه الامير يوسف طوال مدة اقامته بمراكش^(٢٣) ، كما يشير الادريسي الى احضار على بن يوسف لصناع من الاندلس لتشييد قنطرة على نهر تانسيفت الذي تقع عليه مراكش^(٢٤) ، كذلك يذكر الاستاذ تراس أن حصن تاسغيموت الذي أقامه الامير على بن يوسف سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م قد تم بناؤه تحت اشراف مهندس أندلسي هاجر الى مراكش اسمه الفلكي ، وان كان البيذق يذكر أن الذي بناه هو ميمون بن ياسين^(٢٥) .

وهكذا نرى أن الصناع والحرفيين أصبحوا يشكلون جانبا كبيرا في المجتمع المغربي الاندلسي وأصبحوا موضع احترام وتقدير أمير المسلمين وأمراء الدولة ، فكان من الطبيعي أن يشاركوا في الحياة الاجتماعية سواء في المغرب أو في الاندلس .

وكما ازدهرت مكانة التجار والصناع والحرفيين ، فقد ازدهرت أيضا مكانة المزارعين وازداد اقبالهم على زراعة أراضيهم بسبب تلك السياسة الضريبية الحكيمة التي سارت عليها الدولة .

(٢٣) الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ٦٧، ٦٨ .

(٢٤) الادريسي ، نفسه ، ص ٦٩ .

(٢٥) سالم ، المغرب ، ص ٧٤٨ .

(ب) العادات

١ - الاقبال على الرقص والطرب وسماع الموسيقى في الاندلس والمغرب:
لم يستطع المرابطون وعلى الرغم من نشأتهم في الصحراء وتأثرهم بتعاليم الامام الفقيه عبد الله بن ياسين ، مقاومة مباهج الحضارة الاندلسية بكل مظاهرها ومفاتها ولا سيما فن الغناء والموسيقى والطرب ، واذا كان ذلك قد ظهر واضحا جليسا في عصر علي بن يوسف ، الا أن البوادر الأولى قد ظهرت في عصر يوسف بن تاشفين نفسه ، اذ يؤكد الاستاذ الدكتور حسن أحمد محمود على أن يوسف كان يسمع الغناء ويطرب له رغم ما رددته دوزي من جهله بلسان العرب ، اذ أهدى يوسف المعتمد بن عباد جارية حسنة الصوت جيدة الغناء سسمع منها وطرب لغنائها (٢٦) . الا أن عصر علي بن يوسف كان عصر انغماس بمباهج الحضارة الاندلسية ، فقد شغف بمجالس الطرب والموسيقى وتجلّى ذلك في مجلس طرب حضره أمير المسلمين علي بن يوسف اذ قال الوزير أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري في هذا المجلس :

لا تلمنى اذا طربت لشـجـو بيعث الأُنس فالـكـبريم طروب
ليس شق الجيوب حق عـلـيـها انما الحق أن تشق القلوب (٢٧)

وقد كانت مجالس الأُنس والطرب والموسيقى من الامور المألوفة في حياة أمراء الاندلس ، فقد كان هؤلاء الامراء يعقدون مجالس الطرب في قصورهم ومنياتهم ، ويصف ابن خفاجة البلنسى مجلسا من تلك المجالس في بلنسية فيقول :

(٢٦) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٤٢ .

(٢٧) المقبرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، سـالـم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ١١١ .

فكم يوم لهو قد أردنا بأقفه نجوم كؤس بين أقمار ندمان
وللقضيب والاطيار ملهى بجزعه فما شئت من رقص على رجع ألحان (٢٨)

وقد سار أمراء المرابطين على درب أمراء الاندلس في شغفهم بمجالس
الطرب والموسيقى ومثالنا على ذلك الأمير أبو بكر ابراهيم بن يوسف
بن تاشفين المعروف بابن تيفلويت والى سرقسطة في عصر على بن يوسف ،
وكان ابن تيفلويت قد اتخذ من الفيلسوف ابن باجة كاتباً له ، فيروى أن
ابن باجة حضر مجلسا من مجالس الطرب لمخدومه ، وألقى موشحته التي
أولها :

جرر الذيل أيما جبر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب ابن تيفلويت لذلك ، فلما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر للأمير العباسي أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح وأطرباه .. وشق
ثيابه ، وقال « ما أحسن ما بدأت وما ختمت » وحلف بالايه ان المغلظة
لا يمشى ابن باجه الى داره الا على الذهب فخاف الحكيم سوء العاقبة ،
فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه (٢٩) .

(٢٧) سالم ، صور من المجتمع الاندلسي في عصر الخلافة الاموية وعصر
دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج ، صحيفة معهد
الدراسات الاسلامية بمديرية المجلد ١٩ ، ٧٦ - ١٩٧٨ م ، ص ٦٣ ، ٦٤ .
(٢٩) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ابن خلدون ، المقدمة ،
ص ٤٣٧ ، المقرئ ، أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، حسن احمد محمود
قيام دولة المرابطين ، ص ٤٢٣ ، سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

ويرى أستاذى الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن من الذين برعوا في فن الغناء والموسيقى في عصر على بن يوسف الاديب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الاشبيلي ، كما أنه هو الذي لحن الاغانى في عهد الامير الصنهاجى يحيى بن المعز بن باديس (٣٠) .

٢ - الاقبال على سماع الشيوخ والنقهاء في الاربطة والزوايا :

بدأت حركة المراتبين تأخذ شكلها الايجابى حينما عمد عبد الله بن ياسين الى بناء رباط يأوى اليه وصحبه ، يبتعدون عن الناس ، يتقربون الى الله ، يتزهدون ويجاهدون ، فالجهاد في سبيل الله من أخص صفات المراتبة تحقيقا لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٣١) . وقد بدأت حركة المراتبة على سواحل المغرب منذ الفتح الاسلامى لحمايتها من غارات البيزنطيين من ناحية وللتفرغ للعبادة والتزهد من ناحية أخرى . ولكن لم تلبث هذه الاربطة أن تحولت عن غاية الجهاد الى غاية أخرى لا تقل عنه وهى نشر تعاليم الاسلام واللغة ولاسيما في المناطق الداخلية من المغرب التى كان لا زال تأثير الاسلام ولغته العربية فيها تأثيرا بسيطا ، ومن أجل ذلك انتشرت الاربطة والزوايا في مختلف أجزاء المغرب ، ومن يتبع خط سير عودة المهدي بن تومرت منذ عودته من المشرق ونزوله في مدينة بجاية حتى عودته الى موطن أهله وعشيرته في جبل ايجليز ، ليرى وجود هذه الاربطة والزوايا . وكان ابن تومرت يهتم في بعضها لتدريس معالم مذهب الجديد القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل أن المهدي لقي خليفته عبد المؤمن بن علي سراج الموحدين في إحدى هذه الاربطة وهى رباط ملالة (٣٢) .

(٣٠) سالم ، قرطبة ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٣١) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، آية ٢٠٠ .

(٣٢) انظر عبد الواحد المراكش ، المعجب ، ص ١٨١ .

٣ - المشاركة في الجهاد (لغلبة الروح الدينية) في الاندلس :

توسعت دولة المرابطين في مبدأ الجهاد وأعادت الى الازدهار صورة الدولة الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين ، فعاشت من أجل الجهاد طوال فترة حكمها القصيرة وسخرت كل مواردها لهذا العمل الفذ ، وجعلت من البلاد معسكرا ضخما تدوى فيه طبول الجهاد . وقد فرض ابن ياسين الجهاد على أنصاره من المرابطين ودعاهم اليه وحضيم على التزامه في قوله « يا معشر المرابطين انكم جمع كثير ، وأنتم وجوه قبائلكم ، ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم الى الصراط المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم ، وتأمرؤا بالمعروف ، وتنهؤا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده » (٣٣) . وقد سار الامراء المرابطون على سياسة تشجيع الجهاد سواء في المغرب أو في الاندلس أدل على ذلك من عبرو يوسف بن تاشفين الى الاندلس استجابة لنداء ملوك وأمرأ الاندلس ، ثم جاء من بعده ولده على الذي سار على نهج والده في الجهاد ، فقد وضع منذ اعتلائه العرش برنامجا للجهاد في الاندلس أشرف عليه بنفسه وتمثل ذلك في عبوره أربعة مرات الى الاندلس خلال فترة امارته .

ولم يقتصر أمر الجهاد على مجرد اهتمام الدولة به ، بل شارك في الجهاد مختلف طوائف الشعب وعلى رأسهم الفقهاء والقضاة ورجال الدين ونالوا شرف الشهادة في سبيل الله ، وقد أشار ابن القطان الى بعض من استشهد من الفقهاء في معركة اقليش وعلى رأسهم الامام الجزولي الذي يصفه ابن القطان بأنه « رجل صدق » (٣٤) ، كذلك شارك الفقهاء في معركة كتندة واستشهد منهم القاضي الفقيه أبو على الصدفى ، والقاضى أبو

(٣٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٤ .

(٣٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٩ ، ١٠ .

عبد الله بن الفراء قاضى المرية^(٣٥) ، ولم يقتصر الامر على مشاركة الفقهاء في الجهاد بل شارك فيه العرب الذين استقروا في الاندلس^(٣٦) ، كما شارك فيه الكثير من المتطوعة وقد أشار المؤرخون الى استشهاد ما يقرب من عشرين ألفا في معركة كتنده^(٣٧) .

(ج) أثر الاندلس في تخفيف حدة الخشونة عند المرابطين

١ — تقبل المرابطين مظاهر الحضارة الاسلامية ومظاهرها (السكنى ، الملابس ، المأكولات) :

بدأ المرابطون ينغمسون في التمتع بكل مباحج الحضارة الاندلسية فعاشوا أقرب ما يكونون بملوك الطوائف ، وتجلّى ذلك بوضوح في بناء القصور والمنيات فضلا عن التأنيق في المأكّل والملبس . فقد شاع بناء القصور والمنيات سواء في الاندلس أو في المغرب في عصر على بن يوسف ، وليس أدل على ذلك من القصر الذى بناه أمير المسلمين على بن يوسف في مدينة أشبيلية ، حيث كان ينزل فيه عند زيارته للمدينة ، وقد أبدع الاديب الاندلسى الكبير الفتح بن خاقان في وصف هذا القصر الرائع الجمال^(٣٨) ، كما أقام أمير المسلمين قصرا آخر في مدينة مرسية وهو قصر منتقوط^(٣٩) . وقد حذا الامراء حذو أمير المسلمين فعاشوا في ولايتهم عيشة مترفة ، كما تأنقوا في المأكّل والملبس وتشيد القصور مثال ذلك

(٣٥) عن معكة كتنده انظر : ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٣١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، سالم المغرب ، ج ٢ ، ص ٧٣٦ .
(٣٦) ابن القطان ، نفسه ، ص ١٠ .
(٣٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٣٨) ابن خاقان ، نظم الجمان ، ص ١٧١ ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٢٢ .
(٣٩) جوميث مورينو ، الفن الاسلامى اسبانيا ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

القصر الذى أقامه فى قرطبة واليهامير المربطى الزبير بن عمر المثلث ،
ولاذى كان يعرف بمنية الزبير ، وقد غرس الزبير فى بستانها أشجارا من
اللوز ، وفى هذا البستان يقول الشاعر الاندلسى أبو بكر بن بقاء :

سقى الله بستان الزبير ودام فى ذراه مسيل النهر ما غنت الورق
فكائن لنا من نعمة فى جناحه كبرته الخضراء طالعها طلق
هو الموضع الزاهى على كل موضع أما ظله ضباب أماما دافق
أهيم به فى حالة القرب والنوى وحق له منى التذكر والعشق^(٤٠)

كذلك أشار الادريسي الى كثرة قصور الامراء والقواد فى مراكش
حاضرة الدولة بقوله : « وكان بها — أى مراكش — اعداد قصور لكثير من
الامراء والقواد وخدم الدولة »^(٤١) .

٢ — الفنون الزخرفية الاندلسية المغربية وتطورها زمن على بن يوسف :
عنى المربطين فى جميع منشآتهم الدينية والمدنية بالعناصر الضرورية
قبل عناصر الفخامة والجمال والزخارف الطبيعية ، غير أن فتح المربطين
للاندلس قد أتاح الفرصة للمؤثرات الاندلسية ولا سيما : الفنون
الزخرفية لتدخل فى تشكيل عناصر العمارة المربطية ، فقد تأثر المربطون
بالفنون الزخرفية الاندلسية بقصر الجعفرى بسرقسطة وبغيرها من
الفنون الموجودة فى مختلف أنحاء الاندلس ، عقد شغف على بن يوسف
بالزخارف النباتية وأدخلها فى زخرفة المسجد الجامع بتلمسان ، والزيادات

(٤٠) المقبرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٨ ، سالم ، قرطبة ،

ج ١ ، ص ٢٢٨ .

(٤١) الادريسي ، صفة المغرب ، ص ٦٨ .

المرابطية الأخرى ، والمتطاع الى هذه الزخارف يجد أنها صورة طبق الأصل من الزخارف النباتية في قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة ، وبعض الآثار الزخرفية بقصبة المرية وجامعها من عصر الطوائف (٤٢) . والملاحظ أن هذه الزخارف النباتية التي كانت تزين منشآت المرابطين قد اختفت تماما في عصر الموحدين ولاسيما زخارف المسجد الجامع للقرويين بفاس وفي هذا الصدد يقول ابن أبي زرع : « فلما دخل الموحدون المدينة — أى مدينة فاس — وذلك في يوم الخميس الخامس عشر لربيع الأول سنة أربعين وخمسائة ، خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن يأخذ عليهم الموحدون ذلك النقش والزخرف الذى فوق المحراب لأنهم قاموا بالتنقش والتقليل ، فقبل لهم أن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على يدخل غدا المدينة مع أشياخ الموحدين يرسم صلاة الجمعة بالقرويين ، فخافوا لذلك ، فبات الحمامون بالجامع تلك الليلة ، فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالكاغيد ثم لبسوا عليه بالجنس وغسل عليه بالبياض فنظف تلك النقوش كلها وصارت بيضا (٤٣) » .

(٤٢) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٥٩ .

(٤٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٣٨ ، وأنظر أيضا سالم ،

المغرب ، ص ٧٦١ ، ص ٧٦٢ .

ثانيا : الحياة الاقتصادية

أ - التجارة

ب - الصناعة

ج - الزراعة

أولا - التجارة :

حظيت التجارة بنصيب وافر في عصر المرابطين ، فلقد كان لامتداد رقعة الدولة في السودان والمغرب والاندلس عظيم الأثر في ازدهار النشاط التجارى ، وأدى بالتالى الى فتح منافذ متعددة لتسويق المنتجات الزراعية والصناعية ، فنشطت حركة الصادر والوارد ، ونمت التجارة الداخلية والخارجية . ولا شك أن عامل الاستقرار السياسى في دولة المرابطين وعلى الاخص في عصر يوسف بن تاشفين والنصف الاول من عصر على بن يوسف كان من أهم العوامل في تأمين طرق التجارة الداخلية بين حواضر الدولة سواء في المغرب أو في الاندلس ، كما أن نمو البحرية المرابطية في عصر على بن يوسف واحتلالها مركزا ممتازا في حوض البحر المتوسط كان له أثره الكبير في ازدهار التجارة الخارجية التي كانت تتعرض لها ولاسيما خطر القراصنة (٤٤) .

أهم المراكز التجارية :

١ - المرية :

كانت المرية في عصر على بن يوسف على حد قول الادريسي « مدينة الاسلام » (٤٥) لما بلغت من شهرة في مجال الصناعة والتجارة ، اذ أنها كانت ميناء تجاريا هاما ، ومركزا للتجارة الداخلية والخارجية ، فمن ميناءها كانت تبحر السفن الى شرق البحر المتوسط وإلى العبدوة المغربية محملة بمنتجات الاندلس ، ولقد لاحظ ابن غالب الاندلسى أهمية موقع

(٤٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٠١ .

(٤٥) الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ،

ص ١٩٧ .

المرية على البحر المتوسط في ازدهار التجارة فقال : « فهي باب انشق ومفتاح التجارة والرزق »^(٤٦) ، كذلك يذكر الرازي أنها « باب الشرق ومفتاح الرزق »^(٤٧) ، ويقول الادريسي مشيرا الى اعمية ميناء المرية التجارى : « وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالاندلس كلها أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا ... والمدينة في ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات والمسافرون اليها كثيرون ، وكان أهلها مياسير ، ولم يكن في بلاد أهل الاندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا »^(٤٨) . ويرى أستاذى الدكتور عبد العزيز سالم أن اتخاذ المرابطين مدينة غرناطة قاعدة لهم في الاندلس كان له دخل كبير فيما أصابته المرية في عصر المرابطين من ازدهار في كلا المجالين الصناعى والتجارى لأنها أقرب الموانى الاندلسية الى غرناطة ، فضلا عن أنه كان يربطها ببلاد المغرب صلات بحرية وثيقة ، فكانت السفن تتردد بين ثغر المرية و ثغور المغرب مثل وهران وبجاية وجزائر بنى مزغنة وتنس وسبتة وتونس^(٤٩) . وليس أدل على تأكيد الصفة التجارية الهامة التى تمتعت بها المرية في عصر على بن يوسف أن عدد فنادقها بلغ على حد قول الادريسي ٩٧٠ فندقا^(٥٠) .

وكانت هناك مراكز تجارية أخرى في الاندلس غير أنها تقل في أهميتها عن المرية ، مثل اشبيلية التى كانت من أكبر المراكز التجارية للزيت^(٥١) ، ومالقة في تجارة الفخار وخاصة المذهب^(٥٢) وغيرهم .

(٤٦) ابن غالب ، فرحة الانفس ، ص ٢٨٣ .

(٤٧) انظر ابن سعيد المغربى ، المغرب ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(٤٨) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٤٩) سالم ، المرية ، ص ٨٨ .

(٥٠) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ ، وانظر أيضا ، سالم ،

المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(٥١) الادريسي ، نفسه ، ص ١٧٨ .

(٥٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

٢ - أغمات :

كانت من أهم مراكز التجارة الداخلية في المغرب في عصر على بن يوسف ، حيث كان تجارها يعدون القوافل التجارية المتجهة نحو السودان الحاملة « لقناطر الاموال من النحاس الاحمر الملون والاكسية وثياب الصوف والعمام والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والاصداق والاحجار وضروب من الافاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع »^(٥٣) . وكان التاجر منهم يملك ما بين سبعين ومائة جمل ، ويشير الادريسي الى مدى ثراء أهل أغمات بقوله : « ولم يكن في دولة المثلث أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا ، وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم ، وذلك أن الرجل منهم اذ ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته أقام على يمين بابه وعن يساره عرضتين من الارض الى أعلى وبنيناهم بالأجر والطوب والطين أكثر ، فاذا مر الخاطر بدار ونظر الى تلك العرض مع الابواب قائمة عددا فيعلم من عددها كم مبلغ صاحب الدار »^(٥٤) .

٣ - سجلماسة :

كانت من أهم المراكز التجارية في عصر على بن يوسف ، ومما ساعد على احتلالها هذه المكانة تحول طريق التجارة الذي كان يربط بين غانة ومصر والذي أهمل بسبب العواصف الرملية الى سجلماسة ، فكانت مقصد تجار من البصرة والكوفة وبغداد ، وكانت تجارها تحمل الى الشرق عن طريق موانئ المغرب أو عن الطريق البري المؤدى الى افريقية^(٥٥) . ومما

(٥٣) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٥٤) الادريسي ، نفسه ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٥٥) الادريسي ، نفسه ، ص ٦٧ .

وانظر أيضا حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٠٠ .

ساعد أيضا على احتلال سلجماسة هذه المكانة التجارية الهامة أنها كانت نهاية طريق غالبية القوافل التجارية الى ذهب بلاد السنغال^(٥٦) .

وهناك أيضا مدينة أودغست ، وكانت من أكبر الاسواق التجارية وقد نافست مدينة سلجماسة ، وكانت مقصدا لكثير من التجار الاثرياء^(٥٧) ، وهناك مدينة تارودنت وكانت من أهم المحطات التجارية الواقعة على الطريق التجارى الساحلى الذى يبدأ من تارودنت الى مدينة نول لمطة ومنها الى جزيرة أوليل الواقعة على المحيط الاطلسى ، وكانت تارودنت تستقبل القوافل التجارية الآتية من الجنوب ، كما كانت تنقود بتزويد القوافل التجارية المتجهة نحو السودان الغربى بكل ما كانت تحتاج اليه^(٥٨) ، وهناك أيضا مدينة نول لمطة وهى احدى المحطات التجارية التى تقع على الطريق التجارى الممتد من تارودنت مارا بنول لمطة الى جزيرة أوليل على المحيط الاطلسى^(٥٩) ويشير الدكتور حسن محمود على أنه مما يدل على أهمية هذه المدينة فى ذلك العصر أنها أصبحت دارا لسك العملة بسبب الذهب الذى كانت تجلبه القوافل من بلاد السودان^(٦٠) .

كما شهد عصر المرابطين نشاط الحركة التجارية بين دولة المرابطين وبين مدن الغرب الأوربى ، وقد استمرت هذه الحركة مزدهرة رغم غارات الايطاليين على سواحل المغرب الاسلامى ، وظلت العملة التى كانت تسك آنذاك فى قطلونية ومونبيليه باسم الدينار المنقوش دليلا على قيام تجارة

(٥٦) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٣٨٦ .

(٥٧)

(٥٨) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ، مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١٢ .

(٥٩) الادريسي ، نفسه ، ص ٥٩ .

(٦٠) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٠٠ .

نشطة بين بلدان الغرب الأوربي ، وبين مسلمي الأندلس والمغرب ، وقد استحوذ تجار جنوة وبيزة على قدر كبير من تلك التجارة خلال العصر المرابطي (٦١) .

ثانيا - الصناعات :

ازدهرت الصناعات في عصر المرابطين ازدهارا عظيما ، فقد توفرت المواد الخام اللازمة للصناعة ، وتدفقت من أسواق الأندلس والسودان ، كما أن النشاط التجاري الضخم بين موانئ المغرب والأندلس قد ساعد بدوره على رواج الصناعة التي أصبح من الميسور تسويقها وتصديرها الى أسواق المستهلك المختلفة ، فأقبل الصناع على مضاعفة الانتاج وظهرت في المغرب والأندلس مراكز صناعية ضخمة ذاع صيتها وارتفع نجمها ، وتميزت بنوع معين من الصناعات ومن أهم المراكز الصناعية في الأندلس .

المربية :

احتلت المربية المركز الأول في عصر المرابطين في صناعة المنسوجات الحريرية في الأندلس وخاصة في مدينة قرطبة التي كانت تتبوأ مكان الصدارة في هذا المجال بالإضافة الى صناعة الديباج والموشى الى أن حلت محلها المربية ، وكانت قرطبة تعتمد في صناعات المنسوجات الحريرية على مدينة جيان التي كانت تتوفر في قراها كل مقومات هذه الصناعة استنادا الى قول الادريسي : « ولها — أي جيان — زائد على ثلاثة آلاف قرية كلها يربى بها دود الحرير » (٦٢) ، وكانت تربية دودة القز قد أدخلت الى الأندلس في القرن الرابع الهجري على يد أسرة من الشام (٦٣) ، ثم ازدهر

(٦١) ارشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص ٣٨٦ .

(٦٢) الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ٢٠٢ .

(٦٣) زكي محمد جيتن ، فنون الإسلام ، ص ٣٨٩ .

استخراج الحرير في الاندلس ، وأصبح يصدر منها الى سائر البلاد في أوروبا وفي العالم الاسلامي ، ولكن مع أوائل القرن الخامس الهجري ، أخذت مدينة المرية تتبوأ شيئاً فشيئاً المركز الرئيسي لصناعات الحرير بعد قرطبة وبجائنة ويعبر ياقوت عن ذلك بقوله : « يعمل بها (أى بقرطبة) الموشى والديباج فيجاد عمله وكانت أولا تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها المرية ، فلم يثقف في الاندلس من يجيد عمل الديباج أجادة أهل المرية » (٦٤) . ويشير الادريسي الى مقدار ما وصلتته هذه الصناعات في عصر المرابطين وعن مدى شهرة المرية في هذه الصناعات وأنواع منسوجاتها وعدد أنوالها أو طرزها فيقول : « ومدينة المرية كانت في أيام المائمه مدينة الاسلام وكان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والسقور المكلة والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف الحرير الأخرى » (٦٥) . ويشير تويريس بالباس الى مدى ازدهار صناعات المنسوجات الحريرية في المرية بقوله أن الكنائس والمتاحف بأسبانيا تحتفظ حتى الآن بنماذج من المنسوجات الحريرية المصنوعة في المرية في عصر علي بن يوسف مثال ذلك ثوب القداس الذي كان يرتديه القديس خوان دي أورتيجا والمحفوظ الآن بكنيسة أورتونيو (برغش) والذي يحمل اسم علي بن يوسف ، ويرى الاستاذ جومث مورينو أن هذا

(٦٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ١١٩ .

(٦٥) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ ، أما المقرئ فقد أورد لنا أعدادا مختلفة مبالغ فيها من الأنوال لنسج كل صنف من أصناف الحرير فيقول : (كان المرية لنسج الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللأسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك وللأصفهاني مثل ذلك ، وللعتابي والمعاجر المدهشة والسقور المكلة) ولكننا نرجح رأى الادريسي . انظر أيضا ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص ٣٨٨٩ ، سالم المرية ، ص ١٥٧ .

الثوب وغيره من المنسوجات الحريرية الأخرى المحفوظة بكاتدرائية
شلمنقة وشيونسية قد صنعت بالمرية (٦٦) .

وفضلا عن اشتهار المرية بالصناعات الحريرية ، فقد اشتهرت أيضا
بصناعة السسغن ، فقد كانت المواد الخام اللازمة لقيام هذه الصناعة
متوفرة في أرض المرية وفي مناطق متعددة بالاندلس ، فكانت أخشاب
الصنوبر اللازمة لصناعة الصواري تجلب من جبال طرطوشة (٦٧) ، أو
من قصر أبي دانس (٦٨) أو من شلطيث (٦٩) ، كما كان معدني الحديد
والنحاس يتوفران في كثير من مدن الاندلس ، فكان الحديد يكثر في
طليطلة (٧٠) وغرناطة (٧١) . كذلك اشتهرت المرية بصناعة التحف المصنوعة
من الزجاج ، فقد ذكر المقرئ أنه كان يصنع بالمرية الزجاج العجيب
وفخار مزجج مذهب (٧٢) .

قرطبة :

كانت قرطبة من أكبر المراكز الصناعية في الاندلس ، وقد اشتهرت
قرطبة بالكثير من الصناعات وخاصة صناعة ودباغة الجلود فقد حازت
قرطبة على شهرة عظيمة في هذه الصناعة حتى ينسب اليها الجاد القرطبي

(٦٦) تورييس بالباس ، الفن المرباطي والموحدي ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٦٧) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٢٤ .

(٦٨) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ١٨١ ، الحميري ، المصدر السابق ،

ص ١٦١ .

(٦٩) الحميري ، نفسه ، ص ١١١ .

(٧٠) الادريسي ، نفسه ، ص ١٨٨ ، الحميري ، نفسه ، ص ١٣٣ .

(٧١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

(٧٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، راجع أيضا مرزوق ، النفون

للزخرفية ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

الذى حملته التجار الى أوربا كسلعة غالية نادرة ، وقد عرف هنا باسم Cordovan نسبة الى مدينة قرطبة^(٧٣) ، كما استحوذ الجلد القرطبي على شهرة واسعة في تجليد الكتب وصنعت منه أغلفة تعد آية في دقة الصناعة وجمال الفن ، مما دفع الاوربيين الى تعلم هذا الفن ونقلوه عن المسلمين في الاندلس ، وساروا على منواله في تخليف كتبهم كذلك اشتهرت قرطبة بصناعة المنسوجات ، والتحف الزجاجية والبلورية والخزفية ، الى جانب صناعة التحف العاجية والمعدنية والآلات الحديدية وصناعة الحلوى^(٧٥) .

أشبيلية :

حظيت اشبيلية بشهرة واسعة داخل الاندلس وخارجها بصناعة الزيت المستخرج من الزيتون ، فالزيتون الذى كانت تنتجه اشبيلية يعتبر من أجود الانواع ، لما يمتاز به من وفرة الزيوت المستخرجة منه عن غيره ، فضلا عن أن مذاقه لا يتغير من تخزينه لفترة طويلة^(٧٦) ، وكان الزيت الاشبيلي يصدر الى البلاد الاسلامية الواقعة في حوض البحر المتوسط ، كما اشتهرت اشبيلية بصناعة الحلوى من الذهب النفيس والجواهر القيمة لمقابض السيوف وحظيت اشبيلية بشهرة فائقة في هذا المجال ، ويدل على ذلك على سبيل اثال وصية أحد ملوك اسبانيا التى يقول فيها : « أوصى أيضا لأبنى بسيفى القشتالى الذى صنع باشبيلية

(٧٣) بروكلمان ، الامبراطورية الاسلامية وانحلالها ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ،
عاشور ، المدينة الاسلامية وأثرها فى الحضارة الاوربية ، الطبعة الاولى ،
القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٨٣ .

(٧٤) عاشور ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ ، مرزوق ، الفنون الزخرفية ، ص
٢١٩ ، ٢٢٧ .

(٧٥) سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٤ .

(٧٦) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢١ ، ١٠١ ، المقربى ، نفح
التطيب ، ج ١ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

ورضع مقبضه بالذهب ونفيس الجواهر» (٧٧) . كذلك اشتهرت اشبيلية
بالصناعات الحربية (٧٨) ، وصناعة قصه بالسكر (٧٩) .

وهناك مراكز صناعية أخرى في الاندلس مثل مرسية التي اشتهرت
بصناعة البسط والحصر ، والاسرة المرصعة ، وآلات الصفر والحديد من
السكاكين والامقاص المذهبة (٨٠) ، ومدينة مالقة التي اشتهرت بصناعة
الفخار المذهب (٨١) ، ومدينة سرقسطة التي اشتهرت بصناعة الفراء من
وبر السمور (٨٢) .

أما أهم المراكز الصناعية في المغرب في عصر علي بن يوسف فهي: مراكش
حاضرة الدولة ، وقد اشتهرت بصناعة الصابون والمغازل (٨٣) ، ومدينة
فاس وكانت تشتهر بالعديد من الصناعات ولعل هذا راجعا الى أنها كانت
مقصد المهاجرين الاندلسيين ، فاشتهرت بصناعة الزجاج ولاسيما الزجاج
الملون ، وكذلك صناعة تسبيك الحديد والنحاس (٨٤) ، ومدينة نول لمطة
التي اشتهرت بصناعة الدرق اللطيفة وفضلا عن الدرق اللطيفة فقد

(٧٧) ستانلى لين بول ، العرب فى أسبانيا ، تعريب على الجازم ، مطبعة
المعارف مصر ، ١٩٤٤م ، ص ١٣٥ .

(٧٨) المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٧٩) المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٨٠) المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٨١) المقرئ ، نفسه ص ١٥٢ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ،

ص ٢١٩ .

(٨٢) المقرئ ، نفسه ، ص ١٨٤ . والسمور حيوان يشبه النمس ، وجده

لين ضعيف ، ومنه تتخذ الفراء الثمينة .

(٨٣) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٧٠ ، حسن احمد محمود ، قيام

دولة المرابطين ، ص ٤٠٦ .

(٨٤) الجزائى ، زهرة الآس ، ص ٥٨ ، ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ،

ص ٤٢ .

اشتهرت نول لمطة بصناعة السروج ولجوم الخيل والاقطاب^(٨٥) وهى سروج الخيل ، وقد ازدهرت صناعة الاقطاب فى هذه المدينة نظرا لكثرة القوافل التجارية التى كانت تمر بها : وهناك أيضا مدينة تارودنت وكانت من أكبر مراكز صناعة السكر ، حيث كان يتوفر بها من معاصر السكر ومن تارودنت كان يجلب السكر الى جميع بلاد المغرب والاندلس وافريقية وهو السكر المشهور بالطبرزد^(٨٦) .

٣-١-١ - الزراعة :

تميزت شبه جزيرة ايبيريا باختلاف طبيعة سطحها ما بين وديان وهضاب وسلاسل جبال ، فضلا عن تنوع مناخها واتجاه مجارى أنهارها نحو الشرق أو الغرب ، مما أثر بالتالى فى توزيع ثرواتها الزراعية . ولقد أشار الجغرافيون العرب الى هذا التباين فى طبيعة سطحها واختلاف مناخها وتعدد منتجاتها الزراعية ، فيقول أحمد الرازى : « الاندلس أندلسان فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربى وأندلس شرقى : فالغربى منهما ما جرت أوديته الى البحر المحيط الغربى وتمطر بالرياح الغربية ، والشرقى المعروف بالاندلس الاقصى وتجري أوديته الى الشرق . وأمطاره بالرياح الشرقية »^(٨٧) ونخرج من هذا النص أن شبه جزيرة ايبيريا تنقسم الى اقليمين مناخيين أحدهما رطب والآخر جاف ويمكن القول بصفة عامة أن أغلب الاندلس يقع فى المنطقة الجافة . مما ساعد على ازدهار وتنوع المحاصيل الزراعية فى الاندلس وخاصة فى شرق الاندلس الذى امتازت أراضيه بالخصوبة

(٨٥) الادريسي ، نفس المصدر ، ص ٥٩ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٨٦) الادريسي ، نفسه ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٨٧) انظر : المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

وساعد على ذلك طبيعة أرض هذه المنطقة السهلية وتميزها بمناخ معتدل ووفرة في المياه • فكورة بلنسية وحاضرتها مدينة بلنسية أرضها سهلية مستوية ولخصوبة أرضها وصلاحياتها للزراعة عرفت بمدينة التراب^(٨٨) ، وإلى جانب بلنسية مدينة مرسية فأرضها سهلية تقع على خفة النهر الأبيض وواديها قسيم وادي اشبيلية كلاهما ينبع من شقوقورة ، الذي تحيط به البساتين من جميع النواحي^(٨٩) •

أما عن المحاصيل الزراعية ، فقد اشتهرت زراعة الزيتون في دانية^(٩٠) ومربيطر^(٩١) واشبيلية^(٩٢) ، كذلك ازدهرت زراعة الكروم على نطاق واسع في دانية^(٩٣) ومربيطر^(٩٤) ومرسية^(٩٥) ، كما كثرت زراعة الكمثرى والرمان والسفرجل في بلنسية^(٩٦) ، كما كثرت زراعة التين في دانية^(٩٨) ومالقة^(٩٩) ، كما اشتهرت زراعة القمح في مرسية^(١٠٠) •

وقد لجأ المرابطون في عصر على يوسف الى تطبيق سياسة ذات أثر

-
- (٨٨) ياقوت ، المعجم ، المجلد الثاني ، ص ٢٧٥ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ١٦٨ •
(٨٩) الادريسي ، صفة المغرب ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، المقرئ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ •
(٩٠) الادريسي ، نفسه ، ص ١٩٢ •
(٩١) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٨٠ •
(٩٢) المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ •
(٩٣) الادريسي ، نفسه ، ص ١٩٢ •
(٩٤) الحميري ، نفسه ، ص ١٨٠ •
(٩٥) الادريسي ، نفسه ، ص ١٩٤ •
(٩٦) المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٨ •
(٩٧) العذري ، ترصيع الاخبار ، ص ١ •
(٩٨) الادريسي ، نفسه ، ص ١٩٢ •
(٩٩) المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٤ •
(١٠٠) المقرئ ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ •

يُعيد في انعاش الزراعة ، فقد أقطعوا الجند أرضا يزرعونها ويستثمرونها
وينتفعون بخيراتها في مقابل أداء واجب الدفاع عن الوطن وقت
الحرب^(١٠١) ويرى الدكتور حسن محمود أن المرابطين قد طبقوا هذه
السياسة الزراعية في المغرب فضلا عن الاندلس ، وأقطعوا جنود لتبوية
بوجه خاص وجنود المائمين بوجه عام أرضا يفلحونها وينتفعون
بخيراتها^(١٠٢) .

(١٠١) الطرطوش ، سراج الملوك ، ص ١٢٣ ، حسن حمد محمود ، قيام
دولة المرابطين ، ص ٤٠٥ .
(١٠٢) حسن أحمد محمود ، نفسه ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

ثالثاً : أمثلة من الآثار المعمارية في المغرب والأندلس

- أ — الآثار الدينية •
- ب — الآثار المدنية والمنشآت العامة •
- ج — الآثار الحربية •

فتح المرابطون أبوابا بالمغرب أمام الحضارة الاندلسية فأخذت التأثيرات الاندلسية تتدفق في عصرهم على البلاد المغربية ، وإذا كانت هذه التأثيرات الاندلسية قد بدأت تظهر في المدن الساحلية مثل سبته وطنجة وفاس منذ القرن الرابع الهجري ، فإن غالبية مدن المغرب الأقصى ظلت بعيدة عن هذه المؤثرات الراقية حتى تدفق المرابطون الى المغرب ونجحوا في اقامة دولة توحد بين المغرب والاندلس ، فاشتد مساعد المؤثرات الاندلسية أكثر من ذي قبل ، ولم تعد قاصرة على مدن الساحل ، بل لقد نفذت حتى اقليم الصحراء الى أغمات ومراكش^(١) ، ولأول مرة ارتبط المغرب والاندلس في وحدة غنية توثقت عراها زمن على بن يوسف الذي زود حضارة المرابطين بجرعات من التأثيرات الاندلسية أكثر مما زودها به أبوه يوسف « وأصبحت الاندلس في المجال الفني أستاذًا للمغرب ، فنسب الفن الاندلسي في المغرب ، وظهرت تقاليده واضحة وضوحا تاما فيما تخلف من آثار المرابطين في المغرب والاندلس »^(٢) .

وقد تجلت روائع الفن المغربي الاندلسي في عصر المرابطين في الابنية الدينية مثل جامع القرويين بفاس ، وجامع تلمسان ، وجامع الجزائر ، فضلا عن قبة البروديين في مراكش ، وقبة دار اللوضوء في مسجد أبي يوسف ، وفي المنشآت المدنية مثل قنطرة تانسيفت ، وقصور الامراء ، كما تجلت في التحصينات العسكرية بما تشتمل عليه من الاسوار والحصون والافلاع وغيرها .

وفيما يلي عرض سريع لأهم الآثار التي تبقت من عصر على بن يوسف ، على مختلف أنواعها .

(١) حسن حمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٤٩ .

(٢) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٤٧ .

أ - الآثار الدينية :

(١) جامع القرويين بفاس :

يعتبر جامع القرويين بفاس أعظم آثار المرابطين على الإطلاق ، كما يعتبر من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب وأكثرها شهرة باعتبارها جامعة اسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الازهر في القاهرة ، ولقد مر بناء جامع القرويين بثلاثة أدوار : الأول عند تأسيسه سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م) ، والثاني عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م) ، والثالث عندما زيدت مساحته في عصر علي بن يوسف سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) (٢) .

ولكن ما يهمنا في هذا الصدد هي تلك الاضافات التي أضيفت الى جامع القرويين في عصر أمير المسلمين علي بن يوسف ، فقد ازدهرت مدينة فاس ازدهارا عظيما خلال العصر المرابطي ، وضاق مسجدها الجامع بالمصلين لاسيما في أيام الجمع عندما يؤذن للصلاة الجامعة ، فكان المصلون يؤدون الصلاة في الاسواق والشوارع المحيطة بالجامع ، فاجتمع الفقهاء والاشياخ وتدارسوا هذا الامر ، وتوصلوا الى اتفاق فيما بينهم أبلغوه الى أبي عبد الله محمد بن داود قاضي قضاة فاس ، وقد أوضحوا له في تقريرهم أحوال المصلين وتضررهم من ضيق المسجد ، كما ضمنوه ضرورة توسيع المسجد ليستوعب الزيادة المطردة في المصلين ، واطلعوا قاضي المدينة على بعض المصادر التي يمكن الاعتماد عليها لتمويل تلك الزيادة في

(٢) عن تاريخ بناء جامع القرويين بفاس ارجع الى ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٣٢ - ٣٤ ، الجزنائي ، زهرة الآس ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ص ٢٢ - ٢٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٥٢ ، ٧٥٣ .

Marcais (Georges) : Manuel D'art Musulman, L'architecture, 2 Vols, Paris, 1926, vol, I p. 312.

مساحة المسجد أهمها انتزاع أوقاف المساجد التي كان قد استولى عليها أهل فاس واستخدامها لأجراء تلك الزيادة، وعلى هذا النحو استأذن قاضي فاس أمير المسلمين في الشروع في الزيادة ، فأذن له بذلك في عام ٥٢٨هـ واشترط على القاضي أن يكون الانفاق على تلك الزيادة من بيت مال المسلمين ، إلا أن القاضي أخبر أمير المسلمين بأن الانفاق على تلك الزيادة سيكون من الأموال التي تجمعت من الاحباس في أيدي الوكلاء ، فأمره على بن يوسف بتقوى الله والسرعة في اجراء الزيادة ، فانصرف القاضي الى مجلس قضاته ، فسأله عن أموال الاحباس ، فوجد أن الوكلاء الذين بأيديهم تلك الأموال قد اختلسوها ، فقام بعزلهم وأمر بتعيين وكلاء غيرهم ممن يوثق فيهم ، وطالب الوكلاء السابقين بدفع ما عليهم من أموال ، فضلا عن أحباس السنة الجديدة ، فاجتمع ما يزيد على ثمانين ألف دينار^(٤) . ثم شرع في الزيادة بالمسجد ، من جهاته الثلاثة القبلة والغرب والشرق ، واشترى في سبيل ذلك الاراضي التي تحتاج اليها الزيادة المذكورة ، وكان أكثر ما اشتراه ديارا لليهود ، وكان كل من امتنع منهم عن البيع زاده في الثمن بما يغريه على البيع امتثالا لما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند اقدامه على الزيادة في المسجد الحرام ، فلما اكتمل للقاضي شراء ما يكفي من الدور لأجراء تلك الزيادة ، أخذ في هدمها وبيع نقضها ، وشرع في البناء ، فبنى أولا : الباب الغربى الكبير وهو باب النجارين (أو الفخارين) ويعرف الآن بباب الشمايين ، وكان القاضي يشرف بنفسه على بناء هذا الباب ، وعمل على تحسينه وتجمياله ، وصنع على ظهر الباب من داخل المسجد قبة كتب عليها أن هذا الباب والقبة قد اكتملا البناء والتركيب في شهر ذى الحجة سنة

(٤) ابن بى زرع روض القرطاس ، ص ٣٦ ، الجزائى ، زهرة الآس ، ص ٥٧ ، ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ص ٤١ ، ٤٢ :
Marcais, . op - cit, p. 312.

ثمانية وعشرين وخمسمائة^(٥) . وأخذ في عمل القبة التي بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصل بهما وقد فعل ذلك بالجص المقربس الفسخر المصنعة وزرقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد ، وركب في الشماسات التي بجوانب القبة أشكالا متقنة من الزجاج الملون ثم أخذ في تغطية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر^(٦) .

أما المنبر ، فقد أقيم على يد القاضي أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي ، ولكن هذا المنبر لم يكتمل في حياته فأتته القاضي أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي ، وقد صنع المنبر من عود الصندل والابنوس والنارنج والعناب وعظم العاج ، وقد تولى صناعته وأشرف على أعمال النجارة فيه الشيخ الأديب أبو يحيى العتاد ، وكان جملة ما صرف على صناعة المنبر ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة أعشار دينار فضة من مال الإحباس ، وكان له غطاءان أحدهما من جلد الماعز والثاني من الكتان ، وقد اكتمل صنعه في شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة^(٧) ، « ويعتبر هذا المنبر من أجمل منابر الإسلام ويشتمل على تسع درجات ويزدان جانباه بتشابكات رائعة متعددة الضلوع قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رؤوس . ويحدد التشابكات المذكورة أشربة من العاج ، وتردان الحشوات النجمية بتوريقات نخيلية معروقة ومختمة وفقا للأسلوب الأندلسي المغربي . أما ظهر المنبر وعقده الأمامي فمرصعان بالعاج والاختشاب الثمينة ذات الألوان الهادئة ، ومازال هذا المنبر محفوظا حتى اليوم بجامع القرويين »^(٨) .

(٥) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٣٧ .

(٦) الجزنائي ، المصدر السابق ، ص ٥٨ ، ابن القاضي ، المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٧) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، الجزنائي ، المصدر السابق ص ٤٢ .

(٨) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٤٩١ .

أما عن صحن الجامع فقد قام بفرشه العريف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن صخر الخولاني من ماله الخاص ، فقد كان له أربع من الدور موروثة عند أبيه فباعها وأنفقها فيما يحتاج اليه وتولى فرشه بيده ، وعندما تولى القاضي أبو عبد الله محمد بن داود قضاء فاس أدخل بعض انزيادة الى صحن المسجد ، فقد عمل له مظلا من شقف الكتان تنشر عليه كل يوم جمعة في فصل الصيف لحجب الشمس عن المصلين •

(٢) المسجد الجامع بتلمسان :

تحمل قاعدة المحراب بجامع تلمسان التاريخ الانشائي لهذا الجامع وهو عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) الذي يتفق مع امانة على بن يوسف (١٠) • وجامع تلمسان بناء مستطيل الشكل طوله من الشمال الى الجنوب ٦٠ م ومن الشرق الى الغرب ٥٠ م ، الصحن مربع الشكل تقريبا ، على جانبيه من الجهة الشمالية دهلizan تقطعها مئذنة مربعة ، وقد أنشئت هذه المئذنة بعد بناء المسجد بسبعين عاما ، ويحيط ببيت الصلاة من الجهتين الشرقية والغربية مجنبتان ، المجنبة الشرقية تتألف من ثلاث بلاطات تعتبر امتدادا لبلاطات بيت الصلاة ، والمجنبة الغربية تتألف من أربع بلاطات (١١) • ويشتمل بيت الصلاة على ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، وتستند عقود الجامع على خمسة صفوف من الدعائم تقسم سطح بيت الصلاة الى ست أساكيب تمتد من الشرق الى الغرب وبمعنى أصح الى مجموعتين من الاساكيب كل منها يضم ثلاثة وتفصل بين المجموعتين دعائم مصلبة الشكل

(٩) ابن أبي زرع ، نفسه ، ص ٤٠ •

(١٠) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية في المغرب والاندلس :

ص ٨٦ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٤٩ ، ٧٥٠ •

Marcais, Manuel d'art Musulman, p. 313.

(١١) سالم ، المرجع السابق ، ص ٧٥٠ •

Marcais, op. cit. p. 313.

تقوم عليها بائكة من العقود المتعددة الفصوص تقطع المسجد عرضا بحذاء جدار القبلة • أما العقود الأخرى المتجهة عموديا على جدار القبلة فمن النوع المنفوخ الذى يشبه حدوة الفرس (١٢) •

وتعتبر مقصورة محراب المسجد الجامع بتلمسان تحفة زخرفية رائعة الجمال تفوق زخارفها كل زخرفة مغربية فى ذلك العصر مما يشهد بانحداره من أصل أندلسى ، وقد قلد عرفاء جامع تلمسان المسجد الجامع بقرطبة تقليدا مباشرا فى لوحتى الرخام اللتين تكسوان ازار واجهة المحراب بتلمسان ، ولا يقف تأثير قرطبة فى جامع تلمسان الى هذا الحد ، فسقف المسجد خشبى مسطح يعلو سطح منشورى الشكل أو مسنم على النحسو المتبع فى المسجد الجامع بقرطبة، كما أن البلاطة الوسطى تزيد فى الاتساع عن البلاطات الأخرى ويقطع سطحها قبتان ، يعلوهما جوسقان من الخارج واحدة منهما تقع على الاسطوان الاوسط من القسم الشمالى من البلاطة الوسطى أى فى نفس الموضع تقريبا الذى تقوم عليه القبة المخرمة الكبرى المسماة بقبة فيلافسيوسا بجامع قرطبة ، أما القبة الأخرى فتتقدم المحراب وهي قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة تذكرنا بقباب المسجد الجامع بقرطبة ، والظاهر أن مهندس جامع تلمسان تأثر فى بناء هذا المسجد بجامع قرطبة ، فجاء تخطيط جامع تلمسان مماثلا لتخطيط جامع قرطبة بكل ما أضيف اليه من زيادات (١٣) •

(٣) قبة البروديين بمراكش :

تمثل قبة البروديين بمراكش أروع ما أنتجه الفن المرابطى وهي تقع

(١٢) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٥٠ ، قرطبة ، ج ١ ، ص ٣٦١، ٣٦٢ •

(١٣) سالم قرطبة ، ج ، ص ٦٩ ، ٧٠ وانظر أيضا :

Marcais, Manuel d'art Musulman, p. 313 - 314.

بالقرب من الجامع الذى بناه أمير المسلمين على بن يوسف بمراكش ، ثم هدمه الموحدون عندما استولوا على المدينة ، ولعل هذه القبة قد شيدت فيما بين عامى ٥١٤ - ٥٢٥م (١١٢٠م - ١١٣٠م) وربما قصد بها أن تكون مدفنا لحدى الشخصيات الكبيرة ثم تحولت آخر الامر الى ميسأة . وهذه القبة عبارة عن مبنى مستطيل الشكل مبنى بالحجر الأبد تتوج جدرانها من الخارج شرافات هدرجة ويغطى جزءه الاوسط قبة صغيرة مبنية بالآجر ومقواة من الخارج بعروق تقوم على قاعدة مربعة عرض ضلعها ٨م ٣٨م . وتبرز بداخلها ثمانية عقود متقاطعة تشبه فى تصميمها عقود قبة مماثلة فى بيت الصلاة بجامع قرطبة وترسم بتقاطعها حلقة مثمانية تعلوها قبة صغيرة مفصصة تكاد تشبه القبة التى تشغل نفس المكان من النموذج الاندلسى ، وتتخطى معظم الزقاع المحصورة بين عقودها بزخارف نباتية رقيقة من الجص المقطع تدور بأشكال محارات (١٤) .

(٤) قبة دار الوضوء فى مسجد أبى يوسف :

هى قبة الوضوء بالمسجد الذى أسسه على بن يوسف وتعتبر هذه القبة عن الحيوية الفائضة لفن العمارة عند المرابطين الى حد الولوج بالتعقيدات كما لو كانت روح الجعفرية فى سرقسطة قد انبعثت من جديد فى مراكش ، اذ نرى تكوينا آخر من عقود متقاطعة الا أنها تخلط فيها الخطوط فى تصميم مربع الشكل ، وينغلق هذا التكوين بأفريز مثنى الاضلاع يحدد طبقة أخرى من العقود المنفردة ، وتغطى التكوين قبة ذات ثمانية فصوص مستديرة بين أخرى صغيرة مدببة ، ولا يزيد طول ضلع القاعدة على

(١٤) توريس بالباس ، الفن المرابطى والموحدى ، ص ٤٦، ٤٧ ، وانظر

أبضا سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٥٢ .

٣٨٠م مع مفارقة شديدة في اتساقها بالنسبة الى الارتفاع ، والبناء من قطع الآجر المكسوة بالجص وقد حفرت فيه الفجوات بين العقود مؤلفة توريقات شبيهة بتلك التي في جامع تلمسان حول محارات كبيرة مع زخرفة مثالية من وريقات مخططة (١٥) .

(٥) منبر مسجد الكتبية :

يعتبر منبر مسجد الكتبية بمراكش من أعظم المنابر الاثرية التي وبت الينا عن عصر المرابطين ، وقد وقف الاثرى والمستشرق الفرنسى سوفاجية على نقش كتابى على هذا المنبر فى نهايته العبارة التالية : « اللهم أعن الأمير على بن يوسف بن تاشفين ومن بعده ولى عهده تاشفين » ، مما يحدد لنا تاريخ هذا المنبر بالفترة الواقعة بين سنتى ٥٣٤ ، ٥٣٧ هـ وهى الفترة الممتدة بين تولية تاشفين ولاية عهد أبيه ووفاة أمير المسلمين على بن يوسف ، ويبدو أن هذا النقش كان يتضمن تاريخ الفراغ من عمل المنبر ولكنه طمس كما طمس أيضا اسم الأمير الذى أمر بصنعه وتم ذلك على أيدي الموحدين ، وهناك نقش آخر على هذا المنبر يشير الى أنه صنع بمدينة قرطبة (١٦) .

ويمتاز هذا المنبر بما فيه من ثروة عظيمة من الزخرفة والحشوات هنا تختلف عن حشوات المنابر المرابطية الأخرى بأن معظمها مثلث الجوانب ، والسدايب التى تحبس هذه الحشوات فى مكانها لا يزال بها آثار التطعيم

(١٥) جوميث مورينو ، الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(١٦) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب

والاندلس ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

بالعاج فهو أول مثال للمنابر المطعمة بالعاج ، هذا وتتجلى في هذا المنبر أعمال النجارة الفنية والزخارف النباتية الرائعة ، وهي تعتبر من أجل المنابر شأنًا بعد منبر المسجد الجامع بقرطبة ، وفي سقف هذا المنبر بقايا من حشوات خشبية ذات أشكال مختلفة تردان بعناصر نباتية رائعة من النوع المعروف بالارابيسك^(١٧) .

ب - العمارة المدنية :

أقيمت في عصر على بن يوسف منشآت مدنية متعددة المنافع من قصور وقناطر وحمامات وفنادق جعلت من على بن يوسف من أعظم أمراء دولة المرابطين اهتماما بالبنيان وولعا به . ومن بين المنشآت المدنية التي أقامها ثم ضاعت معالمها قنطرة نهر تنسيقت وقد استعان في بنائها بخبراء الاندلس^(١٨) ، كذلك أقيمت في عصره القصور الجليلة التي تعبر عن روح الفخامة التي أصبحت السمة المميزة لعصر على بن يوسف وأهم هذه القصور قصر الحجر نسبة الى جبل ايجليز القريب من مراكش ومنه اقتطعت الاحجار المستخدمة في بنيانه^(١٩) . ولم يتبق من الآثار المدنية العديدة التي شهدها عصر على بن يوسف الا بقايا قصر منتقوت في مرسية ويقع على بعد نحو أربعة كيلو مترات الى الشمال الشرقي من مرسية ، ويعتبر هذا القصر المثل الأول الذي احتذاه الموحدون في قصورهم بأشبيلية ومالقة وقرطبة ، والذي احتذاه بنو نصر من بعدهم في بهو السباع بحمراء غرناطة . وأهم ما يتميز به التناسق القائم في مخارج سورته ومداخله وفي

(١٧) جوميث مورينو ، الفن الاسلامي في أسبانيا ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(١٨) الادريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ٦٩ .

مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠٩ .

(١٩) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

توزيع غرفه ، ويتوسط هذا القصر صحن مستطيل يطل على جانبيه
القصرين جوسقان دربعان بارزان يمهدان لجوسقى بهو السباع بغرناطة .
ويتقاطع ممشيان يؤلفان محور البناء على شكل صليبي ، وتمتلىء
المستطيلات الاربعة الذئشة من هذا التقاطع بأشجار البرتقال
والليمون (٢٠) .

(ج) الآثار الأدرية :

اهتم المرابطون اعتبارا من سنة ٥٢٠هـ (٢١) بالذات بالتحصينات
العسكرية سواء منها الاسوار أو الحصون أو القلاع للدفاع عن دولتهم في
المغرب من الحركات السياسية المناهضة لهم ، ولمواصلة الدفاع عن
الاندلس موطن الجهاد ضد القوى النصرانية في اسبانيا .

أولا - الاسوار :

أ - أسوار مراكش :

اكتفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عندما أسس مدينة مراكش
باقامة سور صغير ليحيط بالمسجد الجامع وبقصة صغيرة كي يختزن فيها
أمواله وسلاحه (٢٢) ، وظلت المدينة بدون سور يحيط بها الى أن تولى أمير
المسلمين على بن يوسف فشرع في بناء السور حولها ، وقيل أن الذي أشار

(٢٠) عن قصر منقوط راجع : جوميث مورينو ، الفن الاسلامي في
اسبانيا ، ص ٣٣٤ ، سالم ، المساجد والقصور في الاندلس ، ص ١٠٥ ، وانظر
سالم ، العمارة الاسلامية في الاندلس وتطورها ، مجلة عالم الفكر ، المجلد
الثامن ، العدد الاول ، ١٩٧٧ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢١) وهي السنة التي أقدم فيها الفونسو المحارب ملك أرغون على غزو
الاندلس باستدعاء النصارى المعاهدين ، ونفس السنة التي شهدت عنف حركة
المهدي بن تومرت .

(٢٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

عليه ببناء السور القاضى الفقيه أبو الوليد بن رشد قاضى قضاة الاندلس حينما اشتد خطر المهدي بن تومرت على الدولة ، فاستفتى أمير المسلمين فقهاء المغرب والاندلس فأفتوه ببناء السور لحماية نفسه وسكان عاصمته ، فأمر الصناع والفعلة والمهندسين فى الحال ببناء السور ، فاكتمل البناء فى ثمانية أشهر وبلغ جملة ما أنفق على السور ما يقرب من سبعين ألف دينار من الذهب^(٢٣) . وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ بناء سور مراكش ، فصاحب الاستبصار يجعل تاريخ البناء بعام ٥١٤هـ^(٢٤) ، وابن القطان بعام ٥٢٢هـ^(٢٥) ، وابن عذارى^(٢٦) وصاحب الحلل الموشية بعام ٥٢٠هـ^(٢٧) ، بينما يحدد كل من ابن أبى زرع^(٢٨) وابن خلدون^(٢٩) تاريخ البناء بعام ٥٢٦هـ ، ولكننا نميل الى ترجيح تاريخى ٥٢٠هـ كبداية فى المنشآت و٥٢٢هـ كتاريخ للفراغ فالفقيه ابن رشد ذهب الى المغرب للقاء أمير المسلمين فى أعقاب الغزوة التى قام بها الفونسو المحارب للاندلس وقد استمرت هذه الغزوة خمسة عشر شهرا ما بين عامى ٥١٩ ، ٥٢٠هـ ، ثم عاد الى الاندلس بعد لقاء أمير المسلمين فتوفى فى ذى القعدة سنة ٥٢٠هـ ، ولذا فمن الطبيعى أن يكون أمير المسلمين قد شرع فى بناء السور عقب رحيل ابن رشد ، ويبدو أن الاستعدادات للبناء قد استغرقت عدة شهور ، ثم بدأ

(٢٣) مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠٩ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ .

(٢٤) الاستبصار ، ص ٢٠٩ .

(٢٥) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

(٢٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧١ .

(٢٨) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٥ .

(٢٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٨ .

البناء الذى استغرق ثمانية شهور ، ولهذا فالمعتقد أن يكون بناء السور قد اكتمل فى عام ٥٢٢هـ وهو ما يؤكد ابن القطان . وقد أضيف الى هذه الاسوار وزيد فيها عدد من الابراج سنة ٥٣٠هـ حتى أصبحت تحيط بمقابر المدينة .

ولم يقتصر نشاط على بن يوسف على بناء سور مراكش ، بل شيد العديد من أسوار المدن المغربية ، فقد أمر ببناء سور القوارجه التى تقع بين باب الجيسة وباب أصلاين فى مدينة فاس ، وقد قام قاضى فاس عبد الحق بن معيشة ببناء هذا السور (٣٠) .

ب - أسوار الاندلس :

ابتكر المرابطون نظاما جديدا فى تخطيط الاسوار فى الاندلس وخاصة فى عهد على بن يوسف ، فعمدوا الى الاكثار من الزوايا الداخلية والخارجية بالسور بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة متكسرة ، وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهم يتقدمون داخل احدى الزوايا ثم يندفعون عليهم من أعلى الاسوار فيفتكون بهم ، ويتألف السور فى الاندلس فى أعلاه من درب يسير عليه المحاربون ويسمونه المؤرخون أحيانا بممشى السور ، وشرفات يقذفون منها سهامهم ، ودروات يحتمون خلفها ، ويتخلل جسم الدروات فتحات تساعد المحارب على النظر الى أسفل دون أن تصيبه أسهم الأعداء (٣١) .

وقد فرض المرابطون فى عصر على بن يوسف على أهل الاندلس

(٣٠) الجزائى ، زهرة الآس ، ص ٣٢ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٥١٧ ، ٥١٨ ، والقوارجة اصطلاح مغربى يطلق على أسوار متفرعة من الاسوار الاساسية وتنتهى بأبراج برانية .
(٣١) سالم ، المساجد والقصور فى الاندلس ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

ما يسمى بضريبة التعتيب ، وقد استخدموا عائد هذه الضريبة في بناء الاسوار في المدن الرئيسية بالاندلس مثل غرناطة والمرية وقرطبة واشبيلية ولبلبة وبطليوس واصلاح ما تداعى منها ، ويبدو أن هذه الضريبة قد فرضت في أعقاب غزوة الفونسو المحارب للاندلس ، وما أحدثته من خسائر وما أظهرته من ضعف وسائل الدفاع الاسلامى عن المدن الاندلسية . ومن أهم هذه الاسوار :

(١) أسوار المرية :

قام باصلاح أسوار المرية أحد أبنائها ويسمى ابن العجمى وقيل ابن العائمة ، وقد أبدى سكان المدينة تعاونهم معه ، فقدموا اليه ما عليهم من ضرائب فاستعان ببعض المتخصصين من أهل الاندلس في بناء الاسوار واصلاحها ، وأكمل بناء الاسوار في المدينة (٣٢) .

(٢) أسوار قرطبة :

سارع أهل قرطبة الى اصلاح أسوار مدينتهم دون أن يلتزموا بضريبة التعتيب ، فالزم والى المدينة سكان كل جى من أحيائها باصلاح الاسوار الواقعة في حيهم والقيام بترميمها (٣٣) . ومن أهم الاسوار التى أقيمت في قرطبة في عصر على بن يوسف سور الشرقية ويقع الى الشمال الشرقى من قرطبة ، ويمتاز هذا السور بأبراجه المستطيلة الضخمة المتقاربة (٣٤) .

(٣) أسوار اشبيلية :

أمر على بن يوسف ببناء أسوار اشبيلية من جهة نهر الوادى الكبير ،

(٣٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٧٤ ، ميراندا ، على بن يوسف وأعماله في الاندلس ، ص ١٧٤ .

(٣٣) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٧٤ ، ميراندا ، نفسه ، ص ١٧٤ .

(٣٤) سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

فسارع أهلها ببناء أسوارها ، دون اعتراض ودون اسراف أيضا (٣٥) .
وربما بنى في عهده أيضا سور استجه ومعظمه مبنى بالطابية ، وتقوم فيه
أبراج مستطيلة قليلة البروز ، وكانت تتفتح بهذه الاسوار مداخل يحيط
طرفي كل منها بابان متواجهان (٣٦) .

ثانيا : القلاع والحصون :

اهتم المرابطون بتشديد القلاع والحصون ، وكانت هذه القلاع
والحصون تبنى من الحجر في المناطق الوعرة حتى لا يستطيع العزاة
الوصول اليها في يسر وسهولة ، وكان المرابطون يشحنون هذه القلاع
والحصون بالاقوات حتى تصمد للحصار مدة طويلة ، وكانوا يعهدون بالدفاع
عنها لأحد قواد لتونة ، تعاونه قوة تتألف في الغالب من مائتي فارس
 وخمسمائة راجل (٣٧) . ومن أشهر هذه القلاع قلعة منتقوت في مرسية
بالاندلس ، وقلاع تاسغيموت وبنى تاودا ، وآمر جو في المغرب .

قلعة منتقوت

تشرف قلعة منتقوت على بساتين مرسية وتسمى اليوم بالقصير
Elcastillejo وهي ترجع الى عصر علي بن يوسف في ضوء مقارنتها
بالمسجد الجامع بتلمسان ، وهي تمثل المرحلة المتقدمة للفن الاندلسي في
الثلث الأول من القرن الثاني عشر الميلادي (٣٨) .

-
- (٣٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٧ ، ابن عذاري ، نفسه ، ص
٧٤ ، ميراندا ، نفسه ، ص ١٧٤ .
(٣٦) تورييس بالباس ، الفن المرابطي والموحدي ، ص ٣٦ .
(٣٧) ألبيق ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٢٨ ، حسن أحمد محمود ،
نيام دولة المرابطين ، ص ٣٩٨ .
(٣٨) جوميث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

قلعة تاسغيموت :

وهي من أعظم القلاع التي أسسها المرابطون في المغرب لدافعة الموحدين ، بناها ميمون بن ياسين ، وكانت تقيم بها حامية مرابطية تتألف من مائتي فارس وخمسمائة راجل لحراسة هزرجة^(٣٩) ، ويشير تورييس بالباس الى أن عليا بن يوسف قد أسس هذه القلعة بتوجيهات من رجل أندلسي يسمى بالفلكي^(٤٠) ، وهي اشارة الى أن فن العمارة المرابطي قد تأثر بـفن العمارة الاندلسي . وتقع قلعة تاسغيموت على بعد ٣ كيلو مترات جنوب شرقي مراكش وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات شرقي أغمات على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحراف يصعب على الغازين ارتقاؤها ، وأسوارها تمتد على حافة الهضبة نفسها^(٤١) . وقد استولى الموحدون على هذه القلعة عندما خرجت اليها سرية موحدية بقيادة عبد الرحمن بن زكو ، توأطأت مع حامية القلعة وتمكنت من دخولها ليلا وقتلوا اليها المرابطي ومن معه من المرابطين ، وحمل الموحدون باب القلعة الحديدي الضخم وركب فيما بعد على باب الفخارين بتينملل^(٤٢) .

قاعة بني تالودا :

بنيت هذه القلعة بقطع حجرية غير مهذبة القطع ، ترتبط فيما بينها بملاط شديد الصلابة ، ونظمت هذه القطع الحجرية في صفوف منتظمة ، ولم يتبق من هذه القلعة الا أجزاء يسيرة تقتصر على الاموار ، وفي وسط القلعة آثار بناء لعله كان خاصا بالقصبة^(٤٣) .

-
- (٣٩) البيهقي ، نفسه ، ص ١٢٨ .
(٤٠) تورييس بالباس ، الفن المرابطي والموحدي ، ص ٣٦ .
(٤١) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٦٥ ، ٧٦٦ ،
(٤٢) البيهقي ، ص ١٢٨ ، سالم ، نفسه ، ص ٧٦٦ .
(٤٣) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٦٤ .

قلعة آمرجو :

« تقوم قلعة آمرجو على مرتفع من الارض يشرف على وادى ورغة المتفرع من وادى سبو جنوبى قلعة بنى تاودا ، وهى من أروع أمثلة العمارة الحربية فى المغرب فى عصر المرابطين ، وفى بناء هذه القلعة تتداخل التقاليد المحلية مع التأثيرات الاندلسية التى تدفقت على المغرب الاسلامى فى عصر على بن يوسف والتأثيرات الاسبانية المسيحية التى حملها النصارى المرتزقة فى الجيش المرابطى ، وتتجلى هذه التأثيرات المسيحية فى الابراج المستديرة الشكل وفى السور الامامى » (٤٤) .

(٤٤) سالم ، نفسه ، ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ .

رابعاً : الحياة الأدبية والعلمية

أ. – الحياة الأدبية

١ – الشعر والنثر

٢ – المؤشحات والأزجال

ب. – الحياة العلمية

١ – علوم الفقه والحديث

٢ – علوم اللغة

٣ – التاريخ والجغرافية

٤ – التصوف

٥ – الطب

٦ – الفلك والتنجيم والفلسفة

أ — الحركة الأدبية في عصر علي بن يوسف

١ — الشعر والنثر :

عندما قامت دولة المرابطين ، لم يبلغ لديهم الاهتمام بالآداب والشعر وتشجيع الحركة الأدبية ما بلغه الحال في بلاط بني عباد مثلاً ومع ذلك فلم يكن الوضع في عصر المرابطين أسوأ حالاً مما كان في بقية دول الطوائف ، ولعل الصورة القاتمة التي نتصورها عن الحركة الأدبية في عصر المرابطين وتأخرها عما كانت عليه في عصر الطوائف ، وأخص بالذات مجال الشعر لعلها رد فعل للعصبية الأندلسية التي تعبر عنها رسالة الشقندي ففيها اسراف في الثناء على ملوك الطوائف ومدى اهتمامهم بالشعر والمكانة السامية التي بلغها الشعراء في عهدهم ، يقول الشقندي في رسالته : « فما كان أعظم مباهاتهم الا قول العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني وليس منهم من بذل وسعه في المكارم ونبهت الاملاح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم ، وقد سمعت ما كان من الفتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران ، وسمعت عن الملوك العربية بنو عباد وبنو صمادح وبنو الافطس وبنو ذى النون وبنو هود ، كل منهم قد خلد فيه من الإمداح ما لو مدح به الليل لصار أضواء من الصباح »^(١) . ويواصل الشقندي حديثه منوها بمآثر ملوك الطوائف ومدى اهتمامهم بالشعر والشعراء وعلى الاخص ببني عباد الى أن يصل الى هدفه من وراء هذا المديح وهو ذم المرابطين وعلى رأسهم يوسف ابن تاشفين مؤسس الدولة فيقول : « وبالله الا سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ، ابسقت الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطي ؟ أم

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٨٨ ، ١٨١ .

بيوسف بن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشعراء الاندلس فى مدحه ما أجروا له ذكرا ، ولا رفعوا للملكه قدرا • وبعد ما ذكروه بوساطة المعتمد بن عباد ، فان المعتمد قال له ، وقد أنشدوه : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز • ولما انصرف عن المعتمد الى حضرة ملكه كتب له المعتمد بن عباد رسالة فيها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء على يوسف بن تاشفين هذان البيتان قال للقارىء : يطلب منا جوارى سودا وبيضا ، فقال له القارىء : لا يامولنا ، ما أراد الا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا ، لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا ، لأن ليالى الحزن ليالى سود ، فقال له يوسف : والله جيد ، أكتب له فى جوابه له أن دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده « (٢) » •

هذه هى الصورة التى رسمها الشقندى لحال الشعر فى عصر المرابطين ، وهى صورة ظالمة للحكم على هذا العصر ، فقد ينطبق ذلك على عصر يوسف بن تاشفين لأنه كان عصر جهاد وكفاح ، الا أن هذا لا ينطبق على عصر على بن يوسف ، فقد ازدهر سوق الشعر فى عصره ، وأقبل الشعراء على الامراء يمدحون ويتملقون ، كما أن أبناء الجيل الثانى الذى تبع جيل يوسف بن تاشفين كان يستسيغ النثر والنظم وكان يطرب للحن والغناء ، وعادت مجالس الامراء عامرة بالشعر والمداحين ، ويعبر غرسية

(٢) المقرئ ، المصدر السابق ، ص ١٨١ •

جومث عن ازدهار الشعر في عصر علي بن يوسف بقوله : « ان الشعر
الاندلسي لم يمت في عصر المرابطين ، وكل ما حدث أنه كيف نفسه بما
يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به ، بيد أنه من الانصاف أن نقرر أن
خلفاء يوسف بن تاشفين لم يابثوا أن استسلموا لسلطان الثقافة الاندلسية
القاهرة ، وأصبحوا أقرب إلى الاندلسية منهم إلى الافارقة » (٣) .

فقد ازدحم بلاط أمير المسلمين علي بن يوسف بنخبة من أعظم
شعراء الاندلس نذكر منهم الشاعر الكبير أبا العباس أحمد بن عبد الله
القيسي المعروف بالاعمى التطيلي الذي نظم في مدح علي بن يوسف
بقصيدة ، نذكر منها هذه الابيات :

يا علي العلاء في كل يوم وما أنت للملك بالسبائس
يا ربيع البلاد يا غيمة العا لم من بين مؤتل وموال
يا قريع الأيام عن كل مجد يا سليل الأذواء والأقيال
لك من تاشفين أو من أبي يعقوب ذكرى مكارم وفعال (٤)

ومنهم الشاعر أبو بكر بن سهل اليكي الذي خاطب أمير المسلمين
بقوله :

على حمى الملك من سبائه وما أنت للملك بالسبائس
من السوس أصبحت تخشى النفاق وقد جاءك النحس من باديس (٥)

(٣) غربية جومث ، الشعر الاندلسي ، ترجمة د . حسين مؤنس ، القاهرة
١٩٥٢ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) الاعمى التطيلي ، الديوان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٣ ،
ص ١٠٤ .

(٥) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

والشاعر محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوى وكان شاعرا مطبوعا،
ومن قوله فى مدح على بن يوسف :

أيا ملكا يسـمـو بسـعد مسـاعد وقدر على علو الكواكب مسـاعد
نظمت قصـيدا فى علاك مضـمنا ثلاث قواف فى ثلاث قصـايد
إذا فضلت أغنى عن البعض بعضها وأن وصلت كانت ككعب وسـاعد^(٦)

وكان الشعراء يقصدون ولى عهد الدولة الامير تاشفين بن على نذكر
منهم الفقيه أبا بكر يحيى بن محمد بن يوسف ، وله فى انشاد تاشفين
بمناسبة حلول عيد الفطر المبارك قوله :

يا أكرم الناس عفوا عند مقدره وأجمل الناس فى خلق وفى خلق
قد نافس العيد أعيادا لك اطردت على الفتوح اطراد الخيل فى الطلق
فأهنا بعيدك من أعياد ذى ظفر له نظائر تأتى بعد فى نسق
لازال ملكك يعلو كعبـة أبدا هام الملوك كما تعلو على السوق^(٧)

كما حظى الشعراء فى هذا العصر بمكانة عظيمة لدى أمراء الاسرة
الحاكمة وكبار القادة وعمال الدولة على الاقاليم المختلفة ومن هؤلاء
الامير أبو اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تافلويت ،
الذى كان قصره محط أنظار الشعراء ، نذكر منهم الشاعر الاندلسى
الكبير ابن خفاجة الذى مدح ابن تافلويت بقوله :

فعن حب ابراهيم أعرب صاهلا وفى نصر ابراهيم كر تشيعا

(٦) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ .

(٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٥ .

امام يباهى الحمد وشيا مذهباً به وبرأس المجد تاجاً مرصعاً
غشيت به أندى من المزن راحة وأطيب أفياء وأمرع مرتعاً
طوى الجود في يمناه وربما تدفق في أرجائها فتدفعاً^(٨)

وكان الامير عبد الله بن مزدلي موضع اهتمام الشعراء ، منهم ابن
عطية الذي قال فيه

ضاعت بنور اياك الايام واعتز تحت لوائك الاسلام^(٩)

كذلك كان الشعراء يقصدون أباه ويمدحونه بقصائدهم ومن بينهم
أبو عامر بن أرقم الذي مدحه بقوله :

أنت الامير الذي للمجد همته وللمسالك يحميها وللدول
لمزدلي لواء كان يرفعه . مناسب كالضحا والشمس في الحمل
يا أيها الملك المرهب صبولته . وارتجى غوثه في الحاديات الجلل^(١٠)

وإذا كان أمير المسلمين والامراء كانوا موضع مديح الشعراء ، فقد
كان الفقهاء والقضاة وكبار علماء الدين محل احترام الشعراء لكانتهم
العالية التي كانوا يشغلونها في دولة علي بن يوسف ولذلك انتجعوهم
وقصدوهم ، فهذا هو الاعمى التطيلي يمدح القاضي الفقيه ابن حمدين
قاضي الجماعة بقرطبة بقوله :

(٨) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٤١ ، ابن خفاجة ، الديوان ، ص

(٩) ابن خاقان ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

(١٠) ابن خاقان ، نفسه ، ص ١٣٣ .

اليك ابن حمدين وان بعد المدي وان غربت بى عنك احدى المغرب
صباية ود لم يكدر جملة مرور الليالى وازدحام الشوائب
وذكرى عساها أن تكون مهزة ترد على أعقابيه كل شاغب
بأية ما كان الهوى متقارباً وخطوى فيه ليس بالمتقارب (١١)

وإذا كان مدح أمراء الدولة وفقهائها وقضاتها قد شاع في هذا العصر،
فقد شاع أيضاً نقد المرابطين والتندر بهم، وبفقهاء دولتهم، وممن اشتهر
بالهجاء والتندر في هذا العصر الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل اليكى،
الذى هجا المرابطين من ذلك قوله:

في كل من ربط اللثام دناءة ولو أنه يعلو على كيان
ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا من بطن زانية لظهر حصان
المنتهمون لحمتهير لكنهم وضعوا القرون مواضع التيجان
لا تطبلن مرابطاً ذا عفة وأطلب شعاع النار في الغدران (١٢)

ومن هؤلاء الهجائيين أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى
وله في هجاء فقهاء المرابطين قوله:

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الاموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في العالم (١٣)

وقد ازدهر في عصر المرابطين لون آخر من ألوان الشعر أعنى به

(١١) الأعمى التطيلي، الديوان، ص ٤، ٥.

(١٢) ابن سعيد المغربي، المغرب، ج ٢، ص ٢٦٦.

(١٣) المراكش، المعجب، ص ١٧١.

شعر الطبيعة ، فقد شهد هذا العصر ظهور عدد كبير من الشعراء الذين
نبغوا في هذا الفن الشعري ، نذكر منهم ابن سارة الشنتريني وابن
الزقاق وابن خفاجة البلسي وعبد الحق بن عطية ، من ذلك قول الشنتريني
الشاعر يصف بركة :

لله مسجورة في شكل ناظرة
من الأزهر أهـداب لها وطف
فيها سلاحف ألـهاني تقامصها
في مائها ولها من عرمض لخف
تنسافر الشط الا حين يحضرها
برد الشتاء فتستدلى وتنصرف
كأنها حين يبيدها تصرفها
جيش النصارى على أكتافها الجحف^(١٤)

وقول أبى الحسن على بن عطية بن الزقاق يصف فرسا أغر :

وأغر مصقول الأديم تخباله برقاً اذا جمع العتاق رهان
يطأ الثرى متبخترا فكأنه من لخط من في متنته نشوان
فكأن بادر التـم فوق سـراته حسنا وبين جفونه كيوان^(١٥)

وأبو جعفر بن سلام المعافري (المتوفى في عام ٥٥٠ هـ) يصف الثلج :

ولم أر مثل الثلج في حسن منظر
تقرب به عين وتشبعه نفس

(١٤) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٧١ ، الشكعة ، الادب الاندلسي
موضوعاته وفنونه ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٠ .
(١٥) ابن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ١٠٦ .

فشار بلا نور يضىء له سنا
وقطر بلا ماء يقلبه اللبس
تري الارض منه في مشال زجاجة
كأن كئوس الماء يجمعه كأس (١٦)

وأبو الحسن على بن عطية بن مطراف بن سلمة اللخمي يصف قوسا :

يارب مائسة الأعطاف مخطفه
إذا دنا نزعها فالعيش منتزح
ظلت ترن فطل النزع يعطفها
كما ترنم نشوان به قرح
وقد تألق نصل السهم مندفعها
عنها فقل كوكب يرمى به قرح (١٧)

ولابن خفاجة قمة شعراء الطبيعة في عصر على بن يوسف يصف
الربيع :

أذن الغمام بديمة وعقار	فأمزج لجينا منها بنضار
وأربع على حكم الربيع بأجرع	هزج الندامى مفصح الأطيّار
وكمامة حدر الصباح قناعها	عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور أقحاح	أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا	دور الندى ودارهم النوار

(١٦) ابن عبد الملك المراكشي ، (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الانتصارى
الايوس المراكشي) ، الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة ، السفر
الخامس ، القسم الاول ، تحقيق احسان عباس ، طبعة بيروت ، بدون تاريخ ،
ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١٧) ابن عبد الملك ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .

وقد ارتدى غصن النقى وتقلدت حلى الحباب سـوالف الأنهار
فحلت حيث الماء صفحة ضاحك جـدل وحيث الشـط بدء عـذار
والروح تنفض بـكره لمـم الربـا والطل ينضج أوجه الأشجار^(١٨)

وهكذا تألفت سماء الشعر والشعراء في هذا العصر ، الذى أصبح يضارع عصر ملوك الطوائف فى الاندلس ، فقد وجد الشعراء فى بلاط أمير المسلمين وفى قصور أمراء وفقهاء وعمال الدولة المرابطية ما عوضهم عما فقدوه بعد سقوط دويلات الطوائف ، بل ان بعض أمراء المرابطين قد فاق فى كرمه ملوك الطوائف كالامير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين الذى كان قصره كعبة يقصدها شعراء المغرب والاندلس فى هذا العصر ، وهكذا نستطيع أن نرد على بعض الآراء التى نسبت الى دوزى وتزعم بأن الشعر قد انحط انحطاطا كبيرا فى عصر المرابطين . والواقع أن عصر على بن يوسف كان امتدادا لعصر الطوائف لاهتمام الامير بالشعر وتشجيعه للشعراء ، وليس هذا غريباً فقد تربى على بن يوسف وتلقى علومه ودروسه فى الاندلس ، فكانت دولته أندلسية أكثر منها افريقية مغربية .

أما فيما يتعلق بالنثر ، فقد كان مرتبطا بالشعر ارتباطا وثيقا ، اذ كان الشعراء يجيدون الكتابة نثرا كما كانوا يجيدون النظم شعرا ، ويتمثل النثر فى الرسائل الديوانية وفى الرسائل الاخوانية ، وفى الرسائل العلمية ذات الصبغة الادبية ، ويتميز هذا النوع من الكتابة بالاسراف فى استخدام المحسنات البديعية كالسجع والجناس^(١٩) ، ومن أشهر

(١٨) ابن خفاجة ، الديوان ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، د. سعد اسماعيل شلبى
دراسات أدبية فى الشعر الاندلسى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٦٧ .
(١٩) سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

كتاب المراتبين ابن خاقان ، وابن عبدون ، وابن الجدي ، وابن الصيرفي ،
وابن أبي الخصال ، وابن الأزرق القرطبي ، والوقسي والشلطيشي ،

ومن أمثلة الرسائل الديوانية رسالة من انشاء عبد المجيد بن عبدون
نيابة عن الأمير سير بن أبي بكر اللثموني ، يخبر فيها أمير المسلمين على
ابن يوسف بفتح مدينة شنترين ننقل هنا بعض سطورها : « وهذه القلعة
— أي شنترين — التي انتهينا إلى قرارها ، واستولينا على أقطارها ،
أرحب المدن أمدا للعيون ، وأخصبها بلدا في السنين ، لا يريمها الخصب
ولا يتخطاها ، ولا يرومها الجذب ، ولا يتعاطاها ، فروعها فوق الثريا
شامخة ، وعروقتها تحت الثرى راسخة ، تباهي بأزهارها نجوم السما ،
وتتاجي بأسرارها أذن الجوزا ، مواقع القطار في مساواها مغبرة مبردة ،
وهي زاهرة تشف أضواؤها ، وكانت في الزمن الغابر ، أعيت على عظيم
القيصر ، فنازلها بأكثر من القطر عددا ، وحاولها بأوفر من البحر مددا ،
فأبت على طاعته كل الأبا ، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصا ،
ومردت مروود على الزبا ، فأمكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركبها
لنا عن صهوتها » (٢٠) .

ومن أمثلة الرسائل الاخرانية ، رسالة كتبها عبد المجيد بن عبدون إلى
أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال يخطب مودته يقول فيها : « وأنا ما
قصدت فيما خطبت به اليك لآخذ عليك بفضل الابتداء ، وإنما سلكت سبيل
الاقتداء ، واتبعت دليل الاهتداء ، وأردت أن أستتير بأضوائك وأستتير
من سمائك ، نجوما تهديني في غسق الظلام ، أودجو ما تعديني على
مسترق سمع الكلام ، فان سمح عمادي بالجواب ورجعه غالبت — بما
حصل منه لدى ووصل إلى — الحمام في سجعه ، والانصار في حسانها ،

(٢٠) المراكشي ، المعجب ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

والاعصار في نيسانها ، وطيثا في وليدها وحبيبيها ، وسعدا في خالدها
وشبيبيها « (٢١) » .

٢ - الموشحات والأزجال

أولا - الموشحات :

يقول ابن خلدون في نشأة الموشحات : « وأما أهل الاندلس ، فلما
كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التتميق فيه الغاية ،
استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا
وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا
واحدا ويأترمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر
القطعة وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على
أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما
يفعل في القصائد ، وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفة الناس جملة
الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقة » (٢٢) . وقد تقدم من
الموشحات وشاع شيوعا عظيما في عصر المرابطين ، فنبت من الوشاحين
نخبة ممتازة نذكر منهم يحيى بن بقى القرطبي ومن موشحاته في الحب
قوله :

عبث الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجـد فلبت أدمعي

أيها الناس فـؤادي شـغف

وهو من بغى الهـوى لا يـنصف

كم أداريه . ودمـي يكـف

(٢١) المراكشي ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٦ .

أيها الشادن من علمكما بسهام اللحظ قتل السبع

بدرتم تحت ليل أغطش

طالع في غصن بمان منتشى

أهيف القيد بخد أرقشى

ساحر الطرف وكم ذا فتكا بقلوب الأسد بين الأضلع

أى ريم رمته فاجتنبها

وانثنى يهتر من سكر الصبا

كقضيبي هزه ريح الصبا

قلت : هب لى يا حبيبي وصالكا وأطرح أسباب هجرى ودع (٢٣)

ومن أشهر وشاحى هذا العصر أيضا الاعمى التطيلي وقد ذكر أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في أحد المجالس في اثبيلية وقد استحضر كل واحد منهم موشحته التى ألفها وتأنق فيها ، فتقدم الاعمى التطيلي لانشاد موشحته وفيها يقول :

صاحك عن جمان سافر عن در

صفاق عنه الزمان وحواه صدرى

وما كاد ينتهى منها حتى قام كل وشاح بتمزيق موشحته اجلالا للتطيلي واعجابا بموشحته (٢٤) .

(٢٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٦٧ ، انظر ايضا : جودت الركابى فى الادب الاندلسى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٣٤٠ ، سالم ، فرطبة ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢٤) المقري ، ازهار الرياض فى أخبار عياض ، ضبطه وحققه وعلق عليه =

ومن موشحاته قوله :

دمع مسفوح وضلوع حرار ماء ونار ما اجتمعا الا لأمر كـبار
بئس لعمري ما أراد العذول عمر قصير وعناء طويل
يا زفرات نطقت عن غليل ويا دموع قدأعانت مسيل^(٢٥)

ومن أعظم وشاحي هذا العصر الأديب الفيلسوف ابن باجة ومن
الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدمه ابن تيفلويت صاحب
سرقسطة فألقى موشحته التي فيها يقول :

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب ابن تيفلويت لذلك ، فلما ختمها ابن باجة بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلاء أبي بكر

وطرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ، وكان هو المقصود بذلك المديح
صاح وأطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف
بالإيمان المغلظة بأن لا يمشى ابن باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف
ابن باجة سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه الى
داره^(٢٦) .

=
مصطفى السقا وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبي ، ثلاثة أجزاء .
القاهرة ، ١٩٣٩ ، ج ٢ ص ٢٠٨ ، وانظر ايضا ، الشكعة ، الادب الاندلسي ،
ص ٤٠٩ ، ص ٤١٠ .

(٢٥) الاعمى التطيلي ، الديوان ، ص ٢٦١ .
(٢٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٧ ، المقرئ ، أزهار للرياض ، ج ٢ ،
ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

ثانيا - الزجل :

يقول ابن خلدون في نشأة الزجل : « انه لما شاع فن التوشيح في أهل الاندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزوا فيها اعرابا واستحدثوه فنا سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة (٢٧) ، وأول من ابتكر الأزجال امام الزجالين في الاندلس أبو بكر بن قزمان القرطبي المتوفى في عام ٥٥٥ هـ ، وقد اشتهرت أزجال ابن قزمان في المشرق والمغرب على السواء وجمعت في ديوان خاص (٢٨) ، نشره دون اميليو جرتيه جومث ، ومن أزجال ابن قزمان في هزيمة :

والكتف يتعلق والقحف يقسم
وشينوران راقد في برك من دم
قد حط فيه السيف حطاً لا يفهم
وجاء الغبار من فوق يحمل نثاره (٢٩)

ومن أزجال ابن قزمان في مدح القاضي أحمد بن الحاج قوله :

وصل المظلوم لحق وانتصف غنى ومسكين
يحضر الانكار والاقرار ويقع الفصل فالحين

(٢٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤١ ، وانظر أيضا سالم ، دائرة معارف الشعب ، ع ٦٤ ، ١٩٥٩م ، ص ٢٠٤ .

(٢٨) ابن سعيد المغربي ، المغرب ، ج ١ ص ١٦٧ .

(٢٩) نفس المصدر ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين
فيزول الحيق اذا زال ويدوم الحيق اذا دام
وترى طالب ومطلوب لس ترى زوارجلاس
الا أن كانت ضرورة كلمتين فلا بأس
مرات يا قاضي الجماعة جزاك الله خير عن الناس
ان مذ كنت ات حاكم عرفت شروط الاحكام
أى نهار نراك فى دارك وات قد جلست للناس
والخصام يعطى ويمنع والزحام ومر الانفاس
وأنت تحكم فى المناكح والغصب والدين والاحباس
والمواريث والجنائيات والنظر فأموال الأيتام (٣٠)

وخلف ابن قزمان فى صناعة الزجل أبو عبد الله بن الحاج المعروف
بمد غليس ، ومن أجمل أزجاله قوله فى وصف الطبيعة :

ثلاث أشياء فالعسباتين
لسن تجد فى كل موضع
النسيم والخضر والطير
شيم وانتزه واسمع
قسم ترى النسيم يولول
والطيور عليه تغرد
والثمار تنثر جواهر
فى بساط من الزمرد

(٣٠) عبد العزيز الهموانى ، الزجل فى الاندلس الطبعة الاولى ، القاهرة
١٩٥٧ ، ص ٢٠١ سالم قرطبة ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، الشكعة ، الادب
الاندلسى ، ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

وبوسط المـج الأخر
سقى كالسيف المـجـرد
شبهت بالسيف المـجـا
ورذا ذا دق يـمـنـزل
شفت الغدير مـدرع
فترى الواحد يفضض
وشعاع الشمس يضرب
والنبات يشرب ويسـكر
وترى الآخر يذهب
وتريد تجى الينـبـا
والغصون ترقص وتطرب
ثم تسقى وترجع
وجوار بحل حـور العين
في رياض تشبه لجنا^(٣١)

وفي عصر ابن قزمان ظهر بشرق الاندلس الزجال محلف الاسود ومن
محاسن أزجاله قوله :

قد كنت مشبوب وأختشيت الشيب
وردنى ذا العشب لأمر صعب
يقول فيه حين تنظر الخد الشريف
البهى تنتهى فى الحمرة الى ما تنتهى
يا طالب الكيمياء فى عينى هى
تنظر بها الفضة ترجع ذهب^(٣٢)

(٣١) ابن سعيد المغربى ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، سالم ،
فرطبة ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، الشكعة ، الادب الاندلسى ، ص ٤٤٥ ، ٤٥٦ .
(٣٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٢ .

(ب) الحياة العلمية

(١) علوم الفقه والحديث :

ظهرت في عصر علي بن يوسف جمهرة كبير من أعلام المحدثين والفقهاء ، نذكر منهم : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (٤٥٠ - ٥٢٠ هـ) قاضي الجماعة بقرطبة ، كان من أعلام الفقه المالكي في الاندلس وقد برع في علم الفرائض والاصول ، ومن أشهر تواليفه كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة ، وكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل ، واختصار المبسوط ، واختصار مشتمل الآثار للطحاوي (٣٣) . والقاضي الفقيه أبو علي الصدفي وأصله من مدينة سرقسطة ، حيث تلقى علومه الدينية في الاندلس ، ثم رحل الى المشرق في سنة ٤٨٠ هـ لينهل من علومه ومعارفه ، ثم عاد الى الاندلس سنة ٤٩٠ هـ واستقر بمرسية حيث توافد عليه طلاب العلم من مختلف أنحاء الاندلس : « وكان عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلومه وأسماء رجاله ونقلته ، يبصر المعدلين منهم والمجرحين كما كان حافظا لمصنفات الحديث ، قائما عليها ، ذاكر المتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخاري في سفي ، وصحيح مسلم في سقر » (٣٤) . وقد شارك في موقعة كتندة واستشهد في ربيع الاول سنة ٥١٤ هـ ، كذلك برز في ميدان الفقه والحديث في ذلك العصر القاضي الفقيه أبو بكر بن العربي (ت ٤٢٢ هـ) أعظم فقهاء الاندلس في عصر المرابطين وكان عالما حافظا تولى قضاء اشبيلية زمنا ثم انقطع للتدريس والبحث والتصنيف ومن أشهر كتبه كتاب « العواصم

(٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، الضبي ، بغية المتتمس ، ص ٥١ ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٣ .
(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤ - ١٤٦ .

والقواصم » ، وكتاب « أنوار الفجر » في مدح الرسول ، وكتاب « قانون التأويل » وكتاب « التلخيص في النحو وكتاب « ترتيب الرحلة » ، وكتاب « القبس في شرح موطأ مالك » وبلغت مؤلفاته نحو الأربعين كتاباً (٣٥) . ومن أشهر فقهاءهم القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتي المعروف بالقاضى عياض ، ولى القضاء وهو بعد شاب لم يتجاوز الثلاثين من العمر فكان متمسكا بتطبيق الاحكام والحدود ثم تولى قضاء غرناطة في سنة ٥٣٠ هـ الى أن صرف عنه وكان من كبار علماء المذهب المالكي وله كتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » (٣٦) . ومنهم أيضا أبو الحسن على بن عبيد الرحمن المعروف بابن أبى حقون ، وله مختصر في أصول الفقه سماه « بالمقتضب الاثنى من أصول المستصفى » (٣٧) . ومنهم أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الله بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي ، ويعرف بالرشاطي ، وكانت له عناية بالحديث والرجال والرواة والتواريخ وله كتاب سماه « اقتباس الانوار والتماس الازهار في أنساب الصحابة ورواه الآثار » (٣٨) ، ومنهم أيضا أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الانصارى ، الذى صنف كتابا في الجمع بين صحيحى البخارى ومسلم (٣٩) ، وأبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة بن محمد الخزرجى وقد ألف كتابا

(٣٥) ابن بشكوال ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٩٠ ، ٥٩١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٥٦ .

(٣٦) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٦٩ ، ابن خاتقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٢٢ - ٢٣٦ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

(٣٧) ابن الابار ، المعجم ، ص ٣٠٠ .

(٣٨) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

(٣٩) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .

في أحكام الرسول عليه الصلاة والسلام سماه « آفاق الشمس وأعلاق النفوس » ، وكتاباً آخر سماه « مقام الصليبان ومراتع رياض أهل الايمان »^(٤٠) ، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي وله كتاب يسمى « بالوجيز في التفسير »^(٤١) ، كذلك برز في عصر على بن يوسف من الفقهاء وعلماء الحديث أبو عبد الله محمد بن حسين بن أحمد الانصارى المعروف بابن أبي أحمد عشر^(٤٢) ، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان^(٤٣) ، وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر بن وفيرة اللخمي ويعرف بابن الدباغ^(٤٤) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن ابراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة^(٤٥) .

(٢) علوم اللغة :

نبغ في عصر على بن يوسف عدد كبير من العلماء المبرزين في النحو وعلوم اللغة نذكر منهم : أبا محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى النحوى (ت ٥٢١ هـ) وكان حجة في علمه عالماً متبحراً في النحو وعلوم اللغة ، وكان الناس يجتمعون اليه ويقرأون عليه ، ومن تواليفه كتاب « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب » وكتاب « التنبيه على الاسباب الموجبة لاختلاف الامة » ، وكتاب آخر في شرح الموطأ وبالإضافة الى ذلك كان شاعراً مطبوعاً فمن نظمه قوله :

(٤٠) ابن الأبار ، التكملة ، ج ١ ص ٨٥ .

(٤١) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ٣ ، النباهى الملقى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ١٠٩ .

(٤٢) ابن الأبار ، المعجم ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٤٤) ابن بشكوال ، نفسه ج ٢ ، ص ٦٨٢ ، ٦٨٣ .

(٤٥) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

أخضو العلم حتى خالده بعد موته
وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماشى على الثرى
يظن من الأحياء وهو عديم^(٤٦)

. ومن أئمة اللغويين وأعلامهم في عصر على بن يوسف أبو الحسن على بن أحمد بن خلف الانصارى النحوى ، وقد كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة ، متقدما في علم القراءات^(٤٧) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بابن اللجاش ، وكان عالما متبحرا في النحو^(٤٨) ، وأبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميرى (ت ٥٥٥ هـ) ، ومن تواليفه كتاب « نظم القرطين وضم أشعار السقطين » ، جمع فيه أشعار الكامل للمبرد والنوادر لأبى على البغدادى ، كما أن له كتاب « التوطئة في العربية » ، وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب ، وله في شرح أبيات جمل للزجاجى كتاب سماه « شفاء الصدور » ، وكتاب آخر اختصره منه سماه « المختزل » ، وله أيضا كتاب « الفوائد والفرائد »^(٤٩) ، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن غزوان الفهرى وكان من أهل المعرفة بالنحو واللغة والعروض ، وله أرجوزة مزدوجة في قراءة نافع ، وثانية في قراءة ابن كثير ، ومن تواليفه كتاب « فوائد الافصاح عن شواهد الايضاح »^(٥٠) .

(٤٦) ابن بشكوال الصلة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، غسان ، عصر
الرابطين ، ص ٤٦٩ .

(٤٧) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٤٨) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٦٣ .

(٤٩) ابن الأبار ، التكملة ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٥٠) ابن الأبار ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٧ .

٣ - التاريخ والجغرافيا :

برز في عصر المرابطين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة التاريخية نذكر في مقدمتهم : أبو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الانصارى الغرناطي المعروف بابن الصيرفي كان من أعلام عصر علي بن يوسف في البلاغة والادب والتاريخ ، كتب بغرناطة عن الامير تاشفين بن علي بن يوسف أيام أن كان واليا على الاندلس^(٥١) وألف في تاريخ الاندلس في العصر المرابطي كتابا سماه « الانوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية » ، وكتابا آخر سماه « قصص الانباء وسياسة الرؤساء » وهما مؤلفان لم يصلنا اليهما مع الاسف ، ولم يصل اليهما من مؤلفه الاول سوى شذور نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب وخاصة روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للاندلس سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م)^(٥٢) وقد توفي ابن الصيرفي بغرناطة في سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م)^(٥٣) . وهناك أيضا أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م) صاحب كتاب « الزخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، وهذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية يتضمن تراث القرن الخامس الهجري (١١ م) وهي الفترة المزدهرة التي جمعت بين عصرى الخلافة الاموية وملوك الطوائف في الاندلس ، وقد انتهى ابن بسام من كتابة تلك الموسوعة في عام ٥٠٣ هـ (١١١٠ م)^(٥٤) ، وأبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسن بن اسماعيل الصدي : ويعرف بابن علقمة ، وهو من أهل مدينة بلنسية وقد ألف تاريخا في تغلب نصارى الاندلس على بلنسية سماه « البيان الواضح في الملم الفادح » ، وقد توفي ابن علقمة

(٥١) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ١٨٨٢ .

(٥٢) عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(٥٣) ابن الزبير ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥٤) عنان ، ، عصر المرابطين ، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

في عام ٥٠٩هـ (١١١٤م)^(٥٥) وأبو طالب عبد الجبار عبد الله بن أحمد بن أصبغ ، وله كتاب يسمى « عيون الامامة ونواظر السياسة »^(٥٦) ، وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوي المعروف بالسالمي، وقد ألف كتابا في التاريخ سماه « درر القلائد وعرر الفوائد »^(٥٧) ، وأبو نصر الفتح بن محمد القيسي الاشبيلى ، والمعروف بالفتح بن خاقان ، ومن تواليفه كتاب « قلائد العقيان في محاسن الاعيان » ، وكتاب « مطمع الانفس ومسرحة التأنس » وكتاب « رواية المحاسن وغاية المحاسن »^(٥٨) ، وأبو القاسم خلف بن عبد الملك ويعرف بابن بشكوال وكان من أعلام المؤرخين في عصر المرابطين ، وأشهر تواليفه كتابه المعروف بالصلة ، الذي جعله تنمة لكتاب ابن الفرضي في تاريخ علماء الاندلس ، ومن تواليفه أيضا كتاب « الغوامض والمبهمات » في اثني عشر جزءا ، وكتاب « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » في عشرين جزءا ، وكتاب « المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الافاضل » في أحد وعشرين جزءا ، وقد توفي ابن بشكوال في رمضان ٥٧٨هـ^(٥٩) .

وفي مجال الجغرافية نبغ عدد من كبار جغرافي الاندلس والمغرب في عصر علي بن يوسف نذكر منهم : الشريف أبو عبد الله محمد الادريسي ، صاحب كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وقد ألفه الادريسي لرجار الثاني صاحب صقلية ، ولذا يعرف هذا الكتاب في كتب

(٥٥) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٤١١ ، ٤١٢ .

(٥٦) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(٥٧) ابن الابار ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٥٨) ابن الابار ، المعجم ، ص ٣١٣ .

(٥٩) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٧ .

الجغرافية العربية باسم الكتاب الرجـارى
Libro Rogeriano وقد نشر دوزى ودى غويه الجزء الخاص
بأفريقية والاندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق فى ليدن سنة
١٨٦٦م بعنوان :

Description de l'ofrique et de l'espagne (٦٠)

ومن جغرافى عصر على بن يوسف أيضا عبد الله بن ابراهيم بن وزمر
الحجارى صاحب كتاب « المسهب فى غرائب المغرب » ، وقد اتخذ بنو
سعيد كتابه أساسا لكتابهم المعروف باسم « المغرب فى حلى المغرب »
ويقول الدكتور حسين مؤنس عن كتاب المسهب : « ينذر أن نجد مؤلفا
أندلسيا كتب بعد الحجارى دون أن يشير إليه مما يدل على أن كتابه
كان مرجعا وحجة ، وأنه أضاف الى المكتبة الاندلسية شيئا فريدا تميز به
عن سواه ، مما جعل الرجوع اليه والاخذ به عنه ضرورة لا معدى عنها
لكل من تعرض للتأليف فى أدب الاندلس وجغرافيته وتاريخه » (٦١) .

٤ - التصوف :

ظهرت فى عصر على بن يوسف حركة دينية صوفية أمامها ورائدها
شيخ الصوفية فى الاندلس أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن
عطا الله الصنهاجى الاندلسى المربى المعروف بـ ابن العريف ، ولد فى عام
٤٨١ هـ ، ونشأ نشأة دينية وأقبل على دراسة الفقه وعلوم الدين ، واشتهر
ابن العريف بالزهد والعبادة ، ومن تواليفه كتاب « محاسن المجالس »

(٦٠) سالم ، المغرب الكبير ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٦١) مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون لآ الاندلس ، صحيفة المعهد المصرى

للدراسات الاسلامية بمديرية ، المجلدان ٧ ، ٨ ، ١٩٥٩ / ١٩٦٠ ، ص ٣٤٣ .

ضمنه طريقته الصوفية الجديدة ، التي كان جوهرها الزهد في كل شيء
ما عدا الله (٦٢) .

ولقد بعد صيته في الزهد والعبادة وكثر أتباعه على طريقته الصوفية
حتى نمت ذلك الى أمير المسلمين على بن يوسف ، ويقال أن فقهاء المرية
اتفقوا على انكار هذابه ، فسعوا به الى على بن يوسف وحذره من
جانبه ، فأمر بإشخاصه اليه من المرية (٦٣) مع أبي بكر محمد بن الحسين
الميورقي من غرداظة ، وأبى الحكم بن برجان من اشبيلية : « وكانوا نمطا
واحدا في الانتحال والاتصاف بصلاحية الحال ، ولأبى الحكم الشفوف
عليهم حتى قيل فيهم غزالي الاندلس » (٦٤) . فسيروا جميعا الى
مراكش ، ولم يقيم بها ابن العريف الا قليلا ، حيث لم يلبث أن توفي ،
ودفن في يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر سنة ست وثلاثين
 وخمسمائة ، واحتفل الناس بجنازته ، وندم على بن يوسف على ما كان
منه في جانبه (٦٥) .

وكان أبو العباس بن العريف ينظم الشعر الذي يحصل السمات
الصوفية الشفافة ومن ذلك قوله :

شدوا المطى وقد نالوا المنى بمنى وكلهم بأليم الشبوق قد باحها
سارت ركائبهم تندي روائعها طيبا بما طاب ذاك الوفد اشباحا

(٦٢) سالم ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٦٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٨١ ، ابن الابار . المعجم ، ص ١٥
١٦ ، سالم المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٦٤) ابن الابار ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

(٦٥) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٦ ، ١٧ ، ابن خلكان ، رفيات الاعيان ،
ج ١ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، سالم ، المرية ، ص ١٨٤ .

نسيم قبر النبي المصطفى لهم روح اذا شربوا من ذكره راحا
يا واصلين الى المختار من مضر زرتم جسوما وزرنا نحن ارواحا
انا أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راحا^(٦٦)

وقوله :

من لم يشافه عالما بأصوله فيقينه في المشكلات ظنون
من أنكر الأشياء دون تيقن وتثبت فمعاند مفتون^(٦٧)

ومن أقطاب التصوف في عصر علي بن يوسف أبو العباس أحمد بن
معد بن عيسى بن وكيل التجيبي الزاهد ، ويعرف بابن الاقليشي ، وأصل
أبيه من اقليش ، ثم سكن دانية وبها ولد أبو العباس هذا ونشأ ، ثم تلقى
العلم على شيوخ العصر في بلنسية ثم في اشبيلية فالمرية ، فبرز في علوم
الحديث واللغة والادب ، وكان من أساتذته أبو محمد البطليوس حيث أخذ
عنه العربية والآداب ، وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق ابن
يعيش ، وأبي بكر بن العربي ، وأبي محمد القلني ، وأبي الوليد ابن
الدباغ ، كما لقي بالمرية أبا القاسم بن ورد ، وأبا محمد عبد الحق ابن
عطية ، وأبا العباس بن العريف^(٦٨) .

رحل ابن الاقليشي الى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فأدى
فريضة الحج ، ثم كر راجعا الى بلاده ، ولكنه توفي أثناء رحلة العودة ،
ودفن بمدينة قوص في صعيد مصر سنة ٥٥١هـ^(٦٩) . وكان ابن الاقليشي

(٦٦) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٦٧) سالم ، المرية ، ص ١٨٤ .

(٦٨) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٦٩) ابن الابار ، المصدر السابق ، ص ٦٠ - ٦٢ ، وانظر أيضا ، عنان ،

عصر المرابطين ، ص ٤٦٧ .

علما ، متصوفا ، شاعرا ، مجردا ، مقبلا على العلم والعبادة ، ومن تواليفه
كتاب « الكواكب » وكتاب « النجم من كلام سيد العرب والعجم » ،
وكتاب « خيلاء الأولياء » ومن نظمه في الزهد قوله :

أسير الخطايا عند بابك واقف له عن طريق الحق قلب مخالف
قديمًا عصى عمدا وجهلا وغرة ولم يئنه قلب من الله خائف
تريد سنوه وهو يزداد ضله فما هو في ليل الضلالة عاكف (٧٠)

ومن متصوفي الاندلس الذين لعبوا دورا سياسيا خطيرا في تزعم ثورة
المريدين أحمد بن قسى زعيم المريدين في شلب بغرب الاندلس ، وكان
من تلاميذ ابن العريف وعليه تلقى طريقته ، وقد عكف على مزاوله رسوم
المريدين في غرب الاندلس والتف حوله الانصار والاتباع ، كان يلتفتي بهم
في رباط أقامه في شلب ، الى أن زاع أمره وانتشرت في الآفاق شهرته ،
وقد استغل وفاة علي بن يوسف واشتغال تاشفين بصراعه مع عبد المؤمن
ابن علي وأعلن الثورة على المرابطين في غرب الاندلس (٧١) .

٥ - الطب :

تقدمت العلوم الطبية والصيدلانية في عصر علي بن يوسف تقدما تشهد
به الاسماء الأعلام التي تألفت في حضارة الاندلس والمغرب وأشهرها
ابن زهر Avenzoar وهو اسم طبيب أندلسي من أعظم أطباء الاسلام
ممن تركوا بصماتهم واضحة في تاريخ الحضارة الانسانية جمعاء ،
وينتسب أبو مروان عبد الملك بن زهر الى أسرة أندلسية لمعت في ميدان

(٧٠) ابن الأبار ، المصدر السابق ، ص ٦١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص
٤٦٧ ، ص ٤٦٨ .

(٧١) راجع ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٩٧ - ٢٠٠

الطب والعلم الطبيعية والكيميائية وعميدها الأكبر هو أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الايادى الاشبيلي ، وكان والده الفقيه محمد بن مروان من جلة الفقهاء المتميزين في علم الحديث باشبيلية ، وقد رحل أبو مروان بن زهر في شبابه الى المشرق وسمع في القيروان ومصر ، وعنى بدراسة الطب في المشرق على يد أقطابه حتى نبغ فيه ، ثم لم يلبث أن عاد الى الاندلس واستقر بمدينة دانية ، حيث أكرمه والى المدينة وأمره بالاقامة عنده ، فمكث في دانية ، حيث ذاعت شهرته ، وطار ذكره الى مختلف أقطار الاندلس ، وقد انتقل أبو مروان بن زهر في أخريات أيامه من دانية الى اشبيلية ، ولم يزل بها الى أن توفي (٧٣) وقد خلفه من بعده ولده أبو العلاء زهر بن عبد الملك وقد ورث عن أبيه تفوقه ونبوغه في الطب ، وحظى بمكانة عظيمة لدى حكومة المرابطين ومن تواليفه كتاب « الخواص » وكتاب « الادوية المفردة » ، وكتاب « الايضاح بشواهد الاقتضاح » في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن اسحق في كتاب المدخل الى الطب، وكتاب « النكت الطبية » ، وكتاب « الطرر » ، ومقالة في تركيب الادوية ، وقد توفي زهر في قرطبة سنة ٥٢٥هـ (١١٣١م) ، ثم حمل ودفن في اشبيلية حيث مسقط رأس أسرته ، وقد أمر أمير المسلمين على بن يوسف بعد وفاة زهر هذا بجمع كل مؤلفاته ، فجمعت بمراكش وبسائر بلاد العدو والاندلس ، وانتسخت في جمادى الآخرة سنة ٥٢٦هـ ، وكان زهر فضلا عن مقدرته الطبية الفائقة أدبيا مشاعرا ، ومن نظمه قوله في التغزل :

(٧٢) ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي) : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، شرح وتحقيق د. نزار رضا ، جزآن في مجلد ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥ ، ج ٢ ، ص ٥١٧ ، وانظر ايضا عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٧٣ .

يما من كلفت به وذلت عزتي لغرامه وهو العزيز القاهر
رمت التصبر عندما أتقى الجفا ويقول ذاك الحسن مالك ناصر
ما الجاه الا جاء من ملك القوى واطاعة قلب عزيز قنادر (٧٣)

وقد خلفه ولده أبو مروان عبد الملك بن زاهر المعروف في الغرب باسم
AVEN ZOOR ، وقد برع في الطب براعة أبيه وجده، وذاع ذكره في
المغرب والاندلس ، ولم يكن في زمانه من يماثله أو ينافس في مجال
الطب ، وكانت له الحظوة لدى الامراء المرابطين ، فقد صنف للامير أبي
اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين كتابا سماه « الاقتصاد في صلاح
الاجساد » ، ومن تواليه أيضا كتاب « التيسير في مداواة والتدبير » ،
وقد ألفه للقاضي الفقيه أبو الوليد بن رشد ، وهذا الكتاب يعد من أعظم
مراجع الطب في العصور الوسطى ، وله أيضا كتاب « الاغذية » ومقالة
في علل الكلى ، ورسالة كتب بها الى بعض أطباء اشبيلية في علتي البرص
والبهق ، وقد وثق بعبد الملك هذا الى أمير المسلمين علي بن يوسف ،
فاستدعاه الى مراكش ، وسجن بها مدة ، ثم أفرج عنه ، وعاد الى بلده
اشبيلية ، حيث مكث بها الى أن توفي في عام ٥٥٧ هـ ، وخلفه في مهنته ولده
الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر ، الذي حظى بمكانة عظيمة عند خلفاء
الموحدين (٧٤) .

ومن الاطباء الذين برعوا في عصر علي بن يوسف : أبو عامر محمد
بن أحمد بن عامر البلوي وله في الطب كتاب سماه « الشفا » (٧٥) ، وأبو

(٧٣) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ابن أبي أصيبعة ،
المصدر السابق ، ص ٥١٧ ، ٥١٨ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٤٧٣ .
(٧٤) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٥١٩ - ٥٢١ ، ابن عبـ
د: تلك المراكشي ، الذيل والتكملة ، ص ١٨ ، ١٩ ، عنان ، عصر المرابطين ،
ص ٤٧٣ .

(٧٥) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

عامر محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة بن ينق ، وكان قد لازم أبا العلاء بن زهر بنشيبالية وأخذ عنه في الطب والادب^(٧٦) ، وأبو الحسن على بن عبد الرحمن بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن جودي السعدي^(٧٧) ، وأبو محمد عبد الله بن يوسف بن جوشن الازدي^(٧٨) وغيرهم •

ومما يؤكد اهتمام المرابطين بالطب ، وجود منصب يعرف برئيس الصناعة الطبية^(٧٩) . وهو منصب هام كان يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة ، اذ كان فيما يبدو المسئول الأول أمام الأمير عن صناعة الطب وما يتعلق بها من الادوية والعقاقير •

٦ — الفلك والتنجيم والفلسفة :

يعتبر علم الفلك من جملة العلوم التي تستهوى النفس البشرية ، وتثير فيها غريزة حب الاستطلاع للغموض الذي يتغلغلها وما يرتبط بذلك ، من محاولات استكناه غوامض الكون والطبيعة ، وقد كان الخلفاء وولاة الاسلام في العصور الوسطى لا يقدمون على خوض غمار الحروب أو حتى على الشروع في تأسيس مدينة دون الرجوع الى آراء المنجمين ، لتعين الاوقات السعيدة ، التي تتحقق فيها الانتصارات أو البنيان طبقا لحسابات علم التنجيم ، كما كان علماء الدين يولون دراسة الفلك عناية خاصة لاسيما علم الميقات منه لتعيين مواقيت الصلاة والصيام والحج •

وكان للتنجيم منزلة رفيعة في عهد المرابطين ، اذ كان رئيس مجلس

(٧٦) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٦٨ •

(٧٧) ابن الابار ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠ •

(٧٨) ابن الابار ، التكملة ، ج ٢ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦ •

(٧٩) ابن الابار ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٤ •

علماء المرابطين في عصر علي بن يوسف الوزير مالك بن وهيب الاشبيلي ، وكان مالك هذا حزاء ينظر في النجوم ، وعند ظهور ابن تومرت الملقب بمهدي الموحدين في المغرب ، حذر مالك بن وهب أمير المسلمين من ابن تومرت ، طبقا لعلامات ونتائج قالها المتجمون والكهان ، فذكر لأمر المسلمين أن الكهان يتحدثون عن ظهور رجل في المغرب يكون لهذا الرجل الملك على المغرب ، وقال مالك لأمر المسلمين احتفظ بالدولة من ابن تومرت ، فلعله هو ذلك الرجل الذي أشار الكهان بأن ملك المغرب سيكون له (٨٠) .

كما نبغ في عصر علي بن يوسف عدد من علماء الفلك والمتخصصين في التنجيم أمثال : أبو العباس أحمد بن يوسف التنوخي الذي يعرف بابن الكماد ومن تواليفه كتاب « القبس والمستتبط على أرصاد أبي اسحاق الطليطلي المعروفة بالزرقالة (٨١) » ، وأبو الحسن علي بن خلف الاموي ومن تواليفه كتاب « اللؤلؤ المنظوم في معرفة الاوقات بالنجوم » (٨٢) ، وأبو الحسن موفق مولى يوسف بن ابراهيم المعروف بالمسنالي ومن تواليفه كتاب « الاهتداء بمصابيح السماء » (٨٣) ، وغيرهم من الفلكيين والمنجمين .

أما عن الفلسفة ، فقد تألق نجمها في سماء دولة المرابطين ويكفي هذا العصر فخرا ظهور المفكر العظيم والفيلسوف أبي بكر محمد بن يحيى بن

(٨٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ ، انظر أيضا عبد الله على علام ، الدولة الموحدية في المغرب ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٨١) ابن الأبار ، التكملة ، ج ١ ص ٢٩ .
(٨٢) ابن الأبار ، المصدر السابق ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .
(٨٣) ابن الأبار ، المعجم ، ص ٢٠٥ .

الصنائع المشهور بابن باجة ، الذى ذاع صيته فى الاندلس وأوربا فى العصور الوسطى ، حيث عرفه الناس باسم Avenpace ، وقد عاش ابن باجة فى مدينة سرقسطة فى بلاط المستعين بالله بن هود ، وبعد وفاة المستعين فى عام ٥٠٣هـ (١١١٠م) وانصواء سرقسطة فى فلك دولة المرابطين ، استطاع ابن باجة أن يحظى بثقتهم ، فاتخذوه عاملها الأمير أبو بكر إبراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تافلويت وزيرا وكاتبا له ، وظل فى خدمة ابن تافلويت الى أن توفى الأخير ، وما أعقب ذلك من سقوط سرقسطة فى أيدي النصارى ، فترك ابن باجة سرقسطة ، ورحل الى المرية ومنها الى غرناطة ، ثم استقر به المقام فى مدينة فاس ، حيث تفرغ للتأليف والتدريس الى أن توفى بها عام ٥٣٣هـ (٨٤) .

وقد صنف ابن باجة عددا كبيرا من التواليف بلغ عددها فيما روته المصادر ٢٥ كتابا ، الا أنه - للأسف - لم يصل إلينا منها سوى القليل ، وقد اشتغل ابن باجة بشرح مؤلفات أرسطو ومن ذلك شرحه لكتاب السماع الطبيعى ، كما شرح منطق الفارابى ، فضلا عن كون ابن باجة فيلسوفا فقد كان أيضا أديبا شاعرا وموسيقيًا (٨٥) ، ومن فلاسفة عصر على بن يوسف أيضا الوزير مالك بن وهيب الاشبيلي (٨٦) .

-
- (٨٤) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٧٠ .
- (٨٥) بالنثيا ، المرجع السابق ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٦ .
- (٨٦) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٥ ، حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

خاتمة

اتخذت دولة المرابطين من الجهاد ونشر الاسلام هدفا أساسيا حشدت له كل امكانياتها ، واتخذته شعارا لها ، وفي سبيل تحقيق هذه الاهداف تحركت قبائل اللثمين من الصحراء الى السودان جنوبا ، ثم اتجهت شمالا صوب المغرب الأقصى ، حيث فرضت سلطانها وسيادتها بفضل جهود الفقيه الكبير عبد الله بن ياسين ومن جاء بعده من أمراء المرابطين الى أن ظهر يوسف بن تاشفين على مسرح الاحداث السياسية في المغرب ، فلم يقف طموحه عند بسط سلطانه على المغرب الاقصى ، بل تطلع الى الاستيلاء على الاندلس لتحقيقا لحلمه في تكوين امبراطورية كبرى تضم عدوتى المغرب والاندلس ، وقد سنحت له الفرصة لتحقيق هذا الحلم عندما وقع الصدام بين ملوك الطوائف في الاندلس وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، وبين الفونسو السادس ملك قشتالة ، وذلك عندما وضحت نوايا الفونسو بعيدة المدى التى تهدف الى انتزاع الاندلس من أيدي المسلمين .

وهكذا كان طبيعيا أن يستمد المعتمد ورفاقه من ملوك الطوائف القوة المرابطية الفتية في التراب المغربى . ولم يتردد يوسف بن تاشفين فى تأليب هذا النداء بدافع الجهاد وبإادر بعبور المجاز والاشتباك مع القشتاليين وحلفائهم من ملوك أسبانيا المسيحية فى وقعة الزلاقة التى انتهت بانتصار المسلمين وجاء هذا الانتصار فاتحة يمن وبركة ، فقد شجبه المؤرخون بيومى اليرموك والقادسية . ثم كان الجواز المرابطى الثانى ،

هذه المرة لافتتاح حصن لبيط الذى كان شوكة فى جانب المسلمين بشرق الاندلس ، ولكن مهمة يوسف بن تاشفين لم تتحقق ، وانفض غاضبا عندما شهد تنازع ملوك الاندلس على السلطان ، فعاد الى المغرب وقد عزم على التخلص منهم دفعة واحدة بعد أن تبين له خيانتهم واتصالهم بنصارى أسبانيا وققاعسهم عن الجهاد ، ولذا بات واضحا ليوسف أن حركة الجهاد فى الاندلس تستلزم القضاء أولا وقبل كل شئ على ملوك الطوائف ، وعلى هذا النحو تمكن يوسف من اسقاط جميع ملوك الطوائف باستثناء بنى هود فى سرقسطة ، وتأسيس امبراطورية مترامية الاطراف تشتمل على القسم الغربى من المغرب والاندلس ظل يحكمها الى أن توفى فى عام ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) فخلفه ولده الامير على بن يوسف الذى ارتسم سياسة أبيه فى الجهاد وواصلت قواته صراعها مع قوى المسيحية فى أسبانيا وتمكنت من الاصطدام بها مرات عديدة ، وهكذا كانت موقعتا اقليش وافراغة اللتان انتصر فيهما المرابطون على أيام على بن يوسف زلاقتان جديدتان جددتا حيوية دولة المرابطين ، وكان لهما أعظم الاثر فى تحقيق الرسالة التى قامت الدولة من أجلها •

لقد تمكنت خلال دراستى الطويلة فى القسم السياسى من أبرز الدور البطولى الذى قام به المرابطون على عهد على بن يوسف واستعادتهم لهيبة الاسلام فى الاندلس وبذلك أكون قد استطعت أن أصور جهادهم تصويرا واقعيا وأن أزيل الآثار السيئة التى رسخت فى الازهان فى عهد الموحدين ضد دولة المرابطين منصفاهم دورهم التاريخى الجيد فى خدمة الاسلام • كذلك استطعت أن أوضح الى حد ما أسباب التصامم على المرابطين فى المغرب والاندلس المتمثل فى ثورات أهل الاندلس على نواب الامير على مبينا أن هذه الدولة المظلمة حقا لم تستطع أن تواجه المتغيرات الجديدة

بعد قيام المهدي بن تومرت بدعوته الموحدية في الوقت الذي قامت فيه الثورات في الاندلس ضد وجود المرابطين مما أدى بالتالى الى استنزاف قواهم في أكثر من موقع •

ولم يفوتنى أن أقتبع علاقات دولة المرابطين على أيام على بن يوسف بالممالك المسيحية في أسبانيا (قشتالة ، أرغون ، البرتغال ، قطالونية) •

ففيما يتعلق بقشتالة ، أبرزت مدى اهتمام على بن يوسف بمواصلة الجهاد ضد قشتالة التي ظفرت بنصيب الأسد في حركة الاسترداد ومبادرته بغزوهم في عقر دارهم والانتصار عليهم في اقلش سنة ٥٠١هـ (١١٠٨م) ، وقد أوضحت أن أهم النتائج التي ترتبت على اقلش تتمثل في أنها دعمت سلطان المرابطين على الاندلس بعد أن تعرض للاهتزاز منذ أواخر عصر يوسف بن تاشفين ، كما أنها أوقفت حركة الاسترداد المسيحي لفترة قصيرة ، لاسيما أن نتيجة المعركة لصالح المسلمين ومصرع سانشو (شانجة) ابن الفونسو السادس من زوجته زايده المسلمة كانا سببا في وفاة الفونسو السادس ، كما ترتبت على هزيمة القشتاليين في اقلش سقوط كثير من القلاع القشتالية في أيدي المرابطين • كما أوضحت أن حملة اقلش كانت فاتحة لسلسلة من الحملات السنوية التي كان يوجهها المرابطين ضد قشتالة ، مبرزاً جهود الامير تاشفين في مدافعة النصارى ، الى حد أنه لو أن ولاية الامير تاشفين استمرت على الاندلس لفترة أطول لكان في أمكانه إيقاف حركة المد المسيحي في الاندلس الى حين •

أما عن العلاقات مع أرغون ، فقد أوضحت أن العلاقات بين المرابطين وأرغون قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالعلاقات بين المرابطين وبنى هود في سرقسطة ، فقد ظلت العلاقات المرابطية اليهودية تقوم على أساس الود والمصالح المشتركة الى أن استشهد الامير أحمد المستعين بن هود ،

وخلفه ابنه عماد الدولة الذى بادر بعقد تحالف مع الفونسو الأول المحارب ملك أرغون الذى تطلع الى الاستيلاء على سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى الاندلسى ، غير أن المرابطين فوتوا عليه الفرصة ودخلوا سرقسطة فى سنة ٥٠٣هـ (١١١٠م) ، ومع ذلك فإن الفونسو ظل يتحين الفرصة المواتية حتى تمكن أخيرا من افتتاح سرقسطة فى رمضان سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) ، وتبع سقوط سرقسطة فى أيدي الفونسو المحارب سقوط معظم قواعد الثغر الاعلى سيما بعد انتصاره على المرابطين فى معركة كتندة ٥١٤هـ (١١٢٠م) ، ومما لاشك فيه أن تلك الانتصارات التى أحرزها الفونسو المحارب جاءت لتواطؤ النصارى المعاهدين فى غرناطة مع الفونسو المحارب ضد المسلمين الامر الذى يفسر لنا غزوته التى شق فيها الاندلس واستمرت خمسة عشر شهرا ، ولكنها أسفرت عن النتائج التالية : أثبتت نفاق النصارى المعاهدين وعدم ولائهم للمسلمين فاستحقوا العقاب ، فأفتى الفقيه ابن رشد بتغريبهم ونفيهم الى المغرب ، كما أثبتت ضعف وسائل الدفاع الاسلامى عن الاندلس وسوء القيادة العسكرية التى كان على رأسها الامير تميم بن يوسف بن تاشفين فأفتى ابن رشد بعزله عن القيادة واسنادها للامير تاشفين ، وكذلك أثبتت عدم صلاحية أسوار الاندلس للصمود أمام غزوات النصارى فأصدر على بن يوسف أوامره بتحسين الاسوار وترميمها •

ومع ذلك واصل الفونسو المحارب نشاطه ضد المرابطين وألحق بهم الهزيمة عند القلاعة ، غير أن المرابطين ثأروا لتلك الهزائم وأوقعوا به هزيمة نكراء عند افراغة سنة ٥٢٨هـ (١١٣٤م) ، ويعتبر هذا الانتصار صفحة مشرقة فى تاريخ المرابطين العسكرى فقد ترتب عليها عودة هيبة المرابطين العسكرية فى الاندلس ، وأبرزت بعض قادة المرابطين وعسى

رأسهم يحيى بن غانية ، كما انها أبعدت الخطر عن الاندلس لبعض الوقت وأوقفت حركة المد المسيحي على حساب أراضى المسلمين . وقد أوضحت أن المرابطين أخطئوا في عدم افادتهم من هذا الانتصار الساحق وكان في وسعهم أن يستردوا سرقسطة نفسها لو أنهم عجلوا بمحاصرتها فور وفاة الفونسو المحارب وارتباك عسكر الفصاري في أعقاب الهزيمة .

وبالنسبة للعلاقات مع البرتغال ، أوضحت كيف أن على بن يوسف أقدم على غزو أراضى المملكة الفتية عندما سير في سنة ٥٠٤هـ (١١١١م) حملة قوية جعل على قيادتها الامير سير بن أبى بكر اللمتونى الذى تمكن من الاستيلاء على مدن يابرة وشنترين وشنقرة وأشبونة ، كما قام على ابن يوسف بنفسه بغزو مدينة قلمرية عاصمة البرتغال سنة ٥١١هـ (١١١٧) واقتحمها بعد حصار دام ثمانية عشر يوما ثم انصرف عنها .

كذلك حاولت قدر طاقتى تصوير العلاقات المرابطية القطلانية ، فتعرضت لدراسة الحملة التى قادها ابن الحاج ضد أراضى امارة برشلونة وكيف أخفق في السيطرة عليها ثم تعرض للقتل على أيدي القطلانيين ، وتتبع ردود الفعل المرابطية وتتمثل في توجيه حملة ضخمة بقيادة ابن تافلويت لغزو برشلونة انتقاما لمصرع ابن الحاج وقيامه بمحاصرة برشلونة ثم اضطره الى الانسحاب بعد معركة عنيفة خسر فيها المسلمون نحو سبعمائة قتيل .

ولم أغفل تتبع العلاقات مع دويلات المغرب الاسلامى فتعرضت لدراسة الصلات القائمة بين دولة المرابطين وبين كل من دولتى بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيتين مؤكدا أن هذه الصلات كانت ودية للغاية مع الدولة الزيرية في حين تحولت مع الدولة الحمادية الى علاقات عدائية

لم تصل في عهد على بن يوسف الى درجة الصدام المسلح ، ومن أهم النتائج التي توصلت اليها في مجال هذه العلاقات أن المرابطين كان في مقدورهم الاستيلاء على المغربين الأدنى والوسط لاسيما بعد حالة الانهيار التي تعرض لها المغرب في أعقاب الغزوة الهلالية ، غير أن المرابطين أحجموا عن ذلك بسبب صلات القربى التي ترتبط بينهم وبين الزيريين والحماديين وكلاهما من صنهاجة بالإضافة الى أن المرابطين كانوا يستهدفون التفرغ للجهاد في أرض الاندلس •

ولقد أثبت فيما يتعلق بالخلافة العباسية أن المرابطين كانوا قد اتصلوا مع العباسيين قبل وقعة الزلاقة وليس بعدها كما يزعم بعض المؤرخين ، كذلك أثبت أن العلاقات بينهما كانت علاقات روحية فلم يكن الأمير الرابطي يلتزم تجاه الخلافة العباسية بأى التزامات الا بمزيد من الجهاد والطاعة للخلافة فحسب •

أما عن دراستي عن حضارة المغرب والاندلس في عصر على بن يوسف فمتمنوعة ، اذ خصصت الفصل الاول لدراسة نظم الحكم والادارة موضحا الاختصاصات الادارية ، وبينت فيما يتعلق بولاية العهد كيف أنه لم يكن هناك نظام ثابت لولاية العهد الامر الذي ترتب عليه قيام النزاع بين أولاد على بن يوسف حول حق كل منهما في ولاية عهده • أما عن منصب نائب أمير المسلمين فقد بينت أن استحالة اشراف الأمير على وحدة تلك الدولة مترامية الاطراف مما جعله يختار نائباً عنه لحكم الاندلس وأكثر من نائب لحكم المغرب كان يراعى في اختيارهم أن يكونوا من أقاربه فضلاً عن توافر الكفاءة الادارية والعسكرية • أما عن ولاية الاقاليم فقد أوضحت أن علياً بن يوسف كان يحرص على مراقبتهم مخافة أن يستبدوا بهم بأمر ولايته أو يسئء معاملته رعيته ، كما كان يرسل رسالة الى كل وال

يرسم له فيها السياسة التى يجب أن يتبعها فى معاملة زعاياه • وأكدت بالنسبة لنظام الوزارة فى عصر المرابطين أنه لم يحظ باهتمام مؤرخى هذا العصر ، وأشرت الى وجود نوعين من الوزراء : عسكريون ينتمون الى قبيلة لتونة ، وأدباء فقهاء معظمهم من أصول أندلسية • أما عن الرسائل والمكاتبات ، فقد أشرت الى حاجة تلك الدولة المترامية الاطراف لديوان للرسائل والمكاتبات يكون همزة وصل بين أمير المسلمين وعماله من جهة ، وبينه وبين مختلف القوى المحيطة بدولته من جهة أخرى ، وأكدت أن هذا الديوان كان يزخر بطبقة من كبار كتاب وأدباء الاندلس •

وبالنسبة للنظام القضائى ، أوضحت المكانة التى كان يتمتع بها القضاة فى هذا العصر ، مشيراً فى نفس الوقت الى اختصاصاتهم ، وأثبت أن تعيين القضاة أو عزلهم كان يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين •

وفيما يتعلق بالنظام الحربى ، أشرت الى اهتمام الدولة بالجيش استناداً على أن الدولة قامت على مبدأ الجهاد ، فقد كانت القيادة العليا للجيش تعقد لأمر المسلمين ، أما قيادة الفرق فكانت تعقد لامراء الدولة ، وأثبت أن القيادة العليا فى الاندلس كانت تعقد لنائب أمير المسلمين ، أما القيادة العليا فى المغرب فكانت تخضع للإشراف المباشر لأمر المسلمين • كذلك تعرضت للدور الكبير الذى لعبته البحرية المرابطية منذ نشأتها فى عصر يوسف بن تاشفين ، وأثبت أن نشاط هذه القوى البحرية لم يقتصر على حماية سواحل الدولة فحسب بل وقفت ضد أطماع النورمانيين فى أملاك الدولة الزيرية ، وكذلك فى الاستيلاء على جزر البليار ، فضلاً عن غاراتها على السواحل الجنوبية لأوروبا •

أما بالنسبة للنظام المالى ، فقد تناولت بالدراسة السياسة الضريبية

التي اتبعتها دولة المرابطين في بداية نشأتها والتزامها بتحصيل ما تجيزه الشريعة الاسلامية وأثبت أن الدولة قد اضطرت (بسبب تعدد مسؤولياتها لاسيما بعد فتح الاندلس واتساع نطاق الجهاد ضد النصارى) الى فرض أنواع جديدة من الضرائب ، كما أثبت أن الدولة قد عهدت الى النصارى بجباية هذه الضرائب • أما عن العملات ، فقد أكدت على أن الدينار المرابطى الذهبى كان عماد اقتصاد الدولة ، وأثبت أن هذا الدينار كان من القوة بحيث أن دول أسبانيا النصرانية اتخذته كعملة للتداول •

أما الفصل الثانى الخاص بدراسة الحياة الاجتماعية ، فقد توصلت الى حقائق هامة تتعلق بالمركز السامى الذى كانت تتبوأه المرأة فى المجتمع المرابطى وسجلت أهمية اتصال المغرب بالاندلس والآثار المترتبة عليه وأهمها تمازج واضح فى الفنون والآداب بين حضارتى المغرب والاندلس تحقق بوجه خاص فى عهد على بن يوسف •

وبالنسبة للحياة الاقتصادية ، أثبت بما لا يدع مجالا للشك فى أن عصر على بن يوسف كان عصر ازدهار فى الاقتصاديات المغربية والاندلسية ، فقد أوضحت عظم الرخاء الذى أصابته بعض المدن التجارية مثل المرية ومالقة ومراكش فى عصر على بن يوسف •

أما بالنسبة للحياة الادبية والعلمية ، فقد أثبت أن عصر على بن يوسف لم يتخلف قط عن عصر الطوائف من حيث اهتمام الدولة بالشعراء والادباء وتشجيعها لهم بالعطايا الامر الذى ساعد على تألق الحياة الادبية والعلمية فى ظل الامير على بن يوسف ، كما أثبت أن دولته لم تحاول أن تحجر على حرية العلماء والادباء كما يزعم بعض الباحثين المحدثين وفى مقدمتهم المستشرق الهولندى دوزى •

قائمة المصادر والمراجع العربية والاجنبية

أولا : المصادر العربية

— ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م

- التكملة لكتاب الصلاة ، جزءان ، نشر وتصحيح وطبع السيد عزت العطار الحسينى القاهرة ، ١٩٥٦ •

- الحلة السيرة ، جزءان ، نشر وتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣م •

- المعجم فى أصحاب القاضى الامام أبو على الصدقى ، القاهرة ، ١٩٦٧م •

— ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى) ت : ٦٦٨ / ١٢٧٠م •

- عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، جزءان ، نشره الدكتور تزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥م •

— ابن الاثير (أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الجزرى) ت : ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م •

- الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، ٣٥٧هـ •

— الادريسى (الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) ت : ٥٤٨هـ / ١١٥٤م •

- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس من كتاب نزهة

المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره دى غويه ودوزى ، ليـدن ،
١٨٦٦م •

— ابن بسام (أبو الحسن على الشنتريني) ت : ٥٤٣/١١٤٧م •

● الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثانى ، مخطوط
بغداد ، مكتبة جامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٦٠٢٢ صورة
شمسية حصلت عليها من مكتبة الدكتور حسين خربوش •

— ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت : ٥٧٨/١١٨٣م

● الصلة في تاريخ أئمة الاندلس ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٦م •

— البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز المرسى) ت : ٤٨٧هـ/
١٠٩٤م •

● المغرب في ذكر افريقية والمغرب ، من كتاب المسالك والممالك،نشره
De Slane دى سـلان بعنوان : Description de l'ofrique
septentrionale الجزائر ، ١٩١١م •

— البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى) ت : ق ٦هـ / ١٢م •

● أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، نشر ليفى
بروفنسـال ، باريس ١٩٢٨م •

— التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) ت : حوالى ٧١٧هـ/
١٣١٧م •

● رحلة التجانى • نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨م •

— التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة)

● ديوان الاعمى التطيلي •

تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٣م •

— ابن تغري بردي (جمال الدين أبي الحاسن يوسف الاتاكي)

ت : ٨٨٧٤/١٤٦٩م •

● النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٦م •

— الجزنائي (أبو الحسن علي) •

● زهرة الآس في بناء مدينة فاس، نشره الفريد بل، الجزائر، ١٩٢٢م

— ابن حمدين (عبد الجبار أبي بكر محمد السرقوسي) ت ٨٥٢٧/١١٣٣م

● الديوان •

صححه وقدم له الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠م •

— الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) ت : ٨٦٦م/

١٤٦١م •

● صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر

الاقطار ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧م •

— ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم محمد بن علي) ت : ٨٣٨٠/٩٩٠م

● صورة الارض •

بيروت ، ١٩٦٢م •

— ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد القيسى الاشبيلي) ت : ٥٣٥هـ / ١١٣٤م •

● قلائد العقيان في محاسن الاعيان ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ •

— ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م •

● أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، الجزء الخاص بتاريخ أسبانيا ، نشره ليفى بروفنسال باسم تاريخ أسبانيا الاسلامية ، الرباط ، ١٩٣٤م •

● أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، نشره أحمد مختار العبادي ، و ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م •

● الاحاطة في أخبار غرناطة •

نشر الاستاذ محمد عبد الله عنان الاحاطة في أربعة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٧م •

— ابن خفاجة (أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح الاندلسي) ت : ٥٣٨هـ / ١١٤٣م •

● الديوان •

تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي ، القاهرة ، ١٩٦٠م •

— ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد) ت : ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م •

● العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المقدمة طبعة مصر بدون تاريخ ، وبقية الاجزاء طبعة بيروت ، ١٩٦٨م •

— ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) ت : ٦٨١هـ /
١٢٨٢م

● وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ،
بيروت •

— ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن) ت : ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م •

● المطرب من أشعار أهل المغرب •

تحقيق : ابراهيم الابيارى ، ودكتور حامد عبد المجيد ، ودكتور
أحمد أحمد العدوى ، القاهرة ، ١٩٥٥م •

— ابن أبي دينار (أبو عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرعيني
القيرواني) •

● المؤنس في تاريخ افريقية وتونس •

تونس ، ١٣٥٠هـ •

— الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن أبيك)

● كنز الدرر وجامع النغر

● «الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية» • تحقيق صلاح الدين

المتجد ، القاهرة ، ١٩٦١م •

— ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) ت : ٧٢٦هـ /
١٣٢٥م •

● الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ

مدينة فاس نسخة حجرية ، طبعة فاس ، ١٣٠٥ •

— ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ت : ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م •

• صلة الصلة •

• نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٨ م •

— الزركشى (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤى) من مؤرخى القرن التاسع الهجرى •

• تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية •

• تونس ١٢٨٩ هـ •

— الذهبى

• دول الاسلام ، طبعة حيدر آباد ١٣٦٥ هـ •

— الزيرى (الامير عبد الله بن بلكين)

• مذكرات الامير عبد الله اسماء بكتساب التبيان ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ م •

— ابن سعيد المغربى (على بن موسى) ت : ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م •

• المغرب فى حلى المغرب جزاءان تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ م •

— السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) ت : ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م •

• الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، نشر فى أربعة أجزاء ، القاهرة ، ١٨٩٤ م •

— الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت : ٥٥٩٩ / ١٢٠٣ م •

• بغية المتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس ، القاهرة ، ١٩٦٧ م •

— الطرطوشى (أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى) ت : ٥٥٢٠ / ١١٢٦ م •

• سراج الملوك ، القاهرة ، ١٢٨٩ م •

— ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبى)

• رسالة في القضاء والحسبة •

نشرها ليفى بروقنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب

الحسبة والمحتسب ، القاهرة ، ١٩٥٥ م •

— ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) كان حيا في

سنة ٥٧١٢ هـ •

• البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب •

أربعة أجزاء ، الأجزاء الثلاثة الاولى تحقيق كولان وليفى

بروقنسال ، والجزء الرابع خاص بتاريخ المرابطين نشر وتحقيق

احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٧ م •

— ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) ت : ١٠٨٩ / ١٦٨٠ م •

• شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ •

— ابن غالب الاندلسى (محمد بن أيوب الاندلسى) •

• فرحة الانفس في تاريخ الاندلس •

قطعة نشرها الدكتور لطفى عبد البديع في مجلة معهد

المخطوطات العربية ، المجلد الاول ، ج ٢ ، ١٩٥٥م .

— ابن القاضى (أحمد بن محمد بن أبى العافية المكناسى) .

● جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس .

نسخة في مجلد مطبوعة طبعة حجرية ، فاس ، ١٠٣٩ هـ .

— ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد الكتامى) ت ٥٦٢٨ / ١٢٣١م .

● نظم الجمان في أخبار الزمان .

نشر وتحقيق الدكتور محمود على مكى ، الرباط ، ١٩٦٤م .

— القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت : ٨٢١٠ / ١٤١٨م .

● صبح الاعشى في صناعة الانشا ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت .

— ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك التوزرى)

● تاريخ الاندلس ، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ،

تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات

الاسلامية بمديرى ، ١٩٦٥م .

— المالقى (أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن النباهى) ت : ٧٧٦ هـ

١٣٧٤م .

● تاريخ قضاة الاندلس أو المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء

والفتيا . نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

— المراكشى (عبد الواحد بن على) ت : ١٢٧٠م / ١٦٦٩هـ •

● المعجب فى تلخيص أخبار المغرب •

نشر الاستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ،
القاهرة ، ١٩٤٩م •

— المراكشى (ابن عبد الملك) ت : ١٣٠٤م / ١٧٠٣هـ •

● الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، نشر وتحقيق الدكتور
احسان عباس ، بيروت •

— المقرئ (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى)
ت : ١٠٤١هـ / ١٦٣١م •

● نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
بن الخطيب • تحقيق الاستاذ محبى الدين عبد الحميد ، القاهرة ،
١٩٤٩م •

● أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض •

تحقيق مصطفى السقا ، و ابراهيم الابيضارى ، وعبد الحفيظ
ثلبى ، القاهرة ، ١٩٣٩م •

— مؤلف مجهول •

● كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، لكاتب مراكشى من كتاب
القرن السادس الهجرى ، نشر وتحقيق الدكتور سعيد زغلول
عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨م •

— مؤلف مجهول

● الحطل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية •

عن بنشره السيد البشير الفورتى ، تونس ، ١٣٢٩ هـ •

— مؤلف مجهول •

● نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى منتخبة من

المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر •

نشره ، ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤م •

— النويرى (أحمد بن عبد الوهاب محمد بن عبد الدايم البكرى التميمى

القرشى) ت : ١٣٣٢ هـ •

● نهاية الارب في فنون الادب •

الجزء الثانى والعشرون مخطوط مصبور عن دار الكتب المصرية

تحت رقم ٥٩٥ / ١٩٥١م •

— ياقوت (شهاب الدين أبى عبد الله الحموى) •

● معجم البلدان ، طبعة ليبيزج ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧م •

ثانيا : المراجع العربية الحديثة

--- أشبنخ (يوسف)

تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد
عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨ •

— الأهواني (دكتور عبد العزيز)

الزجل في الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٧ م •

— بالباس (ليوبولد توريس)

الفن المرابطى والموحدى ، ترجمة الدكتور السيد مصطفى غازى ،
القاهرة ، ١٩٧١ •

— بانثيا (آنخل جنثالث)

تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ،
١٩٥٥ م •

— بروننس (ليفى)

الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز
سالم والاستاذ محمد دصالح الدين حلمى ، القاهرة ، ١٩٥٨ م •

— تشركوا (كنيليا سارنالى)

مجاهد العامرى قائد الاسطول العربى فى غربى البحر المتوسط فى
القرن الخامس الهجرى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٦١ م •

— حسن (دكتور زكى محمد)

فنون الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨م •

— حسن (دكتور حسن ابراهيم)

تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء
الرابع ، انطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٨م •

— دندش (عصمت)

دراسة حول رسائل أبى العربى والتي تسمى برحلة أبى بكر
ابن العربى •

مجلة المناهل ، العدد التاسع ، السنة الرابعة ، الرباط ، يوليو ١٩٧٧م

— الركابى (دكتور جودت)

فى الادب الاندلسى

الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦م •

— ريتسيتانو (امبرتو)

العلاقات بين النورمانيين وبنى زيرى من الفتح النورمندى لصقلية
حتى وفاة رودجيو الثانى (روجار) ٤٥٣٠ — ١٠٦١/٨٥٤٨ —
١١٥٤م •

مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، ج ١ ، ١٩٤٩

— سالم (دكتور السيد عبد العزيز)

● المساجد والقصور بالاندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩١ ، ١٩٥٨م

● كتاب الشعب ، عدد ٦١ ، ١٩٥٩م •

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٢م .
- المغرب الكبير (العصر الاسلامى) ، الاسكندرية ، ١٩٦٦م .
- التاريخ والمؤرخون العرب ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
- تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامى ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٦٩م .
- تاريخ مدينة المرية اسلامية قاعدة أسطول الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩م .
- قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، جزاءن ، بيروت ، ١٩٧١م /
- ١٩٧٢م .
- العمارة الاسلامية في الاندلس وتطورها ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الاول ، ١٩٧٧م .
- صور من المجتمع الاندلسى في عصر الخلافة الاموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العساج ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدير ، المجلد ١٩ ، ١٩٧٦ - ١٩٧٨م .

— ستانلى لين بول

العرب في أسبانيا

ترجمة على الجارم ، طبعة مصر ، ١٩٤٤م .

— الشكعة (د . مصطفى)

الادب الاندلسى ، موضوعاته وفنونه ، بيروت ، ١٩٧٢م .

— شعيرة (دكتور محمد عبد الهادى)

المرابطون « تاريخهم السياسى » ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

— شلجى (دكتور سعد اسماعيل)

• دراسات أدبية فى الشعر الاندلسى ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— الشىال (دكتور جمال الدين)

• اعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

• أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، سلسلة أعلام العرب ،

عدد ٧٤ ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

— الفاسى (علال)

• الخطط الشرعية « القضاء » .

• مجلة البيئة ، السنة الأولى ، العددان ٦ ، ٧ ، الرباط ١٩٦٢م .

— كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الاسلامية

« الامبراطورية الاسلامية وانحلالها »

• ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكي ، جزءان ، بيروت ، ١٩٤٩م .

— عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح)

• المدينة الاسلامية وأثرها فى الحضارة الاوربية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

— العبادى (دكتور أحمد مختار)

• دراسة حول كتاب الطل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية

وأهميته فى دراسة تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ،

العدد الخامس ، ١٩٦٠م .

• صور لحياة الحرب والجهاد فى المغرب والاندلس ، مجلة البيئة ،

السنة الاولى العدد التاسع ، ١٩٦٣م .

• الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة

الاسكندرية ، العدد الحادى والعشرين ، ١٩٦٧م •

• دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الطبعة الاولى ،

الاسكندرية ، ١٩٦٧م •

• فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٧٤م •

— عباس (دكتور احسان)

تاريخ الادب الاندلسى

• « عصر الطوائف والمرابطين » ، بيروت ، ١٩٧٤م •

— عبد الحميد (دكتور سعد زغول)

محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والاندلس ، محاضرة

ألقيت فى جامعة بيروت العربية ، ابريل ، ١٩٧٣م •

— عذان (الاستاذ محمد عبد الله)

• عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، القاهرة ،

١٩٦٤م •

• عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، القاهرة . ١٩٦٤م

— علام (عبد الله على)

الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على ، القاهرة ،

١٩٧١م •

— غومس (اميليو غرسية)

الشعر الاندلسى ، بحث فى تطوره وخصائصه ، ترجمة الدكتور

حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٢م •

— محمود (دكتور حسن أحمد)

قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرفة من تاريخ المغرب في العصور
الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

— مرزوق (دكتور محمد عبد العزيز)

الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت
بدون تاريخ .

— مكى (دكتور محمود على)

● وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد
الدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد السابع العددان ١ ، ٢ ،
١٩٥٩م .

● الزهرات المنشورة في نكت الاخبار الماثورة ، صحيفة معهد
الدراسات الإسلامية في مدريد ، العدد ٢٠ : ٧٩ / ١٩٨٠م .

— مورينو (مانويل غومس)

الفن الإسلامي في أسبانيا

ترجمة دكتور لطفي عبد البديع ، والدكتور السيد عيد العزيز سالم ،
مراجعة دكتور جمال محرز ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

— مؤنس (دكتور حسين)

● الثغر الأعلى الاندلسي في عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب
جامعة القاهرة ، المجلد الحادي عشر ، ج ٢ ، ١٩٤٩م .

● السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ،
المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٥٠م .

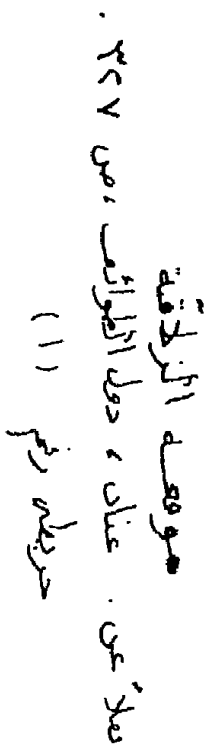
● سبع وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين ، صحيفة المعهد
المصري للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الثاني ، العددان
١ ، ٢ ، ١٩٥٤م .

- تاريخ الجغرافية والجغرافيون في الاندلس ، مدريد ، ١٩٦٧م .
- ميراندا (امبرسيو ويثى)
- وقعة اقليش ومصرع الامير ضون شانجة ، مجلة تطوان ، العدد الثاني ، ١٩٥٧م .
- على بن يوسف وأعماله في الاندلس ، مجلة تطوان ، العددان ٣ ، ٤ ، ١٩٥٨ / ١٩٥٩م .
- لويس (ارشيبالد)
- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

- Bermejo (Joaquin Vallve) : Suaut Al-Bargawati, rey de Ceuta, Al-Andalus, Vol, XXVIII, Fasc, 1, 1953.
- Codera (Francisco) : Decadencia Y Desaparicion de los Almoravides en Espana. Zaragza, 1899.
- Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, Three vols, leyde, 1932.
- Goldziher : Le livre de Mohamed ibn Toumert, Alger, 1903, introduction.
- Lafuente (M.) : Historia general de Espana, Barcelona, 1899.
- Lavoix (H.) : Catalogue de monnaies Musulmanes de la bibliotheque nationales de Paris. DCCCXI.
- Marcais (George) : Manuel d'art Musulman l'architecture, T, 1, Paris, 1926.
- ————— : La Berberie Musulmane et l'orient an moyen age, Paris, 1946.
- Miranda (Ambrasio Huici) : La invasion de los Almoravides y la Batalla de Zalaca. Hesperis, Annee, 1953, Tome, XL, Paris.
- Miranda, Los Luchos Del Cid Compeador con los Almora- vides y El enigma de Su Hijo Diego, Hesperis, Tamuda, vol, VI., 1965.
- ————— : Historia musulmana de Valencia y Su region. Three vols, Volencia, 1969-1970.
- Pereito y Vives (Antonio) : Los reyes de Taifas, estudio Historico Musulmanes Espanoles, en el Siglo V de la hegria, Madrid, 1926.

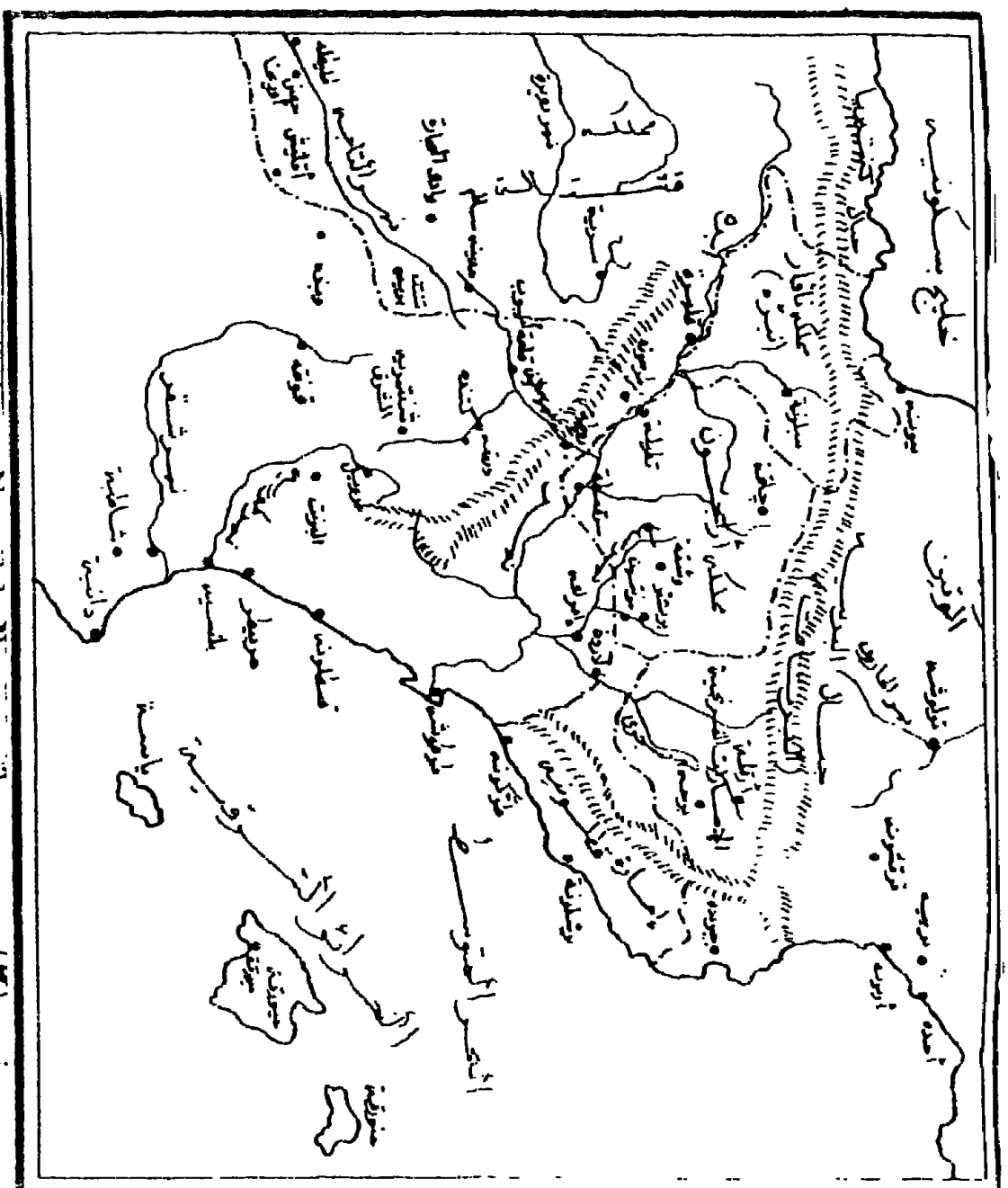
- Pidal (Ramon Menedez) : Espana del Cid, Madrid, 1947.
 - Roland Oliver, the Cambridge History of Africa, Vol, 3, London.
 - Terrasse (Henri) : Histoire du Maroc, T.1, Casablanca, 1949.
 - Trimingham, J.S. A History of Islam in West Africa, Oxford University, London, 1962.
 - Turk (Afif) : El reino de Zaragoza en el Siglo XI de Jesu Cristo (V de la Hegira), Madrid, 1978.
 - Codera, Des Y Des. de Los Almoravides, p. 16, F.J. Simonet : Mozarabes, Y Juaderios de los ciudades Hispanomusulmanas, Al Andalus, Vol; XIX, 1954, Fasc, I,
- J.A Conde, History of The dominion Arabes in Spain,
London, 1909.

خُرَاطُ الْكِتَابِ



٢٢٧ من ذى الحجة ١٢٧٠

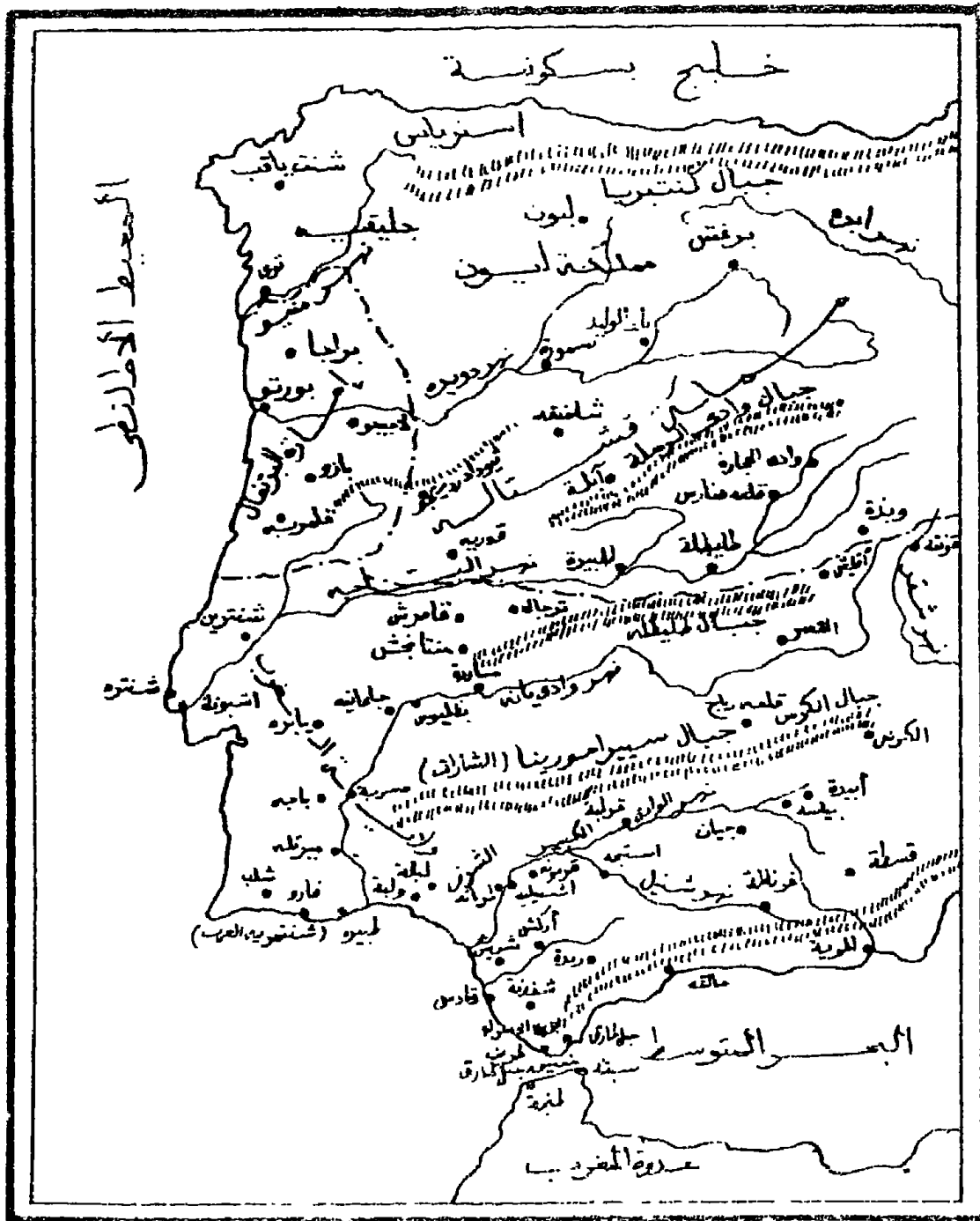
(1)



مواقع حروب الصليبيين والصليبيين في القرن الثاني عشر

حرفه رم (١٢)

حق حرقه أفرقة سنة ٥٢٨ هـ
ملا عن : عن عصر المماليك والمماليك من ٩



ويلاحظ رقم (٣) مواقع عسرات المراكمين التي قام بها
 على قشتالين
 في أراضي قشتالة والبرتغال
 تلاحظ : عن عصر المراكمين والموحدين ، ص ١٣٧ .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
التعريف بأهم مصادر البحث	١٨
الدراسة التمهيدية	٣٧
(أ) قيام دولة المرابطين في المغرب	٣٧
(ب) الوضع في الأندلس قبل تدخل المرابطين عسكريا ...	٥٠
(ج) الأندلس في أعقاب الزلافة	٦٠
(د) الأندلس في ظل يوسف بن تاشفين	٧٤

الباب الأول

الدراسة السياسية

الفصل الأول : أهم الأحداث الداخلية في المغرب والأندلس

(أ) الصراع بين المرابطين والموحدين	٨١
(ب) ثورة مدينة فاس	١٢٧
(ج) ثورة مدينة قرطبة عام ٥١٤ هـ	١٣٥

الفصل الثاني : العلاقات الخارجية

(أ) العلاقات بين دولة المرابطين والممالك المسيحية
في الأندلس

١ — مع مملكة قشتالة	١٥٣
---------------------------	-----

الموضوع	الصفحة
٢ — مع مملكة أرغون	١٨١
٣ — مع مملكة البرتغال	٢١١
٤ — مع مملكة قطالونية	٢١٥
(ب) العلاقات بين دولة المرابطين وبين الصنهاجيين في المغربين الأدنى والأوسط	
١ — مع بنى زيرى في المغرب الأدنى	٢١٩
٢ — مع بنى حماد في المغرب الأوسط	٢٢٧
(ج) العلاقات بين دولة المرابطين والخلافة العباسية ...	٢٣٣

الباب الثاني

والدراسة الحضارية

الفصل الأول : نظم الحكم والادارة

أولا : النظام الإدارى	٢٤٥
ثانيا : النظام القضائى	٢٨١
ثالثا : النظام الحربى	٢٩٣
رابعا : النظام المالى	٣١٥

الفصل الثانى

بعض مظاهر الحضارة فى عصر على بن يوسف

أولا : الحياة الاجتماعية	٣٢١
ثانيا : الحياة الاقتصادية	٣٤٧

الموضوع	الصفحة
ثالثا : أمثلة من الآثار المعمارية في المغرب والاندلس زمن	
على بن يوسف	٣٦١
رابعا : الحياة الادبية والعامة	٣٨٠
الخاتمة	٤١٣
قائمة المصادر والمراجع العربية والاوربية	٤٢١
الخرائط	

To: www.al-mostafa.com